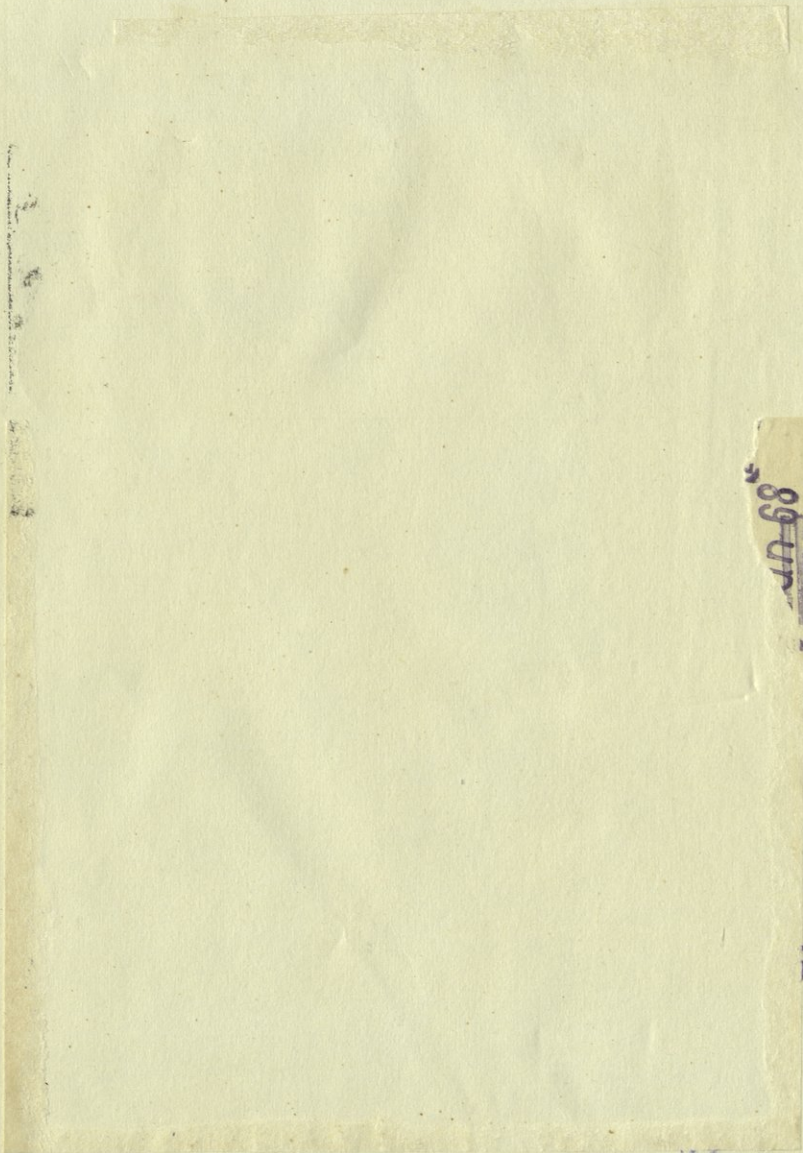
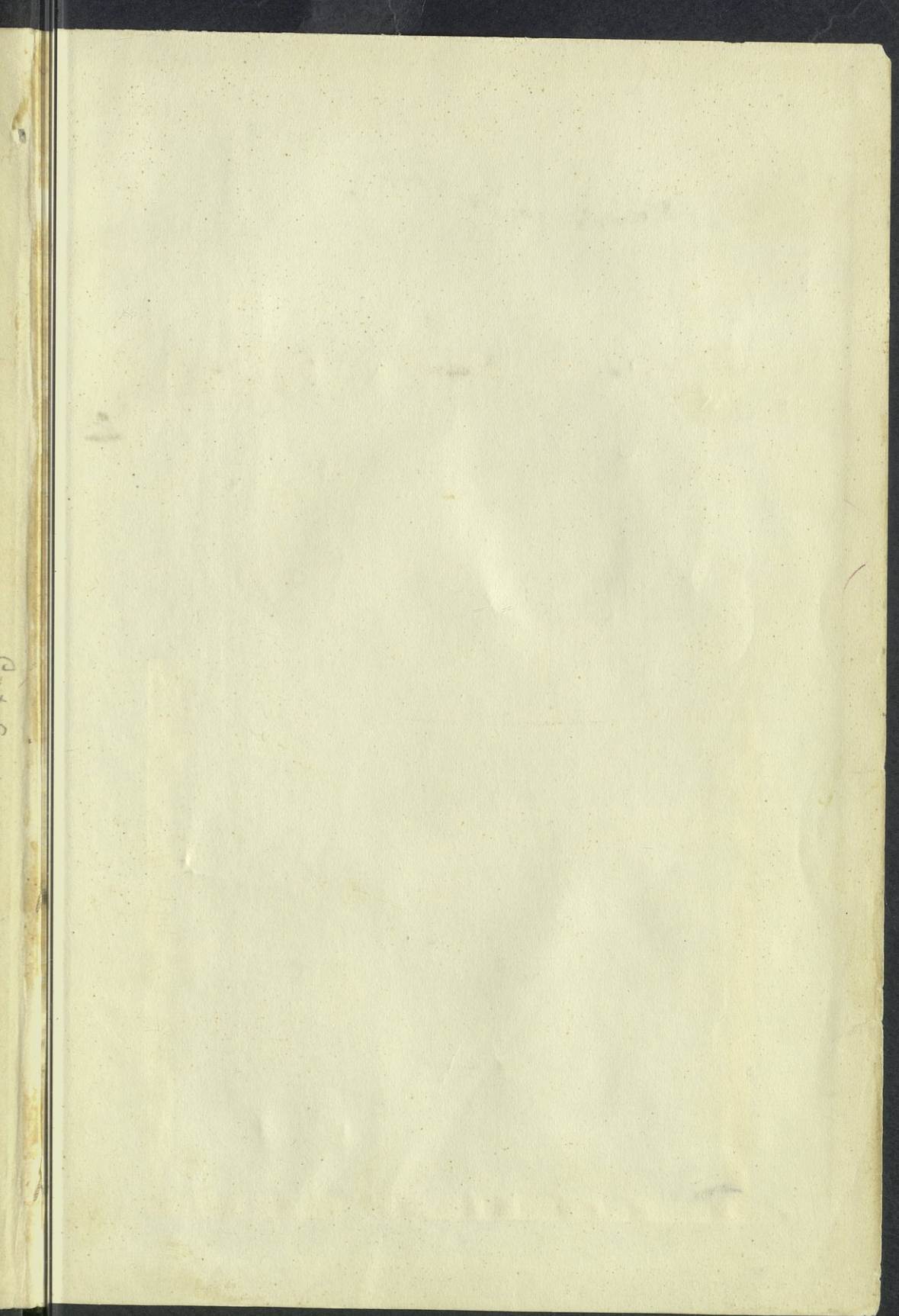


808.1
K511WA
v. 1



4768

68



K 511 w A

V. 1

C. 1

الوضف

فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ

تأليف

عبد العظیم علی قنای

مكتبة مصر الوطنية
شارع النجيلة
يوسف توما المتناظر
بصرى

البعض الأول

الوصف في العصر الجاهلي

69561

شركة فكم ووطع في الباني العالمى والاداره

١٠
 ١١
 ١٢
 ١٣
 ١٤
 ١٥
 ١٦
 ١٧
 ١٨
 ١٩
 ٢٠
 ٢١
 ٢٢
 ٢٣
 ٢٤
 ٢٥
 ٢٦
 ٢٧
 ٢٨
 ٢٩
 ٣٠
 ٣١
 ٣٢
 ٣٣
 ٣٤
 ٣٥
 ٣٦
 ٣٧
 ٣٨
 ٣٩
 ٤٠
 ٤١
 ٤٢
 ٤٣
 ٤٤
 ٤٥
 ٤٦
 ٤٧
 ٤٨
 ٤٩
 ٥٠
 ٥١
 ٥٢
 ٥٣
 ٥٤
 ٥٥
 ٥٦
 ٥٧
 ٥٨
 ٥٩
 ٦٠
 ٦١
 ٦٢
 ٦٣
 ٦٤
 ٦٥
 ٦٦
 ٦٧
 ٦٨
 ٦٩
 ٧٠
 ٧١
 ٧٢
 ٧٣
 ٧٤
 ٧٥
 ٧٦
 ٧٧
 ٧٨
 ٧٩
 ٨٠
 ٨١
 ٨٢
 ٨٣
 ٨٤
 ٨٥
 ٨٦
 ٨٧
 ٨٨
 ٨٩
 ٩٠
 ٩١
 ٩٢
 ٩٣
 ٩٤
 ٩٥
 ٩٦
 ٩٧
 ٩٨
 ٩٩
 ١٠٠

Cont. Sept. 1950

الطبعة الأولى

١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإهداء

إِلَى النَّهْضَةِ الْأَدَبِيَّةِ ، وَإِلَى الطُّمُوحِ الْعِلْمِيِّ

إِلَى مَنْ أَهْلَمَنِي الْإِسْهَامَ فِي عَرْضِ طُرْفٍ مِنْ
تُرَاثِنَا الْأَدَبِيِّ الْخَالِدِ ، وَإِلَى مَنْ أَوْلَانِي الْقُدْرَةَ عَلَى إِبْرَازِ
ذَلِكَ التُّرَاثِ شَائِقًا جَذَابًا فِي ثَوْبٍ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّقْدِ
رَائِقٍ رَائِعٍ .

إِلَى هَذَا وَذَلِكَ أُهْدِيَ ذَلِكَ الْكِتَابَ الَّذِي أَرْجُو
أَنْ يَأْخُذَ مَكَانَهُ مِنْ مَكْتَبَةِ الْأَدَبِ الرَّفِيعِ ، وَأَنْ
يَنَالَ عِنَايَةً وَتَقْدِيرًا مِنْ أَدْبَاءِ الْجِيلِ ، وَأَنْ يَكُونَ
بَاكُورَةً لِحُجَّةٍ أَدَبِيٍّ كَبِيرٍ ، أُقَدِّمُهُ لِلْأَدْبَاءِ وَالْمُتَأَدِّينَ
مِنْ أَبْنَاءِ الْعَرُوبَةِ الْأَمَائِلِ ، مُطْمَئِنًّا لَهُ ، مُعْتَرِضًا بِهِ ،
مُعْتَمِدًا عَلَى اللَّهِ فِيهِ .

المؤلف

المسجد

في سنة ١٢٠٠

بمدينة القاهرة

في عهد الخديوي

إسماعيل

بن علي

بن محمد

بن علي

بن محمد

بن علي

بن محمد

بن علي

بن محمد

بن علي

تقديم

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

وبعد : فهذا هو الجزء الأول من كتاب «الوصف في الشعر العربي» وهو كتاب تضم أجزاءه الأربعة التي ستصدر تباعا إن شاء الله فن الوصف ، ناظمة شتات هذا الفن ، جامعة أطرافه من العصر الجاهلي إلى هذا العصر ، فالجزء الأول يبحث الوصف في العصر الجاهلي ، ويناقش بعض نظريات الأدب نقاشا مدعوما بالحجة ، والثاني يبحث الوصف في العصر الإسلامي والأموي ، والثالث يبحث في العصر العباسي والأندلسي ، والرابع يبحث في العصر الحاضر . ولا أزعم أني سأستقصى كل ما قيل في الوصف ، فتلك غاية لا تبلغ ، على أن جدواها لا تتجاوز مرسومناه لأنفسنا من عرض صور كاملة لأجزاء هذا الفن ، ثم تحليل هذه الصور تحليلا دقيقا وافيا ، وبيان ما تنتظمه من اتفاق في النظرة أو اختلاف ، ورسم خطوط واضحة لما نراه فيها من طرافة وجدة وابتداع ، أو لما نلمحه فيها من تقليد ومحاكاة واتباع .

وإنما اخترت هذا الضرب من ضروب الشعر ؛ لأنه أغناها بعناصر الجمال ، وأحفلهما بأسباب الحسن ، ولأنه ينبعث حين تتفجر به قرائح الشعراء عن صادق الشعور ، ووحى الإحساس .

والحق أن الوصف هو الشعر ، وبقية الأبواب الأخرى على جلال بعضها ، وانصراف الشعراء إليها في بعض عصور الأدب تحيى تابعة له ، متفرعة عنه ، تابعة من منابه ، وإن بدا الأمر غير ذلك .

والشاعر الحق هو الذى يملكه مافى الكون من مناظر تبهر النواظر، فيستطيع وصفها، وتصوير أثرها فى نفسه، وهو الذى يبهه مافى الحياة من ظواهر تملك الحواس، فيستطيع رسمها، ووصف ما يخالج الأفكار عند مرآها، فهو يعبر عما لا يستطيع غيره التعبير عنه من وصف لمعنى من معانى الجمال، ولا يقف هذا التعبير عند ناحية بذاتها من نواحي الجمال، وإنما تختلف هذه المناحي، وتتعدد الزوايا التى ينظر منها الشعراء، فتتعدد عناصر الجمال.

يرى شاعر البدر فيصور استدارته فى القبة الزرقاء، ويصور آخر وضائه بين سواطع النجوم التى يذهب بسطوعها، ويصور ثالث أثره فى المحبين، وأنه عون العاذلين والرقباء، وفى كل من هذه الفكر حسن وروعة وجمال، يرضى عنه شاعر، ولا يرضى عنه آخر، وكلها يصف شعوره، فيجيد التعبير عن وصف ذلك الشعور.

وكما اشتد الشاعر تأثرا بهذا المنظر أو بذاك وجد عناصر الإجابة لديه مواتية مدانية، واستطاع أن يصوره على حقيقته دون مبالغة أو تزيد؛ لأن المبالغة يُلجأ إليها عند ما يريد الأديب أن يزيد على الحقيقة؛ ليلبسها ثوبا غير ثوبها، ويكسوها إهابا أضفى من إهابها، وهذا معناه أن نقضا يعتورها يريد أن يغطيه، ولكنه إذا أغمى ذلك المنظر حسه، وملا نفسه، تصوره كاملا لا يحتاج إلى تزيد أو مغالاة.

وبعد، فإن نهجنا فى هذا الكتاب نهج بديع لم نسبق إليه فى أى فن من فنون الشعر، ولم يعالجه أديب كما نعالجه نحن، ولم نقبسه من سوانا، ولا اعتمدنا فى أحكامنا على غيرنا من شيوخ الأدب، قد نتفق معهم؛ لأننا ننظر مثل نظرتهم، وقد نختلف معهم؛ لأن لنا رأيا نقيم الدليل على سداذه، ونسوق الحجة على صوابه، ولا يضيرنا الخلاف؛ بل إننا به نسعد، لأنه الرأى الحر.

نهجنا فى هذا الكتاب نهج شاق عنيف؛ لأنه جمع لهذا الفن من جميع مظانه، وتحليله من الأغراض الأخرى التى تتصل به، ثم تفسير مفردات النماذج حتى نزود القارئ بالزاد الذى يعينه على متابعة السير فى هذه الدارة التى لا يقدر على السير فيها إلا من تزود بذلك الزاد، ثم تحليل هذه النماذج تحليلا يكشف دقائق معانيها، وطرائف جزئياتها،

وإبراز محاسنها . ثم النظر في معاني هؤلاء الشعراء الذين اتفقوا في الموضوع ؛ لنبين عناصر الحسن ومعاني الجمال ، ولنحصى الطريف البديع ، ولننسب كل معنى إلى صاحبه ؛ إذا كان هذا المعنى طريفاً بديعاً ، وسبيلنا في هذا هو الترجمة الموجزة الوافية لكل شاعر ، ونسبته إلى إقليمه وقبيله ؛ ليظهر أثر هذين في اتجاهه وتفكيره ، وفي أسلوبه وألفاظه ، وفي حياته : بداوتها أو حضارتها .

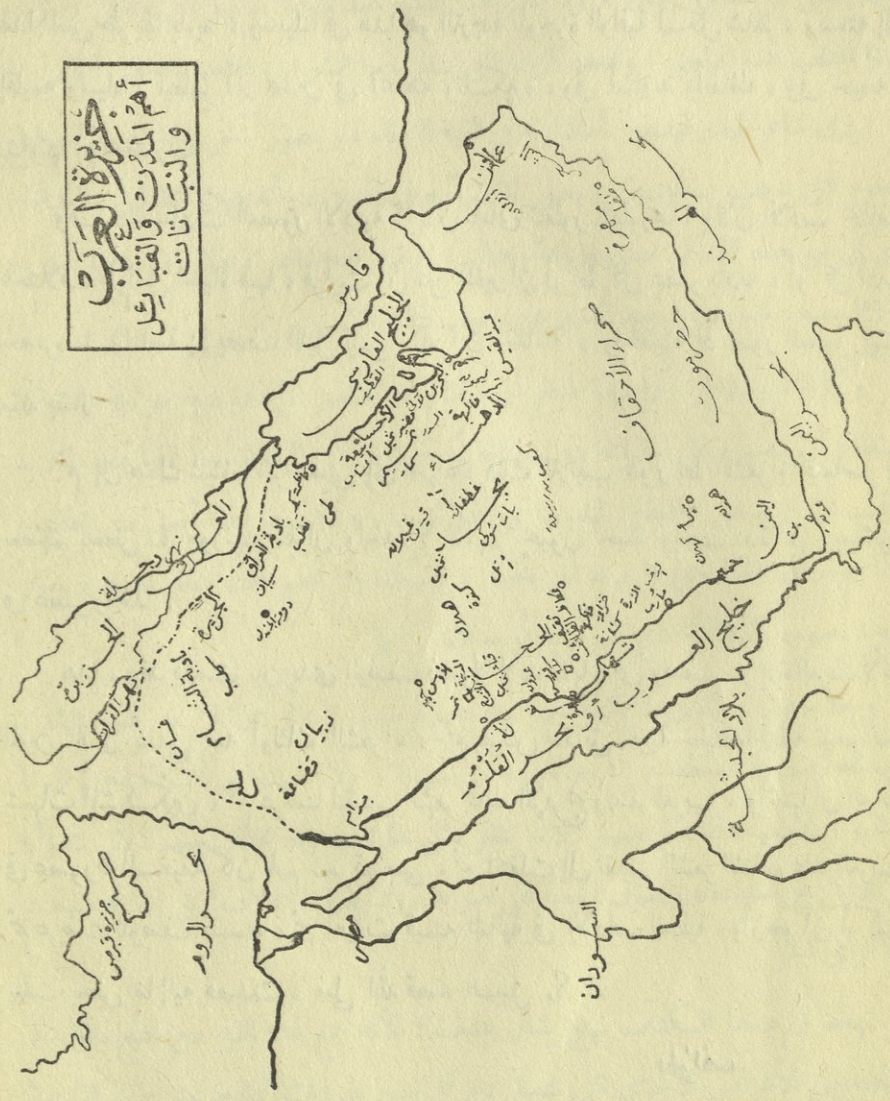
وقد سارت العصور الأدبية ؛ لأن المعاني تتطور بتطورها ؛ ولأن الأدب يختلف باختلاف عوامل الحياة فيها ، فرأيت أن من الخير أن أربط كل عصر بأدبه ، أو كل أدب بعصره ؛ فالنابغة إذ يصف الليل ليس مثله ابن خفاجة ، والخطيئة إذ يصور البخيل ليس مثله بشار .

ثم إن هناك شيئاً آخر دفعني إلى مراعاة ذلك الترتيب هو ربط الشعراء المتعاصرين بعضهم ببعض ، ووزنهم بميزان واحد ؛ لأنهم يحيون حياة واحدة ، ويعيشون في عصر واحد .

هذا ، وقد قدمت بين يدي الوصف فصلاً لا بد منها : هي وصف جزيرة العرب لأنها المعين الذي يستقي منه أولئك الشعراء ، ثم عرض حقائق أدبية جليتها تجلية تدفع عنها شبهات المشككين ، ثم عرضنا لتقسيم الشعر عند الإفرنج وعند العرب ، وأثبتنا أن العرب في عصورهم السحيقة كان لهم شعر قصصي ، ثم انتقلت إلى تقسيم الشعر الغنائي عند العرب ، ثم عرضت للوصف قسمته ، ثم أبرزت قيمته العالية في الآداب العالمية ، وأرجو أن أكون بلغت بعض ما إليه قصدت ، فعلى الله قصد السبيل ؟

المؤلف

أهم المدن والقبائل
والتبائن في الحرب



الفصل الأول

بلاد العرب

بلاد العرب أو الجزيرة العربية كما كان القدماء من أهلها يسمونها تقع في الجنوب الشرقي من القارة الآسيوية ، وهي تحد شمالا بالبحر الأبيض وجمال طرسوس ، وجنوبا ببحر اليمن ، وشرقا بالخليج الفارسي وبحر عمان ، وغربا بالبحر الأحمر .

وإذا كانت بلاد العرب تضم شعبا واحدا ، فإنها ليست ذات طبيعة واحدة ؛ إذ أنها تختلف اختلافا عظيما في كثير من الظواهر الطبيعية ، فهذا الجزء حار الجو ، وذاك قاريه ، وذلك بارده ، وهذا إقليم خصب غنى بأسباب الحياة ، وذاك جذب قاحل تبسط الصحارى عليه أجنتهما ، وغيرها ساحلى يشغل أهله بالغوص على اللؤلؤ والمرجان ، وعليهما يعتمدون في حياتهم .

واختلاف الظواهر الطبيعية في بلاد العرب جعلهم يختلفون طبائع وصناعات ومهن ؛ كما يختلفون حضارة وبداعة ، فهؤلاء هادئون إلى حد ، وأولئك ثأرون إلى غير حد ، وهؤلاء يصطنعون التجارة ، وأولئك يزاولون الزراعة ، وقد تجد منهم من له حظ من الصناعة ، وكل هذا التباين كان له أثره في أدبهم بوجه عام ، وفي شعرهم بوجه خاص .

لذلك كان لزاما علينا أن نتناول وصفها بالتفصيل ؛ حتى تكون الأحكام التي نصدرها على شعرهم قائمة على أساس من العلم قوى سليم .

ونستطيع أن نقسمها إلى سبعة أقسام هي أهم أقطارها في العصر القديم ، وأعظم أقاليمها في الأيام الأولى ، وإلى هذه الأقاليم ينتسب الشعراء جميعا ، وفيها الأماكن والعيون ، والجمال والصحارى ، والقرى والمدن التي ترد أسماؤها في أشعارهم ؛ كما أن فيها أسماء الحيوانات والنباتات التي تفيض بها أشعارهم في أوصافهم أو تشبيهاتهم « انظر المصور » .

وتلك الأقاليم هي : الحجاز ، واليمن ، وحضرموت ، وعمان ، والبحرين ،
والصحاري ، ونجد .

وأعظم هذه الأقسام في القديم والحديث الحجاز واليمن ونجد .

١ — فأما الحجاز فيقتبس مكانته الرفيعة ، ومنزلته السماء ، من قدسيته ومقامه الديني ؛
ففيه مكة المكرمة أم القرى ، وبها بيت الله الحرام الذي قام على بنائه نبيان كريمان :
إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام في واد ضيق ، وصفه الله سبحانه على لسان رسوله
إبراهيم داعياً صارعاً : « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ
الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ
الشَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .

وقد جعل الله سبحانه هذا البيت مجتمعا للحجيج ، وأما للائذين : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ
مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ
هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّمَرَاتِ ، مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، قَالَ وَمَنْ
كَفَرَ فَأَمَتُّهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ أَصِيرٌ . وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ
الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

وفيه يثرب التي سميت بعد الإسلام مدينة الرسول ، وهي حاضرة الإسلام في عهد
الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعهد خلفائه الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان .

وفيه الطائف ، وهي مدينة حصينة منيعة ، كانت مصيف السراة . قال النمرى يتحدث
عن فاطمة أخت الحجاج ، ويصفها بالرفاهية والنعماء :

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

وقد ضرب بمناعتها المثل ، فقال الشاعر :

٢ : منعنا أرضنا من كل حي كما امتنعت بطائفها ثقيف

وفيه خيبر ، وهي مدينة حصينة كذلك ، كان يسكنها اليهود قبل الإسلام ، ولقي

المسلمون من كيدهم وحربهم عنتا ، وهى على عكس الطائف ؛ إذ كانت وخمة الهواء ، كثيرة الوباء ، قال الشاعر :

٣ : وقتت بها أبكى ، وأشعر سخنة كما اعتاد محموا بخير صالب

والحجاز كما ترى يختلف فى هوائه ، ويتباين فى جوه ؛ فمكة مشق لأن جوها أميل إلى الحرارة ، والطائف مصيف ؛ لأن جوه جميل ، وهواءه عليل ، وخير وبيئة وخيمة . ويعيش أهله على بعض ما يزرعون وما يستوردون من الأقاليم الأخرى ، وشرابهم من العيون المنبقة ، والسيول المنهرة ، ومن حيوانه الخيل الكرائم ، والإبل الهجان ، ومن وحوشه الغزلان والذئاب ، والأسود والضباع ، ومن طيوره العقبان والغربان ، والنعام والحمام . ومن زروعه النخيل والأعناب .

٢ — أما اليمن فيستمد مجده من عظمتها الثالثة ، ويقتبس عظمتها من مجده الخالد ، فقد كان مقرا للملك عظيم ، وموطنا لسلطان كبير ، وعاصمته صنعاء ، وكان فى ظاهرها قصر غمدان ، ومن مدنها ظفار التى اتخذها بعض ملوك حمير حاضرة لدولته ، ومن مرافئها عدن ، كانت — ولا تزال — من أهم الموانئ على المحيط الهندى .

وهذا الإقليم ينقسم طبيعيا إلى ثلاثة أقسام :

(١) السهل الساحلى ويعرف بتهامة .

(ب) المرتفعات الجبلية ، وهى موازية للساحل . (ح) الصحراء الشرقية .

وستقرأ فى الفصل الثالث من هذا الكتاب الكثير من مظاهر مجد اليمن وعزته فى العصور الجاهلية الأولى .

٣ — وفى الجنوب الشرقى لليمن إقليم حضرموت ، وكان فى العصور الأولى إقليما قويا ذا مملكة عظيمة ، بلغ من قوته أن حاصر ملكه مملكة سبأ ، فارتفع نجم ذلك الإقليم ، وكان ذا صلات تجارية مع جاراته .

٤ — وعمان فى الجنوب الشرقى لحضرموت ، وهى ذات ساحل طويل على الخليج الفارسى ، ويستمد أهلها ثروتهم من الفوص على الآلى واستخراجها ، والتجارة فيها .

٥ — وإقليم البحرين ، ويمتد من عمان إلى حدود العراق ، ومن بلاده حجر وقطر ، وأهله كأهل عمان يغوصون على اللآلى ، ثم يتجرون فيها .

وجوّه الساحلى معتدل جميل الهواء ، أما الجزء الداخلى فخار ، ومن محصولاته البلج والتمر ؛ حتى ضرب المثل بهجر فى جودة التمر ، فقيل « كناقل التمر إلى حجر » والبن والحبوب والفواكه ، ومن حيوانه الخيل والإبل والبقر ، والحير والبغال ، ومن وحوشه الأسود والذئاب والضباع ، والزراف والقروء ، والنعام .

٦ — أما وسط الجزيرة فصحارى مترامية الأطراف ، لا يكاد النظر يدرك نهاياتها ، ولا يوشك الطرف أن يبلغ غاياتها ، يجرى فيها السراب ، جريان الماء فى الأنهار ، وتظهر فيها الوحوش الكاسرة ظهور الحيوانات الآنسة فى الحقول الناضرة .

فمن هذه الصحارى : « صحراء الدهناء ، والنفود ، والأحفاف » وبعض أجزاء هذه الصحارى خصب ، وإن تكن رملية ، فإنها تصير بسقوط الأمطار من أجود المراعى ، وليست التربة فى الدهناء والنفود متجانسة ، فهناك بعض جهات لا يرى فيها غير آكام الرمال ؛ تكاد تبتلع السابلة لنعمتها وعدم تماسكها ، فيتجنبها الجوابون ابتغاء السلامة لأرواحهم وأرزاقهم .

وتتألف فى بعض أجزائها دارات يكثر فيها النخيل ، كما أن بها مناطق خصبة كجبل شمر فى جنوب النفود ، إذ تنحدر إليه المياه من جبل طي « أجا وسلمى » الممتدين من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، وهذه الصحارى فى الشعر العربى ، وفى الوصف بالذات الأثر العظيم .

٧ — أما نجد فيقع فى الشمال لهذه الصحارى ، وهو قطر خصب ، والمناطق الخصبة منه تطوقها الدهناء شرقا وجنوبا ، كما تطوقه النفود من الشمال ، وتتسع المنطقة الخصبة على الجانب الشاطئ للبحر الأحمر .

وحاضرة نجد الآن هى « الرياض » وتقع فى إيالة العارض ، وهى المعروفة قديما بالجو . والعروض واليامة ، وتقع بين سدير شمالا ، والخرق والحريق جنوبا .

ومن مدن نجد الصغيرة الآن اليمامة ، وتقع على مجرى عين فرزان ، وكانت قديما تطلق على منطقة واسعة .

وقد تغنى الشعراء قديما بجو نجد ، وبجمال هوائها ، حتى من لم يسكن نجدا ، ولا عرف جوها ، ولا استنشق هوائها ، وليس كل الإقليم معتدل الهواء ، لكنه يختلف باختلاف المنطقة ، فالخريق ووادي الدواسر حاران مثلا .

و بنجد من الحيوان الحبارى والنعام ، وابن آوى وبقر الوحش وحماره .
ويطول بنا مجال القول لو حاولنا حصر جميع البلاد التى ورد ذكرها فى الشعر العربى ، على أننا سنحدد فى تفسير الأبيات كل مدينة ، أو قرية ، أو جبل ، أو برقة ، أو عين ترد فيما تقدمه من نماذج ، وحسبنا هذا الذى قدمناه فى تخطيط جزيرة العرب .

جو بلاد العرب وأثره فى شعرهم

هذا العرض الموجز لأهم أجزاء بلاد العرب ، ولطبيعتها يهين لنا أن نحكم حكما صالحا مبسوطا على جوها ، فجوها له أثر عظيم فى شاعرية أهلها ، فهى فى أكبر مناطقها قارية الجو ، ماعدا بعض المناطق الساحلية ، وقد أجلنا ذلك قبل ، فنفصل هنا هذا الإجمال :

١ — تظهر الحرارة المنطوية على « الرطوبة » فى السهول الساحلية ، وبخاصة فى نهاية بلاد اليمن وإمارة البحرين ، ومن القبائل التى كانت تسكنها بكر وأسد وتميم وأزد وغيرها .

٢ — تشتد الحرارة الخالصة فى الوهاد التى تتوسط الجزيرة ، وفى الوديان الواطئة ، ويعتدل الهواء فى المرتفعات والنجاد .

ومن القبائل التى كانت تسكن هذه الأقاليم : بنو حنيفة وبنو قشير ، وجمدة و يربوع وغير وكلاب ، وغيرها .

٣ — ويتميز البحر الأحمر بجوه الحار ، فيمد الأقاليم المتاخمة له بالدفع فى الشتاء ، وياطف من رمضاء الصحارى التى على شاطئيه صيفا .

٤ - ونجد - كما قدمنا - من أجل بلاد العرب جوا ، لذلك تغنى بصباها الشعراء ،
وقالوا عنها : إنها تهب من مطلع الشمس ، كما قال ابن الدميثة :

ألا يا صبا نجد متى هبت من نجد ؟ لقد زادنى مسراك وجدا على وجد
وتقابل هذه الريح الجميلة ريح الدبور ، وهى تهب من مغرب الشمس ، ومن ذكر
الأعشى لها واصفا مسير ناقته قوله :

لها زجل كخفيف الحصا صادف بالليل ريحا دبورا
وقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فى حديث ، فقال : « نصرت بالصبا ،
وأهلك عاد بالدبور » وما زال الشعراء يتحدثون بعراها ، ويلهجون بريها ، فيقول قائلهم :

تمتع من شمس عرار نجد فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد ورياروضه بعد القطار
وقال غيره :

قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى وقلّ لنجد عندنا أن يودعا
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا وما أحسن المصطاف والمترعا !
ولم تكن بلادهم تجرى من تحتها الأنهار ، أو تسعد جميع أقسامها بالمطار ، فأحبوا
المطر وعشقوه ، فجعلوا منه دعاء لأحبابهم ، وأمانى لأعزائهم ، بل دعوا بالسقيا للأيام ،
وقلدتهم شعراء الأنهار من طرقيهم ؛ والماء بعض سبلهم ، قال ابن زيدون الأندلسى :

ليسق عهدهم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رايحينا
وقال أحمد بك شوقي :

١١ : سقيا لهد كأ كفاف الربا رفة أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا

ولفقرهم إلى الماء ، كانت غلاتهم محدودة ، ومحصولاتهم محصورة ، فلا تكاد تجد
من هذه الفلات غير ما قدمنا شيئا ، والذى قدمناه لا يستغنى به شعب ، لذلك كانت لهم
رحلتان تجاريتان : إحداها إلى اليمن زمن الشتاء ، والأخرى إلى الشام زمن الصيف ،
وكانهم بهاتين الرحلتين كانوا يتقون الأجواء عند اجتلاب الأرزاق .

تقسيم القبائل العربية على أجزاء بلاد العرب

- ١ - كانت قبيلة قريش « واسمه فهر » تسكن مكة ، وقد تفرع إلى بطون كثيرة ، منها : الحارث ، ومحارب ، وتيم ، وعامر ، وخزيمة ، وسعد ، وعدى ، ومخزوم ؛ وكانت لقريش و بطونها الزعامة الدينية في العصر الجاهلي ، ثم ثبتت ببعثة الرسول الكريم من قريش ، وبسط في رقعتها ، فجعلها تشمل العالم الإنساني .
- ٢ - وكانت قبيلة ثقيف وهي حي من هوازن تسكن الطائف ، ولها به حصانة ومناعة ، وغنى و ثروة ، وكان يسكن الطائف مع ثقيف بنو عدوان وبنو الحارث و بنو سعيد .
- ٣ - وكانت المدينة وطنا لقبيلتي الأوس والخزرج القحطانيتين ، وهما على ما بينهما من صلات الرحم كانتا متعاديتين ، فالعداوة مستحكمة ، والحرب بينهما متصلة ؛ حتى ألف الله بين قلوبهم بالإسلام .
- ٤ - وكانت هذيل تسكن جبالا بين مكة والطائف ، وقد اشتهر الهذليون بشعرهم الرقيق ، ونسيبهم العذب الجميل .
- ٥ - وعذرة إحدى القبائل الحميرية النازحة إلى بادية الحجاز ، وقد اشتهر أبناؤها بالغزل العفيف ، وفتياتها بالجمال الرائع .
- ٦ - وكان يسكن اليمن أبناء قحطان ، وهؤلاء كان لهم فرعان : فرع كهلان وفرع حمير ، وقد تعددت رحلات أولئك وهؤلاء ؛ حتى سكن بعض القحطانيين من أبناء كهلان الحجاز ، كالأوس والخزرج ؛ ومن فروع كهلان : طيء ونلجم وجذام ومراد وكندة وهمدان ومذحج والأزد .
- ٧ - وكان يسكن حضرموت بطون من كندة تسمى تجيب ، وفي حدودها من الشمال الأحقاف ، وكانت مسكنا لعاد قوم هود عليه السلام .
- ٨ - وكان يسكن عمان بعض قوم طيء ، ومن أشهرهم بنو نبهان ، كما كان يسكن البحرين قبائل من تميم ، وهم عدنانيون مضر يون .

أثر البيئة في الشعر العربي

البيئة أعظم العوامل المؤثرة في الأدب ، بل هي في واقع أمرها ، وقوة وقعها تعتبر الخالقة لبعض فنونه ، المكونة لأكثر عناصره ، فإنها تخلع عليه جميع ألوانها ، وتهب له كل مظاهرها ، (بل هي تحرمه ما حرمته ؛ وتمنعه ما منعتته) ؛ ليس ذلك شأنها مع الأديب أو مع الإنسان فحسب ؛ بل هو شأنها مع الحيوان ؛ فالحيوان يتلون بلون بيئته التي يعيش فيها ؛ ويتكون بتكوينها ؛ فيبدو مثلاً أصفر اللون ؛ صلب الأعضاء ؛ ضامر الجسم ؛ شرس الطبع ؛ إذا كان يعيش في الصحراء ؛ فهي التي خلعت عليه صفة رملها ؛ وصلابة صخرها ؛ وقلة الغذاء فيها ؛ طعاماً وشرباً جعلته ضامر الجسم ؛ وقلة الخلاط بها جعلته شرس الطبع ؛ فإذا تركت الصحراء إلى إقليم ساحلي خصب وجدت لونا أبيض ؛ وجسماً رياناً ممتلئاً ؛ وطبعاً ليناً هادئاً ؛ وإذا كان هذا هو تأثير البيئة في الحيوان ؛ فما بالنا بتأثيرها في الإنسان ؟

إنها تطبعه بطابعها ، وتسمه بسمتها ؛ فالرجل الذي يعيش في الصحراء يألف مناظرها ؛ ويأنس إلى كواصرها ، وقد يشق بعض حيوانها ، فيتخذ منها أصدقاءه ، يستدنيها بصوته الذي يشبه أصواتها ، ويتألفها بلونه الذي يقارب ألوانها ، ويمجد فيها سلوكاته ، ويلقى فيها هويته :

١٢ : عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكادت أظير
لذلك نجد الشعراء الذين يعيشون في الصحارى أجزل لفظاً ، وأوضح معنى ، جزالة ألفاظهم قوامها جهم لسكل صلب ، وشغفهم بكل غليظ ، ووضاعة معانيهم أساسها تلك السماء الصافية التي منحت قلوبهم صفاءها ، وأخيلتهم بساطتها ، فإذا جاوزت الصحراء إلى إقليم حضري يكسو الخصب حقوله ثياباً من الأشجار الباسقة ، والأزهار الناضرة والأثمار البانعة رأيت في ألفاظهم رقة ، وفي معانيهم خيلاً مركباً ، فمن ذلك الذي يستطيع أن يحكم أن هذه الأبيات لشاعر جاهل دون أن يكون عالماً ذلك من قبل ؟

قال المنخل الشكرى نديم النعمان وسميره ، والنعمان كان ملكا على الخيرة من
قبل الفرس :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في يوم مطير
الكعب الحسناء تر فل في الدمقس وفي الحرير
فدفعتها فدافعت مشى القطة إلى الفدير
ولثمها فتنفست كتنفس الظبي الغرير

إن الحضارة التي كان يحيا فيها ، والبيئة التي عاش بها هي التي رقت شعره ؛ حتى
لكأنه الماء القراح سلاسة وعدوبة ، وهي التي أوحى إليه بتلك المعاني الرائعة الغزلة ، ثم من
يحكم بعد ذلك بأن قائل الأبيات السابقة كان يعيش في عصر واحد مع قائل هذه الأبيات ؟

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل
تصد وتبدي عن أسيل وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطلق
وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل
وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعشك
غداثه مستشزرات إلى العلا تضل العقاص في مثني ومرسل

: ٢١

إنه ستشتد غرابته حين يعلم أن قائل هذه الأبيات ملك ابن ملك ، ولكنه سيزول
عجبه حين يعلم أن البيئة التي عاش فيها كل منهما هي الموحية إليه بألفاظه ومعانيه .

الفصل الثاني

حقائق أدبية

شاعرية الأسم :

الشعر في جميع الآداب العالمية هو سفير الشعور ، ورسول الوجدان ، وترجمان العاطفة ، ذلك شأنه في جميع الشعوب ، لا ينفرد بهذا شعب دون شعب ، ولا تتميز به أمة دون أمة ، وإنما تتفاضل الشعوب بمقادير ما وهب لها من رقة في العاطفة ، وتوفز في الحس ، وتمايز كذلك بتيقظ الوجدان ، وانفساح الخيال ، فتى وهب الله للأمة من هذه المعاني قسطا أوفر بلغت في الشاعرية درجة أعلى ، وإذن فمن الغلو في التعبير أن نقول :
« في الأم الشاعرة وغير الشاعرة ، والمطبوعة على الفن والآخذة فيه بضروب المحاكاة والتقليد » .

وإنما القصد في التعبير أن نقول : في الأم من أوتيت استعداداً طبيعياً للشاعرية على مدى واسع ، ومن أوتيت من هذا الاستعداد حظاً ضئيلاً ، لا يقوم بشيء إلى جانب تلك ، ومن هنا تفاوتت القوى الأدبية بين الأمم ، واختلفت المعايير ، فرجحت في هذا الشعب ، وشالت في ذاك ، وكانت بينَ بينَ في ثالثهما .

وهذا ملحوظ مشاهد في القديم والحديث ، فإننا لانستطيع أن نحكم على شعب بموت الحس ، وخنود العاطفة ، فلكل الأم فنون ، الشعرُ أحدها ، كان للأمة الرومانية أدب وشعر ، ولا ينفي هذا الكون أنه أقل من الأدب اليوناني والشعر اليوناني درجة ، وما يقال عن الرومان يقال عن الفرس ، ويحكم به على غير الرومان والفرس .

اضمنوف مري الشاعرية في الشعب الواحد :

بل قد يختلف الشعب الواحد في مدى استعداده الطبيعي ، وتهيبته الفطري ، ولعل

أبناء جنوب مصر أوفر استعداداً للشاعرية من أهل شماله ، وإن كانا جميعاً ذوي استعداد ،
يبدو لنا هذا في غير المثقفين من أبناء الوادى ، إذ تكثر الأغاني الشعبية فى صعيد مصر ،
وتقل فى دالها ، وهذا الغناء الشعبى هو اللبنة الأولى فى الأدب الرفيع ، والفن الجميل .
وهذا هو الشأن فى الأمة العربية ، فإننا نرى القحطانيين أقل حظاً فى نظم الشعر
وإنشائه من المدنانيين ، وأولئك الذين نبغوا فيه منهم لم ينبغوا إلا فى أحضان المدنانيين ،
وبين أبنائهم .

أثر البيئة فى الاستعداد الطبيعى :

والاستعداد الطبيعى - فيما نرى - أثر من آثار البيئة فى الشعوب ، وعنصر من عناصر
تأثير الأجواء والأحياء ، يعلو على جميع الآثار ، ويسمو على كل العناصر ذات الأثر فى رقى
الشعر بخاصة ، والأدب بعامة ، وفى انحطاطه ؛ فالفطرة الإنسانية من أقوى مكوّناتها الجو
الذى يحيا فيه صاحبها ، والطبيعة الجغرافية التى تخلق ذلك الجو .

وعلى أىّ فالإنسان ابن بيئته ، وهو فى بداءته وبدأوته أسير عاطفته ، تبسط عليه ظلمها ،
وتنشر فوقه لواءها ، تتحكم فيه فيثور ويفور ، أو يسكن ويهدأ ، وينبسط وينشرح ،
أو ينقبض وينكمش ، يفعل ذلك للتوفاه من الأمور ، والصغائر من الشئون ، فكم من
كلمة عابرة أثارت حرباً ضروساً ، وكم من نظرة عابثة استولت على قلب جادٍ صارم .

شأن الإنسان فى فطرته وسداجته كشأن الطفل فى نشأته وطفولته سواء بسواء ،
ولم لا ؟ إنه فى معرفة كنهه الحياة ، والبصر بأحوالها ، والنظر فى أسرارها ومعانيها ما يزال
طفلاً ، وإن جاوز طور الكهولة ، بل وإن بلغ مرحلة الشيخوخة .

فإذا ما أخذ من الحضارة بعوامل التفكير والتأمل ، والتقليد والحاكاة بدأ يحكم عقله
فى بعض الأمور ، ويرسل فكره وراء القليل من الشئون ، وهكذا يتدرج فى التأمل
والتدبر ، حتى يصل إلى مستوى من المدنية والحضارة يتيح له أن يبتكر وينشئ ، وأن
يتخذ من هذا الذى يبتكره وينشئه أسباباً للكتابة .

اعتماد النثر على العقل :

يصبح العقل حينئذ المهادى إلى الإنشاء والاختراع ، وعليه يعتمد النثر فى تسجيل ما ينشئ ، فى حين ينبعث الشعر كما قدمنا من نبعة بعيدة كل البعد عن هذه السبيل ، تلك النبعة هى العاطفة ، وهى الشعور .

ولذلك نجد الشعر الفلسفى أو المعتمد على المنطق متأخرا فى نشأته عن الشعر العاطفى ، لأنه يتخذ العقل رائداً له ، ولا يعول على العقل ذلك التعويل إلا الشعب المتمدين ، انظر إلى الشعر الجاهلى تجده خاليا من المعانى الفلسفية ومن النظرات العميقة ؛ إلا للقليل من الشعراء الذين نظروا فى الكون ، وتأملوا فى الوجود ، فجاءوا بمعان لا يقيم لها وزن إذا قيست إلى معانى شاعر عاش فى حضارة ، هى إحدى آثار العقول والأفكار .

سبب الشعر للنثر :

وعلى هذا نقول : إن الشعر يسبق النثر فى الوجود سبق تحكم العاطفة فى الإنسان دون العقل ؛ ونحن لا نقصد بالشعر الشعر الكامل فى جميع عناصره ، وإنما نقصد المحاولات الأولى لقوله ، دون نظر إلى نشأته وطريقة هذه النشأة فيما عدا أنه مصور للعواطف ، معبر عن الإحساسات ، مثير للذة تقدير الجمال .

وإذا كان قد ورد عن العرب غير هذا فلأنهم عَنُوا بالنثر نحواً غير الذى نعينه نحن الآن ، عَنُوا به نثر الحديث فى شئون الحياة الهينة التى لا يحتاج المتحدث فيها إلى إعمال الفكر ، وإمعان النظر ، أليس هذا هو ما يدل عليه قول قائلهم :

« وكان الكلام كله منشورا ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأبحار ، وسمحاتها الأجواد ؛ لتمتد نفوسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهوا أعاريض ، فعملوها موازين للكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لأنهم شعروا به » .

ف فوق أن فى هذا التصوير وهما كثيرا ؛ إذ ظنوا علم الأوزان سابقا لقول الشعر ، فإنهم

لم يقصدوا إلى النثر الفنى ، وإنما قصدوا إلى النثر الخطابى الذى يتناول مختلف شئون الحياة اليومية من بيع وشراء ، وطعام وشراب ، وصيد ورعى ، ونوم ويقظة ؛ إلى غير هذه الأمور التى تقوم عليها الحياة الإنسانية الساذجة .

أما النثر الفنى الذى يعبرون به عن رأى خطير ، أو يرمون من ورائه إلى أمر عظيم ، أو يعبرون به عن فكرة عميقة يعمدون إلى تصويرها به ؛ لتقتنع بها العقول ، وتؤمن بها الأفكار ، فهم يريدون فرض الرأى ، أو الإقناع بالفكرة ، فلم يسعدوا بالوصول إليه .

وها نحن أولاء نرى فى ريفنا شعراء ، لا ينقص شعرهم خيال ، ولا تعوزه عاطفة ، ولا يحتاج إلى حسن تصور ، وإنما ينقصه اللفظ الصحيح ، ويعوزه الميزان السليم ، ويحتاج إلى دقة التصوير ، وليس كل ذلك بسالب إياه معنى الشاعرية ، فعذر أنه ينطق هذه اللغة ، ولو عرف غيرها لنطق بها ، وأن موازينه وإن لم تكن سليمة فهى أقرب إلى السلامة ، ودقة تصويره طريقها التأمل والتأنق ، وكمن الشعراء المطبوعين تنقصهم دقة التصوير .

الشعر بذرة النثر الجاهلى :

والنثر الفنى الجاهلى الذى يثير اللذة ، ويبعث على الإعجاب نادر ، وهو فى مقداره إذا قيس إلى الشعر ليس شيئاً مذكوراً ، وإذا نظرنا إليه على اعتبار أنه معبر عن العقل لم نجد له وجوداً ، وإذا أغفلنا ناحية الوزن حق لنا أن نقول : إن الشعر هو البذرة الأولى للنثر ؛ لأنه كلاً أوجله خطب ، والخطب قوامها العاطفة ؛ على أنها فيما نعتقد قليلة لا تكاد تذكر ، وما وصل إلينا من النثر غير الخطب لا يعدو أن يكون حكماً متفرقة ، أو أمثالا منتثرة أملت مناسباتها ، وخلقتها أسبابها ، يعتورها من الشك فى نسبتها إلى قائلها ما يعتور الخطب والقصص .

ألمة للمضريين شراراً ؟

إني أخالف جمهرة من زعماء الأدب يرون : « أن تاريخ الأدب العربي يدل على أن قد كان للمضريين نثر ما ، بل يدل على أن قد كان لهم قبل الإسلام نثر وصل إلى حد الرقي لا بأس به » فإن النثر يحتاج - أول ما يحتاج - إلى الحضارة ، ومن مظاهرها الكتابة ، وقل فيهم الكاتب ، أو قل انعدم فيهم الكاتب ، ولم تكن لهم حضارة تستأهل استخدام العقل في تصوير مظاهرها ، أو وصف آثارها ، وإن تكن فقد كانت تصور شعراً لسهولته ، وجمال نغمه ، وإذا قلنا مع أولئك القائلين : إن العرب كان لهم في الجاهلية نثر فني ، فإننا سنفتقرض أنه نثر عاطفي ، وهو ما تنفق على تسميته في العصور الأدبية المتأخرة بالشعر المنشور .

نزول القرآن نثراً :

فإذا قيل : لماذا إذن نزل القرآن نثراً ولم ينزل شعراً ليكون التحدى به أقوى ؟ قلنا : إنه جاء نثراً ليكون التحدى أقوى وأقوى ، فدرجة النثر أقل من درجة الشعر عندهم ، فإذا جاء نثر أقوى من الشعر كان ذلك برهاناً قوياً على أنه أرق من أي نثر آخر .

وحينما وصف العرب القرآن الكريم بأنه شعر ، ووصفوا الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه شاعر كانوا على يقين بأن القرآن ليس شعراً ، وبأن الرسول ليس شاعراً ، فليست للقرآن سمة واحدة من سمات الشعر ليست له معانيه القائمة على الخيال المحض ؛ وليست له أغراضه المتعارفة بينهم ؛ وليست له أوزانه المرسومة عندهم ، فالقرآن لا يشارك الشعر في غير اللفظ ؛ وهي شركة محتمة في كل كلام .

ولم يقل الرسول - وقد عاش بين ظهرانيهم ؛ وعرفوا جميع أطوار حياته كل المعرفة - بيتاً من الشعر ، وإن جاء بعض كلامه منظوماً كالذي روى عنه :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وإنما ادعوا هذه الدعوى ؛ لأنه أرق من النثر ، فيجوز أن يعد من الشعر ، أو يجب ألا يعتبر من النثر .

التوسع في معنى الشعر :

وإذا صح لنا أن تتوسع في معنى الشعر ولم نقيده بما قيده به العرب من أنه الكلام الموزون الملقى ، وجعلناه الكلام المنبعث عن العاطفة ، والذي يقصد به صاحبه إثارة لذة السامع استطعنا أن نحكم بأنه أقدم من النثر دون أن يخالفنا في هذا الحكم من يزعم أن النثر أقدم ، لأننا سندخل في نطاق الشعر عندئذ الخطبة والقصة ، وهما تعتمدان على إثارة الشعور ، وتوافر الخيال ، على أن من العرب من وصف الشعر بأنه «شئ تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا» .

صفوة القول في سبب الشعر للنثر :

بعد كل هذا البسط نستطيع أن نقول : إن الشعر أسبق من النثر بجميع فنونه ، أسبق من القصة والخطبة ، والحكمة والمثل والمقالة ، فقد اتخذها الناس منذ إدراكهم لمعنى الحياة المعبر عما يكونون ، والناطق بما يحسون ، والمصور لما تجيش به قلوبهم من انفعالات ، وما تختلج به أفئدتهم من خواطر وإحساسات ، فوجدوا بابها ، واستخلصوا لبابها ، في حين أحكم النثر الفنى دونهم رتاجه ، وبالع في إيصاد مغالقه ؛ لأن هذا - كما سبق - عماده العقل والتأمل ، ومعينه الفهم والتفهم .

وأنى للأُم في بدائها وبدواتها كل أولئك ؟ إن أبناءها - ولا نستثنى - يتيمون في مجاهل من الجهالة ، ويسيحون في صحارى من البداوة ، ولن يكون علم مكتسب مع جهالة مطبقة ، ولن يتفق فهم دقيق مع بداوة مفرقة ، وهام أولاء بعض سكان المجاهل الإفريقية ممن لم تغزهم الحضارة ، ولم تفتح عقولهم المدنية لهم أغانيهم المعبرة عن آمالهم ، وأنشيدهم المصورة لأشجانهم ، وهى دون شك شعر بمعناه الأعم الأفسح .

فلا علينا أن نقول بعد هذا العرض الواضح ، والبسط الضافى : إن الشعر ليس أسبق من النثر فحسب ، بل هو أسبق منه بآمد بعيدة ، تستوى في هذا الحكم جميع الآداب العالمية ،

ولا يضيرنا في حكمنا أن يكون الشعر سطحي الخيال أو عميقه ، ضيق الآفاق أو واسعها ، متعدد الأغراض أو محصورها ، ضعيف الأسلوب أو قويه ، مختلط التركيب أو منسقه ، مختل الوزن أو مستقيم ، فكل تلك تتبلور مع الزمن ، وتستقيم مع الحياة ؛ فإن كل موجود في هذا الوجود تعتوره أطوار الحياة المتعاقبة ، وتداوله تقلبات الزمن وتغيراته ، كل موجود ينجم ثم يحبو ، ثم يدرج ... حتى يشارف السكال ، ولا نقول حتى يصل إلى قمة السكال ، ثم تدول دولته ، وتخبو شعلته ، فيعود كما كان .

مال النثر الأولى :

ليس أمر النثر مغايراً لأمر الشعر ، فلا بد أنه كان في أول أمره سقيم الفكرة ، وإن يكن وليدها ، قليل الجدوى ، وإن يكن صادراً عن عقل وتدبر ، والناظر في النثر الجاهلي لا يستطيع أن يحكم دون أن يرمى بالهوى بأنه رفيع المسكاة خطير المنزلة : من الناحية التفكيرية أو الأسلوبية أو الموضوعية ، مع أن ما وصل إلينا - على فرض صحته - هو أفضل ما قيل ، وأبلغ ما ارتجل ، وأحكم ما سجل ، وإلا لما حفظته الحوافظ ، وتحدث بجماله الرواة ، واعتنى بتسجيله المؤدبون والشداة .

على أنى أكاد أوقن أن هذا النثر الذي يروى بعضه شيوخ الأدب - كصاحب الأغاني وصاحب الأمالي وأضرابهما - وهو منسوب إلى بعض الجاهليين ، وفي بعضه قصص وجمال تصوير ، أو حكمة وتأنق في التعبير - من وضع الرواة والمحدثين الذين رغبوا في أن يرفهوا عن الخلفاء ، أو أن يشيدوا بعقول القدماء ، وحسبنا هذا الذي قدمناه .

فضل الشعر على النثر :

اتفق الأدباء - إلا القلة الضئيلة - على أن الشعر جملةً أفضل من النثر جملةً ، ونحن ممن ترى هذا الرأي ، ونقيم الأدلة على سداذه وصوابه فنقول :

١ — فضل القرآن على الشعر :

إن العرب طرا حينما بهرهم القرآن ، وأخذتهم بلاغته زعموه شعرا إيماناً منهم بأن الشعر أفضل من النثر ، وهذا الكلام الذى يحاجهم به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله أجود من نثرهم ، وإذن فلا عليهم أن يدعوا أنه شعر ، وإن فقد مقوماته من خيال ووزن وقافية وموضوع وأسلوب .

٢ — فضل الشعر على الفنون الجميلة :

الشعر أحد الفنون الجميلة ، ولكنه منها واسطة عقدها ، وبدر فراقدها ، فأين منه النقش والتصوير ، والنحت والموسيقا ؟ إن فيه إلى نظمه وورصفه صوراً تبهر هرة المصورين ، وجالاً يسحر نوابغ الرسامين ، والموسيقا لاتسمو إلا به ، والغناء لايجلو إلا فيه . إنه يتألق بين الفنون فيفيض عليها حسناً ، ويمنحها وضاء ولألاء ، فأى فن جميل ليس للشعر فيه الأثر الرائع الجميل ؟

٣ — سمو موضوعات الشعر :

موضوع الشعر أعلق بالقلب ، وأقرب إلى النفس من موضوع النثر ، بل من موضوعات الفنون الجميلة التى لاتعتمد عليه ، والنثر إذا تجاوز موضوعه ، وحل فى غير أفاقه ، واعتدى على موضوعات الشعر عد متطفلاً ، وقيل عنه إعلاء لشأنه مع هذا التطفل : إنه شعر منشور ؛ لأنه يحمل موضوع الشعر وأخيلته ، ويقتبس ألفاظه وموسيقاه ، وإن لم تسم إلى موسيقا الشعر .

٤ — رأى ابن رشيبي القيروانى :

ولا نلجأ فى حججنا إلى ما ذكره ابن رشيبي فى كتاب العمدة من أن الشعر يفضل النثر لأسباب فنية ، « وأن كلام العرب نوعان : منظوم ومنثور ، ولكل منهما ثلاث طبقات : جيدة ومتوسطة ورديئة ، وأنه إذا اتفقت الطبقتان فى القدر وتساوتا فى القيمة

ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية ؛ لأن كل منظوم أحسن من كل منشور من جنسه ؛ فالنثر وبه يشبه اللفظ إذا كان منشوراً لم يؤمن عليه ، ولم ينتفع به في الباب الذي كسب له ، وانتخب من أجله ، وكذلك اللفظ إذا كان منشوراً تبدد في الأسماع ، فإذا أخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشقائه ، وازدوجت فرائده .
فن أدبائنا من يصف هذا القول بأنه كلام ضعيف ، وإن يكن بيان ذلك الأديب أضعف من بيان ابن رشيق ، وليس هذا مجال تفصيل نقده .

٥ — فطر موضوعات الشعر :

وأولئك الذين يقولون إن موضوعات النثر أخطر من موضوعات الشعر جد واهمين ؛ فالشعر يتناول الكون بأجمعه ، وموضوعه كما قال غيرنا : الله والإنسان والطبيعة ، فهو كل مافي هذا الوجود ، على أنه يستطيع أن يتناول جميع موضوعات النثر ، بل هو الآن يتناول أعنف موضوعاته كالمباحث الفلسفية ، ويعتبر الشاعر الذي لا فلسفة في شعره شاعراً سطحياً ، لا : بل قد يبلغ به إذا فلسفه ما لا يبلغه بالنثر ، وهذه لزوميات أبي العلاء تجمع بين قوة العقل والمنطق ؛ وبين قوة التصوير وحسن الفن ، والشعر السياسي كان - ولا يزال - أقوى دعائم الدعاية السياسية ، ويكفي للدلالة على ذلك أن معاوية حين أراد أن يمهّد للبيعة لابنه يزيد استعان لها بشعر مسكين الدارمي ، ذلك الذي يقول فيه :

ألا ليت شعري مايقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد ؟

بنى خلفاء الله مهـلاً فأنما يبيوئها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربي خلّاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد

وأن بيت مروان بن أبي حفصة في الاحتجاج للعباسيين على العلويين ، وهو :

٢٤ : أنى يكون - وليس ذاك بكائن - لبنى البنات ورائة الأعمام ؟

كان أشد على آل علي رضي الله عنه من ظلمات السيوف ، وأسنة الرماح ، بل كان هذا للبيت دعامة من دعائم الدولة العباسية .

وإنك لتجد الحكمة وحققها أن يكون النثر معينها مسجلة شعرا ونثرا ، فتحكم لأول وهلة بأنها شعراً أفضل منها نثراً ، وها هو ذا المثال الذي تؤيد به رأينا .

موازنة بين نثر وشعر :

(١) قال عبد الله بن الزبير حينما قتل عبد الملك بن مروان أخاه مصعباً من خطبة ينحى فيها أخاه ويؤنبه ، وتكاد هذه الخطبة تكون أروع خطبه ، والخطبة أقرب النثر إلى الشعر : « إنما التجلد والسلوة لحزماء الرجال ، وإن الملح والجزع لربات الحجال » .

وتناول أبو تمام الطائي هذا المعنى في تعزيتة مالك بن طوق عن أخيه القاسم ، فقال :

٢٥ : خلقنا رجالاً للتجلد والأسى وتلك الغواني للبكا والمآتم

فكان البيت خيراً من الفقرة لأسباب كثيرة منها :

١ — لنظمه وجرسه الموسيقى ، وهذا فضل لا ينكره إلا معاند مكابر ، وإلا من

لا تطربه الموسيقى ، ولا يملك سمعيه الجرس والغناء .

٢ — لقلة كلماته عن كلمات النثر مع أن الشاعر مقيد بالوزن الذي قد يستدعى منه أن

يزيد ألفاظاً ، حتى يفي المعنى حقه ، وحتى لا يوصف شعره بالغموض والتعميد ، فللوزن من الأحكام ما ليس للنثر ، فهذه الحرية المطلقة ، ولذلك القيد المحكم .

٣ — لدقة المعنى ، فقد وصف الشاعر قومه ونفسه بأنهم خلقوا رجالاً ، وفي الجملة

قصر جميل ملحوظ ، فكان أعداءهم ليست لهم هذه الصفة ، وفيها فخر نبيل واضح

في حين ترك الخطيب هذا المعنى ، وقال إن التجلد والصبر والأسى المكتوم خليق

بالرجال ، أو خليق به الرجال ، فجمع بين الصفتين الجديرتين بخلق الرجال عند فداحة

الخطب وجلال الرزء ، أما الخطيب فجمع بين التجلد والسلوة ، وما أدري كيف يسلو الأخ

أخاه ، وبخاصة إذا كان هذا الأخ هو البطل العظيم ، والرجل الكامل مصعب بن الزبير ؟

والفرق عظيم بين الأسى والبكاء ، فالأسى للرجال ، والبكاء للنساء ، أما السلوة التي قرنها

عبد الله بالتجلد فلا موقع لها هنا ، في حين أن المآتم وقد عطف على البكاء أدت المعنى

أسد أداء ؛ فالمآتم تقام للنساء يبكين فيها ويندبن ، ليثرن الرجال للأخذ بالتأثر ، ولتسفل

العار ، وخص الشاعر الغوانى بالبكاء ليدل على فداحة النازلة ، وشدة الكارثة ، ومن تبيكه الغوانى خليق أن يبكيه غيره .

أما فقرة عبد الله فلا تشتمل على قليل من ذلك الكثير من المعنى ، كما أن الفقرة على الرغم من أنها مسجوعة لم تتم نعمة وجرسا وموسيقا ، وقول الخطيب ربات الحجال كناية دفعه إليها التكلف والسجع ، وأجل منها دون ريب الغوانى ، والهلع والجزع معناهما واحد ، فلم يأت الخطيب بجديد سوى التطويل الذى لا يدعو إليه داع غير رصف الجملة ، وإقامة السجعة .

٤ — وهناك فوق ما قدمنا فروق تحس بها وتذكرها دون أن تستطيع لها تعليلا ، ففي الإشارة إلى الغوانى بتلك جمال ، ولكن كيف نلله ؟ أنقول : إنه أراد تعظيمهن بالإشارة البعيدة إليهن ؟ ولم لا ؟ ألسن غوانى ؟ أم نقول : إن المآتم كانت منه قريبة بعيدة ؟ أم نقول : إنه كان بين صفين من الرجال والنساء ، فحدث الرجال بقوله : خلقنا رجالا ... والتفت إلى النساء فأشار إليهن قائلا : وتلك الغوانى ... ؟

(ب) موازنة أخرى :

وهذا مثل اختلف فيه النقاد ، فهناك من فضل النثر ، وهناك من فضل الشعر ، وإننا من أصحاب رأى الأخير ، وسنورد الرأى الأول ، ثم نرد عليه ونفنده ، وللقارى الحكم بعدئذ .

قال عمر العتي : العقل عقلان عقل تفرد الله بصنعه وهو الأصل ، وعقل يستفيله المرء بأدبه وهو الفرع ، فإذا اجتمعا قوى كل منهما صاحبه تقوية النار فى الظلمة للبصر .
وقال أحد الشعراء :

رأيت العقل عقلين فطبوع ومصنوع
ولا ينفع مصنوع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

زعم صاحب رأى الأول أن الشاعر « كرر كلمتي مصنوع ومطبوع على غير داع ، وقد سلمت الأولى من ذلك التكرار ، وكلمة مصنوع في الشعر تقابل كلمة مكتسب في النثر ، ومكتسب أليق بموضعها ، وأدق في الدلالة على ما يراد منها ؛ فالعتي أدق عبارة ، وأحكم تأليفا ، وأسلم من التكرار » ثم قال : « قسم كل منهما العقل قسمين ، وفاضل بينهما ، ولكنهما اختلفا في طريق المفاضلة ، فالأول ذكر أن القسمين يتعاونان إذا اجتمعا ، ومثل لهما بضوء النار يقوى البصر في الظلمة ، وذكر الآخر أنهما إذا افترقا لم يغن المكتسب شيئا ، ومثل بنور الشمس لمن لا يبصر ، فقد اختلفا في أجزاء المعنى ، والأول بين حالة اجتماع العقلين ، والآخر بين حالة افتراقهما ، والحالة التي ذكرها العتي أقرب إلى الواقع ، وآلف عند الناس ، فإنهم يبتغون دائما تقوية العقل الموهوب بما يكتسب من تجارب ويستفاد من علم ، ولا يطمع أحد أن يفيد غير العاقل بالتعلم شيئا » فإذا ناقشنا هذا رأى لنبين ضعفه قلنا :

١ — كان الشاعر أقدر من ناحية التأليف والصياغة من الكاتب ، فقد أوجز دون إخلال بالمعنى في حين أورد الأول في عبارته ما يمكن أن يسمى حشوا ؛ إذ يقول : « عقل تفرد الله بصنعه » كأن هناك عقلا اشترك فيه مع الله سواء ، هذا إلى أن الفرع جزء من الأصل وليس قسما له كما يقول .

٢ — عندى أن تكرار مصنوع ومطبوع فوق أنه أكسب البيت جرسا جميلا ، وموسيقا عذبة ، ومطابقة مستساغة فيه معنى التوكيد ، وإذن فليس من التكرار المغيب .

٣ — تشبيه الشاعر أدق وأظهر في بيان فضل العقل المطبوع على المصنوع ، على أن الأول وقع في خطأ فكري ، فالنار لا تزيد قوة البصر ، وإنما تخفف شدة الحلكة ، وتدفع إصراف الظلام .

٤ — كلمة مصنوع أفضل من مكتسب التي يطلبها صاحب رأى الأول ؛ أفضل ليطابق بها كلمة مطبوع ، على أنها من ألفاظ الأدب والشعر ، فيقال : شاعر مطبوع ، وشاعر مصنوع .

٥ — هذا إلى أن ألفاظ الشعر أقل من كلمات النثر ، وإلى أن لموسيقا الشعر رنيننا يسمع الأذن رنين الجمال .

أسباب رجاحة الشعر للنثر :

وبعد فليس كل شعر خيرا من كل نثر ، بل لابد من اجتماع عدة عوامل مرجحة للشعر فوق الخيال والوزن ، فأوجه الموازنة كثيرة متنوعة منها : الأسلوب ، ومطابقة الكلام للواقع ، وائتلاف الألفاظ واتساقها ، ومناسبتها للموضوع ، والإقلال من الزخارف بجميع أنواعها ، فإنها قد تحجب المعنى ، أو تسيء إلى الفكرة ؛ فالجمال في المفاضلة فسيح ، وعناصر الموازنة كثيرة .

نثر يفضل الشعر :

من النثر الذى يفضل الشعر تلك الحكمة الجاهلية : « المرء بأصغريه » وأكتفى بهذا الجزء منها ، فهى أفضل من قول الشاعر :

٢٩ : لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
أما أوجه التفضيل فكثيرة منها : الإيجاز ، والحكمة كلمتان ، والشرط الأول من البيت ، - وهو فى الحق موطن المفاضلة - خمس كلمات ، والحكمة أكثر صدقا ؛ لأن المرء يظهر علمه أو جهله ، وحلمه أو حقه بأصغريه ، وإن لم يكونا نصفيه ، ولتلك الكناية اللطيفة الدالة على علم بأعضاء الإنسان ، فأصغر الأعضاء القلب واللسان ، ولعدم التكرار كما نرى فى الشرط إذ كرر كلمة « نصف » وكدقة كلمة المرء ؛ لأنها أشمل من كلمة الفتى ، ولعدم الغلو فى المبالغة التى زادها الشاعر بروزا بشرطه الأخير .

الفصل الثالث

في تقسيم الشعر

أقسام الشعر عند الإفرنج :

يقسم الإفرنج الشعر إلى ثلاثة أقسام : الشعر القصصى والتمثيلي والغنائى ، والقصصى كان في غالب أمره دينيا ، يتعلق بالآلهة وأنصاف الآلهة ، وما قدموا لبني الإنسان من أياد وصنائع ، وما حكموا لبعضهم على بعض من ظفر وانتصار ، وما أصاب غير هؤلاء من ويلات وهزائم ، ثم أثر هذه الأحكام في حياة الناس ، كما نرى في الإلياذة والأوديسة المنسوبتين إلى هوميروس الشاعر اليونانى .

ولم يكن الشعر القصصى مستقيم الأوزان دائما ، بل قد يستعصى الوزن على الشاعر فلا يآبه له ، وإنما الواجب الحتم هو أن يظهر فيه أثر الخيال ، فإن الشاعر وإن لم يكن في ملحمة معبرا عن أحاسيسه ، ناطقا بما يختلج به قلبه ، وتضطرم فيه عواطفه ، فإنه معبر عن إحساسات الناس ، ناطق بما تختلج به قلوبهم ، وتضطرم فيه عواطفهم ، فعليه أن يتصور كل هذا ، ويصوره لقارئيه أو سامعيه كأنه حقيقة واقعة ، فعبئه لذلك ثقل ، وفي مثله تظهر البراعة الفنية ، فليس كل شاعر بمستطيع تخيل ما تجول به خواطر الناس وأوهامهم ، ولا بمقتدر على تصور ما تصوره لهم نفوسهم من آمان وآمال .

الشعر التمثيلي :

أما الشعر التمثيلي فيخالف القصصى من وجوه ، فهو يؤثر في القلوب من نواح : ناحية السمع حينما ينطق الممثل به ، وناحية البصر حينما يرى الممثل أمامه يعبر عما يريد التعبير عنه ، لا بلسانه فحسب ، بل بجواسه الأخرى وبأعضاء من جسمه إذا استدعى التمثيل ذلك ، ثم

ناحية التصوير الدقيق الذى يحاول به أن ينسى جمهرة الرائيين والسامعين أنه أمام تمثيل ،
ثم تصوير الجوهري لتخييل التمثيل حقيقة لا ريب فيها .

والشعر التمثيلي قوامه الفن هو الشعر القصصى الدينى ، فنه نشأ ، وعليه اعتمد ،
ثم أخذ يخطو نحو الكمال ، ويستقل عن أصله الذى منه نشأ وعليه اعتمد ؛ حتى بلغ
الغاية ، فصار ذا أساسين : الشعر القصصى والغنائى ، ثم تطور بعدئذ من الشعر إلى النثر ،
ومن الخيال إلى الحقيقة ، ومن الغرض الدينى إلى أغراض أخر .

اعتمد التمثيل على النثر ؛ لأن هذا أداة طيبة سهلة للتمثيل والحوار ، فالحوار بالنثر
أسر من الحوار بالشعر ، والتمثيل أغلب أمره حوار ومحادثة ، والأغراض الأخر التى عناها
التمثيل سواء أ كانت أغراضا اجتماعية أم سياسية أم فكاهية لا يغنى فيها الشعر القائم على
الخيال ؟ وإنما يجدى فيها النثر المعتمد على الفكرة السديدة والرأى الرشيد .

الشعر الغنائى :

أما الشعر الغنائى فهو الشعر الذاتى ، المعبر عن عواطف قائله ، والمصور لمشاعره ، وقد
سمى بهذا الاسم لأن قائله كانوا يتغنون به فى جميع الأمم ، وبجميع فنونه ، فهو ينغمه
رائيا ، ويشدو به مفتخرا ، ويرجعه ناسبا ، كما كان شأن الشعر القصصى
فى أول عهده .

أقسام الشعر الغنائى :

كل شعر ذاتى فهو من الغنائى ، فالشاعر الذى يأخذه جمال الزهرة أو عطرها ،
أو تكوينها ، فيصفها ، كان هذا الوصف صادرا عن ذاته ، والشاعر الذى يستثيره إنسان ،
فيتحمس ويفخر عليه ، ويعد مناقبه . . . كان هذا الفخر صادرا عن ذاته ، وهكذا
يقال عن جميع الأغراض المعروفة فى الشعر العربى القديم : كالغزل والثناء والهجاء
والمدح والحكمة .

العرب وتقسيم الشعر عند الفَرَجَة :

يقول الباحثون في الآداب العربية : إن العرب لم يكن لهم حظ من الشعر القصصى والتمثيلي ، ويكادون يتفقون على هذا رأى ، وإن اختلفوا في أوجه الاتفاق ، ومن تردد منهم اعتبر بعض مقطوعات الفخر التصويرى من الشعر القصصى كملقة عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة من الشعر القصصى القصير ، ولنا في هذا الحكم نقاش طويل نرجو منه أن نزعزعه أسسه ، ونزلزل أركانه ، فينقض أولئك الباحثون حكمهم الذى أبرموه ، وليس يعنينا أن ننسب إلى العرب فناً لم يطرقيه ، أو أن ندعى لهم أدباً لم يتناولوه ، ولكنه الرأى تقتنع به ، فندافع عنه .

قول مؤرّفى الأدب عن الشعر اليونانى :

يقولون : إن الشعر اليونانى القديم كان في أول أمره متصوفاً على القصص القصير ، ثم ضم هذا القصص بعضه إلى بعض بعد أن خطت الأمة اليونانية في الحضارة خطوات ، وصعدت في سلم المدنية درجات ، واستطاع من قام بهذا الجمع والضم أن ينظر فيه ؛ ليجعل منه وحدة متماسكة الحلقات ؛ لأنه لا يمكن روايته وهو آلاف الأبيات إلا إذا تماسك بعضه مع بعض ، واثقلت حوادثه تمام الائتلاف .

الكتابة والشعر القصصى :

ومما لا شك فيه أن الكتابة - وإن تكن قد عرفت - لم يكن قد يُسرّ أمرها ، وسهلت وسائلها ، وهان على الناس استخدامها في تسجيل هذه القصص الطويلة . وعلى هذا فالإلياذة والأوديسة لم تظهر في ثوبهما الفضفاض الضافى إلا بعد أن نالت الأمة اليونانية من الحضارة والمدنية حظاً أقدرها على أن تحافظ على هذا التراث الجيد تلك الأجيال الطويلة من حقب التاريخ الأولى .

وما يقال عن الإلياذة والأوديسة يقال عن المهابهاراتا والرامايانا الهنديتين ، وعن سنوحى والبحار الغريق المصريتين ، وعن غير هذه وتلك من قصص الأولين .

لماذا لم يكن للعرب شعر قصصى ؟

وبعد هذا أليس من حقنا أن نسأل ؟ لماذا لم يكن للعرب شعر قصصى ، وقد آمن الجميع بأنهم ذوو فطرة أدبية سليمة ، وذوق فنى قويم ، وأنهم يُسامون اليونانيين فى تلك الفطرة ، وفى ذلك الذوق ؟ أليس الشعر القصصى ينبع من النبعة التى ينبع منها الشعر الغنائى ؟ ولا يغير هذا الحكم اختلاف الزمان والمكان ، ثم أليس معقولا أن الشعر القصصى — ودفاعه الدين والحرب ، ولكليهما عند العرب المكانة التى هى لهما عند غيرهم إن لم تفقها — قد ظهر قصصا قصيرا عند العرب ، ثم ضم بعضه إلى بعض ، أو لم يتح له من يفكر فى ضمه حتى طواه الزمان فيما طوى من أخبار وآثار ؟ أما أنا فأقول : بلى . لقد كان لهم شعر قصصى لما مضى ولما يلى .

أولتنا على أنه العرب لأنه لهم شعر قصصى :

١ — اهتمدى العلماء المنقبون من الأوربيين عن أطلال الدولة السبئية فى اليمن إلى بعض الآثار ، وذكروا أن دولة سبأ بدأت فى نحو القرن الثامن قبل الميلاد (أى حين ظهور هوميروس) وأن أسماء ملوكهم التى سجلوها على آثارهم قد بلغت أكثر من ثلاثين ملكا .

٢ — من المؤرخين من ذكر أن سيل العرم الذى اجتاحت هذا الملك الطويل العريض : الطويل فى أمده ، العريض فى سلطانه كان قبل ميلاد المسيح عليه السلام بنحو قرن من الزمان .

٣ — تحدث المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » كما تحدث غيره من ثقات المؤرخين « أن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها ، وأكثرها جنانا وغياضا ، وأفسحها مروجاً مع بنیان حسن وشجر مصفوف ، ومساكب للماء متكاثفة ، وأنهار وأزهار متفرقة ، وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المجد على هذه الحالة ، وفى العرض مثل ذلك .

وأن الركب والمراكب يسير في تلك البلاد من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها لا تواجهه الشمس ولا تعارضه ، لاستئثار الأرض بالعمارة الشجرية ، واستيلائها عليها ، وإحاطتها بها ، وكان أهلها في أطيب عيش وأرفه حال ، وأرغد قرى ، وفي نهاية الخصب وطيب الهواء ، وصفاء الفضاء ، وتدفق الماء ، وقوة الشوكة ، واجتماع الكلمة ، ونهاية المملكة ، وكانت بلادهم في الأرض مثلاً ، وكانوا على صفة حسنة من اتباع شرف الأخلاق ، وطلاب الإفضال على القاصد ، والسفر بحسب المكان ، وما توجيه القدرة من الحال ، فكثوا على ذلك ماشاء الله من الأعصار ، لا يعاندهم ملك إلا قصموه ، ولا يوافيهم جبار في جيش إلا كسروه ، فذلت لهم البلاد ، فصاروا تاج الأرض »

ثم هو يروى بعد ذلك شعرا ينسبه إلى ملك سبا عندما أغرقهم سيل العرم ، ويزعم أن اسمه الملك الشاعر عمرو بن عامر ، وهذا الشعر جزء من أسطورة زعموها هي أن الجرذ سُلِّطَ عليهم فقلب برجليه صخرة لا يقلبها خمسون رجلا ، فنقب بفعله هذا السد الذي كان نقبه سبب غرقهم ، فقال :

أبصرت أمرا عادلى منه ألم وهاج لى من هوله برج السقم
من جرذ كفحل خنزير الأجم أو تيس صرم من أفاويق الغم^(١)
يسحب صخرا من جلاميد العرم له مخالب وأنياب قضم
٣٣ : مافاتة سحلا^(٢) من الصخر قضم كأنه يرعى حصيراً من سلم

ومع يقيننا بأن هذا الشعر مخترع مع هذه الأسطورة ؛ إذ لم تكن لغة قوم سبا هي لغة قریش ، ولم يكن سبب انفجار السد جرذا كما تزعم الأسطورة ، فإنها تبين لنا أن ذلك الخيال الساذج الذى تخيل الأسطورة وشعرها يعترف بأن الأمة العربية القديمة كان لها شعر ، وكان بعض هذا الشعر قصصياً ، وكان من بحر الرجز أيسر بحور الشعر نظماً ، وأميلها على الشعراء قافية .

(١) الصرم : الجماعة ، والأفاويق : الخيار . (٢) سحلا : نحتا .

وليس طعننا في هذه القصة بدافع سوانا إلى أن يطن في وصف بلاد اليمن اعتمادا على أن مصدرها واحد ، فحاضرة اليمن تحدث عنها غير المسعودي من مؤرخي العرب ، بل تحدث عنها غير مؤرخي العرب .

٤ — فقد قيل إن الدولة التي قامت باليمن نالت من بسطة الحياة ونخامة المدنية حداً أدى بمعاصريهم من اليونانيين إلى أن يسموا هذه البلاد ببلاد العرب السعيدة ، وناهيك بمن بلغ من المعرفة الهندسية حداً يستطيع به أن يرسم سد مأرب ، وأن يشيد بناءه ، وهو بعد من أعظم ما أقامه البشر .

وقصور اليمن التي تتحدث عنها كتب التاريخ تنطق بعلمهم الواسع ، وفنهم الزاخر ، فمن قصورها قصر غمدان الذي قيل عنه : « إنه كان مربعا : أحد أركانه مبنى بالرخام الأبيض ، والثاني بالرخام الأصفر ، والثالث بالرخام الأخضر ، والرابع بالرخام الأحمر ، وفيه سبعة سقوف طباقا ، ما بين السقف والآخر خمسون ذراعا ، وعلى كل ركن تمثال أسد من نحاس ، إذا هبت الريح دخلت من دبره وخرجت من فمه ، فيسمع له صوت يشبه زئير الأسد » .

وإذا كان في وصف القصر مبالغة ، فإنها تؤيد رأينا ؛ لأن المبالغة دليل على إيمان المؤرخين بحضارتهم العظيمة ، وأنهم بلغوا منها الحد الذي يقدرون معه على إتيان أمثال تلك العجائب .

الدولة اليمنية والدولة الحميرية :

٥ — ما قيل عن دولة اليمن يمكن أن يقال مثله عن الدولة الحميرية التي بهرت العالم بحضارتها ، والتي تحدث المؤرخون عنها « بأنها أول دولة أنشأت الشرائع ، وجعلتها أساس معاملة أفرادها بعضهم مع بعض ، وليس كونها دولة تشريع بمانع أن تكون دولة فن ، فقد كانت الدولة الرومانية دولة تشريع وفنون معا ، وإذن فلماذا نحرمها حق الشاعرية في ذلك الزمن السحيق ؟ .

رأى الأستاذ جبرمى زبدانه :

٦ — يرى العالم الباحث جرجى زيدان « أن الشعر عند الساميين أقدم آدابهم لكن أكثره كان غنائيا ، وليس فيه من الشعر القصصى إلا تنف قليلة ، أما التمثيل فيظهر لأول وهلة أنه بعيد عن آداب العرب » .

وسنرى أنه موجود فيها على صورة ساذجة تشبه إلى حد كبير الصورة التى نشأ بها الشعر التمثيلي عند اليونان ، وإن لم يسمه العرب بهذا الاسم ، ولم يمثله غير قائله ، ثم يقول : « ومما يعد من قبيل آداب العرب فى ذلك العصر سفر أيوب ، والمرجح عند أهل التحقيق أن صاحب هذا السفر فى التوراة عربى الأصل نظم ذلك الكتاب شعرا عربيا فى نحو القرن العشرين قبل الميلاد على أثر نزوح الجورانيين من بين النهرين ، ثم ترجم إلى العبرانية ، وعد من الأسفار المقدسة ، وضاع أصله العربى ، كما ضاع أصل كليلة ودمنة الفارسية ، فإذا ثبتت عربية سفر أيوب كان العرب أسبق الأمم إلى قرص الشعر ؛ لأنه نظم قبل إلياذة هوميروس بألف سنة ، ومهابها راتا الهند بعدة قرون » .

خلاصة المقال فى الشعر القصصى والتمثيلي :

وبعد ، فإننا وقد بينا أن عوامل الشعر القصصى كانت متوافرة عند العرب فى عصورهم السحيقة ، فلماذا لا نؤمن بوجوده ؟ بل لماذا ننكر — دون سند — وجود الشعر التمثيلي ، وقد كان أول ما عرف أسيويا ؟

إن هذه المدنية التى وصفنا بعض مظاهرها ، وعرضنا بعض آثارها لا بد أن يكون قد تبعها تقدم عظيم فى الفنون ، ومن بينها الشعر ؛ فالمعقول أن يصفوا حروبهم ، ويصوروا انتصاراتهم ، ويمثلوا أبطالهم ، ويرسموا أعمالهم بالشعر القصصى والتمثيلي والغنائى ، وليس من الختم اللازم أن يكون شعر جميع الأمم متحد الصورة متماثل اللون ، فإنه حتى الآن ليس متحد الصورة ، ولا متماثل اللون ، ولا جاريا على نمط مستقيم لا عوج فيه ، ولو أننا

قلنا غير هذا لجاز لنا أن نقول : إن الله خلق العالم كله ذا لون واحد ، ولسان واحد ، وعقل واحد ، وشعور واحد ، وليس شيء من ذلك حادثاً .

مناقشة رأى ابن الأثير في أقدمية الشعر العربي :

قلنا : إن المعقول أن العرب كان لهم شعر متنوع فيه القصصى والتمثيلي والغنائى ، وأن هذا الشعر بأنواعه الثلاثة قد طواه الزمان فيما طوى ، وعفته الأيام فيما عفت ، ودع عنك رأى ابن الأثير في المثل السائر ، إذ يقول : « والذي نقلته الأخبار وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يعنُّ لها من الحاجات ، ولم تزل الحال على هذه الصورة إلى عهد امرئ القيس ، وهو قبل الإسلام بمائة سنة زائداً لا ناقصاً ، فقصده القصائد . . . » فإن ابن الأثير بقوله هذا إنما يقصد الشعر المنظوم بلغة عدنان ، ومع ذلك فإنه من غير المعقول أن يكون الشعر قد ولد كاملاً في معانيه وفي أسلوبه وفي أوزانه ، فطبيعة الأشياء أن تنشأ ناقصة ، وتقوّم شيئاً فشيئاً حتى تبلغ درجة أدنى إلى الكمال .

وها نحن أولاء نرى أن بدء القصائد ببياء الديار مثلاً تتابع عليه الشعراء جيلاً بعد جيل ، وعصراً بعد عصر ، فكيف أمكن ذلك التغيير الشامل في الشعر من المقاطيع إلى القصائد في عهد شاعر واحد ، وفي جيل واحد ، مع أن هذا لا بد أن يستلزم تغيراً في المعاني بالزيادة أو بالنقص ، وتفتقراً للأفكار ، وتنوعاً في الخيال ، كما يستلزم حتماً تغيراً في الأسلوب ليجارى تلك المعاني ؟

الشعر المحوراني والبنيني كان بغير اللغة العدنانية :

ولا ريب أن الشعر المحوراني ، والبنيني كان بغير لغة عدنان ، كان بلغتين تخالفان في أصولهما وقواعدهما اللغة العدنانية مخالفة لا بد أن تكون عظيمة ، حتى ليصعب على القارى فهمها ، وهاك ما يؤيد ما نقول نقلاً عن كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لمرحى زيدان ، قال :

« قس مقدار الفرق بين لغة مضر ولغة عمالقة العراق بالفرق الذى وجدوه بين لغة عرب الشام فى أوائل القرن الرابع للميلاد بما قرءوه على قبر امرى القيس بن عمرو ملك الحيرة ، وبين لغة مضر عند ظهور الإسلام ، وذلك أنهم عثروا فى أطلال العمارة فى حوران على حجر عليه كتابة عربية بالخط النبطى نقشت فى أوائل القرن الرابع للميلاد ، أى قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون . »

ثم أورد المؤلف صورة الكتابة ، وقال :

« وإليك نصها كما تقرأ ، كل سطر على حدة :

- ١ — فى نفس امر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج .
 - ٢ — وملك الأسدين ونزار وملوكهم وهرب مذحجو عكدى وجاء .
 - ٣ — يزجود ؟ فى جيح نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .
 - ٤ — الشعوب ووكله لفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه .
 - ٥ — عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ١٧ بكسلول بلسعد ذو ولده .
- ثم يقول : « هذا لسان عربى تشوبه صبغة آرامية يحتاج تفهمها إلى إيضاح ، وهاك تفسير هذه الكتابة باللغة العربية الفصحى ، وهو :

- ١ — هذا قبر امرى القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذى تقلد التاج .
 - ٢ — وأخضع قبيلتى أسد ونزار وملوكهم ، وهزم مذحج إلى اليوم وقاد .
 - ٣ — الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر ، وأخضع معدا ، واستعمل بنيه .
 - ٤ — على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه .
 - ٥ — إلى اليوم توفى سنة ٢٢٣ فى يوم ١٧ أيلول (سبتمبر) وفق بنوه السعادة .
- ثم يقول : « انظر إلى الفرق بين الأصل وتفسيره ، والمدة بين هذين العصرين ثلاثة قرون ، فكيف تكون وبينهما بضعة وعشرون قرناً » .

عود إلى رأى ابن الأثير :

ذلك رأى الذى يقول به ابن الأثير هو رأى أئمة الأدب القدماء ، وقد عللناه وأظهرنا

أن أساسه الذى بنى عليه هو مارووه من الشعر ، ولكنهم لم يعملوا فكريا ، ولا أجالوا نظرا فيما بعد من عصور التاريخ ، ولو قد فكروا لما وصموا الأمة العربية بموت العواطف ، ونضوب القرائح تلك الأحقاب الطويلة .

لو قد فكروا لعرفوا أن امرأ القيس وخاله عدى بن ربيعة الذى قالوا عنه : إنه هاهل الشعر وغيرهما ممن جاء قبلهم وجدوا شعرا كامل العناصر تام الأجزاء فساروا على النهج الذى وجدوه ، وفتحوا من العين التى عرفوها ، إذ من المحال أن يولد الطفل رجلا ، وأن يظهر الناقص كاملا .

لو نظروا لرأوا امرأ القيس نفسه يقول :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خدام
ولا نجد بين أيدينا من كتب الأدب واللغة عن ابن خدام هذا الذى يتخذة أمير الشعراء فى العصر الجاهلى قدوة يقتدى بها ، وقبسا يقبس من معانيه ما ينفع غلة أو يبيل صدى كل ما قيل عنه : إنه رجل جاهلى كان يقول الشعر ، وهذا هو مفهوم البيت لا غير ، أما ماذا قال من شعر ؟ وفى أى زمان ومكان قاله ؟ فلا نجد شيئا .

لو تأمل القدماء فى النزر اليسير الذى وصل إلينا من شعر العصر الجاهلى لرأوا هؤلاء الشعراء يصفون أنفسهم بالقصور ، ويعترفون فى شعرهم بأنهم ينهلون من مناهل استنبطها لهم أسلافهم ، ويردون موارد هدايم إليها أجدادهم ، فزهير بن أبى سلمى يقول :

٣٥ : ما أُرانا نقول إلا معارا أو معادا من لفظنا مكرورا

إنه ينسب إلى نفسه - وهو من هو صفاء قريض وسناء معان - ينسب إلى نفسه وإلى غيره الاستعارة والاستعادة والتكرار مما قاله القدماء ، ولما قالوه دون أن يجد من مدى الاستعارة والاستعادة والتكرار مما يدل على أنه يريد بها جامعة شاملة لجميع ما يمكن أن يجمع .

وهذا شاعر آخر يقرر أن الأول لم يترك للآخر شيئا ، وينفى فى صيغة الاستفهام أن يكون الشعراء السابقون تركوا معنى لم يتركوه ، أو مترددا من الشعر لم يصلحوه ، فيقول عنتره :

هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعد توهم؟
ومن أولئك الذين يقررون ويؤكدون أنهم مقتبسون ومستعيرون ، ومستعيدون ومكثرون
ومقلدون ؟ إنهم ثلاثة من أصحاب المقلات ، ومن زعماء الشعر في العصر الجاهلي ، وهم
لا يرون في ذلك غضا من عليائهم ، ولا توهنيا لكبريائهم .

الشعر العربي المفقود كله بلسان قحطان :

وإذن فإن لنا أن نحكم بأن العرب المتوغلين في الدهر شعرا لم يصلنا منه شيء كان
بلسان قحطان ، لم يصلنا لأنه اندثر فيما اندثر من آثار ، وبأن هذا الشعر لم يكن غنائيا
خالصا ، وإنما هو مزيج من الغنائي والقصصي والتمثيلي ، ولكنه ساذج لم يتم بناؤه ، ولم
تستحصد أجزأؤه ، فلم يوصف بأنه قصصي أو تمثيلي .

الحوار هو الشعر التمثيلي :

إن تلك المحاورات التي تروى عن امرئ القيس وعبيد بن الأبرص ، وعنه وعن
التوهم اليشكري - مع أننا نظن أنها موضوعة - تصلح لأن تعطينا صورة للحوار الذي يمكن
أن يعتمد عليه المسرح .

وها هو ذا الحوار الذي زعم أنه دار بين امرئ القيس والتوهم :

قيل إن امرأ القيس نازع التوهم اليشكري جد قتادة بن الحارث ، فقال : إن كنت
شاعرا فأجز ما أقول : فقال التوهم : قل ما شئت ، فقال امرؤ القيس :

امرؤ القيس : أصاح ترى بريقا هب وهنا .^(١)

فقال التوهم : كنار مجوس تستعراستعارا .

فقال امرؤ القيس : أرقت له ونام أبو شريح .

٣٨ : فقال التوهم : إذا ما قلت قد هداً استطارا .^(٢)

(١) اليريق : تصغير برق ، والتصغير هنا للتعظيم ، وهنا : منتصف الليل .

(٢) استطار : انتشر .

فقال امرؤ القيس : كأن هزيره بوراء غيب .

فقال التوهم : عشار وُلّه لآقت عشارا .

فقال امرؤ القيس : فلما أن علا كنفى أضاخ^(١) .

فقال التوهم : وهت أعجاز ريقه فخارا .

فقال امرؤ القيس : فلم يترك بذات السر ظبيا .

٤١ : فقال التوهم : ولم يترك بجلهتها حمارا .

فلما رأى امرؤ القيس أن التوهم قد ماتته ، ولم يكن في الزمن الأول شاعرياماته آلى
ألا ينازع الشعر أحدا بعده .

أيعيب العرب أن يكون لهم شعر قصصى وتمثيلي ؟

وبعد فبههم لم يقولوا شعرا قصصيا ولا تمثيليا فإن ذلك لا يهن من براعتهم ، ولا يغض
من فنهم ، إذ لا يعيبهم أن يعرضوا عن منهل لم يستعذبوه ، أو ألا يردوا موردا لم يعرفوه ،
ولو أرادوه لعرفوه ، فليس الشعر المسرحى بمعجز من كان له طبع سليم ، وخيال فسيح ،
وكانا متوافرين عند العرب .

وقد يكون من أسباب انحرافهم عنه - إن كانوا قد انحرفوا - أو عدم اتجاههم إليه إن
سلمنا بأنهم لم يتجهوا - أنهم كانوا ذوى بديهة وارتجال ، لأنهم - كما يرميهم بعض المتعنتين -
ضيقو المجال ، مقفرو الخيال ، فشعرهم الغنائى يشعرونا بغير ذلك ، فقد منحتهم طبيعتهم عناصر
الإبداع ، ووهبت لهم يمتهم أسباب تفرع القول .

(١) إحدى قرى اليمامة لبني نعيم .

الشعر الغنائى

انبعاث الشعر الغنائى :

ينبعث الشعر الغنائى عن عاطفة صادقة ، ويتدفق من وجدان سليم ؛ إذ هو يصور ما يحيش بخاطر الشاعر دون غيره ، ويرسم ما يخالط مشاعره لا مشاعر سواه ، فهو أقرب ما يكون موطناً من الغناء ، وأدنى ما يكون صلة به ، فالعربى الذى يحدو إبله ، والراعى الذى يرعى غنمه ، والحبيب الذى يناجى حبيبته ، والعاشق الذى يساهر النجوم ، والمحارب الذى يصلح فى حومة الوغى ، والمسكوم الذى يشكو الجوى ويرسل الأسى ، وغير أولئك وهؤلاء ممن تحفرهم إلى إنشاء القريض دوافعه تتفتح صدورهم لإنشاده ، وتطرب آذانهم لتلحينه ، فإذا الشاعر مغن ، وإذا الغنى شاعر .

الشعر القصصى والتمثيلى ليسا صالحين للغناء وأما :

أما القسمان الآخران : القصصى والتمثيلى فلا يصلحان فى جميع الأحوال للغناء ، إذ ليست جميع المواقف والمشاهد تستأهل التلحين ، وحتى إن كانا صالحين ، فإنهما يصدران عن باعث ليس قويا قوة انبعاث الشعر الغنائى ، هذا إلى أنهما أقرب إلى الدين والأخلاق منهما إلى الآداب والفنون ، وهما يحتاجان إلى التروية والتأمل ، وهذا ما لم يكن يحتمله العربى الجاهلى القريب العهد بالإسلام ، فحياته البدوية البحت لا تلائم هذه القيود ، وطبيعة النفور من الأسر لا تتحمل هذه الأصفاة ؛ تلك التى تقف دون انطلاق لسانه بما يشاء ويريد ، لا بما يرام منه .

الشعر القصصى والتمثيلى يحتاجانه إلى تدوين :

ثم إن الشعر القصصى والتمثيلى يحتاج كلاهما إلى تدوين وتسجيل حتى يقتدر ناظمه على تتبع ما نظم ، والعودة إلى مراجعة ما قرأ ؛ لتفسير الملحمة أو التمثيلية على نمط متسق ،

ونظام متصل، وهذا هو ماصرف الشاعر في العصر الجاهلي الحديث عن هذين الفنيين، لا ما يزرعه بعض رجال الأدب من أنه ضيق الأفق، أو قيد القافية، فليس العربي الذي يعيش بين الصحراء والسماء - لا يجلب هذه الآفاق عنه حجاب - ولا يعترض النظر في كائنتهما حائل - بالذي يقال عنه إنه ضيق الأفق، وأما القافية فهو مخترعها، ولو رأى أنها ستصده عن طريق يريده لحاد عنها، وإذا كان الرجز أول مقال من الشعر وقد التزم فيه بناء البيت على الشطر الواحد، فالقافية ملتزمة في كل شطر، ثم توسع في استعمالها؛ إذا كان الأمر كذلك، فإنه يتحول عنها إلى ما ييسر عليه النظم، فهو مطلق الحرية في ذلك الخين، وهو الخالق للأسس والقواعد.

ومع هذا فبحر الرجز يبيح له ما لا يباح في بحر سواه، وسهولة النظم به تتيح للشاعر القدرة على الإطالة، وهذه أرجوزة أبي العتاهية الشاعر العباسي توشك أن تكون ملحمة، مع أنها في الحكمة، والحكمة أضيق معاني من الملاحم.

وها هو ذا أحمد شوقي بك استطاع أن ينظم القصة القصيرة، والتمثيلية الجميلة دون أن يقف في سبيل نظم قيد البحر أو القافية.

أول منه فسر في تقسيم الشعر الغنائي :

أول من فكر في تقسيم الشعر الغنائي عند العرب تقسيما فيه دقة نظر، واستقصاء أغراض هو الشاعر العباسي هو أبو تمام الطائي، فقد اختار من شعر الشعراء المجيدين في الجاهلية وصدر الإسلام، والعصر الأموي وصدر العباسي أجود ما قاله أولئك الشعراء، وسمى كتابه : « ديوان الحماسة »، ووهب لهذا الغرض ثلث كتابه.

وإذا كان لنا ما نأخذه عليه فهو أنه آثر المقطوعات القصيرة على المقطوعات الطويلة والقصائد الكاملة، وكأنه أراد بذلك أن يعرض علينا من شعر الفحول أكثر ما يمكن أن يجمع في كتاب؛ فيكتفي بالبيتين أو الأبيات دليلا على جمال الشعر وروعته، وعلى قدرة

الشاعر وبراعته ، مثله كمثل البستاني ينسق الطاقة ، فيقطف من كل نوع زهرة ، ليظهر غنى بستانه بأزاهيره .

تقسيم أبي تمام ورأينا فيه :

وقد قسم ما اختاره إلى عشرة أقسام : الحماسة والمراثي ، والأدب والنسيب ، والهجاء والأضياف والمديح ، والصفات والسير ، والملح ومذمة النساء .

ومن عجب أن أبا تمام غض من قدر الوصف مع أنه كان من البارعين فيه ؛ إلا إذا أجبنا لأنفسنا ألا نتقيد بالتسمية التي سماها لأقسامه ، وأورد تحتها الأبيات التي اختارها . على أنه أورد في باب الصفات سبعة عشر بيتا ليس فيها بيت لشاعر من شعراء الوصف المجيدين ، فهي للبعيث الحنفي ، ولعنترة بن الأخرس ، ولملحة الجرمي ، وهذه أبياته يصف فيها السحاب :

- | | |
|--------------------------------------|--|
| أرقت وطال الليل للبارق الومض | حييا سرى مجتأب أرض إلى أرض ^(١) |
| نشاوى من الإدلاج كدرى مزنه | يُقَصَّى بمجذب الأرض مالم يكذب يقضى ^(٢) |
| تحن بأجــــــــــــواز الفضاء قطراته | كما حَنَّ نيب بعضهن إلى بعض ^(٣) |
| كأن الشماريح العلام من صبيره | شماريح من لبنان بالطول والعرض ^(٤) |
| يبارى الرياح الحضرميات مزنه | بمنهمر الأوراق ذى قرع رفض ^(٥) |
| يفادر محض الماء ذو هو محضه | على إثره إن كان للماء من محض ^(٦) |
| يروى العروق الهامدات من البلى | من العرفج النجدي ذو باد والحمض ^(٧) |

- ٤٨ :
- (١) حييا : سحابا معترضا الأفق . (٢) الإدلاج : سير أول الليل . كدرى : في لونه كدرة وسواد . (٣) الأجواز : الأوساط . قطراته : نواحيه . النيب : الإبل المسنة . (٤) الشماريح : أعلى الجبال ، واستعارها للسحاب . الصير : السحاب فيه سواد وبياض . (٥) الحضرميات : الهابة من حضرموت . الأوراق : جمع روق المياه الصافية . القرع : قطع السحاب . الرفض : الإبل تترك في المرعى ، ويريد متفرقا . (٦) ذو : بمعنى الذى . (٧) العرفج : اسم نبات . ذوباد : الذى هلك . الحمض : المرمن النبات

وبات الحبي الجون ينهض مقدما كنهض المدائن قيده الموعث النقص^(١)
وهي أبيات باللغة الإحسان في وصف السحاب ، والقطعتان الأخريان إحداها في وصف
الناقة ، والأخرى في وصف الثعبان .

إذا لم تنقيد بهذه التسمية وجدنا في جميع الأبواب قطعاً تصلح لأن تكون في باب
الصفات ، كأبيات أمية بن أبي الصلت التي يصف فيها شأنه وولده إذ يقول :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعا	تعل بما أدنى إليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت	لشكوك إلا ساهرا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى	طرقت به دونى ، وعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك ، وإننى	لأعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي	إليها مدى ما كنت فيه أوئل
جملت جزأى منك جبها وغلظة	كانك أنت المنعم المتفضل

إلى آخر هذه القطعة التي في أبياتها الكثير مما يدخل في الوصف الحكيم وتندرج تحته ،
بما تنتظمه من صور كاملة ، ومعان سامية ، وكقول الأخنس التغلبي الجاهلي في الأطلال
والناقة والسيف :

فمن يك أمسى في بلادٍ مقامة	يسائل أطلالا بها لا تجاوب
فلاينة خطان بن قيس منازل	كما تمق العنوان في الرق كاتب
تمشى بها حولُ النعام كأنها	إماء تزجى بالعشى حواطب ^(٢)
وقفت بها أبكى وأشعر سخنة	كما اعتاد محموماً بخير صالب ^(٣)

(١) الجون : السحاب الأسود أو الأبيض ، والأول هو المراد . المدائن : المقارب الخطأ .
الموعث : السائر في الأرض اللينة . النقض : المهزول الضعيف .

(٢) إماء : جمع أمة البنت الرقيقة . تزجى : تساق سوقا لينا . حواطب : ضالة تخبط
خبط عشواء ، أو جامعات الحطب . (٣) أشعر : ألبس الشعار ، وهو الثوب يلي الجسد .
سخنة : حرارة . صالب : حمى مصحوبة بصداع .

خليلى عوجا من نجاء شملة عليها فتى كالسيف أروع شاحب (١)
خليلاى هوجاء النجاء شملة وذو شطب لا يجتويه المصاحب (٢)

وهى أبيات تبدو فيها الروعة والحسن والافتنان ، فهذا التشبيه لرسم الديار « كما نرى
العنوان ... » لا يفضل قول طرفة فى المعنى نفسه : « تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد »
وتشبيهه النعام الحائل فى أما كن تلك الديار يضرب فيها ، ويخبط فى جنباتها بالإمء تخبط
خبط عشواء ، أو بهن إذ يتنقلن فى جمهرن الخطب من مكان إلى مكان تصوير جميل .
وإذن فإن أبا تمام وإن يكن قد وضع الوصف فى غير مكانه ، فقد ملأ به كتابه ،
فغض منه من ناحية ، وعنى به من ناحية أخرى ، قل أن تجد قطعة لا يبهرك الوصف فيها .

تقسيم البحترى ورأبنا فيه :

ثم جاء بعده أبو عبادة البحترى ، فوضع كتابه : « الحماسة » على غرار كتاب أستاذه
أبى تمام فى الاسم فقط ، وخالفه فيما عدا ذلك ، إذ قسمه إلى أربعة وسبعين ومائة قسم ،
نظر فيها لا إلى فنون الشعر ، بل نظر إلى جزئيات المعانى ، فيقول مثلا :

« الباب السادس عشر » فيما قيل فى حمد عاقبة ركوب المكروه عند الحرب :

قال النابغة الذبياني :

سرنا إليهم وفيهم كارهون لهم وقد يصادف فى المكروهة الرشدُ

وقال الجمل العبدى :

إذا خفت فى أمر عليك صعوبة فأصعب به حتى تذلل مراكبه

٦٤ : وأمر على مكروهه قد ركبته فكان بحمد الله خيرا عواقبه

(١) عوجا : ميلا . النجاء : السرعة . الشملة : الناقة السريعة . الأروع : الجميل . شاحب :

متغير من السفر .

(٢) خليلاى مبتدأ خبره : هوجاء النجاء ، وذو شطب . الهوجاء : الناقة فى سيرها هوج

ونشاط . وذو شطب : وصف للسيف به طرائق متعرجة . يجتويه : يكرهه ويعلمه .

وقال الأخرز بن جرين :

وأركب الكره أحيانا وأحمده وربما نال في الكره القى الرغبنا
لا تجزعن لكره أنت راكبه واجسر عليه ولا تظهر له رعبا

وقال بشامة بن حصين الفزاري :

٦٧ : وتركب الكره أحيانا فيفرجه عنا الحفاظ وأسيف تؤاسينا

ثم ينتقل بعد هذه الأبيات الستة إلى الباب السابع عشر فيما قيل في الاعتذار من الفرار ، وهكذا يسير في تقسيمه ، فيجمع المعاني المتماثلة ، والأفكار المتقاربة في إطار واحد ، وهو لا يعدو فيما يعرضه البيت والبيتين والثلاثة ، فيتيح للناظر في الشعر ، تبين أصحاب المعاني المبتدعة ، ومعرفة من اقتبس منهم ، وأخذ عنهم ، ويجمع الكتاب نحو أربعة آلاف بيت كلها من جيد الشعر ومصطفاه .

تقسيم قدامة بن جعفر :

وقدامة بن جعفر كتابان في النقد ، أحدهما : نقد النثر ، والآخر نقد الشعر ، قال في أولهما : « عن تقسيم الشعر : » وللشعراء فنون كثيرة تجمعها في الأصل أصناف أربعة ، وهي : المديح والهجاء ، والحكمة واللهو ، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون ، فيكون من المديح المرائي والافتخار ، والشكر والالطاف في المسألة ، وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه ، ويكون من الهجاء الذم والعتب والاستبطاء والتأنيب ، وما أشبه ذلك وجانسه ، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، وما شا كل ذلك وكان من نوعه ، ويكون من اللهو الغزل والطرد وصفة الخمر والمجون وما أشبه ذلك وقاربه ، ثم يورد بعد ذلك أمثلة لهذه الفنون الأصلية والفرعية ، وهو تقسيم تظهر عليه سمة العلماء وأهل المنطق . وقال في نقد الشعر تحت عنوان : « باب المعاني الدال عليها الشعر » .

« ... ولما كانت أقسام المعاني التي يحتاج فيها إلى أن تكون على هذه الصفة مما لانهاية لعدده ... ، رأيت أن أذكر منه صورا ينبيء عن نفسه ، ويكون مثالا لغيره ، وعبرة لما لم أذكره ، وأن أجعل ذلك في الإعلام عن أغراض الشعراء ، وما هم عليه أكثر حوما ، وعليه أشد روما ، وهو المديح والهجاء ، والنسيب والمرائي والوصف والتشبيه » .

ولو أنه استغنى عن التشبيه بالوصف لكان تقسيمه أقرب إلى ما تعارف عليه الشعراء .

تقسيمات أخرى :

جاء أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ في أعقاب قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ فصار على نهجه ، وأخذ عنه مذهبه ؛ إذ قال : « وإنما كانت أقسام الشعر في الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمرثى حتى زاد النابغة فيها قسما سادسا ، وهو الاعتذار فأحسن فيه » .

ومن بعدهم جاء ابن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٥٦ هـ فعدل في تقسيم من سبقوه تعديلا طفيفا ؛ إذ جعله تسعة أقسام : النسيب والمديح ، والافتخار والثناء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب والوعيد والإنذار ، والهجاء والاعتذار .

ويقول عبد العزيز بن أبي الإصبع : « والذي وقع لى أن فنون الشعر ثمانية عشر فنا : غزل ووصف ، وفخر ومدح ، وهجاء وعتاب ، واعتذار وأدب ، وزهد وخمريات ، ومراث وبشارة وتهان ، ووعيد وتحذير وتحريض وملح ، وباب مفرد للسؤال والجواب » .

وهو تقسيم ليس بذى قيمة فنية ، فلا هو راعى دقات المعانى كالبحترى ، ولا هو لاحظ خصائص المعانى ، فنحن نستطيع أن نجتمع بين الهجاء والعتاب والوعيد والتحذير والتحريض فى باب واحد ؛ لأنها تصدر عن غاية واحدة ، وكذلك المدح والبشارة والتهانى ، ثم الأدب والزهد .

وقسمه البارودى فى مختاراته إلى سبعة أقسام : الأدب والمديح والثناء ، والوصف والنسيب والهجاء والزهد ، ومع أنه أيضا من زعماء الوصف فى عصره ، فإنه لم يعرف له قيمة ، ولم يضعه فى فلكه ، فلم يعقد له بابا خاصا .

وبعد ، فأقرب هذه التقسيمات إلى الدقة تقسيم أبى تمام والبارودى ، فتقسيمهما تقسيم الشاعر لا تقسيم العالم .

الفصل الرابع

في الوصف وتقسيمه

معنى الوصف :

الوصف بمعناه اللغوي : هو التحلية والتجميل ، يقال : وصف الشيء له وعليه وصفا وصفة : حاله وجمله ، وللصديق أوصاف حسنة وصفات جميلة ، وتواصفوا الكرم إذا وصف بعضهم بعضا به ، وقد اتصف جاره بالخلق الحميد إذا صار منعوتا متواصفا بين القوم به . وهو عند النحويين يخالف معناه عند اللغويين بعض المخالفة ، فهو عند أولئك أعم وأشمل ، إذ جعلوه يتناول المدح والذم ، والحسن والقيبح ، فيقال : هذا فتى وسيم ، وذاك رجل دميم ، وفلان له أصل كريم ، والآخر له نسب لئيم .

ونحن لانعنى هذا المعنى ولا ذاك ، وإنما نعنى معناه عند الأدباء ، وهو عندهم : تصوير الظواهر الطبيعية بصورة واضحة التقاسيم ، وتلوين الآثار الإنسانية بألوان كاشفة عن الجمال ، وتحليل المشاعر الإنسانية تحليلا يصل بك إلى الأعماق ، إلى غير هاتيك العناصر التي قد يحتاج وصفها إلى ذوق فني ، وتتطلب الإحاطة بنواحيها ، والسمو إلى آفاقها وجداننا شاعرا ، وإحساسا مرهفا ، وذوقا سليما ، ككل ما يملك على الإنسان المرهف الحس إحساسه ، ويشير فيه شعوره ووجدانه ، وكذلك المناظر التي تخلب لب المتأمل وتمسكه ، وتأسر بفتنتها المتمعن وتسحره ، فيطيل في قسائمها التأمل ، ويدمن في أجزائها التمعن ، ثم يصوره بعدئذ في الصورة التي يرتضيها ذوقه ، ويقبلها فنه ، وقد يكون الفن في أول الأمر ساذجا فطريا ، يعوزه الصقل والتقويم ، وتنقصه الدقة والعمق ، ولكنه ما يلبث بعد حين أن يصقل ويكمل ويوفى على التمام .

قيمة الوصف في الشعر العاطفي :

والوصف — في حقيقة الأمر — هو عمود الشعر وعماده ، بل إن كل أغراض الشعر

وصف ، فالمدح وصف نبل الرجل وفضله ، والنسيب وصف النساء والحنين إليهن ، والشوق إلى لقاءهن ، والثناء هو وصف محاسن الميت ، وتصوير آثاره وأياديه ، والهجاء وصف سوءات المهجوء ، وتصوير نقائصه ومعايبه ، وهكذا نستطيع أن ندخل جميع فنون الشعر تحت الوصف ، فهو على هذا الوضع كاللوحدة الملتفة الأغصان ، الفارعة الأفنان ، المترامية الظلال ، ولكننا نريده مستقلاً بذاته ، محدود المعالم عن سواه ، وهو ما سنفصله في هذا الكتاب .

الوصف أول ما تطور به الشعراء :

أرى أن فن الوصف هو أول مناطق به الشعراء ، لا ما يرى البعض من أن الشعر الحماسي هو أول ضروب الشعر ، وحتى إن رضينا بهذا الذي يقال ، فإننا نرجع الشعر الحماسي إليه ؛ لأنه وصف لضروب من الشجاعة والقوة ، وعرض لصور من البطولة والقوة .

إني أرى أن الشعراء حينما تدفقت ألسنتهم بالشعر ، بعد أن أفعمت به قرائحهم تدفقوا واصفين شعورهم ووجدانهم ، أو أساهم ووجدهم ، أو مصورين نجوهم وشكواهم ، أو نعيمهم وملهامهم ، وعلى الجملة معبرين عن كل ما يحرك كوامنهم ، ويثير هواجسهم ، ويوقظ أحاسيسهم ، ويستبد بمشاعرهم من مناظر أو أحداث ، أو مظاهر أو آثار .

نعم نطق الشعراء بالشعر واصفين — لا مفتخرين ولا راثنين — فالفخر كان بلغة الشعب إلا إذا اقتضته المحافل الجامعة أو الأسواق الحاشدة ، ولغة الشعب في الأمم البادية هي القوس والسهم ، والسيف والرمح ، والثناء كان بلغة القلوب والعيون ، القلوب تنفطر ، والعيون تنهمر .

أما وصف أثر الطبيعة في النفس ، وتصوير فعل الظواهر في الخاطر ، فلا بد أن يكون بلغة أرقى ، وبأسلوب أكثر اتساقاً ، وأعظم انسجاماً من سواه ، وهو الشعر .

ودع رأي من يقول : « إن أبواب الشعر اليوم تعدّ بالشراش لم يكن منها في الجاهلية إلا الفخر والحماسة ، والتشبيب والمدح والهجاء ، وتفرع من المدح الرثاء وهو مدح الميت » فذلك رأى لا تؤيده الطبيعة الإنسانية ، ولا يثبتته المروى من الشعر الجاهلي ، ولعل القائل فاته أن الوصف يمكن أن يندرج تحته كما قدمنا — الفخر بالقبيلة لأنه وصف لما أثرها ، وعد لآلائها ومناقبها ، وعلى النمط بقية الأغراض التي تناولنا الحديث عنها .

كثرة الوصف وطفائه على الأغراض الأخرى :

وبين يدينا الكثير من الشعر الجاهلي نتأمله فنجدده يبدأ بالوصف دائماً ؛ وصف الأطلال أو وصف الظن ، أو وصف الحبيبة ، أو وصف الحر أحياناً ، ثم ينتقل الشاعر من وصف إلى وصف مستطرداً متتابعاً ؛ حتى تكاد القصيدة تنتهي ، فإذا جُلِّها وصف ، وإذا القليل منها ليس كذلك .

وهذه — مثلاً — معلقة امرئ القيس تتبعها فنجدها جميعاً وصفاً ، فقد بدأها بوصف منازل حبيبته ، وتأثير الشمال والجنوب فيها ، فترى في عرصات وقائعها بعر الآرام كأنه حب فلفل ، ثم يصف وقوفه وصحبه عند ما تحمل أحبابه ، وهم يعيشون فيه التجمل ، ويصور ما يشقى نفسه ، ويظنى لوعة قلبه بأنها عبرة مهراقة ، وإن لم يكن من وراءها طائل ، فهل عند رسم دراس من معول ؟ وهكذا ينتقل في الوصف ، فيصف عقر مطيته للعداري ، ويعجب من كورها المتحمل ، ويصور كيف ظل العذاري يرتمين بلحمها « وشحم كهداب الدمقس المقتل » ثم يصف دخوله خدر عنيزة وأنها عبثت به فدعت عليه ؛ لأنه سيرجلها بركوبه معها ، إذ لن يستطيع البعير أن يحملها جميعاً ، وأى عبث كقولها :

« لك الويلات إنك مرجلي » .

ويسير على هذا النهج الوصف القصصى المعتمد على الحوار الهادي حيناً ، والثائر حيناً كقولها :

« عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل » فيقول :

٦٨ : فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعدينا من جناك الملل

ثم ينتقل إلى وصف بيضة الخدر التي لا يرام خباؤها ، ويصف الثريا في السماء ، وقد تعرضت له :

« تعرض أثناء الوشاح المفصل » .

ويصف بعد ذلك صورة لما يجري بين العاشقين ، لا ينقص الصورة تلوين أو تظليل ، بل هي كاملة التكوين والتعبير ، وأى صورة أكمل من قوله :

هصرت بفودي رأسها قبايلت على هضم الكشح ريا الخلدخل
 مهفهفه بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل
 تصد وتبدي عن أسيل وتنقي بناظرة من وحش وجرة مطفل
 وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل
 وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعشل
 وينتقل من وصف غيزته ذلك الوصف الذى يستطيع المصور أن يخلق منه ملكة
 جمال فى هذا العصر بعد أن يتأمل دقائقه ، ويتصور جزئياته ،

ثم ينتقل إلى وصف الليل وطوله ، وثبات نجومه حتى لكأنها :
 « بكل مغار القتل شدت ييذبل » .

ومن الليل ينتقل إلى وصف واد :

وَوَادٍ كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوى كالخليلع المعيل

ثم يدير الحديث بينه وبين ذلك الذئب ، ومن ثم ينتقل إلى وصف فرسه ، وسنعرضه
 عرضا مبسوطا بعد حين ، وإذ يبلغ غايته من وصف فرسه يصف سربا من البقر الوحشى .
 وهنا ترى صورة من الصيد والطرد ، كأنها لوح فى معرض من معارض التصوير ، أو قطعة
 فنية فى متحف من متاحف الآثار ، وينتقل من معركة مع صيده إلى وصف البرق ،
 وأن وميضه .

« كلع اليدىن فى جى مكل » وبعد أن يأخذ حظه من وصفه يصف ثيرا فى عرانيه
 وبله كأنه : « كبير أناس فى بجاد مزمل » حتى يحتم القصيدة بقوله :

كأن مكاكى الجواء غدية صبحن سلافا من رحيق مفلفل

٧٦ : كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنايش عنصل

فهذه قصيدة تجاوزت أبياتها الثمانين ليس فيها بيت واحد يمكن أن يقال عنه : إنه
 ليس من فن الوصف ، مع أنها لشاعر يتسع له مجال الفخر والحماسة ؛ لأنه ملك وسليل

ملوك ، ولكن الوصف غلب عليه ؛ لأن من حقه أن يغلب عند ذوى النفوس الحياشة ،
وهم الشعراء قبل جميع الناس .

وهذه قصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري تجاوزت أبياتها المائة تكاد تكون وصفا
خالصا ، فهو يصف في أولها خليلته وصفا لا فحش فيه ولا فسوق ، بل هو تشبيه وتصوير
كقوله :

تمنح المرأة وجها واضحا مثل قرن الشمس في الصحو ارتفع
صافي اللون وطرفا ساجيا أكل العينين ما فيه قمع

ثم ينتقل إلى وصف زيارة طيف المحبوبة ، وسهاد الليل في سبيل الإسلام به ، وأنه
قطع في رحيله إليه : « عصب الغاب طروقا لم يرع » لأنه :

آنس كان إذا ما اعتادني حال دون النوم منى فامتنع
ثم يصف رحلته إليها ، وقطعه المفاوز في سبيلها ، فيصف الزمان والمكان والسكان ،
فيقول :

كم قطعنا دون سلمى مهمها نازح الغور إذا الآل لمع
في حرور ينضج اللحم بها يأخذ السائر فيها كالصقع
وتخطيت إليها من عدى بزماح الأمر والهم الكنع
وفلاة واضح أقرابها باليات مثل مرفت القرع
يسبح الآل على أعلامها وعلى البيد إذا اليوم متع
فركنها على مجهولها بصلاب الأرض فيهن شجع
كالمغالى عارفات للسرى مسنفات لم توشم بالنسع

ثم يسير في هذا الوصف حتى يبلغ منه غايته ، فيخرج على قبيلته يصفها ، ويفخر بكرمها
وخلقها ، ثم ما يني أن يعود إلى تصوير أثر بعد الحبيبة عنه فيقول :

٨٧ : حل أهلى حيث لا أطلبها جانب الحضر وحلت بالفرع

لا ألقاها وقلبي عندها غير إلمام إذا الطرف هجم
ومن ثم يصف الثور الوحشي وصفا فيه دقة المعرفة ، وفيه سذاجة الفطرة ؛ فهو يصف
شياته وأجزائه ، ثم يصف روعته وفزعه من صياد طيئ وكلابه ، فيصور لك حربا ناشبة
بين الكلاب وبينه ، مما سنعرضه لك فيما بعد

وما يزال ذلك شأنه يتنقل بين وصف الطبيعة الساكنة والمتحركة ، أو بين الفخر
والحكمة ، وللوصف في هذين أثر حتى يبلغ الغاية بوصف شيطان شعره ، فيختم به قصيدته
فيقول :

وأناي صاحب ذو غيث	زفيان عند إنفاد القرع
قال : لبيك ! وما استصرخته	حاقرا للناس ، قوال القذع
ذو عباب زبد آذيه	خط التيار يرمى بالقلع
زغربي مستعز بحره	ليس للماهر فيه مطلع
هل سويد غير ليث خادر	ثدت أرض عليه فانتجع ؟

هاتان قصيدتان من أطول قصائد الشعر الجاهلي لانتكاد تجد فيهما من أغراض الشعر
بعد الوصف إلا القليل الذي لا يعتد به ، بل لانتكاد تجد فيهما شيئا غير الوصف إذا نظرنا
إلى مافيهما من غزل أو نحر أو حكمة نظرة واسعة ، فسويد يقول في فخره ، ووصف حربه مع
عدوه :

وعدو جاهد ناضلته	في تراخي الدهر عنكم والجمع
فتساقينا بمر ناقع	في مقام ليس يثنيه الورع
وارتمينا والأعدى شهد	بنبال ذات سم قد نقع
بنبال كلها مذروبة	لم يطق صنعتها إلا صنع
٩٨ : خرجت عن بغضة بينة	في شباب الدهر والدهر جدد

فهل بعد هذا يصح لقائل أن يقول : إن شعر الحماسة في العصر الجاهلي غلب

على الشعر العربي ، أو أن نستمع إلى من يقول : « إن الوصف كان متخلفا عن أكثر أبواب الشعر العربي » ؟ اللهم لا ، وقد قدمنا الحجة والدليل .

الشاعر هو الوصف :

إن الشاعر الوصف يعبر عن خلجات النفوس ، وخفقات القلوب ، وومضات العيون ، وبسات الشفاه ، وأسارير الجباه ، معينه في وصفه السماء ، والأرض ، والصحراء ، والماء ، والبدو ، والحضر ، والشمس ، والقمر ، والإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والجماد ، وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق كما يقول المتنبي ، يتخذ منه مادته ، ويجعله ينبع عاطفته ، فهو يصور الليل إذا سجا ، والنجم إذا هوى ، والموج حين يتلاطم ، والرمل وهو متراكم ، والبدر عندما يتألق ، والصبح حينما يشرق ، بل هو يصف ما لا يدركه البصر ، ويصور ما لا يعرف كنهه النظر ، فيصف الحس ، ويصور الخاطر ، ويخرج من هذه المعنويات صورا فتانة يدركها الحس ، ويتأملها الشعور ، فكأنك ترى الكبد المقروحة ، أو القلب الخفاق ، أو النفس الهاجسة ، أو الطيف الزائر ، أو الخيال العابر ، مما لا تدركه إلا النفوس الجياشة بالشعور . ويصور لك الشوق نارا تتأجج ، والسرور نسيا يتأرج ، وغير هذا وذاك ، مما ستقرأ منه الكثير ، فتجد فيه روح العبير .

أثر البيئة العربية في أهلها

إذا تأملنا مصور شبه جزيرة العرب أدركنا لأول وهلة أنها وحى صادق للشاعرية ، ونبع غزير للوصف ، إنها تكاد تكون صحراء ، لا أنهار تجري بينها ، فتفتق مكنونها ، وتخرج مكنوزها ؛ فالحط يشملها من كل جانب ، والجذب يحتلها من كل قطر ، فهم لذلك ينتظرون الوسى انتظار الحب رجع الرسول ، ويؤمنون من النوء أن يجر أهدابا على البطحاء ، ويسعون في طلب الكلال سعيًا يجمع بين الضحك والبكاء ، وينتجعون العشب في الصبح أو في الليلة الظلماء ، لا يشغلهم عن طبيعة بلادهم السافرة ، ومناظرها الساحرة

إلا أن يجدوا من العيش شظفاً ، ومن الماء رشفاً ، ثم انصرفوا إلى ذلك الطبيعي يتأملونه فيصفونه ، ويستنبئون سره ويعلمونه :

إن الذي حرم الصحارى منظرها
ألقي عليها للجلال شعارها
روحية صدف عن الدنيا وما فيها وأضحت للشعور مثارا
لذا عرفوا جميعا - لا فرق بين طفل وشيخ ، ولا بين رجل وامرأة ، ولا بين أعمى ومبصر
دقائق ظواهرها ، وحقائق مناظرها .

أعزائي ضرير يسقبي ، ثم يعلم حكمه :

حدثوا أن أعرابيا ضريراً خرج مع ابنة عم له يرعيان غنما ، فأحس نسمة تؤذن بمطر ،
وأراد أن يتعرف من ابنة عمه حال السماء ، فقال : إني أجدر ربح النسيم قد دنا ، فارفعي
رأسك فانظري ، فقالت : تريد السحب ، كأنها ررب معزى هزلى ، فلم أن السحب لانزال
في صغر قطعها ، ووضوح لونها كقطع المعزى الهزيلة ، وأن المطرات ولكن بعد حين ،
فقال لها : ارعى واحذرى ، وسكت ساعة ، ثم أعاد السؤال ، فقالت : كأنها بغال دهم تجر
جلالها ، فعرف أن السحب قد عظمت وأطبقت ، حتى صارت في ضخامة البغال قد سقطت
عنها الجلال ، فهي تتعثر فيها ، فقال : ارعى واحذرى ، وبعد قليل سألهما الثالثة ، فقالت :
كأنها بطن حمار أحمر .

فعرف أن غبرة السماء قد اختلطت بحمرة خفيفة ، وأن السحاب قد تدلى لثقل مائه ،
وعما قليل سيمطر ، فقال لها : ارعى واحذرى ، ثم سألهما الرابعة ، فأنشدت :

١٠١ : دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يمسه من قام بالراح
فأيقن أن المطر هاطل ، فقال لها : انجى لأبالك ، فما أتم كلامه حتى
هطلت السماء

عناية العرب بالسحاب والغيث :

وبلغ من عنايتهم به ، ورقابهم له أن سموه أسماء بترتيب دفعاته ، فقالوا : إنه أول ما ينشأ نشء ، فإذا انسحب في السماء فهو السحاب ، فإذا تغممت له السماء فهو الغمام ، فإذا كان الغيم في عرض السماء ولم تبصره وإنما تسمع رعده فهو العقر ، فإذا أطل وأظل السماء فهو العارض ، فإذا كان رعد و برق فهو العارض ، فإذا كانت السحابة قطعا صغارا متدانيا بعضها من بعض فهي النمرة ، فإذا كانت متفرقة فهي القزع ، فإذا كانت قطعا متراكمة فهي الكرفى ، فإذا كانت قطعا كأنها قطع الجبال فهي قلع ، فإذا كانت قطعا رقاقا فهي الطخارير ، فإذا كان حولها قطع من السحاب فهي مكلة ، فإذا كانت سوداء فهي طخياء ، فإذا حسبتها ماطرة فهي نخيلة ، فإذا غلظ السحاب وركب بعضه بعضا فهو المكهر... إلى آخر هذه الأسماء التي تبلغ اثنتين وثلاثين منزلة لكل منزلة اسمها المميز لها عما سواها .

وللعطر أسماء مميزة : منها الوسمى ، ثم الولى ، ثم الربيع ، ثم الصيف ، ثم الحميم ، وله في آثاره أسماء كذلك ، فالحيا ما يحيى الأرض بعد موات ، والغيث ما يعقب الحبل ، والديمية الدائمة مع سكون إلى غير هذه الأسماء المحددة للمعاني ، والتي تبلغ سبعة وعشرين اسما كل اسم يميز أثر المطر في الأرض .

وللرياح من الأسماء ما للسحاب والغيث ، فهي النكباء إذا وقعت بين ريحين ، وهي الجرياء إذا وقعت بين الجنوب والصبأ ، وهي المتناوحة إذا هبت من جهات مختلفة إلى آخر هذه الأسماء التي تبلغ أربعة وعشرين اسما .

ونظروا إلى الجبال في ارتفاعها وشهوقها ، فأدنى الجبل الحضيض ، ثم السفح ، ثم السند ، ثم الكيخ وهو عرضه ، ثم الحضن ، وهو ما أطاف به إلى غير تلك الأسماء الكثيرة التي تدل على طول تأملهم فيها ، وإدماهم النظر إليها ، فصرخوا بها الأمثال

استقالتهم بمظاهر الطبيعة :

ولهم في وصف كل هذه الظواهر الرائع من الشعر ، والجيد من النثر ، فهم يحتفلون بها فيصورونها أجمل تصوير ، ومن نثرهم قول أعرابي يصف المطر :

« تدارك ربك خلقه وقد كلبت الأحمال ، وتعاصرت الآجال ، وعكف الياس ، وكتمت الأنفاس ، وأصبح الماشي مصرما ، والمترب معدما ، وجفيت الحلائل ، وامتهنت العقائل ، فأنشأ سحابا ركاما ، كنهورا سجاما ، بروقه متألقة ، ورعوده متعققة ، فسح ساجيا راكدا ثلاثا غير ذى فواق ، ثم أمر ربك الشمال فطحرت ركامه ، وفترت جهامه ، فانقشع محمودا وقد أحيا وأغنى ، وجاد فأروى ، والحمد لله الذى لاتكث نعمه ، ولا تنفد قسمه ، ولا يخيب سائله ، ولا ينزر نائله » .

ولشغفهم ببيتهم ، وإعجابهم بطبيعتهم : المتحرك منها والساكن استمدوا منها أوصافهم واقتبسوا من مظاهرها صورهم ، فى شعرهم ونثرهم ، رجالهم ونسائهم على السواء ، وهذه قصة مارية امرأة حاتم الطائي تصف سنة أصابها وزوجها فيها القحط ، ثم تصف مع هذا كرم زوجها ، فتقول :

« أصابتنا سنة اقشعرت لها الأرض ، واغبرت أفق السماء ، وراحت الإبل حديبا حداير ، وضنت المراضع على أولادها ، فما تبض بقطرة ، وحلقت السنة المال ، وأيقنا بالهلاك ، فوالله إنا لفي ليلة صنبر بعيدة ما بين الطرفين ؛ إذ تضاعى صبيتنا جوعا : عبد الله وعدى وسفانة ، فقام حاتم إلى الصبيين ، وقت أنا إلى الصبية ، وأقبل يعلنى بالحديث ، فعرفت ما يريد ، فتناومت ، فلما تهورت النجوم إذا شيء قد رفع كسر البيت ، ثم عاد ، فقال حاتم : من هذا ؟ قالت : جارتك فلانة ، أتيتك من عند صبية يتعاونون عواء الذئاب ، فما وجدت معولا إلا عليك يا أبا عدى ، فقال : أعجليهم ، فقد أشبعك الله وإياهم ، فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى جنايبها أربعة ، كأنها نعمة حولها رثاها ، فقام حاتم إلى فرسه فوجأ لبته بمديته ، نحر ، ثم كشطه عن جلده ، ودفع المدية إلى المرأة ، وقال لها :

شأنك ، فاجتمعنا نشوى اللحم ونأكل ، ثم جعل يمشى فى الحى يأتهم بيتا بيتا ، فيقول :
هبوا أيها القوم ، عليكم بالنار ، فاجتمعوا ، والتفع فى ناحية ينظر إلينا ، فوالله إن ذاق منه
مزعة ، وإنه لأحوج إليه منا ، فأصبحنا وما على ظهر الأرض من الفرس إلا عظم وحافر .
هذه القطعة فيها الجميل من الصور ، والبديع من الوصف ، وهو لا يحتاج إلى من
يكشف عنه ستوره ، أو يبدى مكنونه ، فوصف الأرض بالاقشعرار ، والسماء بالاغبرار
وصف يشعر بالفاقة ، وينبئ عن الحاجة ، ووصف الإبل بالحذب والضمور ، والمراضع
بالضن والجفاف يدل على اختيار المعانى .

فالعربى يجوع ليطعم ناقته ، والأم تضنى ليحيا وليدها ، وما أروع وصفها الصبية
بأنهم يتعاونون عواء الذئاب ؟ فلصوت الذئاب نكر ووحشة ، وما أجمل تشبيه الأم بالنعامة
تغطى اثنين من رثالها بجناحيها ، ويلتف من حولها بقية أولئك الرثال .
إنها جميعها صور مستمدة من تلك البيئة الغنية بأسباب الجمال ، السخية بروائع الصور
والظلال ، قلنا إنهم اتخذوا من هذه البيئة أمثالهم وحكمهم ، فيقولون : أظلم من حية ،
وأغدر من ذئب . قال الأسدى :

لمرك لو أنى أخاصم حية إلى فقعى ما أنصفتنى فقعى
إذا قلت : مات الداء بينى وبينها أتى حاطب منهم لآخر يقبى
فما لكم طلسا إلى كأنكم ذئاب الغضى ، والذئب بالليل أطلس

وقالوا : « ماء ولا كصدا » وهى ركية عذبة ، قال ضرار السعدى :

وإنى وتهيبى بزئيب كالذى تطلب من أحواض صداء مشربا

وقالوا : « لقد ذل من بالت عليه الثعالب » وأصله أن رجلا من العرب كان يعبد صنما ،
فجاء ثعلب ، فبال عليه ، فكفر بصنمه ، وقال فى ذلك :

١٠٦ : أرب يبول الثعلبان برأسه ؟ لقد ذل من بالت عليه الثعالب

أثر البيئة فى الوصف :

وبعد فليبيئة العربية فى الأدب الأثر القوى ، ولها فى الوصف بصفة أخص الأثر

الأقوى ، منها يستمد معانيه ، ويستنبط أفكاره ، ويتخذ تشبيهاته ، ويستوهمها مادة أوصافه .

وإننا لنعلم فوق ماقدما عن طبيعتها أن العرب كانوا دائماً التسيار ، مدمنى الأسفار ، لا يكاد الواحد منهم يحط رحله اليوم حتى يشده غدا للارتياح والانتجاع . فهم لا يطمثون فى مكان ولا يسكنون إلى دار ؛ لينالوا رزقهم ، ويبلغوا مايتبلغون به ، يخرجون إلى مواطن الكلا ومنابت العشب ، ومساقط الغيث ومنابع الماء .

وقد ساق إليهم هذا الحل الفقر ، وبعث فيهم ذلك الجذب القحط ، فاستهانوا بالنفوس ، واستخفوا بالأرواح يزهقونها ويختطفونها ، فكان اشتعال الحروب ، واصطراع الجيوش ، فرأيناهم يشنون الغارات ، ويؤلفون العصابات ، ويوقدون نار الحرب التى كلما أطفأها عقلاؤهم أوقدها سفهاؤهم .

وإذا آمنا بأن الشعر المضرى نهض نهضته الفنية قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام بمائة سنة ، وأن أول من هلهل الشعر هو عدى بن ربيعة جاز لنا أن نقول : إن الحرب بين بكر وتغلب هى التى أطلقت لسانه ، وفسكت عقاله ، أطلقت بالقصائد الجياد التى سار على نهجها الشعراء من أبناء عصره ، ومن بعد أبناء عصره ، فقد قيل : إن هذه الحرب دامت أربعين عاما تتطاحن فيها القبيلتان باللسان واللسان .

وهكذا نستطيع أن نحكم بأن بيتهم قد أثرت فى حياتهم الصاخبة الصارخة التى لا يستقر لها قرار ، ولا ينطقى للهيها أوار ، فلونت شعرهم بملائم هذه الحياة ، فوصفوها أجمع وصف ، وصوروها أحكم تصوير ، ولم يتركوا فى الفلوات والمغازات إذا كانوا من بنينا شيئا إلا وصفوه ، فوصفوا وحوشها الضارية ، وذئابها العاوية ، وظبائها السارحة ، وجرها القارحة ، كما وصفوا جوارح السماء وصوادحها ، وخشاش الأرض وهوامها ، ثم وصفوا الرسوم والأطلال ، والسهول والجبال ، والأنواء والأمطار ، والعيون والآبار ، والبرق والرعد ، والأفلاك والكواكب ، ولم ينسوا أن يصفوا حياتهم فى جدهم ولهمومهم ، وظنهم وإقامتهم ، وسلمهم وجرهم ، وأن يصفوا أدوات الحرب كالسيف والرمح والقوس والسهم ، وشأنهم

في الحضر ، هو شأنهم في البادية ؛ فوصفوا جميع مظاهره ، وصفوا النبات والأزهار ، والحدائق والأثمار ، والجر ومجالس الشرب ، واللهو ومحافل الميسر . وعلى الجملة لم يتركوا في قراهم ومدنهم منظرا إلا رسموه ، ولم يستخدموا مما يقع في محيطهم أو تحت سمعهم وبصرهم حيوانا أو جمادا إلا وصفوه ، ولم ينالوا من متع الحياة شيئا إلا تحدثوا عنه ، وأشادوا به ، ولم يروا من بأسائها ضرا إلا ذكروه وشكوا منه ، فخلدوا بشعرهم بيتهم ، وأبقوه على الدهر صورة لحياتهم هي أصدق سفر للمؤرخين ، وأدق سجل للباحثين ، ولذلك قالوا صادقين : « الشعر ديوان العرب » .

أقسام الوصف

الطبيعة في الشعر العربي :

يقسم الأدباء الوصف إلى قسمين : وصف الظواهر الطبيعية التي هي من خلق الله القادر المبدع ، ووصف الآثار الإنسانية التي هي من صنع الإنسان الخاذق المخترع ، ومن إخراج اليد الصانع ، ثم هم يناولون الظواهر الطبيعية فلا يجدونها متائلة في جميع الخصائص ، فيعقدون بينها موازنة تنتهي إلى تقسيمها قسمين : الظواهر المتحركة ، وهي كل ما يجري فيه ماء الحياة وينبض بالحركة : من حيوان أنيس كالناقة والفرس ، والكلب والمعر والغنم ، أو حيوان أبد كالأسد والضبع ، والذئب والثعلب ، والحشرات والهوام .

والظواهر المتحركة إما خارجية كهذا الذي قدمنا أمثلة له ، ويسميه الغربيون الوصف الموضوعي ، وإما داخلية ، وهي تلك التي تمثل أحوال قائلها ، فتصف خواطر نفسه ، أو خفقات قلبه ، أو تقرح كبده ، أو تحرق فؤاده ، أو هجسات وجدانه ، أو همسات شعوره ، أو لمحات أفكاره ، أو ماضات إنسانه ، إلى آخر ما يصوره من تلك التموجات النفسية ، والاهتزازات العاطفية ، وهو الوصف الذاتي .

والظواهر الساكنة ، وتنصرف إلى كل ما تشتمل السموات والأرض من أجرام وكواكب ، وجبال وبحارى ، ووهاد ونجاد ، وبحار وأنهار ، وما ينشأ عن هذه وتلك من مد وجزر ، وبرق ورعد ، وغيث ومطر ، وزلازل وبراكين ، وزعازع وأعاصير .

وللشعر العربي في هذه وتلك الآثار الجلييلة ، ولا نظن أن آداب أمة ذات شاعرية تدانى الأمة العربية في العصر الجاهلي في وصف الظواهر الطبيعية الموضوعية ، وبخاصة الحياة منها ، وسنعرض من جميع ماتقدم مافيه مقنع لكل شاك في أن العرب في القديم قد فاقوا أضرابهم في أكثر ضروب الوصف .

غلبة الحس الفردى على الوصف عند العرب :

وبعد ، فالوصف يدور في غالب أمره على الحس الفردى الذى يشعر به صاحبه عندما يكون في حال تماثل حال الشاعر الذى يصور ذلك ، أما الإحساس الجماعى ، فلا يصوره الشعر في العصر الجاهلي ؛ لأن حياة الجماعة لم تكن واضحة المعالم في تلك العصور ، فالشاعر يتحدث عن نفسه أو مايمس نفسه ، لا يكاد يتجاوزها بالنظرة البعيدة ، أو الفكرة الشعبية . على أن هذا لا يغض من قيم الوصف العربى ، فقد فطر الشعب العربى على ثوران النفس ، وتوقز الحس ، لا يطمئن ويهدأ حتى يفكر ويتعمق ، فشعره قائم على البديهة والارتجال أو مايشبه الارتجال ، ومن كان هذا شأنه لا يرضى من شعره إلا بما يرضى عاطفته ؛ ويعبر عن شعوره .

على أن من شعرهم ما يعتمد على الحس والخيال معا ، والعاطفة والتصوير والتمثيل ، وسنعرض في هذا الكتاب لكثير مما يقوم دليلا على أن ألوانا من الوصف قد امتزج فيه الحس بالخيال ، وسيان بعدئذ أن يكون الخيال ماديا أو روحيا .

عوامل الشاعرية :

من الأدباء من يقول : « إن شعراء العرب لم يكونوا ينظرون إلى الكون النظرة الشاملة الواسعة ، ولم يكونوا يشعرون بما فيه من مظاهر الجمال ، وأسرار الحياة إحساس الشعراء الغربيين » وكأنى بأولئك قد نسوا أن الطبيعة الشعرية ليست العامل الفردى فى الشاعرية ، وإنما هى أحد العوامل التى منها : الثقافة والحضارة والبيئة والعصر والخلق ؛ فالعرب فى عصورهم الأولى لم يكونوا قد بلغوا من قوة التفكير ما بلغه شعراء هذه العصور الذين غمرتهم الثقافة ، وشملتهم الحضارة ، وربطتهم بغيرهم أسباب وأسباب .

نرجنا في التأليف :

هذا وسنقسم الشعر الوصفي إلى قسميه المعروفين : وصف الظواهر الطبيعية المتحركة
والساكنة ، ثم وصف الآثار الإنسانية .

والشعراء في العصر الجاهلي كانوا أكثر في القسم الأول افتنانا إلا فيما يتصل بالطبيعة
الداخلية ، إذ لم تكن الآثار الإنسانية وفرت - فيما عدا أدوات الحرب - حتى تلفت إليها
أنظار الشعراء .

سيكون نرجنا أن نجمع القطع المتحدة الموضوع ، المتقاربة المعاني ، نضعها جميعها
في إطار قد وشى بالتفسير والشرح ، والتحليل والنقد ، ونبرز ما قد يكون فيها من صور
شعرية ، وما في هذه الصور من دقة في الفن ، وجودة في الوصف .

وعندنا أن التفسير أول واجب على المؤلف ؛ حتى لا يحمل القارئ عبء الانصراف
عن القراءة إلى مراجعة المعجمات يسألها البيان والإيضاح ، فينبعث في نفسه الميل إلى
الانصراف عن هذا الشعر الذي لا يفهم إلا بمسألة القواميس ، وشرح هذه القطع شرحا
تصويريا يجب إلى شدة الأدب آثارهم القديمة ، ويزجي إليهم اللذة الفنية .

ولا نريد إحصاء ، فالشعر العربي زاهر بمادة الوصف ، ومكان ذلك الإحصاء إنما هو
دواوين الشعراء ، وإن كنا سنورد أمثلة للكثرة الغالبة من الشعراء ، دون تمييز بين من
اشتهر بالوصف ، ومن لم يشتهر به ؛ لنبين أن العرب أجمعين كانوا وصافين ، ولنبدى لكل
قارئ أن الوصف في الشعر العربي كان يغلب جميع ضروب الشعر .

هذا ولن نعرض لوصف الناس : رجالا ونساء ، فهذا باب الممدح أو الغزل أو الهجاء ،
حتى ولو كان معبرا عن دراسة نفسية ، كقول أحد الشعراء عن أخلاق النساء :

رأين الغواني الشيب لاح بعارضى فأعرض عني بالحدود النواضر

١٠٨ : وكن إذا أبصرنتي أو سمعتني سمعتين فرقتين السكوى بالحاجر

لأن ذلك سيخرجنا عن الوصف إلى كل ما يمت إليه ، وما أكثر ما يمت إليه

ويتصل به .

قيمة الوصف في العصر الجاهلي :

كان الوصف في العصر الجاهلي أقوى فنون الشعر ، فكلمنا عن لأحدهم أن ينظم شعراً
كان الموحى به هو الوصف ، سيات في ذلك أن يكون وصفا للطبيعة المتحركة أو الساكنة ،
يبدؤون به قصائدهم التي قد يكون الدافع إليها ضرباً سواه ، ولكن الشاعر ينسى هذا
الضرب ، وقد لا يلمّ به إلا إلاماً ضئيلاً .

وشغفهم بالوصف دفعهم إلى أن يصفوا بعض التافه من عاداتهم ، فمن ذلك أن غلمانهم
كانوا إذا ثغروا رموا أسنانهم في عين الشمس بسبابتهم وأباهيمهم ، وقالوا : أبدلينا
أحسن منها ، فوصف ذلك طرفة بقوله :

بدلته الشمس من منبتها بردا أبيض مصقول الأشر

وكانوا يزعمون أن الإبل إذا أصابها العر ، فأخذوا الصحيح فكواه زال المر عن السقيم ،
قال النابغة في وصف تلك العادة :

وكلفتني ذنب امرئ وتركته كذي العري كوى غيره وهوراتع

ومن ذلك لعبة الفيل حين شبه بها طرفة السفينة في البحر تشقه ، فقال :

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد

وذكروا الوشم الذي كانوا يستوشمون به ، فقال زهير في مطلع معلقته :

أمن أم أوفى دمننة لم تكلم بجومانة الدراج فالتئم ؟

ودار لها بالرقتين كأنها مراجع وشم في نواشر معصم

وقال طرفة في المعنى ذاته في أول معلقته :

١١٤ : نخوة أطلال ببرة نهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وذكروا أكل الهرة أولادها حبا لها ، وأكل الضب إياها عقوقاً منه ، فوصفوا به برّ

الرجل ، فقال العباس بن عقيل لأبيه :

أكلت بنيك أكل الضب حتى وجدت مرارة الكلال الويل
فلو أن الألى كانوا شهودا منعت فناء بيتك من يجيل

وليس كل ذلك في حقيقة الأمر من وصف الطبيعة الساكنة أو المتحركة ، وإنما هو وصف للعادات ، وهو يدلنا على إمعان في الوصف إمعانا لم يقف عند حد ، وإن أنكر ذلك المنكرون ، فأى وصف للطبيعة الداخلية والنفس المتغيرة أقوى من قول علقمة الفحل :

فإن تسألوني بالنساء فإننى بصير بأحوال النساء طيب
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله فليس له فى ودهن نصيب
يردن ثراء المرء حيث علمنه وشرح الشباب عندهن عجيب

وأى وصف أبدع تصويرا لأخلاق النساء وغريزة حب الاستطلاع من قول المثقب العبدى :

١٢٠ : ظهروا بكلة وسدلين رقما وثقبن الوساوص للعيون

وكل هذا وسواه مما سنعرضه فى هذا الجزء يدل على أن الوصف الجاهلى بلغ مبلغا عظيما .



الفصل الخامس

وصف الطبيعة المتحركة في العصر الجاهلي

عنى الشاعر الجاهلي بوصف الطبيعة المتحركة العناية كلها ، ولا سيما وصف الناقة والفرس ، وله ما يبرر هذه العناية بهذين الحيوانين أكثر من عنايته بسواهما ، فإن الناقة أعظم خلق أرضي في نظره ؛ لما يفيد منها ، ولما تسديه إليه من صنائعها ، فهي صديقة حله وترحاله ، ورفيقة ظعنه وإقامته ، تحمل له الكل ، وتعينه على نوائب الدهر ، وتصبر معه على لأواء الأيام ، دون أن تشكو نصبا ، أو تحس لغوبا ، وإن أحسسته لم تضجر ولم تتملل .

إنها تظلم فلا تشكو الصدى ، وتجموع فلا تظهر الأسى ، وتقطع بخليلها الصحارى في الصبر الجميل والوفاء الكريم ، فإذا أقام شرب لبنها ، ونسج وبرها ، وطعم لحم فصالها ، هذا إلى أنها تؤنس وحشته ، وتحفف عليه وحدته ، يحدوها فتشاركه في عواطفه ، ويعينها فنشاطه جميع مشاعره ، تنقاد له انقياد الصديق لا انقياد الذليل ، وتطيعه طاعة الرقيق لا طاعة الرقيق ، فلو شاءت لحرمته امتطاءها ، ومنعته وبرها ولبنها وفصالها ، فهي في ضخامتها وجسامتها ، وقوتها ومُنتها تستطيع أن تدفع عن نفسها ، ولكنها تنيف إذا أراد إناختها ، وتنهض حينما يطلب نهوضها ، وترقل إن ابتقى منها إرقالا ، وتخذ إن أحب منها وخدا ، فكيف به بعد كل ذلك لا يحفظ ودها ، ولا يحسن نعتها ؟

ثم يتبع بوصفها وصف ما يشبهها من بقر وحشى فيبدع في وصفه ما شاء له الإبداع ؛ لأنه شبيه ما منحه مودته ، ونظير ما أولاه تقديره .

وإن الفرس لأجل ما خلق الله في نظره ، وهو إلى هذا الجلال الفتان صديق حربه
وسلمه ، ولهوه وجده ، وطرده وصيده ، لا يرض عليه بجهد ، ولا يمتلح دونه بشأو ، إذا
حارب كان له أوفى من سيفه ورمحه ، وأسدّ من قوسه وسهمه ، وإذا سالم شاركه في خيلانه ،
وعاونه على بناء مجده وسنائه ، وإذا ابتغى صيدا كان قيد الأوبد ، أو أراد طرداً آلى على
نفسه أن يلحق المطارد ، وأمهار الفرس ثروته المدخرة ، وكنزه الثمين ، فهي كما قال الشاعر :
* قليلة كالكرام ، عزيزة لاتضام * وإذا وصف فرسه انتقل منه إلى وصف
ما يتصل به فأنا يصف الصيد والطرد ، وأنا يصف المعارك والحروب ، وإذن فلا غرابة
أن يفتن بهما ، فيفتن في وصفهما .



(١) وصف الناقة

١ — قال طرفه بن العبد * يصف ناقته في معلقته التي أولها :

لخولة أطلالٌ يبرُقة شهْمَدٍ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد^(١)

وَإِنِّي لَأَمْضِي الهمَّ عند احتضاره بعوجاء مرقالٍ تروح وتفتدي^(٢)

أُمونٍ كالوواحِ الإِرنِ نَسأتُها على لاجبٍ كأنه ظهْرُ بُرْجُودٍ^(٣)

١٢٤ : تباري عتاقاً ناجياتٍ وَأَنْبَعَتْ وَظِيْفاً وَظِيْفاً فوقَ مَوْرٍ مُعْبَدٍ^(٤)

* ترجمه الشاعر : هو طرفه بن العبد بن سفيان البكري ، وطرفة لقبه ، واسمه عمرو ، وهو من أشعر شعراء العصر الجاهلي ، ومعلقته التي منها هذه الأبيات من أجود المعلقات ، ومن أروع الشعر الوصفي ، فهي جميعها وصف ، وقد اشتملت على معان لم تشتمل عليها غيرها ، قتل بأمر من عمرو بن هند لأنه هجاء ، ولم تكن سنه بلغت الثلاثين ، فكيف به لو عمر ؟ قتل حوالي سنة ٥٥٢ م

التفسير المغوي : (١) خولة : خليلته ، قيل : إنها امرأة من كلب . الأطلال : جمع طلل ماشخص من آثار الديار . البرقة : الراية من الرمل والطين . الوشم : غرز الإبر ، ثم ينثر عليه الكحل فيبقى سواده ظاهراً .

(٢) لأمضي : لأذهب . احتضاره : نزوله . العوجاء : الناقة النشيطة لاتستقيم في سيرها . مرقال : سريعة . تروح وتفتدي : يستوى عندها سير الليل والنهار .

(٣) أمون : مأمونة العثار . الإرن : التابوت . نساتها : ضربتها بالمنسأة . لاجب : طريق واضح . برجود : كساء مخطط .

(٤) تباري : تسابق . عتاقاً : جمع عتيقة كرائم : ناجيات : جمع ناجية سريعات . الوظيف : عظم الساق . المور العبد : الطريق المهد .

- ✓ تربعت الرفيق بالشول ترتعي حدائق مولى الأسيرة أعيد^(٥)
 أربع إلى صوت المهيب وتتقي بذى خصل روعات أكلف ملبد^(٦)
 ✓ كأن جناحي مضرحي تكنفا حفايه شكاً في العسيب بمسرد^(٧)
 فطوراً به خلف الزميل وتارة على حشف كالشن ذاو مجدد^(٨)
 ✓ لها فخذان أكل الذخض فيهما كأنهما بابا منيف ممرد^(٩)
 وطى محال كالخني خلوفه وأجرة لزت بدأي منضد^(١٠)
 ١٣١: كأن كيناسي ضالة يكتنفانها وأطرقي تحت صلب مؤيد^(١١)

(٥) تربعت : رعت الربيع : الرفيق : مثق قف ، وهو الأرض المرتفعة . الشول : الإبل شالت ضرعها . المولى : الذي توالى عليه المطر . الأسيرة : مفردتها سرارة ، بطون الأودية . الأعيد : الناعم من كل شيء .

(٦) أربع : ترجع . المهيب : الراعي يهيب بها ويدعوها . بذى خصل : بذيل كشيء الور . الروعات : الإفزاعات . أكلف : أحمر ضارب إلى السواد . الملبد : التلبد وبره .

(٧) المضرحي : العتيق من النسور يضرب إلى البياض ، وهو طويل الجناحين . تكنفا : صاراً من جانبيه . حفايه : جانبيه . شكا : غرزا . العسيب : أصل الذنب . بمسرد : بمخصف . (٨) الزميل : الرديف ، ويقصد موضعه . الحشف : الأخلاف جف لبها . الشن : القرية البالية . الداوي : الذابل الياس . المجدد : الذهاب اللبن .

(٩) النحض : اللحم . المنيف : العالي . وهو وصف لموصوف محذوف أي قصر منيف . ممرد : مملس أو مطول ، وهو المقصود هنا .

(١٠) المحال : فقار الظهر الواحدة محالة ، وهي خاصة بفقر البعير . الحني : مفردتها حنية القسي ، الخلوف : مفردتها خلف الأضلاع . الأجرة : جمع جران باطن العنق ، وجمعه لما حواله لزت : قرن بعضها ببعض . الدأى جمع دأية وهي فقار العنق أو الظهر . منضد : منسق منظم .

(١١) الكناس : بيت الظبي يختفاه في أصل الشجرة كالسرب والجحر . الضالة : شجرة السدر . يكتنفانها : يحيطان بها . الأطر : العطف . مؤيد : مقوى مشدد .

- لها مرفقان أفتلان كأنما تمرُّ بسلمٍ دالجٍ مُتَشَدِّدٍ (١٢) ✓
 كفنطرة الرُّومِيٍّ أقمِ ربهَا لتكتنفن حتى تشاد بقرمدٍ (١٣)
 صهايبةُ العُنُونِ موجدُ القرا بعيدُةٌ وخذ الرجل موارِدُ اليدِ (١٤)
 أمرت يداها فتل شزرٍ وأجنحتُ لها عضداها في سقيفٍ مُسندٍ (١٥)
 جنوحٌ، دفاقٌ، عندلٌ، ثم أفرعتُ لها كتفاها في معالي مصعدٍ (١٦)
 كأنَّ علوبَ النَّسْعِ في دأياتِها مواردُ من خلَقَاءِ في ظَهْرٍ قرَدٍ (١٧)
 ١٣٨: تلاقى وأحياناً تبينُ كأنها بنائقُ غُرٍّ في قميصٍ مُقدِّدٍ (١٨)

- (١٢) المرفقان : مثني مرفق ، الوصلان بين الساعد والعضد . أفتلان : محكان . السلم : الدلوذات عروة واحدة . الدالج : النازح بالدلو من البر إلى الحوض .
 (١٣) لتكتنفن : لتؤتين من أطرافها لتبنى . تشاد : ترفع . بقرمد : بأجر .
 (١٤) صهايبة العننون : حمراء ماتحت لحياها من الور ، والصهبة يياض تخالطه حمرة . موجدة : محكة . القرا : الظهر . الوخذ : ضرب من السير السريع . موارِد : دواردة القامتين الأماميتين .
 (١٥) أمرت . فتل . فتل شزر : فتلا إلى أعلى . أجنحت : أميلت . سقيف مسند : سقف متأسك .
 (١٦) جنوح : مائلة . دفاق : متدفقة في السير . عندل : ضخمة الرأس . أفرعت : عوليت . معالي : اسم مفعول من عالى يعالى . مصعد : مرتفع .
 (١٧) العلوب : مفرداها علب بفتح العين الآثار . النسع : الحبل من الجلد مضمفور . الدأيات : منتهى الأضلاع . الموارد : طرق المياه . الخلقاء : الصخرة المساء . القرود : الأرض المستوية الصلبة .
 (١٨) تبين : تتفرق . البنائق : مفرداها بنيقة قطع القميص من الأجانب . غر : يبيض مفرداها غراء . مقدِّد : مشقق .

- وَأَتْلَعُ نَهَاظُهُ إِذَا صَعَدَتْ بِهِ (١٩) سَكَّانٍ بَوْصَى يَدْجُلُهُ مُضْعِدُ
وُجْجَمَةٌ مِثْلُ الْعَلَاةِ كَأَنَّهَا (٢٠) وَعَى لِلْمُلْتَقَى مِنْهَا إِلَى حَرْفٍ مُبْرَدٍ
وَحَدُّ كَقِرطاسِ الشَّامِيِّ وَمِشْفَرُ (٢١) كَسِبَتْ الْيَابِي قَدَهُ لَمْ يُحْرَدِ
وَعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَّتَيْنِ اسْتَكْنَمَتَا (٢٢) بِكَهْفٍ حِجَاغِي صَخْرَةٍ قَلَّتِ مَوْرِدُ
طَحُورَانِ عَوَارِ الْقَدَى فَنَرَاهَا (٢٣) كَمَحُولَتِي مَذْعُورَةٍ أُمُّ فَرْقَدِ
وَصَادِقَتَا سَمِعَ التَّوَجُّسَ لِلْسَّرِيِّ (٢٤) لِمَجْسٍ خَفِيَ أَوْ لَصَوْتٍ مُنْدَدٍ
١٤٥: مَوْلَتَانِ تَعْرِفُ الْعِتْقَ فِيهِمَا (٢٥) كَسَامَعَتِي شَاةٍ بِحَوْمَلٍ مُفْرَدِ

- (١٩) الأتلع : الطويل العنق . النهاض : القوى المرتفع في سيره . صعدت به : أشخصته إلى السماء . السكَّان : الدفة . البوصى : التوى . دجلة : نهر بال عراق . « انظر للمصور »
(٢٠) العلاة : السندان . وعى : تماسك . الملتقى : مجتمع عظام الرأس . الحرف : الحد .
(٢١) القِرطاس : ورق الكتابة . الشامى : الكاتب المنسوب إلى الشام . للمشفر : للجمل كالشفة لغيره . السبت : الجلود المدبوعة أو من جلد البقر خاصة . قدّه : قطعه . لم يحرد : لم يعوج في تقطيعه .
(٢٢) كلماويتين : كالمرايتين . الكهف : الغار في الجبل . الحجاج : العظم للشرف على العين . القلت : النقرة في الصخرة أو للعين . المورد : منهل الماء .
(٢٣) طحوران : دفاعتان . العوار : مايضر العين كالقدى . المذعورة : وصف لموصوف محذوف هو بقرة . أم فرقد : كناية عن البقرة الوحشية ، والفرقد اسم ولدها .
(٢٤) التوجس : التسمع بحذر . السرى : السير ليلا حيث يجب الحذر . المهجس : الحركة . مندّد : مرفوع .
(٢٥) مَوْلَتَانِ : محدتان . العتق : الكرم . الشاة : الثور الوحشى . حومل : اسم مكان . مفرد : صفة لشاة ، وجاء اللفظ بلاهاء ، لأنه أراد الثور الوحشى ، وانفراده يجعله أحد سمعا ؛ إذ ليس هناك ما يشغله .

وَأَرَوْعُ نَبَاضٌ أَحَدٌ مُنْكَمَ كِرْدَاةٍ صَخْرٍ فِي صَفِيحٍ مُصَمَّدٍ (٢٦)
 وَإِنْ شَتَّ سَامَى وَاسِطَ الْكُورِ رَأْسُهَا وَعَامَتِ بَضْبَعِيهَا نَجَاءَ الْخَفِيدِ (٢٧)
 وَإِنْ شَتَّ لَمْ تُرْقِلْ وَإِنْ شَتَّ أَرْقَلَتْ خَافَةً مَلَوَىءَ مِنَ الْقَدِّ مُحْصَدٍ (٢٨)
 وَأَعْلَمُ مَخْرُوتٌ مِنَ الْأَنْفِ مَارْنٌ عَتِيقٌ مَتَى تَرْجُمُ بِهِ الْأَرْضَ تَزْدَدِ (٢٩)
 ١٥٠ : عَلَى مِثْلِهَا أَمْضَى إِذَا قَالَ صَاحِبِي أَلَا لَيْتَنِي أَفْدِيكَ مِنْهَا وَأَفْتَدِي (٣٠)



(٢٦) الأروع : صفة لموصوف محذوف هو ، القلب ، والأروع : الفزع الخائف . نباض : كثير النبض والخفقان . أحد : أملت ما لم : مجتمع . كيرداة : كصخرة تكسر بها الصخور لصلابتها . الصفيح : العريض من الحجارة . المصمد : الصلب لا خور فيه .
 (٢٧) سامى : على وطاول . واسط الكور : العود بين موركة الرجل ومؤخره ، وموركة الرجل الموضع الذى يضع عليه الراكب رجله . بضعيها : بعضديها . نجاء : إسراع . الخفيد : الظلم .
 (٢٨) الإرقال : ضرب من السير السريع . الملوى : وصف للسوط . القد : الجلد . المحصد : المحكم .
 (٢٩) الأعم : وصف للشفر ، والعلم : الشق فى الشفة العليا ، وضده الفلج ، وهو شق الشفة السفلى . المخروت : المشقوق . المارن اللين . عتيق : كريم . ترجم : تضرب به الأرض . تزد : تضاعف سيرها .
 (٣٠) منها الضمير يعود على القلاة الموحشة الخيفة .

تحليل الأبيات :

هذه قصيدة كاملة في وصف الناقة ، وإن تكن جزءا من معلقة طرفة ، فقد بلغ وصفه للناقة ثمانية وعشرين بيتا ، وهو قدر لم يبلغه شاعر سواه ، وكلها تفيض بالمعنى وتزخر بالأفكار ، فليس فيها بيت يمكن أن يقال عنه : إنه انحرف فيه عن موضوعه ، أو حاد عن غرضه ، بل إن الأبيات إلى الإيجاز بنوعيه : إيجاز الحذف وإيجاز القصر أقرب منها إلى الإسهاب والإطناب .

ولو أن رساما نابغة ذايد صناع ، وريشة مطواعة وقف يتأمل الناقة جزءا جزءا ، ثم يرسم ما تأمله ، وما يمكن أن يتخيله ما بلغ هذا الذي بلغه طرفة ، فسيكون الرسم صامتا لا ينبض بحياة ، ساكنا لا يشعر بنأمة ، أما الأبيات فتنبض بالحياة وتفيض بالحركة .

في هذه الأبيات صور كثيرة تبهر أقدر المصورين ، وتعجز أنبغ الرسامين ، ولقد أعجب بهذا الوصف القدامي والمحدثون ، ولا نعرف أحداً من أولئك أو هؤلاء جرؤ على القول بأن في الوصف عيبا ، أو أن في الخيال شططا ، فالأخيلة جميعها مستمدة من بيئته ، مقتبسة من طبيعة أرضه ، مأخوذة عن المحسوسات ؛ إذ وصف الناقة لا يستقيم بغير المحسوسات .

قال : إني لأزِيلُ هِيَّ وَغَمِي بامْتِطَاءِ نَاقَةٍ نَجِيمَةٍ ضَامِرَةٍ ، سَرِيعَةٍ مَرْقَالٍ ، تَصِلُ بِمَسِيرِ اللَّيْلِ سَيْرَ النَّهَارِ ، دُونَ أَنْ يَخْشَى رَاكِبُهَا الْعَثَارَ ، وَكَيْفَ تَعَثِّرُ وَجَسْمُهَا فِي صَلَابَتِهِ كَالْوِاحِ التَّابُوتِ ؟

لقد مستستها بالنساء لأستثير همتها في طريق قويم ، لأمت فيه ولاعوج ، كأنه الثوب المستقيم الخطوط .

ومن قدماء النقاد من زعم أنه لم يرد في قوله : « على لاحب كأنه ظهر بوجد » ظهر الكساء دون بطنه ، وكأنه يقول : إن « ظهر » حشو ، والأمر ليس كذلك ، فظهر الكساء هو الذي تظهر خطوطه واضحة ، أما بطنه فلا تكاد تظهر له خطوط ، وهي دقة تخفى على غير طرفة المتأمل المتمعن .

ناقى تلك تبارى فى سيرها كرائم النياق ، ونجائب العتاق ، فتغذ السير ، وتتبع
الوظيف الوظيف فوق ذلك الطريق المعبد ، وهى الكريمة عندى ، الأثيرة لدى ، فأنا
أربعها نبات الربا ، وأربعها عشب الحقائق ، وهذا وذاك أجل ماتنبته الصحراء ، بل من
أجل ماتخرجه الأرض ، أربعها نبات الربا وعشب البساتين بين نياق قد جفت ضروعها ،
ونضبت أخلافها ، فقيهن إلى الطعام نهم ، ولهن على التهامه قدرة ، فيبعثن فيها الميل إلى
التنافس فى الرعى من ذلك المرعى الناعم الأريض الذى يلاحق وسميه وليه ، فهو دائم
الإعشاب ناعم التراب .

وهى ناقة مذعانة إذا أهاب بها حاديا سعت إليه سراعا متقية بذيلها ذى الخصل
الكثيفة ماقد يعترض طريقها من الفحول الشداد . تلك الفحول الكلف الملبدة خصل
ذيلها لكثرة ثورانها ، ولكنها لاتباليها فى سبيل الإجابة لإهابة داعيها ، ذنبها الذيل
المنبسط الوبر يشبه جناحى النسر العتيق الطويل الجناحين ، فكأنهما قد غرزا
فى عظامه ، وهذا تشبيه واسع الدلالة ؛ إذ يدل على أنها قوية كقوة جناحى النسر ، وأن
ذيلها منبسط انبساط الجناحين ، كما يدل على غزارة وبره ، فهى به معجبة ؛ فطورا تضرب
به مكان الرديف لحاديها ، وآخر تضرب به أخلافها ، فهو حيناً إلى أعلى ، وحيناً
إلى أدنى ، وفى الحالين تبلغ به المكان القصى البعيد ، تبلغ به أخلافها التى جف لبنها ،
فصارت كالقربة البالية ، والشن الذابل ، ولها فخذان مكتنزان باللحم ، كأنهما لضخامتهما
مصراعا باب لقصر مشيد منيف ، وفقار ظهرها متداخلة متماسكة ، وهى مع الأضلاع
المتصلة بها كالقسي اقترن بعضها ببعض فى صفوف متراسة ، وما بين مرفقى الناقة منبسط
فسيح ، كأنه كناسان محفوران فى أصل شجرة سدر ، وكأن قسيا متعاطفة تحت أضلاعها
الصلبة ، فهى لذلك مأمونة المسير .

ولما وصف ما بين مرفقيها بالانبساط أراد أن يزيد المعنى إيضاحاً فقال :

إن مرفقيها المقتولين المتباعدين يشبهان دلوين يحملهما سقاء قوى ، إحداها فى يمينه ،
والأخرى فى يساره ، فهو لقوته يبعدها عن جانبيه ؛ حتى لا يحتكا بثيابه ، وهى
فى امتدادها وصلابة أجزائها كقنطرة رجل روى حاذق الصناعة ، محكم البناء ، بصير

بجأته وأدواته ، فهو يقسم أن بينها من جوانبها بالآجر ؛ حتى لا يصيبها وهن ، وهى من النوق المتكاملة الجمال ، فأتحت لحبيها أحمر ، وهى قوية الظهر ، شديدة الأسر ، بعيدة الخطو ، دوائر اليد ، وفى هذا البيت تقسيم رائع فى معنى وافر لا يغض من قيمته أنه تكرار لمعنى سبق ، فكأنه أراد أن يحمل بعد تفصيل ، شأن العلم بالفرائز يجمع المتفرق ؛ ليثبتته فى الأذهان ، وهو إلى هذا من طرق شعراء ذلك العصر ، وأحسب أن شيئاً آخر غير العلم بالفرائز يدعو إلى التكرار هو أنهم فى أمية تحتاج إلى التقرير والتأكيد .

أحكمت قائمتاها الأماميتان أيما إحكام ، فكأنهما مفقولتان فتلا شزرا ، وأميلت عضداها تحت جنبها ، فكأنهما سقفان أسند بعضهما إلى بعض ، تجنح فى سيرها لفرط نشاطها (وليس بين هذا البيت والبيت الثالث ... أمون كألواح ... تناقض ؛ لأنه فى البيت الثالث حملها على الاستقامة بمنسأته) وتتدفق فى طريقها ضخمة الرأس ، مرتفعة الكتفين على ظهر قد علا وتسامى ، وكأن آثار النسع فى ظهر هذه الناقة وجنبيها موارد ماء ينبجس من ناقة ملساء فى أرض صلبة غليظة ، وهو تشبيه كامل الحسن ، دقيق العرض ، فقد شبه خطوط الأنساع بموارد الماء فى بياضها وامتدادها ، وشبه جنبها بالصخرة الملساء فى الصلابة والنعومة ، وجعل ظهرها صلباً كالأرض الغليظة ؛ إذ فى الظهر السنام ، هذه الموارد تبدو للعين متلاقية متجمعة حيناً ، ومتفرقة متباعدة حيناً ، فتتلاقى تحت إبطها عند ما تربط بينها العرا ، وتتباعد عند ما ترتفع إلى الرحل ، فكأنها بنائق بيض فى قميص شقق ووصل ، وهذا البيت يتم الصورة فى البيت السابق .

ولها عنق سامق ، إذ أرفعته كان كسكان النوق يسير بزورقه فى دجلة ، والتشبيه يجمع بين حركتى العنق والسكان فى ارتفاعهما حين تسير الناقة ، وحين تجرى فوق الماء السفينة ، ولها جمجمة صلبة كأنها السندان ، فكأنما طرفاها يجتمعان عند ملتقى صلب محدد تحديد المبرد ، وهو تشبيه بالغ الحسن ، قال عنه الأصمى : « لم يأت أحد غير طرفة بهذا التشبيه » ولها خد مصقول قد خلا من الشعر الذى يشين الخدود ، فكأنه

لأنصقاله قرطاس كاتب شامى ، فهو يختار لما يكتب أرق القراطيس وأبيض الورق ، ينتهى بمشفر طويل لين مستقيم ، كأنه مقدود من جلد البقر المدبوغ بالقرظ ، واستقامة المشفر دليل فناء الناقة وشبابها ، ولها عينان صافيتان متألقتان كمرأتين ثبتتا في عظمتين غائرتين ، كأنهما لغورها وصلابتها نقرتان في جبل ينبع منه أصفى الماء ، هاتان العينان تدفان ما يمكن أن يصيب العيون من عوار أو قذى ، فهما في صفائهما وكلهما كعيني بقرة وحشية مذعورة من صائد ترقبه وتحذره على نفسها وعلى فرقدها ، والبقرة في تلك الحال أجمل ما تكون عينا ، وأحد ما تكون بصرا ، ولها أذنان سماعتان متوجستان في السرى ، سواء عندها أكان ما تسمعه مجسا خفيا أم صوتا عاليا ، أذنان دقيقتان محدودتان تحديد الحربة ، فكأنهما أذنا ثور وحشى في مكان موحش ، فهو لوحده ووحشته حديد السمع ، شديد الحذر . ذات قلب عظيم الارتياح ، سريع الخفقان ، خفيف ذكى مجتمع ، كأنه الصحراء العظيمة بين أضلاع كالحجارة العراض ، وذات مشفر معلم ، وأنف مثقوب لين ، فإذا أومات به إلى الأرض اندفعت كالسهم لا تأبه ما يعترضها .

وهي مروضة ذلول ، إن أردتها على الإسراع ابت إرادتك ، وإن شئت منها البطء أجابت مشيئتك خشية سوط ملوى محكم مقدود من الجلد ، وإن أردتها على أن تطاول برأسها العود في واسط كورها كان لك منها ما تريد ، وجميع ذاك لفرط نشاطها ، وامتلاكي زمامها ؛ حتى لتشبهه إذ تسبح بعضديها الظليم الطويل الساقين .

على مثل تلك الناقة التامة التكوين ، الكاملة الأعضاء ، أقطع الفلاة التي تخيف الشجاع الجرى ؛ حتى ليقول صاحبي : ليت لى ما أفتديك به وما أفتدى به نفسى ؛ لتكتب لنا النجاة ، تكون هذه الناقة سبيل الأمان ورائد الحياة .

القصر :

وبعد ، فإن المتأمل في هذه الأبيات يستنبط منها ما يمكن أن يتخذ حكما عاما على الوصف في الشعر الجاهلي ، فهو لا يعنى بالترتيب ، ولا يبالي بمواقع الأعضاء ، فقد وصف أول ما وصف سرعة الناقة ، وانتقل من وصف سيرها إلى وصف أضلاعها ، ولم يسر في هذا طويلا بل رجع إلى وصف منزلتها في نفسه ، وإكباره لها ، ثم عرج على وصف ذيلها ، وهكذا ، لاتراه يسير على نمط ، بل أشد ما يتأثر به هو أول ما يبدأ بوصفه .

وهو يعتمد على التشبيه كل الاعتماد في تصوير ما يشاء تصويره ، ويغلب أن يكون واضحا كل الوضوح ، فكأنه اختار لكل جزء لونه الملائم له ؛ لتكون الصورة كما يقولون « طبق الأصل » فأى جمال في التشبيه يفوق قوله :

أمون كألواح الإيران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد

وقد عرضنا لدقة التشبيه في تحليل هذا البيت ، وأظهرنا أن أى كلمة لا يعنى عنها غيرها ، فهي مأمونة المسير ؛ لأن أعضائها صلبة كألواح التابوت ، وهي تطوى طريقا لاحبا ، قد رسم طرفة كثرة المسير فيه فهو يظهر كالكساء المخطط خطوطا طولية ، أو قوله :

لها نخدان أ كمل النحض فيهما كأنهما بابا منيف مـرد

لم يكف أن يشبه نخذيها بأنهما كبابى القصر في استطالتهما وتقابلهما ، فوصف القصر بأنه شاهق أملس ، لأن نخذى الساقين أملسان ، والملاسة من آثار السمنة ، أو يفوق قوله :

وعينان كالماويتين استكنتا بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد

ولعله لاحظ في هذا البيت أكثر من علاقة بين المشبه والمشبه به ، فالعينان كالمرأتين المستكنتين في مغارة جبلية ، ولعمان العينين في هاتين النقرتين كالماء ينبع من تينك المغارتين ، إلى غير هذه التشبيهات الدقيقة التصوير .

كما أن الكناية تلى التشبيه في اعتماده عليها ، وعنايته بها ؛ فالأبيات التي لا تشبيه بها قد يكون فيها كناية مستملحة ، كقوله :

تبارى عتاقا ناجيات وأتبعن وظيفا وظيفا فوق مور معبد
فقد كنى في الشطر الأول عن كرمها ونجاتها بمباراتها للكرائم العتاق ، كما كنى في الشطر الآخر عن سرعتها ونشاطها بإتباعها الوظيف الوظيف ، وكقوله :

تربعت القفين بالشول ترتعى حدائق مولى الأسرة أغيد
كنى عن إعزازه إياها بأنها تربع نبات الربا ، وترتعى حدائق قد أخذت حظها من الماء ، فهي ناضرة ناعمة ، وكقوله :

تريع إلى صوت المهب وتبقى بذى خصل روعات أكلف ملبد
كنى في الشطر الأول عن يقظتها وطاعتها ، ودأبم توجسها وتوقها ، وكنى عن كثافة وبر ذيلها بأنه ذو خصل ، وكنى عن شجاعته بأنها تفوت الفحل الأكلف الملبد ، وعنه بأنه أحمر ضارب إلى السواد ، وكنى عن قوته بروعاته وبكلفه وإلباده .

وقد يستخدم الاستعارة قليلا ، وإذا جاء بها بدت متناسقة الألوان ، كاملة الظلال ، كقوله :

أمدت يداها فتل شرر وأجنحت لها عضداها في سقيف مسند
فقد صور استدارة قائمتيها الأماميتين بالفتل الشرر ، وظهرها بالسقف المتساند المتناسك الأجزاء ، وكقوله :

طحوران عوار القذى ، فتراها كمكحولتى مذعورة أم فرقد
ففى الضمير المحذوف العائد على « وعينان » استعارة ، إذ شبه العينين بإنسانين يدفعان الأذى ، ويطحران العوار .

والشاعر واسع الثروة اللغوية ، فاللغة لغته ، ولا يعيبه أن يستبدل بلفظ لفظا ، ولا يعجزه أن يعدل عن كلمة إلى أخرى ، وإن لاحظنا أنه إنما يعدل عن القريب إلى

الغريب ، وليس ذلك شأن أكثر شعراء عصره ، فلعل ذلك لأنه كان ما يزال شابا ، وللألفاظ جزالة وفتوة تستمدان من قائلهما ، أو كأنه يريد أن يظهر أنه فوق براعته في القريض يستطيع التصرف في الألفاظ ، أو أن ذلك مسلك سائر شعراء العصر الجاهلي في الوصف أو في وصف الطبيعة المتحركة بالذات ، وذلك واضح جدا في وصف النابغة وزهير وغيرها .

وطرفة لا يهتم بالأسلوب اهتمامه بالمعنى ، فقد نجد في الأسلوب ما قد يأخذه عليه الناقدون ، وذلك لأن الجاهليين كانوا يؤثرون العناية بالمعاني ، والتصرف فيها على العناية بالأسلوب ومراعاة الجمال فيه ، فما لاستلذ الأذن جرسه لتوالى الإضافات قوله :

وعينان كلما وبتين استكننا بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد
وقوله في البيت التالي للبيت السابق :

طحوران عوار القذى فتراهما كمكحولتي مذعورة أم فرقد

وإننا نشعر بأن طرفة كان رجلا خيرا ببيئته ، عالما بطبيعة بلاده خبرة وعلماء قل أن يدركهما علماء وصف البلدان ، ونجده بصيرا حاذقا بطبائع الحيوان ، بصرا وحذا لا يجاريه فيهما علماء الحيوان في هذا العصر ، ولا أقصد حيوانا خاصا هو الناقة التي يصفها ، بل أقصد جنس حيوان بلاد العرب .

إنه في كثير من أبحاثه يحدثنا عن البيئة الصحراوية ، وما تشتمل عليه من صخور ملس ، أو منابع روية ، أو أحجار صلبة ، أو كهوف وأغوار ، فاستمع إلى قوله :

كأن كناسي ضالة يكتفانها وأطرقسى تحت صلب مؤيد

إن هذا البيت قد رسم لنا كناس الظبي ، وحدد مكانه ، فهو يتخذ في أصل شجرة السدر ، وصور لنا القسي في الصورة الدقيقة التي لا تدق عنها صورة .

وأما عن طبيعة الحيوان فقد عرفنا أن طبيعة الناقة ليست هي طبيعة الجمل ، وأن حياة الإبل ليست مثلها حياة غيرها ، وأن ما يستحسن في نوع منه قد لا يستحسن في سواه . هذا

تحليل الأبيات :

لم يكن بشامة من رجال الحب ، بل لم يكن ممن يتخيل الحب فيحسن تخيله ، أو يصوره فيجيد تصويره ، فجاء مطلع قصيدته دالاعليه ، منبثا عنه ، ناطقا بأن عاطفته في الغزل ناضبة جامدة ، فقد هجر فؤاده حبيته هجرا طويلا ، وكان من حق أمامة أن تكون هي الصادة عنه ، الهاجرة له ؛ إذ شأن المرأة الصد والدلال ، والهجر والإعراض ، وليس ذلك شأن الرجل في لغة المحبين ، وكأنه أحس بأنه أخطأ في حق الحب والجمال ، فقال : « وحملك النأي عبثا ثقيلا » ولكن كيف حمله النأي العبء الثقيل ، وهو صاحب الهجر الطويل ؟ ثم يدير كلاما في النسيب ليس له من جمال الخيال نصيب يصف بعده الوداع ، وأن عينها استعبرت ، فيقول :

فبادرتاها بمستعجل من الدمع ينضج خذا أسिला

ولا ندرى لماذا لم يصبغ دمه الدامى خده ليكون الوداع دامعا داميا ؟ ثم ينتقل إلى وصف ناقته ، فيقربها للرحيل . يقرب ناقه صلبة قوية كأنها العير الوحشي في وثاقة جسمها ، وصلابة أعضائها ، وهي شديدة ضخمة ، جريئة سريعة ، فأى صفة مستحبة تنقصها ؟ إنها متداخلة الأعضاء ، مدججة الأجزاء ، يبدو مراحها في أدنى الأوقات إلى الخمول ، ويظهر نشاطها في أحق الساعات بالكلال والملال ، وهي ساعات الظهيرة ؛ إذ يقيل كل كائن ، ويسكن كل متحرك ، ويهدأ كل حي ، حتى الظباء ، وهي رمز المراح تطلب الراحة والسكون ، وتسكن إلى الهدوء والاطمئنان .

أما الناقة فلا تشعر بتغير الجو ، ولا بتوهج الشمس ، فهي لاتسكن إلى الراحة ، لها سنام مرتفع مكتنز ، قد أزال اكتنازه وبره ، فهو أملس ناعم تزل عنه الولاية زليلا ، ويستقط عنه المجلس سقوطا ، أعززت تلك النجبية ، ففتحها حق الرعى حيث شاءت ، فهي تقطف أطراف النبات الناجم في الأرض الخصبة دون أن يزجرها راعيها ، وتستمد قوتها من أنها لا فصيل لها يمتص مئنتها مع امتصاص أخلافها ، ويرشف دمها حين يرشف لبنها ، وهي

وقور رزان لا تشور إذا ما شد را كبا زمامها ، ولا تنفر عندما يثنى إليه خطامها ، تنظر بعين حادة كأنها عين مقلب القداح ، قداح الميسر ؛ ليعرف الراجح منها ، ويحتال ليتبين الكاسب فيها . وأذنها ضخمة ينضح على جانبيها العرق غزيرا ، حتى يتجاوزها سائلا إلى الوبر في لحيمها ، فيبيلل ذلك الوبر الكثيف الحار ، ولكنه لا يزيل حرارته لتجمعه وتكافئه ، ولها صدر عريض واسع ؛ كأنه طريق بين لاحب ، يتموج ويضطرب كأنه مغطى بذلك الكساء الذى يوضع فوق أعجاز الدواب ، وهى تقطع المراحل الشاسعة دون أن يدركها الأين أو يحيط عليها الكلال ، فتغدو على جبل كشب ، لتمسى فوق جبل أريك ، فما أقوى احتمالها ! إنها لتطأ الأرض الغليظة الحزنة ، فتحيلها لينة ناعمة ، مثلها كمثل السيد القوى العزيز يطاءً بجبروته الرجل الضعيف الذليل ، فيطوى صفحته من الوجود ، متى أقبلت عليك ظمنتها للنشاطها قد تملكها الذعر ، واستولى عليها الفرع ، فهى أسرع من نعامه يطاردها ظليم قوى عداء ، وإذا أدبرت حسبته سفينة موسوفة أطاعت الريح قلعها ، وأذغنت الريح الصرصر لشرعها ، وهى بمن فيها بحفلة متوجسة ، فهى تمخر العباب بقوتين ، وتجرى فى اليم بإرادتين : قوة الريح والشرع ، وإرادة الإجفال والتوجس ، وإذا ظهرت أدرك رائبها كرمها ونجاها دون أن يخطئ فى إدراكه ، أو يفيل فى تقديره ، يرى يدا منسرحة سهلة ، وهى محتلجة العضد ، مضطربة الضبع ، تمريدها من الريح ، وتندفع قدمها اندفاع الصخرة ، ذات أضلاع تبدو تحت ظهرها عوجاء مقوسة ؛ قد تلاقى بعضها ببعض ، واتصل يمينها بشمالها ، حتى لكانها تتناطح ، ترشد من يراها أن عظامها ضخام صلاب ، جسام شداد ، تبارى المظى فتغلبه وتعزه ، وتسابق الركب جماع الطريق فتسبقه وتبزه ، وذلك القلب والسبق حينما تسرى ليلا ، فتبدو يداها ، وقد أرقلت إرقالا معتدلا هازة رأسها — فى مرج ونشاط ، فتشاركها الإبل المبارية لها فى أول مراحل السير هذا المرح وذلك النشاط ، فينحرفن عن الطريق كما تنحرف ، ويملن عن الصراط المستقيم كما تميل ، فإذا ما أوغلن فى الطريق سرن معتدلات قاصدات لا يجرن ولا ينحرفن ؛ لأنهن فقدن تلك القوة الدافعة ، واستنفدن ذلك النشاط الحافز ، لقد أدركن الأين والنصب ، وأصابهن التعب والوصب ، فسرن سواء السبيل حينئذ تبدو يداها كيدي

ساحج في بحر عجاج متلاطم الأمواج قد كاد يدركه الغرق ، ويطويه في قراره الماء ، وهو يطلب الحياة ، فيعمل يديه كليهما بكل ما أوتي من قوة ؛ حتى يبلغ ساحل الأمان ، ويصل إلى شاطئ الاطمئنان .

النقر :

الناظر في هذه الأبيات يجدها ممتازة بوفرة معانيها ، وتجدد الأفكار فيها ، فإذا نحن تجاوزنا الصفات العامة التي كاد يتفق فيها أغلب الواصفين كصلابة الناقة ، ووثاقة الأعضاء وسرعة السير ، وعظم السنام ، واكتناز الفخذين ، وجفاف الأخلاف ، واتساع الصدر... إذا تجاوزنا هذا وجدنا الشاعر وفق إلى معان لم يوفق إليها شاعر عداه ممن سندرهم بعده ، وهي معان تعتمد على الحس حقا ، ولكنها مع هذا بالغة الروعة ، عالية الخيال ، وذلك كقوله في وصف حدة نظرها :

توفر شازرة طرفها إذا ما ثنيت إليها الجديلا

بعين كعين مفيض القداح إذا ما أراغ يريد الحويلا

فحدة نظر الناقة صفة نعتها بها كل واصف إياها ، ولكن أحدا لم يشبهها بمثل هذا التشبيه الذي أوحى إلينا بالتفكير في إحدى عاداتهم ، وبتصور حال الحكم في اليسر ، وفيما يجب أن يكون عليه من حدة النظر ، وحسن الاحتيال ، وكقوله في وصف سرعتها في السير ، وجلدها عليه :

فمرت على كشب غدوة وحاذت بجانب أريك أصيلا

فقد صورها لنا تربط بجلدها وقوة صبرها بين المتباعدين ، وتصل بين المتناهين ، وأى قوة كفتوها ، وقد سارت اليوم كله من مطلع الشمس إلى مغربها لم يأخذ منها الكلال ، ثم إن تشبيه وطئها غليظ الحصى ، واستحالتها تحت أقدامها دقيقا ناعما بوطء القوى العزيز للضعيف الذليل تشبيه إنساني صادق فيه سمو المعنى ونبالة الغرض الذي أوحى به ، فهو يرمز إلى أن القوى يكاد يحسب الذليل مفقود الحس ، معدوم الشعور فقدان الحصى للحس والشعور ، أو أنه لا يدرك أنه كائن حي من حقه أن يشعر بالوجود ، كما أن الحصى ليس كائنا

حيا ، فليس من حقه أن يشعر بالوجود ؛ لا بد أن بشامة نظر إلى هذا المعنى الإنسانى الرائع فقد كان إنسانا كريما ، كما كان شاعرا حكيما ، والإنسانية والحكمة تمليان هذا المعنى .

ووصفه تقابل الأعضاء بأنها تتناطح وصف دال على طول التأمل ؛ فالأضلاع والقرون كلاهما مقوسان ، والأضلاع متقابلة ، تقابل القرون عندما تتناطح ، فهي صورة تكاد تكون كاملة لا ينقص من كلها سوى أن الأضلاع متعددة ، والقرون محدودة العدد .

وتشبيهه يمدى الناقة عند الإرقال بيدي السباح في عباب متلاطم يكاد يقضى عليه بالغرق ، فهو لذلك يبذل قصارى جهده ؛ ليصل إلى النجاة تشبيه قوى مستقيم ، وبخاصة إذا ذكرنا أن بلاد العرب غريبة فيها هذه المناظر لانعدام البحار والأنهار فيها .

والحق أن هذه القطعة من خير ما قيل في وصف الناقة ، ولو بلغ عدد أبياتها عدد أبيات طرفة لكان أحق منه بزعامة وصف الناقة ، بل لكان أحق منه بزعامة الوصف عامة ، وذلك من نواح : أسلوب بشامة أسلس وأعذب ، وتشبيهاته أدق وأقرب إلى الحقيقة ، ولعل طول الحياة ، وكثرة التجارب ، وسعة الخبرة هدت بشامة إلى ما لم يهتد إليه طرفة ، فقول بشامة في وصف تداخل أعضاء ناقته !

مداخلة الخلق مضبورة إذا أخذ الحاققات المقيلا

أقرب إلى الحقيقة من قول طرفة :

وطى محال كالخنى خلوته وأجرنة لزت بدأى منضد

وينتظم أسلوب بشامة البديع من البديع ، والرائع من جمال اللفظ ، وحق مثله في حياته وسنه أن تكون عنايته بجمال اللفظ دون عناية طرفة ، فالشباب دائما باحث عن الجمال في كل شئ ، ولكن بشامة كان ينبغي الجمال في شعره دون سواه ؛ لأن حياته حرمة النظر إلى غير جمال الشعر ، فمن ذلك الجمال قوله :

إذا أقبلت قلت مذعورة من الرمد تلحق هيقا ذمولا

وإن أدبرت قلت مشحونة أطاع لها الريح قلعا جفولا

وإن أعرضت راء فيها البصير مالا يكلفه أن يقيلا

ويعجبنا منه ذلك التضمن الذي يعيبه واضعو قواعد النظم العربي ؛ يعجبنا لأنه مبعث تشويق ، وشغف للقارى ؛ إذ هو ينتظر في لفظة المشبه به ؛ ليتبين وجه الشبه الذى يربط بينه وبين المشبه ، وذلك فى قوله :

كأن يديها إذا أرقلت وقد جرن ثم اهتدين السيلا

يدا عائم خرّ فى غمرة قد أدركه الموت إلا قليلا

وتعجبنا دقته فى اختيار الألفاظ ، وحسبنا شاهدا البتتان السابقتان ، فاختياره الإِرْقَال دون غيره من أنواع السير دقة ؛ لأن السابح يحرك مع يديه رأسه كما تصنع الناقة المرقلة ، واختياره لفظ « عائم » دون سابح مثلا دقة ؛ لأن السباحة تشعر بالمهارة دون العوم ، وتفضيله « خرّ » على عام مثلا دقة ؛ لأنها تشعر بالسقوط دون عمد .

وإذا كان لنا ما نأخذه عليه ، فهو تكرار القافية ، لقد كان بشامة أستاذ الزهير فأكرم بالأستاذ والتلميذ .



٣ — وقال المثقب العبدى * فى قصيدة أولها :

هَلْ عِنْدَ غَانٍ لِفَوَادٍ صَدٍ مِنْ نَهْلَةٍ فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي غَدٍ ؟^(١)

حَتَّى تَلَوَيْتُ بِلَكِيَّةٍ مُعْجَمَةَ الْحَارِكِ وَالْمَوْفِدِ^(٢)

تُعْطِيكَ مَشِيًّا حَسَنًا مَرَّةً حَتَّكَ بِالْمِرْوَدِ وَالْمُخَصَّدِ^(٣)

يُنْبِي تَجَالِيدِي وَأَقْتَادَهَا نَاوٍ كِرَاسِ الْفَدَنِ الْمُوَيْدِ^(٤)

عَرَفَاءَ ، وَجَنَاءَ ، جُمَالِيَّةٍ مُكْرَبَةٍ أَرْسَاغُهَا جَلْعَدِ^(٥)

تَفْمِي بِنَهَاضٍ إِلَى حَارِكٍ ثُمَّ كَرُّنِي الْحَجَرَ الْأَصْلَدِ^(٦) : ١٧٥

* ترجمه الشاعر : هو العائد بن محسن بن ثعلبة بن وائل العبدى ، وكنيته أبو عمرو ولقبه

المثقب لقوله : تظهرن بكلة وسدلين رقما وثقبن الوساوص للعيون

وهو شاعر مجيد ، قيل عنه : « قد غرد بقصائده كل مفرد ، وأنشدت على كل مورد » . والقصيدة التى منها هذه الأبيات من أجود شعره ، وقد أجاد فيها وصف ناقته ، توفى سنة ٥٢٠ م .

التفسير اللغوى : (١) الغانى : أصلها الغانية ، ثم رخم ، أو أنه ذهب إلى الإنسان .

صد : عطشان . النهلة : المرة من النهل . (٢) تلويت : تدوركت . بلكية : بناقة كثيرة

اللحم ، وبلكية صفة لموصوف محذوف ، واللصاكن شرايح اللحم . معجمة الحاراك : مكتنزة أعلى

الكاهل . الموفد : المشرب . (٣) حتك : حضك ودفعك . المروود : حديدة تدور فى اللجام .

المخصد : السوط المحكم القتل ، فهو صفة لموصوف محذوف .

(٤) ينبي : يدفع . تجاليدى : جسمى وأعضاءه . الأقتاد : جمع قتد ، وهو أداة

الرحل . الناوى : سنام الناقة . الفدن : القصر العظيم ، أو الصرح الضخم . المؤيد : الموثق المشدد .

- كأَنَّمَا أُوبُ يَدَيهَا إِلَى حَيْرُومِهَا فَوْقَ حَصَى الْقَدَقِدِ (٧)
 نَوْحُ ابْنَةِ الْجَوْنِ عَلَى هَالِكِ تَنْدُبُهُ رَافِعَةً الْمَجْلِدِ (٨)
 لَا كَلَفَتْهَا تَهْجِيرَ دَوِيَّةٍ مِنْ بَعْدِ شَأْوَى لَيْلِهَا الْأَبْعَدِ (٩)
 سَحَرِي لَاحِبٍ تَعْرِفُ جَنَّتَانِهِ مُنْفَهَقِ الْفَقْرَةِ كَالْبُرْجُودِ (١٠)
 لَا تَكَادُ إِذْ حَرَّكَ مَجْذَافَهَا تَفَنُّكَ مِنْ مِثْقَالِهَا وَالْيَدِ (١١)
 لَا لَا يَرْفَعُ الصَّوْتَ لَهَا رَاكِبٌ إِذَا الْمَهَارَى جَوْدَةً فِي الْبَدِ (١٢)
 لَا تَسْمَعُ تَعَزَافًا لَهُ رَنَّةٌ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ وَفِي الْقَرْدِ (١٣)
 لَا كَأَنَّهَا أَسْفَعُ ذُو جُودَةٍ يَمْدُهُ الْوَبْلُ ، وَلَيْلُ سَدَى (١٤) : ١٨٣

(٧) أوب يديها : رجوع قائمتيها الأماميتين . الحيزوم : ما استدار بالظهر والبطن أو ضلع الفؤاد . القدق : المكان الغليظ أو الفلاة .

(٨) ابنة الجون : امرأة من كندة عرفت بشدة النواح حتى ضرب بها المثل . تندبه : تكيه . المجلد : خرقه سوداء كالمنديل تحملها النادبة ، وتشدها بين يديها وفوق رأسها .

(٩) التهجير : السير في ساعات المهجير عند اشتداد الحر . الدوية : الصحراء الشاسعة . شأوى ليلها : ثنية شأو ، كأنه أراد شأو ليلها ونهارها ، والشأو : الغاية .

(١٠) اللاحب : الطريق البين الواضح . منفهق : متسع . الفقرة : العلم من جبل أو فلاة . البرجد : الثوب المخطط .

(١١) مجذافها : يريد سوطها ، وهو في الأصل المجذاف ، وهو خشبة طويلة مبسوطة أحد الطرفين تسير بها السفن . المثناة : الزمام .

(١٢) المهاري : الإبل النسوبة إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن ، قالوا عنها : إنه لا يعدل بها شيء في سرعة جرياتها . الجودة : كالنجويد ضرب من السير . البد : الابتداء ، يقال بدأت بالشيء ، وبديت به .

(١٣) التعزاف : أصوات الحجارة التي تقذف بها الناقة إذا سارت ، وهو في الأصل العزف على ناي أو عود أو غيرها . الرنة : الصوت والصلصلة . القردد : الأرض الغليظة .

(١٤) الأسفع : الثور الوحشي في وجهه سفح ، وهو السواد المشرب بالحمرة . الجدة : خطة في ظهره تخالف لونه . يمدّه . يطويه يقال : ممدود الحلق ومعصوبه . الوبل : المطر الكثير . السدى : الندى . يقال سديت الأرض نديت .

تحليل الأبيات :

بدأ الشاعر قصيدته كأكثر شعراء عصره بالغزل المتمنى ، فهو يتمنى على غانيته أن يجد عندها رية لفؤاده الصادى من رحيق ريقها العذب فى يومه ، فإن تعذر عليها فى غده ، ثم يسير فى غزل قصير يعتمد فيه على الأمانى العذاب ، وإذ لم يجد من ينيله متمناه انتقل إلى وصف الناقة فقال :

لقد تداركنى الأمر بناقة موفورة اللحم ، كثيرة الشحم ، مكتنزة الكاهل ، سميكة العنق ؛ إذا ما امتطيتها سارت بك سيرا جميلا ؛ جميلا فى لينه وهذونه ، جميلا فى إرقاله وتجويده ، فكأنك تستحشها — دون أن يكون منك حض أو استحثاث — بمرود لجام ، أو بمحكم سوط ، وهى — إذ يعتمد على سنامها جسمى ورحلى ، ذلك السنام العظيم الضخم الذى يشبه قمة القصر الفخم — تدفعنى من أرض إلى أرض ، وتقلنى من بلد إلى بلد ، هى ناقة عرفاء ، فسنامها فى اكتنازه وارتفاعه كدعص الرمل منبسط من أذناه ، مجتمع فى أعلاه ، ووجنتها ممتلئتان يغطيها لحم كثير ، ويكسوها جلد ثخين ، وأعضاؤها فى وثاقها وإحكامها ، وتداخلها وتساندها كأعضاء الجمل ، وأرساغها فى ملاستها وصلابتها كالخجر الصلد ، ووظيفها فى غلظه وشدته كالجلعد الغليظ من الأرض .

إذا سارت صعدت بعنقها حتى تسامى به كاهلها السامق الرفيع الذى هو كجانب الحصن المنيع ، وكأن صوت قائمتيها الأماميتين ، وهى تعود بهما فى مسيرها إلى وسط بطنها ، وضلع فؤادها فوق حصى الفدند ، كأنه نواح ابنة الجون على هالك عزيز عليها ، وفقيد كريم لديها ؛ فهى ترجع فى نواحها ، وتندب رافعة بين يديها مجلدها ، تشير به إلى الأمام وإلى الوراء .

كلفت تلك الناقة الجمالية العرفاء أن تقطع بى فى ساعة القيولة وإبان المقييل ، وحين التهاب الرمضاء صحراء واسعة ، دون أن يكون هذا الذى كلفتها إياه أول مسيرها ، بل كان بعد أن قطعت شوطا بعيدا فى يوم أيوم ، وليل أليل ، فسارت فى تلك المفازة فى طريق

واضحة ، وسبيل لاجبة ، فقد قطعها وعرفتها ، فأبى بها جواب آفاق ، وجوال صحارى ،
فهي تعرف جناتها ، فتسير في طرقها المستقيمة الممتدة التي تماثل في استقامتها وامتدادها
ظهر برجد ، إذا ما حرك حاديتها سوطه في يده كادت لشدة فزعها تنزع منه زمامها ، وإذا
ماسايرت النياق الهارى اللأى ما يزلن في أول شوطهن في حين أنها قطعت ما قطعت من
رحلة في إثر رحلة ، وسارت ماسارت من ليل في أعقاب نهار لم تحوج حاديتها إلى أن
يسمعه زجره ، بل تسمعه صوتا موسيقيا موقعا منغما ، كأنه عزف ناي ، ينبعث هذا
الصوت الموسيقى من اصطدام وظيفها بالخصى الغليظ ؛ سواء أكان مسيرها في بطن الوادى
أو في ظهره .

كأن ناقتى تلك للجمال وجهها ، وسفعة وجنتيها ثور وحشى ، لون ظهره يخالف لون
وجهه ، إذ في وجهه سفع كأنه الدم المتجمد ، وظهره أبيض كأنه ملتف بالوبل الندى .

النقر :

وصف المثقب يبعد كثيرا عن وصف طرفه وبشامة ، فقد أقل من وصف الأعضاء ،
فلم يفصلها تفصيل طرفه ، ولا اجتزا ببعضها دون بعض كما فعل بشامة ، وإذا كان قد
جاءها في شيء ففي وصفها جملة بالصلابة والاكتناز ، فأجل نعوتها في الثلاثة الأبيات
الآتية :

ينبى تجاليدى وأقتادها ناو كراس الفدن المؤيد

عرفاء ، وجناء ، جمالية مكربة أرساغها جلع

تمى بنهاض إلى حارك ثم كركن الحجر الأصلد

ولكنه تحدث عن حسن سيرها ، وسهولة قيادها ، وشدة يقظتها ، وعظم صبرها ، فأجاد
إجادة بالغة ، فهي :

تعطيك مشيا حسنا مرة حنك بالمرود والمحصد

ويعجبنا منه قوله : تعطيك فهي استعارة جميلة ، وكأنه قد شبهها كذلك بالفرس يتحكم
فيه اللجام ، ويخشى السوط المحكم المحصد ، ولكنها ليس لحاديتها ما يتحكم به فيها غير حبها

إياه ، وطاعتها له ، ثم رسم يديها إلى وسط بطنها ، وأنها إذ تقدمهما وتؤخرهما في سرعة سريعة ذات صوت ورنين تشبه ابنة الجون الصائحة الناذبة .

وهذه صورة لا تنقصها الظلال ، فأحسب أن الغبار الذي تثيره الناقة هو لون مجلد ابنة الجون ، وتشبيه السوط بالمجذاف تشبيه جميل ، فكلاهما وسيلة سير ، وكلاهما مبسوط متمد ، وكلاهما عريض من قبضته ، دقيق في نهايته .

ونفيه عنها رفع صوت حادها لها ؛ استحثاثا لإرقاها بعد مسيرة بعيدة المدى في حين أن كراهم النياق ما تزال في بدء سيرها ، فيه تكريم لها ، واعتزاز بها ، ولكن فيه كذلك مبالغة وغلو ليسا من سمة الجاهلي .

ووصفه صوت وظيفها عند ما يصدم الحصى بأنه كالتعزاف أ كسب الجو جمالا يشعر به من يعرف أثر الحذاء والغناء في قوة الإبل عند ما تشعر بالآين والإعياء ، فكأنها تغني لنفسها ، وتحذو بوظيفها إذا غفل راكبها عن الحذاء لها .

والفاظر بين أبيات الثقب وأبيات طرفة وبشامة يجد أبياتا قليلة متماثلة ، أنحكم بأن طرفة وبشامة أخذتا من الثقب ، أم أنها معان مطروقة ؟ أما أنا فأعتقد أنها معان مطروقة ، وذلك كقوله :

تمى بنهـاض إلى حارك ثم كركن الحجر الأصـلد
إذ مثله قول طرفة :

وأتلع نهـاض إذا صعدت به كسكان بوصى بدجلة مصعد
وبيت طرفة أجمل ؛ لأنه أوسع معنى ، وأدق تصويراً . ويشبه قول بشامة ابن الغدير :

تـعـز المطى جماع الطريق إذا أدلج القوم ليلا طويلا
قوله :

لا يرفع الصوت لها راكب إذا المهارى جودة في البـد

وبيت بشامة أضفى مدحا مع قلة في المبالغة ؛ لأنه وصفها بالسبق طوال الطريق .
أما أسلوب المثقب فهو سلس سهل ، لاعوج فيه ولا أمت ، وفيه من التشبيهات
الجميل الجيد ، والواضح الساطع كقوله :

كأنما أوب يديها إلى حيزومها فوق حصي الفدقد

نوح ابنة الجون على هالك تندبه رافعة المجلد

وقد اتفق طرفه معه في وصف الطريق في الاستقامة والوضوح بأنه كالبرجد ،
وبيت طرفه أجمل ، على أن له فضلا في كثير من هذه المعاني ، فقد سبق طرفه
بفترة طويلة .



٤ — وقال زهير بن أبي سلمى * من قصيدة بدأها بقوله :

غَشِيتُ الدِّيَارَ بِالْبِقِيعِ فَتَهَمَّدَ دَوَارِسَ قَدْ أَقْوِينَ مِنْ أُمِّ مَعْبِدٍ (١)

وَقَفْتُ بِهَا رَأْدَ الضَّحَاءِ مَطِئِي أَسَائِلُ أَعْلَامًا بِيَدَاءِ قَرَدٍ (٢)

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهَا لَا تُجِيبُنِي نَهَضْتُ إِلَى وَجْنَاءِ كَالْفَحْلِ جَلْعِدٍ (٣)

جُمَالِيَّةٍ لَمْ يُبْقِ سَيْرِي وَرِحْلِي عَلَى ظَهْرَهَا مِنْ نَيْمٍ غَيْرِ مُحْفِدٍ (٤)

مَتَى مَا تُكَلِّفُهَا مَابَةً مِنْهُلٍ فَتَسْتَعِفْ أَوْ تَنْهَكْ إِلَيْكَ فَتَجْهَدِ (٥)

١٨٩ : تَرْدُهُ وَلَمَّا يُخْرِجِ السَّوْطُ شَأْوَهَا مَرْوَحًا ، جَنُوحَ اللَّيْلِ ، نَاجِيَةَ الْغَدِ (٦)

* ترجمته الشاعر : هو زهير بن أبي سلمى بن زهير المزني الشاعر الحكيم ، المجيد في جميع

فنون الشعر ، وبخاصة الحكمة والمدح والوصف ، ويمتاز من غيره بتقنيح شعره ، وتهذيب قريضه ، وتنقيته من كل زيف وبهرج ، حتى تخرج قصائده متينة الرصف ، محكمة البناء ، ولذلك كان له قصائد تعرف بالحوليات لأنه لا ينشدها إلا بعد عام كامل على نظمها ؛ توفي سنة ٩٥ هـ

التفسير اللغوي : (١) غشيت : تزلت . البقيع وتمد : مكانان بالمدينة . دوارس :

زوائل . أقوين : أقفون ، ورحل عنهن أهلهن . أم معبد : زوجته .

(٢) رأد الضحاء : وقت ارتفاع الشمس وانبساط ضوءها . المطية : الناقة ، ثم أطلقت

على كل ما يغطي ظهره . أعلاما : جمع علم ، وهو ما يهتدى به في الصحراء . الفردد الأرض الغليظة المرتفعة .

(٣) الوجناء : الناقة الضخمة الوجنتين . الغليظة الحدين . الجلعد : الشديدة الصلبة .

(٤) جمالية : تشبه الجمل في عظم خلقها ، وقوة جسمها . النى : الشعر . المحفد : الأصل ،

ومثلها المحمد ، والمحكك ، أو أن المحفد الأصل للسنام خاصة .

(٥) مابة منهل : المابة أن تسير الناقة نهارها ، ثم تثوب إلى المنهل للشرب عشيا .

فتستعف : يؤخذ ما عندها من السير من غير كد . تنهك : يبلغ منها بالضرب والإجهاد . تجهد : تتعب .

(٦) ترده : ترد المنهل . لما يخرج السوط شأوها : لم يستخرج ضرب السوط كل عفوها

وما تسمح به نفسها من طاقة وقدرة وطلق . مروحا : نشيطة مرحة . جنوح الليل : ميالة في سيرها يمينا وشمالا في الليل كجنوحها في النهار ، وذلك لنشاطها . ناجية الغد : مسرعة في غذاها

- كَهْمُكَ إِنْ تَجَهَّدَ تَجِدَهَا نَجِيحَةً صَبُورًا ، وَإِنْ تَسْتَرِخْ عَنْهَا تَزِيدُ (٧)
وَتَنْضَحُ ذَفَرَاهَا بِجَوْنٍ كَأَنَّهُ عَصِيمٌ كُحَيْلٍ فِي الْمَرَاكِ مُعَقِّدُ (٨)
وَتُلَوِي رِيَّانَ الْعَسِيبِ ثَمَرَهُ عَلَى فَرْجٍ مَحْرُومِ الشَّرَابِ مُجَدِّدُ (٩)
تُبَادِرُ أَغْوَالَ الْعَشِيِّ وَتَقْتَبِقِي عَلَالَةَ مَلَوِيٍّ مِنَ الْقَدِّ مُحْصَدُ (١٠)
كُحْنَسَاءُ سَفَاءِ الْمَلَاظِمِ حُرَّةٌ مُسَافِرَةٌ مَزْعُودَةٌ أُمَّ فَرْقَدِ (١١)

(٧) كهملك : هي كما يهملك منها وترجو . إن تجهد : إن تطلب جهدها وإسراعها .
نجيحة : سريعة . صبوراً : كثيرة الصبر على الجهد . تسترخ : تجعل لها السير سهلاً . تزيد :
تسير سير التزيد ، وهو ضرب من السير فوق العنق .

(٨) تنضح : ترشح . الذفري : عظم نائي خلف الأذن ، ويكثر عرق البعير في هذا
المكان . الجون . الأسود والأبيض والأول هو المراد . العصيم : البقية من كل شيء .
الكحيل : القطران أو النفط ، ويقال : إن الإبل أول ما يبدو عرقها أسود ، ثم يصفر .
قال الشاعر :

يصفر للبيس اصفرار الورس من عرق النضح عصيم الدرس
معقد : مطبوخ .

(٩) تلوي : تضرب يمنة ويسرة . ريان العسيب : ممتلئ الأصل ، وهو يعني ذنباً غليظاً ،
والعسيب : عظم الذنب ومنبته من الجلد والعظم . ثمره : تذهب به وتجيء . محروم الشراب :
كناية جميلة عن عدم حملها . مجدد : لابلن في أخلافها من جد الشيء يجده كنصره ينصره
قطعه ، وشاة جداء قليلة اللبن ، يابسة الضرع ، ويقال : ناقة جدد ومجددة .

(١٠) تبادر : تسارع . أغوال : أبعاد مفردة غول ، وهو بعد المفازة ، لأنه يغتال من يمر به ،
ويقال : هون الله عليك غول هذا الطريق أي خفف عليك بعده . العلالة : البقية . ملوي
من القد : مقتول من الجلد ، وهي كناية عن السوط . محصد : شديد القتل محكمه .

(١١) الكنساء البقرة الوحشية المتأخر أنقها في رأسها . السفع : السواد في حمرة ،
والمقصود بهذا الوصف خذاها . إذ الملاطم : الحدود لأنها تلطم . حرة : كريمة عتيقة . مسافرة :
كثيرة الأسفار وقطع الأرض . مزعودة : مذعورة ، يقال : زئد الرجل فهو مزعود ، والاسم
منه الزؤد . الفرقد : ولد البقرة الوحشية .

تحليل الأبيات :

نزلت بديار أم معبد ، تلك الديار التي تقع بين البقيع وشهد من مدينة يثرب ، وقد درست آثارها ، واحمت معالمها بعد أن فارقتها تلك الزوجة الغالية ، ونأت عنها هذه الحبيبة الغانية .

وقفت بها مطيتي وقد انبسط ضوء الشمس ، وامتدت أشعتها هنا وهناك ، وقفت أسائل أعلام تلك البيداء الغليظة ، والصحراء الوعرة ، أسائلها أين ذهب الذين مروا بها مرتحلين ؟ ومن حزن ومن أسى أن الديار لم تجب لي نداء ، وأن الدوارس لم تلب لي دعاء ، فوثبت حزينا باكيا إلى ناقتي الغليظة ، الضخمة الوجنات ، الوثيقة الأعضاء التي تماثل الجمل في خلقها ، وانبساط جسمها ، وإن لم يبق سفرى الطويل الدائم ، ورحلي المستمر من شحم سنامها سوى أصله ، ولم يخلف منه غير رسمه ، ولكنها مع هذا الجهد الجاهد إذا ما كلفتها قطع مفارة ، أو عبور فلاة ذات مناهل وعيون لم تن في العدو ، ولم تدخر شيئا من النشاط ، شأن كرائم الإبل ، وعتاق النياق ، بل هي تبذل نشاطها كله لا تستبقى منه شيئا حتى تبلغ ذلك المنهل من دون أن تجهد بالضرب ، أو تنهك بالزجر ، ترده قبل أن يخرج السوط نهاية شوطها ، أو غاية طلقها ، ترده نشيطة مرحة ، قوية جلدة ، لم ينل منها أن سارت الليل كله ، فهي تميل يمينا وشمالا ، سريعة في العشي والغدو ، في الليل والنهار ، هي كما تريد منها بحبيبة مدعانة ، إن أجهدها بالسير الطويل ، أو الإرقال السريع وجدتها نجيحة سريعة ، مروحا نشيطة ، صبوراً جلدة ، وإن تركتها دون إجهاد سارت متزيدة ، فهي لك كما تبغى ، وهي في مسيرها على ماتهوى ، وإن نال منها الجهد ، وأدركها الأين حينئذ تنفض ذفراها بعرق أسود كأنه بقية قطران انعقد في المراحل ، وطبخ على النار في الأواني .

وهي إذ تسير تضرب بذنبها الممتلئ الريان العسيب ، الغليظ الضخم المنبت ، تضرب به ساقها ، ثم تذهب به وتجيء على فرج قد حرم الشراب ومنع من الضراب ، فهي لم تحمل ولم تحلب ، ولا لبن في أخلافها ، يمتصه ويمتص معه غذاءها فصلان ، فغذاؤها وحدها

وطعامها وقف عليها دون سواها ، فهي لذلك الجلدة الصبور ، وإذا سرت بها في مهمه فيجاء أسرع بك إسراعا كأنه جرى الريح خشية أن يكون بعد المسافة في العشى سبب اغتيال ، فهي تبغى لك الحياة ، وإن كانت من كثرة أسفارك في شقاء ، وتطلب لك النجاة ، وإن أصابها من تعدد رحلاتك العناء ، وهي شديدة الخوف كثيرة الفرع ، تخاف أن تعطل بذلك السوط المحكم المقتول ، المقدود من الجلد .

ما أشبه ناقتي تلك بالبقرة الخنساء قد سفعت وجنتاها ، وهي إلى هذا الحسن والجمال كريمة عتيقة ، حرة عزيزة ، قطاعة آفاق ، جوبة أنحاء وأقطار ، شديدة الذعر ، جياشة الفؤاد ، تكاد تشبه لشدة ذعرها ، وجيشان فؤادها البقرة الرعوم الحريصة على فرقدها الحسن الجميل .

النقر :

معاني هذه القطعة من قصيدة زهير تشبه شيئا واضحاً معاني قطعة بشامة بن الفدير أستاذة العظيم ، فالناقة وجناء كالفلح الغليظ الضخم ، وهو معنى سبقه إليه بشامة ، بل إن بيت بشامة أجمع :

فقربت للرحل عيرانة عذافرة عنتريسا ذمولا

وإن يكن زهير قد وصفها — دون غيره ممن تقدمه — بأنها نضو أسفار ، وطليح آفاق ، وذلك إذ يقول :

جمالية لم يبق سيري ورحلتى على ظهرها من نيا غير محفد
وأحسب أنه لو أكرمها لأراحها ، كما أراح علقمة ناقتة في قوله :

قدعريت زمناحتى استطف لها كترخافة كير القين مليم

وأراه متناقضا ، فقد ذكر أنه يكرمها ، ويضاعف لها غذاها ؛ لأن فرجها محروم الشراب ، وذلك مفهوم من قوله :

وتلوى بريان العسيب تمره على فرج محروم الشراب مجدد

ثم هي مضانة من السفر ، منضاة من الرحل ، وذلك غير قول أستاذة بشامة :

لها قرد تمالك نيه تزل الولية عنه زليلا

وكأني زهير في بيته ذاك قد نظر إلى نفسه لا إلى ناقته ، وهذا المعنى يقال عن غيره من أولئك الشعراء الذين يصفون مطاياهم بالنضو والضنى والهزال .

ولقائل أن يقول : إن زهيراً كان جواب آفاق ، فأما بشامة فقد كان قعيد داره ، لا يكاد يبرحها ، فناقته مكتنزة السنام ، وكلاهما وصف ناقته بالكرم والعنق والجنوح والنجاء ، والرح والنشاط ، ولكن معنى جديداً أورده زهير واضحاً ساطعاً ؛ ذلك أن ناقته تشعر بشعوره ، وتحس باحساسه ، فهي إذا ما أرخى الليل سدوله ، وخيف على المسافر الفتك والاعتقال :

تبادر أغوال العشى ، وتتقى علالة ملوى من القد محصد

ويؤيد هذا المعنى أيضاً قوله :

كهمك إن تجهد تجدها نجيحة صبوراً ، وإن تسترخ عنها تزيد

وهذان البيتان واضحان عن قول المسيب بن علس :

مرحت يداها للنجاء كأنما تكرو بكفى لاعب في صاع

فعل السريعة بادرت جدادها قبل المساء تهم بالإسراع

ولم وصف زهير سوطه بأنه علالة ؟ لأنه قطعه بضربه إياها ؛ أم لأنها لا تحتاج إلى ضرب ، فاكتمت بالبقية الباقية منه ؛ الوجه أنه عرفها كريمة عتيقة ، فاستغنى عن السوط الكامل بملاة منه .

وزهير يمتاز على جميع شعراء عصره بدقة التحديد ، فديار أم معبد « بالبيع فثمد »

وقد كان وقوفه « رأد الضحاء » والرحل لم يبق من « فيها غير محفد » وهي « جنوح الليل

فاجية الغد » وتجيء دقة معانيه تابعة للدقة في ذلك التحديد سواء أكان التحديد مكاناً أم زماناً ، معنى أم صورة .

كما أنه دائم الجنوح إلى الحقيقة ، وهذا أثر من آثار حكيمته التي أخذها عن أستاذه
بشامة ، فهو لم يقل ماقاله طرفة في وصف انفراج ما بين مرققيا :

كأن كناسي ضالة يكتفانها وأطر قسي تحت صلب مؤيد
ولم يسر على نهج أستاذه ، فيقول كما قال :

وصدر لها مهيع كالتخفيف تخال بأن عليه شليلا
ولكن في الأبيات غير التشبيهات الكنايات الطريفة كقوله :

وتلوى بريان العسيب تمره على فرج محروم الشراب مجدد
وقوله :

كنساء سقاء الملاطم حرة مسافرة مزودة أم فرقد

وبعد فعانى زهير أقل من معاني من سبقوه ، وتشبيهاته أدنى من تشبيهاتهم ، ولعل ذلك
لأنه كان يؤثر الحقيقة ، وفي التشبيه نوع من المبالغة ، وصوره ليست متكاملة كأكثر
صورهم : وأسلوبه في جملة أقل رنينا من أساليبهم .



[الجدد]

٥ — وقال المسيب بن علس* من قصيدة أولها :

أرَحَلتَ مِنْ سَلَى بِغَيْرِ مَتَاعٍ قَبْلَ الْعُطَاسِ وَرُعْتَهَا بَوْدَاعٍ؟^(١)
 قَتَلتَ حَاجَتَهَا إِذَا هِيَ أَعْرَضَتْ بِخَمِيصَةٍ سُرُحَ الْيَدَيْنِ وَسَاعٍ^(٢)
 صَكَّاءَ ذِعْلَبَةٍ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهَا حَرَجٍ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهَا هَلَوَاعٍ^(٣)
 وَكَأَنَّ قَنْطَرَةً بِمَوْضِعِ كُورِهَا مَلَسَاءَ بَيْنَ غَوَامِضِ الْأَنْسَاعِ^(٤)
 وَإِذَا تَعَاوَرَتِ الْحَصَى أَخْفَاهُا دَوَى نَوَادِيهِ بَظْهَرِ الْقَاعِ^(٥)
 وَكَأَنَّ غَارِبَهَا رِبَاوَةٌ مَحْرَمٍ وَتَمَدُّ ثَنَى جَدِيلِهَا بِشِرَاعٍ^(٦)
 وَإِذَا أَطْفَتَ بِهَا أَطْفَتَ بِكُلِّ كَلٍ نَبْضَ الْفَرَاثِصِ مُجَفَّرِ الْأَضْلَاعِ^(٧)
 مَرَحَتْ يَدَاهَا لِلنَّجَاءِ كَأَنَّهَا تَكْرُوْ بِكَفَى لَاعِبٍ فِي صَاعٍ^(٨)
 ٢٠٣ : فَعِلَ السَّرِيعَةَ بَادَرَتْ جَدَادَهَا قَبْلَ الْمَسَاءِ تَهْمٌ بِالْإِسْرَاعِ^(٩)

* ترجمه الشاعر: هوزهير بن علس بن مالك بن عمرو الربي، خال الأعشى وأستاذه، شاعر مقل مجيد، مدح عمرو بن هند، ولقي عنده طرفة والمتلمس الشعارين، وهذه الأبيات من قصيده جيدة مدح بها القعقاع بن معبد، وكان ميذاً كريماً ظريفاً يضرب بظرفه المثل، توفي حوالى سنة ٥٨٠ م.

التفسير اللغوى: (١) العطاس: الصباح. رعته أفرعتها:

(٢) أعرضت: صدت. بخميصة: بناقة ضامرة الخصر، منطوية البطن. سرح اليدين: سهلة السير بهما. وساع: واسعة الخطو. (٣) الصكاء: القوة في سيرها، والتي تقارب عرقوبها. الذعلبة: السريعة. الحرج: الطويلة الضامرة. الهلواع: السريعة الحديدية المدعانة. (٤) الكور: الرجل بأداته. غوامض: خوافى الأنساع: جمع نسع سيور الجليد يشدها الرجل. (٥) تعاورت: تداوت. دوى: صوت. نواديه: شوارده ومتفرقه. القاع: الأرض السهلة. (٦) الغارب: هنا السنام ومن معانيه ما بين الظهر والكاهل. الرباوة: منقطع الغلط من الجبل حيث استترق. المحرم: منقطع أنف الجبل. ثنى: مثني. الجدیل: الزمام المجدول للفتول. الشراع: القلع. (٧) الكلكل: الصدر. نبض: حركة. الفرائص: جمع فريضة وهى مضغة بين الكتف والصدر. مجفّر: واسع. (٨) مرحت: نشطت. النجاء: الإسراع. تكرو: تلعب. الصاع: منهبط الأرض. (٩) الجدادة: ما بقى من خيوط الثوب.

تحليل الأبيات :

بدأ المسيب قصيدته في مدح القعقاع بن معبد بغزل لم يتجاوز الأبيات الثلاثة من القصيدة ، فقد صحا في بيته السادس من حله ، وأفاق من شوقه ، ورأى أن الحكمة في اجتناب الصبا ، وذلك إذ يقول :

فرايت أن الحكم مجتنب الصبا وصحوت بعد تشوق ورواح
وإذن فعلى قلبه الواله أن يتسلى عن سلمى إذا ما صدت عنه ، وأعرضت دونه ، فقال له :
تسلّ عن حاجتك منها بخليلة أخرى تطيعك إن أحببت ، وتقبل عليك متى أردت ،
ولا تصد عنك أو تعرض كنتك الخليفة التي أعرضت عنك وصدت ، تسلّ بتلك الناقة
النجيبة ، الخميصة البطن ، الضامرة الخصر ، السهلة السير ، الواسعة الخطو ، البعيدة الشأو ،
كأنها في تقارب عرقوبها ، وقوة نشاطها نعامة تسابق الريح ، فلا تكاد تقينها إذا رأيته
مدبرة ، فإذا استقبلتها بدت لك طويلة ضامرة ، مطيعة مذعنة ، حديدية البصر ، قوية
النظر ، وكأن ظهرها قنطرة ملساء مدججة ، مكتنزة قد أثرت سيور الكور التي لا تكاد
ترى لتدخلها في لحما الكثير ، حتى ملس ونعم مكان تلك الأنساع ، إذا أرقلت
فتداولت أخفافها حصى الطريق المتفرق سمعت له دويّا في الأرض الهينة الناعمة ، كأنه
صوت الريح الحنون .

أما سنامها الضخم المتعالى فأشبهه بأكمة رمل ، أوراوة جبل ، كلاهما يعلو جسما
منبسطا ، وكلاهما ينتهى بقمة متماسكة متداخلة ، وتحملك على أن تبسط المنثنى من زمامها
المفتول ، وخطامها المجدول ، عند ما تمد في مسيرها عنقا مستطيلا ، كأنه الشراع المطوى ،
أو الرقل المستعرض المتين .

وإذا تأملتها ، وتدبرت محاسنها ، وأحطت بأعضائها أخذك ما تراه من قوة
في صدرها ، وامتداد في كلكتها ، ذلك الصدر الذي تنبض بالحركة الدافقة فرائضه ،
وتشتد بالخفقان السريع عروقه ، وتتسع أضلاعه ، قد نشطت قائمتها الأماميتان ، فهما
تندفمان للعدو اندفاعا ، حتى ليحسبها من يراها تدفعهما بتلك القوة تريد أن تحفر بهما

الأرض ، فهما ككفتي لاعب ماهر ، قد نشط للسكرة يقذفها بكلتا يديه في أرض منخفضة سهلة ، وقد انهمك في اللعب حتى سال عرقه ، وجرى فوق أعضائه ، تلك الناقاة تشبه في تتابع قائمتيها عند إرقالها امرأة تريد أن تنتهي من ثوب تنسجه قبل أن يحل بها المساء ، ويطوى النهار ، فهي تبادر إلى مابقى من خيطها تعمل فيه يديها في قوة وإسراع .

النقر :

يغلب على وصف المسيب الحسية البصرية ، فهو يعتمد على عينيه الاعتماد كله ، أليست ناقته « بنخميصه سرح اليدين وساع » ؟ ويتأملها مدبرة ومقبلة فيقول :

صكاء ذعلبة إذا استدبرتها حرج إذا استقبلتها هلاوع

وكان قنطرة بموضع كورها ملساء بين غوامض الأنساع

وكأنه أخذ هذا المعنى من طرفة ؛ إذ يقول :

لها مرفقان أفتلان كأنما تمر بسلى دالج متشدد

كقنطرة الرومي أقسم ربه لتكتنفن حتى تشاد بقرمد

وإن قوله : « ملساء بين غوامض الأنساع » فيه تصوير واضح ؛ إذ أظهر انطواء جلد الناقاة فوق الأنساع حتى ما تظهر أو تبين ، وفيه دلالة على اكتنازها ورة جلدها ، وتصويره تعاور أخفافها الحصى بأن له دويا أوحى إلى السامع أشياء :

منها تصوير تلك القلاة التي تقطعها بأنها وعرة ، وأن السير فيها لا يهون إلا على النياق الوثيقة الأخفاف ، الصلبة الأرساغ ، وتوحى بأن السامع أذنا موسيقية تعرف كيف تميز الأصوات ، وكيف تصورها ، وأن قوتها في مسيرها أطارت الحصى ، فضرب بعضه بعضا ، وهو قريب من قول المثقب العبدى :

تسمع تعزافا له رنة في باطن الوادى وفي القردد

وتشبيهه سنامها بأنه كربة الجبل تشبيه جميل ، وإن يكن مطروقا على ألسنتهم جميعا ،

فهو يشبهه بقمة الحبل ، والمثقب العبدى يشبهه برأس القصر ، وهو يدل على خيال
حضرى ، فيقول :

ينبى تجاليدى وأقتادها ناو كراس الفدن المؤيد

وتشبيهه قائمتيها الأماميتين بكفى لاعب الكرة يقذفها بكلتا يديه ليكون مرماها بعيداً .
تشبيه جميل ؛ لأنه يدل على بعض ألعابهم ، وجميع تشبيهاته مستمدة من بيئته ، فغار بها
رباوة مخرم ، وزمامها كالشرع أو كالقل الذى يفعله القدماء ، وإن كنت لا أرى ما يمنع
تشبيهه العنق بالشرع المطوى ، والخصى يدوى نواديه بظهر القاع ؛ وقد جرى الشاعر على
الطبيعة الجاهلية ، فلم ينظر فى أبياته تلك إلى ترتيب بل كل ما يعن له من معان ينظمه ،
وذلك شأن الشاعر المطبوع فى ذلك العصر .



تحليل الأبيات :

بدأ علقمة قصيدته بمفاجأة قلبه في موقفه من خليلته ، أياحافظ على سرها ، ويكنم
مكنون أمرها ، أم أنه وقد نأت عنه سيقطع صلته بها ، ثم يفشى سرها ؟

ثم أخذ يصف رحيل الغواني وأثره ، وجهالمن وسحره ومسكنه وعطره ؛ حتى انتهى بعدئذ
إلى أن العين كالذئب اعتمدت على أحد جانبيها ناقة دهاء ، قد ظهر من فوق قتبها الخزوم في كاهلها ،
فماء الدلو لهذا الليل دائم الانسكاب ، وهو بعد هذا التمهيد يسير في وصف الناقة ، فيقول :

إنه يعز ناقته ويكبرها فلا يستخدمها إلا قليلا ، قل أن يضع الرجل فوق ظهرها ،
فهو في أكثر الأحيان عريان ، لذلك هو مكتنز صلب كحافة كبر الحداد ، وقد ذهب عنها
العر ، وزال الجرب ، بما بذله من العناية بها ، فأثار القطران الخالص تشمل جميع
أجزائها ، وهذا في ذلك العصر دليل الغنى والثروة .

مثل ذلك القطران يسقى جميع أجزاء هذه الناقة كمثل الماء يسير في طرقة ومجاريه ؛
ليسقى الحدائق والرياض ، قد زالت عنها أوراق الأشجار ؛ فالقطران يسير من أعلاها إلى
أدناها ، فيتفرق على قوائمها وعنقها وذيلها وجميع أجزاء جسمها ؛ تفرق الماء يسير إلى
الرياض من المرتفعات إلى الوهاد ، فيسقيها جميعها .

هل تلحقني تلك الناقة العزيزة المكربة بأخرى الطعائن اللأئي ظنن ، وهي الظمينة
التي علق بها قلبي ؟ ولم لا تفعل ؟ وهي ناقة قوية صلبة كأنها الصخرة نضب عنها الماء ،
فبدت ناعمة ملساء ، وكأنها - وقد علا مشفرها وخدها ولحيها الزبد المختلط بخضرة
العشب - قد غسلت بالخطمي .

بمثل تلك الناقة القوية الجلدة تقطع الفلوات ، وتجاوب المفاوز دون أن تبالها
أو تخشى مجاهلها ؛ تلك المجاهل التي يصوت في أقطارها اليوم ، ذلك الصوت المنكر
الضئيل المختلس ، كأنه يخاف أن يسمعه صائد فيودى به ويقضى عليه ، وهي إذ تسير
تراقب سوط راحبها ، وتنظر إليه بمؤخر عينها جلدة صورا لا تشكو سيرا ، ولا تحس
ضجراً ، مثلها في النظرة الشراء والطرف الحذر ؛ كمثل الثور الوحشي الطاوي الكشح ،
الضامر الخصر ، المنقط الجسم ، يتوجس الشر ، فيسمع كل نامة ، ويرهب كل حركة ،
فهو لا يأمن كائناً ، ولا يصاحب مخلوقاً .

النقر :

لم يقتضب علقمة في قصيدته غزله كما اقتضبه سائر من اخترنا من شعرهم في الوصف ، فقال طرفه : « وإني لأمضى لهم عند احتضاره » وقال بشامة بن الغدير : « فقربت للرحل عيرانة » .

وقال المثقب العبدى : « حتى تلوفيت بلسكية » ، وقال زهير بن أبي سلمى : « وقفت بها رأد الضحاء مطيتى » ، وقال المسيب بن علس : « فتسل حاجتها إذا هي أعرضت » .

لم يفعل كما فعلوا وإنما مهد للوصف تمهيداً طريفاً على غير عادة الجاهليين ، فقال : إن عينه مثلها كمثل الدلو تحمله ناقة دهاء قوية ، وقد مالت الدلو إلى أحد جانبيها فهي تسيل ، ثم انصرف إلى وصف تلك الدهاء .

وفي القطعة معان طريفة مختصرة لم يمر لها نظير في شعر الخمسة الشعراء الذين قدمنا لهم نماذج في وصف النوق ، فنأقته عزيزة عليه عزتها على الآخرين ، ولكنه لا يرفقها كما فعل زهير ، بل :

قد عريت زمنا حتى استطف لها كتر كخافة كير القين ملموم
قد أدبر العر عنها وهى شاملها من ناصع القطران الصرف تدسيم

ومن الطريف تشبيهها فى صلابتها وملاسه جسمها بالصخرة الغليظة الضخمة يحرفها السيل ، فتبقى فى الماء دهرأ فتزول خشوتها ، وتبقى لها قوتها ، فيقول :

هل تلحقنى بأخرى الحى إذ شخطوا جلذية كأثن الضحل علكوم ؟

وهو يتخير الألفاظ الصلبة لمعانى الصلابة ، مثل : جلذية ، علكوم ، ضامرة ، كتر .

والقطعة على قصرها تدل على أن علقمة كان من مجيدى الوصف البارعين فيه ، فأى صورة كاملة للقطران يعم أجزاء الناقة أدق من تشبيهه بالماء يسيل من الروابى والنجداد إلى المنخفضات والوهاد ، فيصل جميع أجزاء الروض .

نظرة فاحصة عن معاني الشعراء في وصف الناقة

هؤلاء الشعراء الستة الذين أردنا أن نجعل منهم عناوين لبقية شعراء هذا العصر في وصف الناقة ليسوا بأشعرهم في الوصف ، وليسوا بأفوقهم في الشعر ، ولكننا اخترناهم ؛ لأنهم ينتسبون إلى قبائل متعددة ، ويعيشون في أقاليم متباعدة ، وينشئون في عصور مختلفة وإن بدت متقاربة ، فطرفة كان ينتسب إلى بكر ، ويعيش في البحرين وإن رحل منها إلى غيرها ، وكان بشامة بن الغدير غطفانيا ، ويعيش في نجد ، والمثقب عبديا ، ويعيش في العراق ، وكان زهير مزنيا ، ويعيش في نجد ، والمسيب بن علس بكريا ، ويعيش في العراق ، وكان علقمة الفحل تميميا ، ويعيش في نجد ، وليس كون بعضهم متفقيين في الوطن أنهم متفقون في الفكرة ؛ إذ كانوا جميعا ماعدا بشامة بن الغدير من الشعراء الرحالين ، ولرحلات أثر في الأدب ؛ إذ ينهل الشاعر من البيئة التي يرحل إليها نهله من البيئة التي يرحل عنها ، هذا إلى أن العراق ونجدا إقليمان واسعان مختلفان اختلافا كبيرا في نظم الحياة .

ونحن نرى هؤلاء الشعراء - ماعدا طرفة - يكادون يتشابهون في المعاني التي أوردوها ، ولم نستثن طرفة لأنه لم يشاركهم في معانيهم ، بل لأنه أورد معاني كثيرة اتسع لها طول وصفه ، وهم يعتمدون على الحس دون العطف الاعتماد كله ، وبخاصة حاستا السمع والنظر ، ولكنهم يتفاوتون في الاعتماد عليهما ، فمنهم من يؤثر النظر ، ومنهم من يؤثر السمع ، وقلما يشيرون إلى الشعور الداخلي ، ومن ذلك القليل قول زهير :

تبادر أغوال العشى وتتقي علالة ملوى من القد محصد

فقد أشار إلى إحساسها وشعورها حينما يغطيها الظلام ، ويفشأها الليل ، ولكنها مع ذلك إشارة عابرة ، ومنه قول علقمة :

بمثلها تقطع المومة عن عرض إذا تبغى في ظلماته البوم

فهو يشير إشارة مبهمة أو خفية إلى أنها تسعى جاهدة لتقطع هذه المومة بعد أن بسط الليل جناحيه الأسودين ، يشعرنا بهذا الذي يعنيه قوله : تبغى فهي وحدها الموحية بهذا الشعور .

ومع تباعد أوطانهم وأنسابهم وأعمارهم تكاد معانيهم تنبع من معين واحد ، فكلهم وصف ناقته بالصلافة والقوة ، فقال طرفة :

أمون كألواح الإيران نسأتها على لاجب كأنه ظهر برجد
وقال بشامة بن الغدير :

فقربت للرحل عيرانة عذافرة عنقريسا ذمولا
وقال المثقب العبدى :

عرفاء وحناء جمالية مكربة أرساغها جلعدا
وقال زهير بن أبى سلمى :

جمالية لم يبق سبرى ورحلتى على ظهرها من نيتها غير محفد
وقال المسيب بن علس :

صكاء ذعلبة إذا استدبرتها حرج إذا استقبلتها هلواع
وقال علقمة الفحل :

هل تلحقنى بأخرى الحى إذ شخطوا جلدية كأنان الضحل علىكموم؟
وقال أيضا :

فالعين منى كأن غرب تحط به دهاء حاركها بالمثقب محزوم
وقد استنبطت قوتها من كلمة دهاء ؛ إذ الإبل الدم معروفة بالقوة والسرعة ، فهو فى تناوله هذا المعنى غير المسيب بن علس الذى نعتها بنعوت القوة كصكاء وحرج ، فالصكاء القوية ، والحرج الطويلة ، وكلاهما غير زهير الذى صورها جملا ، وهو دون شك أقوى من الناقة وأبسط جسما ، وثلاثتهم أقل من المثقب العبدى الذى وصفها بأنها عرفاء ، ووجناء ، وجمالية ، وبأنها مكربة وجلعد الأرساغ ، فهذه خمسة نعوت كل نعت منها يشعر بالقوة والصلافة ، أما بشامة فيصف قوتها فى بيتين متتابعين :

فقربت للرحل عيرانة عذافرة عنقريسا ذمولا
مداخلة الخلق مضبورة إذا أخذ الحاققات المقيلا

أما طرفة فقد وصف أعضائها عضوا عضوا ، وصفها بالوثاقة والإحكام ، وهذا يستلزم قطعاً
نعتها بالقوة والصلابة ، وكلهم وصفها بالإرقال والتجويد والتزيد ، فقال طرفة : « تبارى عتاقا
ناجيات » ، وقال بشامة : « تمز المطى جماع الطريق » ، وقال المثقب العبدى : « لا يرفع الصوت
لها راكب » ، وقال زهير : « كهملك إن تجهد تجدها نجيحة » ، وقال المسيب بن علس :
« مرحت يداها للنجاء » . وقال علقمة : « هل تلحقنى بأخرى الحى ؟ » فإن لحاقه
بأخرى الطعائن يثبت لها السرعة .

وأكثرهم تحدث عن السوط ، وإن اختلف الحديث بعض الاختلاف ، فقال طرفة :
« فإن شئت لم ترقل ... » وقال المثقب : « تعطيك مشيا حسنا ... » وقال زهير :
« تبادر أغوال العشى ... » وقال علقمة : « تلاحظ السوط شزرا » .

أما بشامة والمسيب فيظهر أن الرحمة التى ملأت قلوبهما دفعتهما إلى أن ينسيا أداة
العذاب ، لما لا يستحق العذاب ، فكلهم وصفها بالجلد والصبر والسرعة ، فما دعى السوط ؟
ووصفوها بالصبر والجلد فى كفايات طريفة ، كقول طرفة فى أول أبياته :

« وإنى لأمضى الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغدى »

إذ السير بالليل والنهار دون أن يصيبها نصب أو تعب يدل على هاتين الصفتين ،
وقول بشامة :

تمز المطى جماع الطريق إذا أدلج القوم ليلا طويلا

يدل على صبرها وسرعتها فى آن ؛ لأنها تمز المطايا السائرات الليل الطويل ، وقول المثقب :

كلفتها تهجير دوية من بعد شأوى ليلا الأبعد

يدل على صبر جميل ؛ لأنها تكلف قطع الدوية ، فى الهجير بعد سير ليل ونهار ، وقول زهير :

مضى ما تكلفها مائة منهل فتستعف أو تنهك إليك فتجهد

ترده ولما يخرج السوط شأوها مروحا ، جنوح الليل ، ناجية الغد
يدل على الصبر سواء أجهدها بالضرب أو الزجر ، وقد انفرد زهير بإجهادها وإنها كها ،
وذلك يثبت جلال صبرها لا على قطع الطريق فحسب ، بل على كل ما يصيبها فى سبيل
إبلاغ صاحبها المكان الذى يريد ، وقول المسيب :

صكاء ذعلبة إذا استدبرتها حرج إذا استقبلتها هـ
هذه الصفات تحمل معها الصبر والجلد ، وقول علقمة :

تلاحظ السوط شزرا وهي ضامرة كما توجس طاوى الكشح موشوم
يتحدث في هذا البيت عن صبرها وجلدها ، وشدة حذرها من أن ينالها مكروه .

تلك هي الصفات الخلقية التي تناولوها ، وهي صفات ترفع أحط الأجناس إلى أعلى
مراتب الخلائق ، فكيف إذا وصفت بها الإبل التي جعلها الله من مظاهر عظمتها ، فقال :

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ » .

أما الصفات الجسمية فقد اختلفوا فيها باختلاف طول القطعة وقصرها ، فطرفة يصف
الناقة جميعها جزءا جزءا ما عدا سنامها ، وإن استطعنا أن نقول : إن الصفات التي وصف
بها ناقته تحمل في ثناياها وصفه بالضخامة والاكتناز ، فأما بشامة فقال : « لها قرد
تامك نيه » . وقال المثقب : « بني تجاليدى وأقبادها ناو ... » وقال زهير خالفا لجميع الشعراء

جمالية لم يبق سبى ورحلى على ظهرها من نيه غير محمد

فكثرة أسفاره ، وتعدد رحلاته قد أزال السنام ، فلم يبق منه غير أصله ، وقال المسيب :

« وكأن غاربها رباوة مخرم » وقال علقمة : « قد عريت زمنا حتى استطف لها »

وقد يطول بنا المقال لو استقصينا ما قالوه في الأوصاف الجسمية ، ونستطيع أن نقول :

إن كل معنى جسمي تناولوه تناوله طرفة فأحسن تناوله ما عدا السنام كما سبق لنا القول .

وكان للبيئة التي نشأ فيها هؤلاء الشعراء أوارحوا إليها أعظم الأثر في أوصافهم ،

فطرفة الناشئ في بلاد البحرين ، والتي تدل حياته على كثرة انتقال ، كما تدل على حضارة
وثقافة يجيء بمعان تدل على الحضارة كقوله :

أمون كألواح الإران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد

فالتابوت الثمين الألواح ، والبرجد الواضح الألوان يدلان على الحضارة ، ومثل قوله :

تربعت القفين بالشول ترتعى حدائق مولى الأسرة أغيد

فنبات الربا في الحدائق التي توالى عليه المطر أنعم وأجود من سواه ، ولا يعرفه من يعيش في صحارى الأحقاف أو في النفود أو في الدهناء ، ثم جمعه الحدائق يدل على كثرتها وانتشارها ، ومثل قوله :

لها خزان أكل النخض فيها كأنهما بابا منيف ممرد
فتشبيهه الفخزين ببابي القصر المنيف دليل مدنيتهما ؛ حتى إنهم يشيدون قصورا ممردة
متعددة الأبواب ، وتستطيع أن تتبع أبيات القصيدة لتجد دلائل الحضارة ومظاهر المدنية
واضحة ساطعة ، وتجد أثر الحضارة في تشبيه آثار ارتطام الحصى بأرساغ الناقة بالغناء في قول
المنقّب :

تسمع تعزافا له رنة في باطن الوادي وفي القرد
وفي قول المسيب :

وإذا تعاورت الحصى أخفافها دوى نواديه بظهر القاع
أما آثار الثقافة في شعر طرفة فمظاهرها كثيرة كذلك ، ومنها قوله :
كقنطرة الرومي أقسم ربها لتكتفن حتى تشاد بقرمد
فهو قد أشرنا بأن الروم يحسنون البناء ، ويحيدون فن الهندسة ، وقوله :

وخذ كقرطاس الشامي ومشفر كسبت اليماني قدّه لم يحرّد
ففي هذا البيت صورة لقرطاس الشامي ، فهو رقيق أبيض عريض ؛ لأنه يريد وصف خد
الناقة بهذه الصفات ، ولأن هذه الصفات من أسباب الجمال في النوق والمشفر كسبت اليماني
نستشعر منه أن سبت اليماني أحمر لين مستقيم ؛ لأن هذه صفات المشفر الجميل ، وقوله :
وعينان كلماويتين استكتتا بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد

فتشبيه العين بالمرأة يدل على ثقافة وحضارة ؛ إذ هو يعرف في المرأة الصفاء ، وكثرة العرب
تشبه العين بالنبع ، أو النبع بالعين ، أما تشبيهها بالمرأة فلا .

على أنه لا ينسى البادية بل يذكرها ، فالفاظه في جملتها من أجزل ألفاظ البادية ،
والكثير من معانيه وتشبيهاته وكنائياته أضفت عليه البادية الكثير من القوة والرمانة ،
وذلك كقوله :

ترجع إلى صوت المهيب وتتنقى بذى خصل روعات أ كلف ملبد
فهذه الكنايات في البيت من ملاحظات أهل البادية ، وكقوله :
كأن كناسى ضالة يكتفانها وأطر قسى تحت صلب مؤيد
لها مرفقان أفتلات كأنما تمر بسلى دالج متشدد
كلها من إملاء البيئة البدوية التي لا تشوبها شائبة من الحضارة ، فإن القسى من أدوات
الغابة لا من نبات الحديقة .

وهذا الذى ذكرناه عن طرفة يذكّر بعضه عن الشاعرين الآخرين المنتسبين إلى العراق ،
ونقول بعضه لأنهما لم يطبلا كما أطال ، ولم يكن لهما ماله في ذلك المجال ، وإن يكن لهما
من الصور الشعرية ما يملأ النفس روعة ، كقول المثقب العبدى :

كأنما أوب يديها إلى حيزومها فوق حصى الفدند
نوح ابنة الجوف على هالك تندبه رافعة المجلد
فهذه صورة واضحة كاملة لحركة القائمتين الأماميتين لا تنقصها ألوان ولا خفقان ، وهذه
النغمة الموسيقية التي تصورها المسيب بن علس فأحسن تصويرها لا يمكن أن نغض من
شأنها بالإشارة إليها دون عرضها ، وهى قوله :

وإذا تعاورت الحصى أخفافها دوى نواديه بظهور القاع
أما الشعراء النجديون وهم بشامة وزهير وعلقمة ، فمع أن اثنين منهم كانا حكيمين ،
والحكمة توحى إلى صاحبها بالرفقة والسهولة ، واللين والسماحة فإنك تشعر أن البيئة فيهما
مالها في غيرها ، فاستمع إلى هذا البيت ينشده رجل هو قعيدة بيته ، وحكيم قبيلته ، وهو
بشامة بن الغدير :

فقربت للرحل عيرانة عذافرة عنتريسا ذمولا
أربع كلات كأنها منحوتة من الصخور في بيت واحد ، ولو أنها وزعت في إحدى المطولات
لألبتها شملة الأعراب ، ثم قوله .

لها قرد تامك نيه تزل الولية عنه زليلا

أما تلميذه زهير ؛ فشأنه هو شأنه المعروف رقة لفظ وعذوبة أسلوب ، فإن خرج عن طبعه فلأن الكلمة التي قهر عليها مما لا يغنى عنها غيرها ، أو لأن الشعراء جرت بها أسنتهم ، فصارت كالجزء من وصف الناقة ، وذلك كقرد وجلع ، ومزودة ، فأما علقمة فقد كان شعره جميعه منخولا مصفى ؛ حتى أخبر عنه حماد الراوية قال : « كانت العرب تعرض أشعارها على قریش ، فما قبلوا منها كان مقبولا ، وما ردوا منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عبدة فأنشدهم القصيدة التي منها هذه الأبيات ، فقالوا : هذه سمط الدهر ، وكان الفرزدق يقول عنه :

والفحل علقمة الذي كانت له حلل الملوك كلامه يتنخل

وقد قدمنا أنه كثير الرحلات فعمل هذا من أسباب رقة شعره ، ويعجبنا منه ذلك الخيال في قوله يصف مسيل القطران الخالص على أطراف الناقة :

تسقى مذائب قد زالت عصيفتها حدورها من أنى الماء مطوم

فالقطران لا يجدى الجدوى كلها إلا إذا كان جسم الناقة خاليا من الشعر ، وهو ما أشار إليه بقوله : « قد زالت عصيفتها » وقوله في وصف خضرة مشفرها من أثر الرعى :

كان غسلة خطمي بمشفرها في الخلد منها وفي اللحمين تلغيم

كما يعجبنا قول زهير في وصف عرقها خلف أذنيها :

وتنضح ذفراها بجون كأنه عصيم كحيل في المراجـل معقد

فهذا الوصف لعرق الإبل الذي يتحدثون عنه بأنه أسود في أول أمره ، ثم ما يلبث أن يصفر حتى يصير كلقطران المطبوخ تشبيه دقيق يدل على علم بدقائق حياة الإبل .

وبعد فهذه نظرات فاحصة قد تكون إلى الإيجاز أقرب منها إلى الإطناب ، ولكنها مع ذلك محصية مستقصية ، فهي إتمام لما بدأناه في تحليل القطع الست ، وإيفاء لما قد نكون عهدها عبراً ، وإيحاء إلى من يريد أن يتبين أصول وصف الناقة في العصر الجاهلي ، وحسبك من الزاد ما بلغك الحل ، ومن النقد ما رسم لك الطريق .

تحليل الأبيات :

غنى امرؤ القيس في معلقته الخالدة خلود الفن والأدب بواحد وخمسين بيتاً أودع فيها ألواناً من الفن ، وأفانين من الجمال ، مختلفة مؤتلفة ، مختلفة لاختلاف أصواتها ، مؤتلفة لاختلاف أوصافها ، فهي جميلة رائعة ، سواء أكانت في وصف الأطلال أم في وصف أمّ الحويرث ، أم في وصف يوم بدارة جليجل ، أم في ذلك الحوار الأخاذ بالألباب بينه وبين عزيزته ، أم في وصف مغامراته في سبيل حبه ، ومخاطراته ليقضى حق قلبه ، أم في وصف الليل وهوله ، أم في خدمته لآله وصحبه ، أم في قطعه واديا كجوف العير تعوى فيه الذئاب ؟ أليست هذه كلها أصواتاً مختلفة ، وألحاناً متباينة ، ولكنها مع هذا متسقة المعاني ، متسامية الخيال ؟ وإذن فهي مختلفة مؤتلفة .

والشاعر لم ينبهر لطول الغناء ، ولم يبيع صوته لكثرة الإنشاد ، بل زاده ذلك جلاء ووضوحاً ، وحسن نغمة ، وجمال ترجيع ، فأخذ يغنى بمحاسن جواده .

وامرؤ القيس الشاعر هو امرؤ القيس الفارس الذي صادق الخيل فتى وشاباً ، ورجلاً وكهلاً ، الذي صادقها في لهوه وجدده ، وسلمه وحر به ، وصيده وطرده ، فكانا الكريمين في صداقتهم ، وفاء في الشدة والرخاء ، وصفاء في السراء والضراء ، فليس غريباً أن يغنى بمحاسن جواده خمسة عشر بيتاً ، فيقول :

قد أغدو بكرة مرحاً نشيطاً ، وأى نشاط أوفر من نشاط أسبق به رمز النشاط ، أسبق به الطيور التي لا تزال في وكراتها لما تصبح لتشقشق وتغرد ، أغدو معتلياً صهوة جواد كريم ، قد انخرس شعره لوفرة سمته ، جواد ماض لا يقف في طريقه كائن ؛ حتى إنه ليقيد بسرعته الوحوش الأبدية ، فما تستطيع حراكاً ، وهو الفرس النهذ العظيم ، المكر فلا يسبق ، المفر فلا يلحق ، المقبل حين تريد إقباله فلا يصد ، المدبر إذا رغبت في إداره فلا يرد ، وهذه الصفات متجمعة في قوته ، لا أنه يأتيها جميعها ، كأنه في سرعته وصلابته حجر عظيم أسقطه السيل الزاحف ، من السمو إلى الهوى ، هذا الفرس الكميّ الضخم الجسم ، المكتنز اللحم ؛ حتى ليسقط اللبد عن أوسط ظهره سقوط الصخرة الملساء بالمطر

الهائل ، وهو ضامر ذابل كثير الجيشان ؛ حتى لتخال تكسر صوته إذا جرى في عدوه جيشان الماء في الرجل .

يصب هذا الجواد عدوه صبا ، فيأتي بأفانين تتيح له سبق ، في الوقت الذي أدرك الجياد السابحات الونى والكلال ، ويبدو ذلك الإعياء من أنها تثير من الأرض الصلبة الغبار ، يزلق الغلام النحيف الخفيف الذي لم يدرب على القروسية عن صهوته ، ويرمى بأثواب الفارس العنيف الماهر الشديد في جهات ثلاث ، يرمى بها إلى أعلى وإلى شمال وإلى يمين ، وهو يستدرّ عدوه ، ويوالى جريه كما تدر ذوات اللين ضرعها إدراراً متتابعاً ، أو هو في تتابع أفانين سبقه كخزروف الصبي أحكم قتل خيطه ، وتتابع كفافه في إدارته بخيط قطع ثم وصل ، فهو كالخزروف يبدأ هادئاً ، ثم يشتد شيئاً فشيئاً بين انبساط وانقباض .

ترى لذلك الفرس النهدي خاصرقي ظبي ، وساقى نعامة قصيرتين صلبتين ، وسيراً كبير الذئب ليس بالشديد ولا البطيء ، وتقريباً في سيره بين قوائمه كما يفعل ولد الثعلب عند ما يسرع إذ تقع قدماه الخلفيتان مكان قدميه الأماميتين ، فهو قد أخذ من كل حيوان أجل ما يتصف به ، فأخذ من الظبي خصره الضامر ، ومن النعامة ساقها القصيرة الصلبة ، ومن الذئب سيره المرخي ، ومن الثقلل تقريب قوائمه في سيرها .

وهو مع ضمور خصره العظيم الأضلاع ، ممتلئ الجنين ؛ إذا تأملته مستدبراً رأيته يسد القضاء الذي بين قائمته بذنبه الضافي السابغ الذي يكاد يصل إلى الأرض ، في استقامة واستواء ، كأن ظهره الأملس حينما ينزع عنه سرجه قائماً أمام البيت في صفائه وملاسته مداك عروس أو صلاية حنظل ، واختياره مداك العروس ؛ لأنه دائم الطيب ، وصلاية الحنظل لأنه يسيل منها دهن فتلع جوانب الصلاية وتبرق ، وكذلك جلد الفرس فيه نصاعة وصفاء ، ولمعان وبريق .

هذا الفرس يقيد الأوبد ، ويدرك الهاديات الشوارد ، وفارسه حينئذ يطعنها طعنة

عميقة يتدفق منها الدم غزيراً ، فيضرج نحر ذلك الفرس الكريم ، فإذا هو كالشيب
الرجل بالحناء ، لقد عرض لنا قطيع من البقر الوحشى هو آية الجمال ، وعنوان الحسن ،
فظهرها بيض نواضع ، وقوائمها سود حوالك يشبهن فتيات عذراوات ، يملك صفاء
بشرتها القلوب ، وقد أسبغن على أرجلهن ملاء سودا ذوات أذيال سابقة ، ويختلن اختيال
أولئك العذارى إذ يدرن حول صنم يقدسنه ويعظمه ، وإذ هن فى تلك الحال الملائى
بأسباب المسرة بدوت لهن ففرعن أعظم الفزع ، وأدبرن متفرقات ، وكن من حين متجمعات
مختالات ، فبدون فى تفرقهن كالجزع سائر أبيض وأطرافه سود ، وقد فصل بعضه عن
بعض بجوهر كريم ، يزدان به عنق غلام نبيل ، فهو كريم الأعمام والأخوال ، ولكن
تفرقهن لم يغنهن شيئاً ؛ إذ ألحقنا الجواد الكريم بالسوابق منهن ، وترك من خلفه الجواخر
المتخلفات ، فإدراكه للأوائل كفيف باقتناص الأواخر .

وهى إذ تفرقت تفرقت جماعات ، فعادى بينها عداء ، ووالى الجرى موالاة ، بين
ثيران ونعاج ، فأدركهن لم يحده الإدراك ، ولا أشقاء العدو ، فلم يسلم منه عرق ، فيفسل
جسمه .

النمر :

والناظر فى هذه الخمسة عشر بيتاً يجد ضرباً من الوصف رائعة ، وألواناً من الجمال
فاتنة ، تشع ألفاظها معانى أوسع مما تعارف عليه اللغويون ، وتصب معانيها صوراً لا يخلق
مثلها المصورون ، بل هى ترسل وميضاً تشعر به ولا تصوره ، فهى مفعمة بالصور الكاملة ،
زاخرة بالحياة النابضة ، فكأنك حيالها فى ميدان أو فى حلبة فرسان .

أى حياة نابضة أوضح من حركة الكر والفر ، والإقبال والإدبار ؟ كلها فى شطر
واحد ، إن هذه لا تصدر عن جواد فى لحظة ، ولكنها تلمح فى حلبة ، وإننا لتتخيل
الصخرة العظيمة تسقط من شاهق ، فتمتلى القلوب من سقوطها هلعاً ، قد تتصورها ،
ولكننا نعجز عن تصور أثرها فيمن تسقط عليه ، إلا أننا نستشعره إذ نسمع :
« كجلمود صخر حطه السيل من عل » .

وأى حياة خافقة نابضة أقوى من حياة تستقصيك جميع حواسك ، فترى منها
وتسمع ، ولا تكتفى بالسمع والبصر ، بل تطالبك باللمس وبغير اللمس ؟ هذه الحياة تبدو
فى قوله :

على الذبل حياش كأن اهتزاه إذا جاش فيه حميه غلى مرجل
إن الألفاظ مع قوتها لا تغنيك شيئاً كثيراً فى تصور « اهتزاه » ولا فى تصوير « غلى
مرجل » وتخيّل حيواناً يتألف من جملة أجزاء لعدة حيوانات ؛ حيوان له خصر كخصر
الظبي ، وساق كساق النعامة ، وسير كسير الذئب ، وتقريب كتقريب التتفل ، أليس
ذلك الحيوان سيكون نوعاً فريداً بين سائر أنواع الحيوان ؟

وإنك لتتخيّل الغلام الفر بالقروسية يعتلى صهوته ؛ بل صهواته ، وفرق بعيد بين
اللفظين وإن أديا معنى واحداً ، فإن هذا الجمع يشعر بالفضامة والضخامة ، والحول والهول ؛
حتى ليكاد الغلام يزل دون ركوب ، إنه لن يثبت على ذلك الفرس الجبار ذى الصهوات ،
لن يثبت عليه لا لجوحه فهو عتيق أصيل ، ولكن لاندفاعه فهو القوى الشديد ، وتتصور
صورة ذلك الفارس العنيف العنيد تتطاير أثوابه ، فلا يستطيع جمعها ، فهو مشغول بجسمه
عن ثوبه ، وتتصور أثوابه تتطاير فى جميع الجهات ، فكأنها جناحان لطائر جارح .
وتتخيّل حرارة طفل قد أحكم قتل خيطها ، وأجاد اللعب بها ، إنك لا تستطيع أن
تبين الخدروف لسرعة دورانه ، ولتتابع حركة الصبي به .

وأمرؤ القيس هو الشاعر الذى يستطيع - دون تكلف - أن يفعم قصائده بالصور
المتكاملة الظلال ، فلنعد هذا النوع لنقف وقفة قصيرة عند نوع آخر تظهر فيه عبقريته .

الدقة فى التعبير سمة امرئ القيس الظاهرة ، وآيته السافرة ، فتأمل هذا البيت :

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل
فحال متنه وسط ظهره ، وهنا تبدو الدقة ، فقد يزل اللبد لأنه لا يتوسط الظهر ، ولكنه
وقد توسطه لا يزل إلا لملامسة ظهره ، واكتناز لحه ، ومثل :

مسح إذا ما السابحات على الونى أثرن الفبار بالكديد المركل

قد يشور الغبار إذا كانت الأرض رملية أو متربة أو سهلة ، وليس في ثورانه حينئذ ما يدل على الونى أو الكلال ، وإنما الذى يدل عليهما هو إثارة الغبار من الكديد ، ومثل :

ضليع إذا استدبرته سدّ فرجه بضاف فوق الأرض ليس بأعزل
قد يكون الذيل ضافيا سابغا ولكنه معيب ؛ لأن صاحبه يتعثّر فيه لطوله في عدوه ،
ولذلك احتس من هذا المعنى بقوله : « فوق » دون فوق لتفيد قربه من الأرض دون
ضفوه عليها .

وتستطيع متابعة التأمل لتحكم بأن الدقة يراعيها كل المراجعة ذلك الشاعر الذى حكم
له بأنه استنبط للشعراء معانى ، وفتح لهم في الشعر منابع وعيوننا .

وليس عجبا على امرئ القيس أن ينال زعامة الشعر ، وأن تكون أقوى أسباب زعামته
وصف فرسه ، فقد صاحبه من مهده إلى لحدّه ، وبين الصاحبين مجاوبة هى أقوى عوامل
الإجادة والإحسان .



٢ — وقال بشر بن أبي خازم * من قصيدة أولها :

ألا بان الخليلــــــــــــطُ ولم يزاروا وقلبك في الظَّعائن مستعار^(١)
فأبلغ إن عرضت بنارســــــــــــولا كنانة قومنا في حيث ساروا^(٢)
كفينا من تغيب واســــــــــــتبَحنا سنام الأرض إذ قحط القطار^(٣)
بكل قيادٍ مُسنفة عــــــــــــود أضر بها السالِحُ والغوار^(٤)
مُهارشة العنان كأن فيها جرادة هبوة فيها اصــــــــــــفرار^(٥)
كأن بين خافــــــــــــي عَقاب تقلبني إذا ابتل العــــــــــــذار^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو بشر بن أبي خازم بن عمرو بن عوف شاعر مجيد وفارس مغوار ، وهو ينتسب إلى بني أسد ، وقد كان يهجو أوس بن لأم الطائي هجاء مقنعا حتى ذكر في هجائه أمه ، فتحنن له أوس الفرص حتى أسره في إحدى حروبه مع طي ، وكان أوس قد أهدر دمه إن مكن الله منه ، فقالت له أمه : خل الرجل فإنه لا يمحو ما قاله غير لسانه ، فعفا عنه ، فجعل بشر مكان كل قصيدة هجاء قصيدة مدح ، توفي حوالى سنة ٥٣٠ م .

التفسير اللغوى : (١) بان : بعد . الخليلط : المخالط أو المخالطون يطلق على المفرد والجمع ، وهم الأحياء . الظعائن : جمع ظعينة ، وهى الإبل فوقها الهوداج فيها النساء . مستعار : مأخوذ منك معهن .

(٢) عرضت بنا : تحدثت عنا . رسولا : رسالة . قومنا : بدل من كنانة .
(٣) كفينا : حمينا . استبحنا : جعلناها مباحة لا أحد يحميها ، سنام الأرض : نجدها . قحط القطار : قل المطر ، ونضب الغيث ، فأجذبت الأرض وأمحلت .

(٤) قياد : عنان . المسنفة : الفرس شد عليه السناف ، وهو ليب يشد من وراء السرج . إلى صدر الفرس لثلا يتأخر السرج . العنود : اتى تعاند الفارس فتأبى إلا قطعه . السالِح : المراقب والثغور . الغوار : الغارة ، وهو مصدر لغاور .

(٥) المهارشة : المقاتلة . العنان : جلد اللجام ، وتقاتله لنشاطها ومرحها . الهبوة : القبرة ، وخص جرادة الهبوة لأنها أشد طيرانا ، ثم خص الأصفر ، لأنه ذكر الجراد ، وهو أخف من الأنثى في الطيران .

(٦) الخافية : جمعها خواف الريش الصغير ، وضدها القوادم . عقاب : نسر . ابتل العذار : كناية عن العرق ، والعذار : الشعر الذى يحاذى الأذن .

نَسُوفٍ لِلْحِزَامِ بِمِرْقِيهَا يَسُدُّ خُوءًا طُبَيْهَا الْغُبَارُ (٧)
 تَرَاهَا مِنْ يَبِيسِ الْمَاءِ شُهْبًا مُخَالِطَ دَرَّةٍ مِنْهَا غِرَارُ (٨)
 يَكُلُ قَرَارَةً مِنْ حَيْثُ جَالَتْ رَكِيَّةٌ سُنْبُكٍ فِيهَا انْهِيَارُ (٩)
 كَانَ حَفِيفٌ مُنْخَرَهُ إِذَا مَا كَتَمَنِ الرَّبُّو كِيرُ مُسْتَعَارُ (١٠)
 وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمٍ « أَحَقُّ الْخَيْلِ بِالرَّكْضِ الْمَعَارُ » (١١)
 يُضَمَّرُ بِالْأَصْـ ائِلَ فَهُوَ نَهْدٌ أَقْبُ مَقْلَصٌ فِيهِ اقْوَرَارُ (١٢)
 كَانَ سَرَاتِهِ ، وَالْخَيْلُ شُعْتُ غَدَاةٌ وَجِيفُهَا مَسَدٌ مُغَارُ (١٣)
 ٢٤١ : يَظْلُ يَعَارِضُ الرُّكْبَانَ يَهْفُو كَانَ بِيَاضَ غُرَّتِهِ خِمَارُ (١٤)

(٧) نسوف : دفعوع . خواء : خلاء طبيديها : مثني طبي ، وهو من الفرس ما يشبه الخلف من الإبل ، والضرع من ذى الحف .

(٨) ييبس الماء : متجمده ، ويقصد جاف العرق . شهباء : بيضا . الدرة : كثرة العرق . والغرار : قلته .

(٩) القرارة : الأرض المطمئنة . الركية : موضع حافر في الأرض ، وأصلها البر . السنبك : مقدم حافر الفرس . انهيار : سقوط .

(١٠) الحفيف : صوت نفس الفرس . المنخر من الفرس ما يشبه الأنف من الإنسان . الربو : النفس المرتفع . الكير : النفخ الذى ينفخ به الحداد ناره . مستعار : مأخوذ ثم يرد . أو متداول من تعاوروا الشيء إذا تبادلوه .

(١١) الركض : دفع الفرس للعدو . المعار : المضر ، أو المنتوف الذنب ، أو المسمن ، أو المتروك دون قيد حرأ ، وكلها تصلح لأنها دليل العناية به .

(١٢) يضممر : يصير ضامرا . الأصائل : جمع أصيل ، وهو الوقت بعد العصر وقيل المغرب . نهدي : قوى ضخم . أقب : ضامر البطن . المقلص : المشمر الطويل القوائم . الاقورار : الضمور . (١٣) سراته : أعلاه ، ويقصد ظهره . شعث : جمع أشعث ، مغبرة . غداة : صبيحة . وجيفها : إسراعها . مسد مغار : جبل مفتول محكم القتل .

(١٤) يظل : يستمر سائر النهار كله . يعارض الركبان : يبارى الحيوول وينافسها . يهفو : يسرع . العرة : البياض في جهة الفرس . الحمار : القناع .

تحليل الأبيات :

يتحسر بشر حسرة موجمة أن رحل عنه خطاؤه . وفارقه خلاصه دون أن يهيء له
الدهر السعادة بمرآهم ، قلبه قد استعارته هذه الطعائن ، ثم يسير مسيراً طويلاً في عرض
حنينه ، ونعت وجده ، ووصف جمال هؤلاء الطعائن ، ومن ثم ينتقل إلى أغراض آخر
تصل به إلى وصف فرسه فيقول :

أبلغ أيها الخليل إن تحدثت عنا ، وجرى على لسانك ذكرنا لدى قومنا بني كنانة ،
حيث اتجهوا وساروا ، وكيف كانوا وصاروا ، أننا كفينا من تغيب منهم مئونة الحرب ،
وتحملنا دونهم أعباء القتال ، وأنها استبحنا حرم الجدد ، واستفتحنا سنام الأرض ؛ إذ الفيت
ضنين ، والمطر بخيل ، والقطار لا يعطى ولا يجود ؛ فالناس في قحط وإعدام ، والقوم
في جذب وإحمال ، نحن حينئذ نقتحم كل منيع ، ونبلغ كل حصن حصين ، فننزل حينما
يفيض الماء ، ويقططر المطر حيث نشاء ، بكل فرس جواد قد شد لها السناف ، حتى
لا يسقط عنها سرجها عندما يغلى رجلها ويشد عدوها ، وهي عنود للأرض ، مطواعة
للفارس ، فتأبى في عنادها إلا أن تطوى الأرض طيا مهما يطل الأمد ، وتتسع الشقة ،
وهي فرس كريمة قد اختيرت لحماية الثغور ، ومراقبة المسالح حتى أضنتها ، وانتخبت للمرابطة
عند الحدود حتى أضرتها ، وعودت شن الغارات حتى تعودتها ، هي آية في النشاط حتى
إنها لتعارك العنان ، وتعرك اللجام ، تريد كراً وفرأ ، وفارسها ينبغي منها سكوناً وانتظاراً ،
فهو إما مختلف ، فهما في عراك مستمر ، كأن أعضائها يسكنها ذكر الجراد ، فهو لا يفتأ
طائراً وما يزال متوثباً ، كأني حينما أعتلى صهوتها ، وأمتطى متنها ، وتأخذ في العدو حتى
يجرى حميمها ، ويسيل عرقها فيبتل عذارها ، كأني أمتطى خافيتي عقاب ، تميل بي كل
الميل ، تدفع بمرققيها حزامها حينما تشتد في السبح بيمديها ، فيسد ما بين طيبيها الغبار الثائر
من بين سنابكها .

ترى الخليل التي منها فرسى تلك حينما يحف عرقها فوق أجزاء جسمها ، وقد خالط

كثيره قليله ، وامتزج غامره بفراره ؛ تراها بيضا لوامع ، وشهباً سواطع ؛ إذا سارت تلك الخيول فى أرض سهلة مطمئنة أثرت فيها سناكبها الصلاب تأثيراً بالغا ، حتى لتبدو هذه الآثار كالحفائر المنهارة ، أو الآبار المطمورة ، وكأن صوت ذلك الفرس عندما يشتد عدوه ، وتكتم الخيول أنفاسها فى مناخرها كبر حداد قد استعاره مستعير ، فهو شديد الحرص على أن يرده إلى صاحبه فور وقته ، فهو ينفخ فيه بشدة ، ليقضى به حاجته قبل أن يضطر إلى رده لصاحبه .

ونحن نسمن خيلنا ، ونكرم أفراسنا ، حتى تكون على العدو فى الحرب قوية الإغارة ، وتظهر قديرة على الرخص ، فقد نقل عن بنى تميم أن أجدر الخيل بالركض المضرة المسمنة ، وهو يشير بهذا إلى قول أحد شعراء بنى تميم القدامى :

أعبروا خيلكم ثم اركضوها أحق الخيل بالركض الممار

فرسى هذا موضع عنايتى ، ومحل تكريمى ، إنا أنا أضمره أصيل كل يوم ، وهو نهى ضخم ، ضامر البطن مشمر القوائم ، كأن ظهره وقد اغبرت شعور الخيل ، وتشعثت أعرافها من طول السفر ، وتغيرت ألوانها من غبار الطريق ساعة سيرها السريع ، كأن ظهره جبل شديد القتل محكم البرم ، يشبهه فى شدته وامتداده ، واملاسه واستوائه ، يظل يومه الأطول يعارض كرائم الخيل ، ويبارى المذاكى العتاق ، فهو يهفو ليسبقها ، ويعدو ليبيها ، هو وضاح الغرة ، مشرق الجبهة ، كأن غرته الحمار الأبيض يغطى رأس المليحة الفيداء .

النقد :

بشر فى هذه الأبيات يتفق مع امرئ القيس وقد كانا متعاصرين فى بعض معانيه ، ويختلف معه فى البعض الآخر ، ولكنه على أى حال لا يبلغ مبلغه ، ولا يعدو فى طلقه ، وإن تكن المعانى التى انفرد بها بشر معانى جيدة ، منها : الطريف المبتدع ، والجمل المخترع ، وهذه نظرة فاحصة لذلك الذى أجهلناه :

قال امرؤ القيس في وصف جيشان جواده عند عدوه :

على الذبل جيش كأن اهتزاه إذا جاش فيه حميه غلى مرجل

وقال بشر :

كأن حفيف منخره إذا ما كتمن الربو كير مستعار

وبيت امرؤ القيس أدق في الوصف والتصوير ، فالفاظه تكاد تشعر بك بصوت الشهيق والزفير اللذين يصدران عن الفرس عندما يشتد عدوه ؛ فقد جمع امرؤ القيس في بيت واحد بين جيش ، واهتزاز ، وحميه ، وغلى ، ومرجل ، وكل هذه الألفاظ توحى بالصورة التي يريدها الشاعر ، فوق أنه وصفه في أول البيت بالضمور ، وإسناد الجيشان إليه مع الضمور فيه بقطة حسية . فقد يكون مبعث الجيشان الضخامة والسمنة والاكتناز ، أو الهرم ، أو غيرها .

أما بيت بشر فإنه وإن يكن دون بيت امرؤ القيس ، فإن فيه حسنا مبعثه الإشارة إلى توالى التنفس وتتابعه بقوله : « كير مستعار » ولكنه على أيّ دون بيت امرؤ القيس ، والبون بينهما شاسع .

ومن المعاني التي اتفقا فيها وصف الفرس بالملاسة والصلابة ، فقال امرؤ القيس :

كأن سراته لدى البيت قائما مذاك عروس أو صلاية حنظل

وقال بشر :

كأن سراته والخليل شعث غداة وجيفها مسد مغار

وكلا البيتين يشتمل على معان غير الملامسة ، فامرؤ القيس وصف الظهر بالصفاء ، ولم يرد هذا المعنى في بيت بشر لأن السد لا يوصف بالصفاء ، وأشعرنا بطيب ريحه بنسبة المذاك إلى العروس ، وباللعان بنسبة الصلاية إلى الحنظل ، وجميع هذا خلا منه بيت بشر ، ولا أظن أن من المستحسن أن يكون الظهر كالخليل المبرم المقتول ، فاستواء الحبل مهما أحكم قتله غير ملاحظ ، فهو ينثى وينطوى ، والجمال في البيت يبدو في قيد استقامة ظهره عند مباراته

الخيول الأخرى ؛ لأن الفرس حينئذ يشتدّ ظهره شدا قويا ، ووصف الخيل بأنها شعث
أشعر بأن فرسه ليس كذلك لأنه يغسله ، وإن لم يواته اللفظ الدال على صفائه كما واتى
امراً القيس .

أما المعاني التي انفرد بها بشر ، وهي معان جميلة طريفة فمنها :

مهارشة العنان كأن فيها جراحة هبوة فيها اصفرار
كأنى بين خافيتى عقاب تقلبنى إذا ابتلّ العذار

فن شأن كرائم الخيل أن تعلقك لجامها ، وتشدّ عنانها كأنها تقاتله ، وعدم تشبيهها
بالجراحة بأن جعل الجراحة جزءاً من أجزائها معنى دقيق ، وعمق في التصور ، ثم تصويره
نفسه حينما يعتلى صهوتها بأنه بين خافيتى عقاب تصوير جميل ، يشعر بأنه لا يأمن على نفسه ،
وهو الفارس الجبار ، ومنها قوله :

نسوف للحزام بمرفقيها يسد خواء طبييها القبار

ويشبهه قول سلمة بن الخرشب ، وسيرد فيما بعد :

إذا كان الحزام لقصرييها أماما حيث يمتسك البريم
يدافع حد طبييها وحينما يعادله الجراء فيستقيم

وبيت بشر خير من بيتي سلمة ، وأوفى منهما معنى ، وأسلس لفظاً .



٣ — وقال غنرة بن شداد العبسي * من قصيدة أولها :

عَجِمَتْ عُيْلَةٌ مِنْ . فَتَى مُتَبَدِّلٍ عَارَى الْأَشَاجِعِ شَاحِبِ كَالْمَنْصُلِ ^(١)
وَلَرُبَّ مُشْعَلَةٍ وَزَعَتْ رِعَالَهَا بِمَقْلَصٍ نَهْدِ الْمَرَاكِ كُلِّ هَيْكَلٍ ^(٢)
سَلَسِ الْمَعْدَرِ لَاحِقِ أَقْرَابِهِ مُتَقَلِّبِ عَيْنًا بِفَأْسِ الْمَسْحَلِ ^(٣)
نَهْدِ الْقِطَاةِ ، كَأَنَّهَا مِنْ صَخْرَةٍ مَلَسَاءَ يَغْشَاهَا الْمَسِيلُ بِمَحْفَلٍ ^(٤)
وَكَأَنَّ هَادِيَهُ إِذَا اسْتَقْبَلْتَهُ جَذَعٌ أَذِلُّ ، وَكَانَ غَيْرُ مُدْلٍ ^(٥)
٢٤٧ : وَكَأَنَّ مَخْرَجَ رُوحِهِ فِي وَجْهِهِ سَرَبَانٍ كَانَا مُوَلِّجَيْنِ لِحَيْالٍ ^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو غنرة بن عمرو بن شداد العبسي ، أحد فرسان العرب وأغربتهم وأجوادهم وشعرائهم ، وكانت أمه زبيبة أمة حبشية ، وأبوه من سادات بني عبس ، وكانت العرب لا تلحق بأنسابها أبناء الإماء ، فبقي غنرة عبدا منبوذا حتى ظهرت فروميته في حرب داحس والغبراء ، فنسب إليه أبوه وأصبح بعدئذ سيدا من سادات بني عبس توفي سنة ٦١٥ م .
التفسير اللغوي : (١) عيلة تصغير علة ، وهي ابنة عمه أحبها وشغفه حبها ، ولكنه حرمها ، فعاش حياته يفرد باسمها ويتغنى بحبها . متبدل : مستخف غير محتشم . الأشاجع : العروق المتصلة بأصول الأصابع . وفي عريها كناية عن الضعف والهزال . شاحب : متغير . المنصل : السيف .

(٢) المشعلة : وصف للكتيبة المنفردة في كل وجه . وزعت : فرقت . رعالها : جمع رعلة ، وهي القطعة من الخيل . بمقلص : بفرس طويل القوائم . نهدي : ضخم جميل . المراكل : جمع مراكل موضع ركل الفرس . هيكلي : عظيم ضخم .

(٣) سلس : لين . المعدر : موضع العذار من كاهل الفرس . لاحق الأقرب : ضامر الخواصر . الفأس : الحديدية القائمة من اللجام في حنك الفرس . المسحل : حلقة في طرف الشكيمة . (٤) نهدي القطاة : عظيم العجز . يغشاها : يترل بها . المسيل : مجرى الماء . بمحفل : مجتمع الماء ، وفيها كناية عن الاكتناز .

(٥) الهادي : العنق وجمعه هواد . أذل : سهل ونعم . غير منذل : غير منعم ومسهل . (٦) مخرج روحه : كناية عن فتحي منخره . سربان : مثنى سرب سردابان . موليئين : مدخلين . لحيال : لضبع .

- وكان متفيه إذا جردته ونزعت عنه الجل متنا أيل (٧)
 وله حوافر موثق تركيها صم النسر كأنها من جندل (٨)
 وله عسيب ذو سيب سابغ مثل الرداء على الغنى المفضل (٩)
 سلس العنان إلى القتال، فعينه قبلاء شاحصة كمين الأحول (١٠)
 وكان مشيته إذا نهنته بالكل مشية شارب مستعجل (١١)
 فطيه أقتحم الهياج تقحما فيها وأنقض أنقض الأجل (١٢)

(٧) متفيه : تثنية متن ، والمتن الظهر ، وهو هنا يريد جانيه ؛ لأنهما يكتنفان صلب الظهر عن يمين وشمال . جردته : رفعت عنه الجل . الجل : ما يوضع فوق ظهر الفرس ليصان به ، وهو كالثوب للإنسان . الأيل : نوع من الظباء ، جانباً ظهره أملسان ناعمان ، وله قرون متشعبة لا تجويف فيها .

(٨) موثق : محكم . صم : جمع أصم ، وهو الصلد الصلب . النسر : جمع نسر ، والنسر لحم في باطن حافر الفرس . جندل : صخر صلد .

(٩) العسيب : هو أصل عظم الذنب ومنبت الشعر منه . ذو سيب سابغ : له شعر ضاف طويل . الرداء : الثوب . المفضل : الزائد في طول رداءه عن جسمه .

(١٠) سلس العنان : لين القياد ، وهي كناية . قبلاء : ناظرة إلى أعلى ، ومثلها شاحصة . الأحول : الرجل ينحرف إنسان عينه إلى أحد الجانبين أو إلى أعلى ، وهو المراد هنا .

(١١) نهنته : زجرته وكففته . بالكل : بحديدة اللجام . شارب : يقصد سكران . مستعجل : مسرع .

(١٢) أقتحم : أحترق . الهياج : كناية عن الحرب ، وهو في الأصل الثورة . تقحما : قويا مشتدا . أنقض : أثب . الأجل : الصقر .

تحليل الأبيات :

بدأ عنتره قصيدته بالغزل الباكي الحزين ، وقد كان عنتره في غزله صادق اللوعة ، فلم يبك الديار ، ولم يقف على الأطلال ، فإنما يبكيهما من سعد فيهما ، أما هو فقد تحدث عن عجب عبيلة منه إذ تراه فتى غير محتشم ، لا يبالي شيئا ، ولا يأبه حتى للدهر ، قد عرى جلده من اللحم ، وتغير لونه من هول الحرب ، فصار كالسيف رقيقا ولكنه يفرى ، ودقيقا إلا أنه يودى ، وسار في قصيدته بعدئذ في غزل مشرب بالحماسة ، أوفى حماسة ممزوجة بالغزل ، فهو « شعث المفاقر » ، « ولم يدهن حولا ولم يترجل » ، وهو « لا يكتسى إلا الحديد إذا اكتسى » .

جرى على نهجه هذا حتى بلغ وصف فرسه بعد خمسة عشر بيتا أزال فيها عجب عبيلة ، ووصف لها فيها شجاعته وفروسيته ، وليس أملك للفواني من الأبطال والفرسان ، فكأنهن يرين منهم فرسانا في الحب ، كما أنهم فرسان في الحرب ، حتى قال :

وكم من كتيبة ضخمة وزعت مجتمعا ، وفرت منظما بفرس طويل القوائم ، جميل المراكل ، ضخم الجسم ، عظيم الأعضاء ، لين القياد ، سهل العنان ، كريم لا يرتضى لنفسه الجروح ، ضامر الخصر ، لاحق الأقرب ، متلعب بجديد لجامه ، فلا تثنيه ضخامته عن تلعبه ؛ لا يثنيه مسجل ، ولا يمنعه عبثه فأس ، أو هو لا يستقر على حال ، ولا تطمئن له قدم الضخامة فأس اللجام ، ولكبر مسجل الشكيمة ، عظيم الكفل ، ضخم المعجز ، فكأنه لا كتنازه باللحم ، وامتلائه بالشحم ، صخرة ناعمة ملساء ، ينزل بها السيل المنهمر فلا يستقر قراره ، وكأن عنقه إذا استقبلت وجهه جذع قد صقله صاقله ، وثقفه مثقفه ، كان قبل خشن الملس ، ولكنه بعد الصقل والتثقيف قد زالت خشونته ، وبقيت له ضخامته ، وكان منخريه لانساعهما سردابان مفتوحان تستكن فيهما ضبع ، وكان جانبي ظهره إذا ما نزعته عنه جلده ، وخلصت عنه ثوبه جانبا أيل ، لهما منه صفاء اللون ، ونعومة الملس ، وامتداد الظهر .

أما حوافره فوثيقة محكمة ، صلدة صلبة ، صماء النسر ، كأنها كونت من صخر ، وله

ذنب ذو شعر سابغ ، وسبيب ضاف ، مثله في سبوغه وضمفوه ، كمثل الرداء يطيله السيد الثرى ، ويضفيه العظيم الغنى .

هو فرس سلس القياد ، سهل العناق ، ليس ذلك شأنه في السلم فحسب ، إذ السلامة مكفولة ولكن في الذهاب إلى ساحات القتال ، حيث الطعن والضرب ، والشد والجذب ، واختلاف طعنات الفرسان ، واختلال ضربات الأقران ، فلا أمن ساعتئذ ولا اطمئنان ، حينئذ يظهر كرمه وعقته ، فهو أسلس ما يكون عنانا ، وأيسر ما يرجى قيادا .

إن عينيه في ذلك الحين تنظران إلى أعلى ، وتشخصان إلى شخصي ؛ كأنما علقنا في وجهي خشية أن يصيبني مكروه أو يلحقني سوء ، فهو ينسى نفسه ليدكر فارسه ، فكأنهما عينا رجل أحول ، وحوله إلى ما فوقه دائما ، وهو إذ تزجره بالنكل وتنهيه بالشكم يمشى متلعبا متوثبا كمشية النشوان المجل .

على هذا الجواد العتيق أخترق المعامع ، وأقتحم المواقع ، وأثب على الجحافل وثوب الأجادل على الحائم .

الفهر :

الآيات جميعها في أوصاف شيات الفرس ، وما أقرب الشبه بينها وبين آيات طرفة في وصف الناقة ؛ إلا أن أوصاف طرفة كانت أدق وأجزل ، وأنت لا تحس لهذه الآيات بالحياة والحركة التي أحسست بها في آيات امرئ القيس ، ولا تجد الصور الرائعة التي وجدناها هناك .

غير أني أتخيل عنقته وقد وقف بجذاء فرسه يتأمله جزءا جزءا ، ثم يرسمه عضوا عضوا ، دون أن يسير في رسمه على نظام مستقيم ، فهو يصف قطانه وكفله ، وكان عليه أن يصف بعدها عسيبه وذنبه ، ولكنه يصف هاديه وعنقه .

وفي الآيات تشبيهات جميلة كتشبيه العنق بالذئع المصقول ، وتشبيه القطاة بالصخرة الملساء ، وتشبيه المنخرين بالسربين ، وفي هذا البيت صورة ملوحة ، فالسرب يحفره

ساكنة في صخرة أوفى أصل شجرة ، والمنخر في رأس الفرس التي قد يكون فيها من أعضاء الجسم ما يشبه الثقوب والتقوّ في الصخرة ، ففيها العينان ، وفيها الأذنان ، وفيها العذار ، وفيها الشفتان ، وكل هذه تقرب شبه الرأس بالصخرة غير للمساء .

و بعد فعنترة دون امرئ القيس في هذه الأبيات وفي غير هذه الأبيات ، ولكنه يبدّ بشرأ في هذه الأبيات وفي غير هذه الأبيات ، وليس بناقص من قدر عنترة أن يكون دون امرئ القيس ، فالعبرى لا يعاب من لا يساويه ، وأين قول عنترة في وصف ذيل فرسه ؟ وله عسيب ذو سبيب سابغ مثل الرداء على الغنى المفضل من قول امرئ القيس :

ضليع إذا استدبرته سدّ فرجه بضاف فوق الأرض ليس بأعزل

إن وصف عنترة ناقص من وجوه عن بيت امرئ القيس :

أولاً : إن رداء الغنى المفضل ينسحب على الأرض فيتمتع فيه إلا إذا رفعه يديه ، وهذا ما احتس منه امرؤ القيس إذ قال : « فوق الأرض » .

ثانياً : أن السبيب يخالف الرداء من نواح : فشعراته غير متساوية الطول ، ولو قال : إنه ثوب ذو أهداب لكان أقرب إلى السداد ، والثوب يبدو ضيقاً من أعلى وواسعاً من أدنى ، وليس ذلك شأن الذيل .

ثالثاً : بيت امرئ القيس اشتمل على صفات ثلاث : فهو ضليع ، وهو ضافي الذيل ، وذيله مستو مستقيم ، فوق أنه أشعرنا بأنه كثيف لأنه يسد ما بين ساقيه ، وليس في بيت عنترة شيء من ذلك .

هذا إلى أن في البيت صورة رجل وقف يتأمل فرساً من خلفه ، فهو يراه على الصورة التي رسمها ، ولكن عنترة أحسن وصف شعور فرسه ، إذ صورته ناظراً إلى أعلى يتأمل فارسه ، وكأنه يريد أن يدفع عنه عواذي الزمن ، فهو متأهب لهذا الدفاع ، أشعرنا أن فرسه هذا نبيل كريم ، وأن حياة فارسه أعز عليه من حياته ، فقد

لا يتق هو طعنة قد توجه إليه ، وهو شاخص ببصره إلى فارسه ، هذا إلى أنه يشارك فارسه في ابتغاء النصر ، وإدراك الظفر .

أما اللغة فكلها تنبع من عين واحدة ، ولا تكاد تجد فرقا كبيرا بينهما ، ولكننا إذا أنعمنا النظر حكمنا بأن ألفاظ عنقرة أرق من ألفاظ امرئ القيس ، مع أن حالهما كانت تستأهل غير ذلك ، فعنقرة من عبدان العرب وأغربتهم ، وامرؤ القيس من أواسطهم وملوكهم ، وعنقرة يجب أن يكون خشن الملمس ، غليظ القول ، وعكس هذا كان يجب لامرئ القيس .

وأرى أن الجاهليين ومقلديهم كانوا يؤثرون في وصف الناقة والفرس وما يجري مجراها اللفظ الجزل ، فالعدول عن هذا انحراف عن مذهبهم ، ولا يعتبر مزية يمتاز بها صاحبها بل يعتبر ذلك قصوراً منه وعجزاً .



٤ — وقال سلمة بن الخرشب * من قصيدة أولها :

تَأْوَبَهُ خِيَالٌ مِنْ سُـلَيْمٍ كَمَا يَعْتَادُ ذَا الدِّينِ الْغَرِيمِ^(١)

وَمُخْتَضٍ تَبِيضُ الرُّبْدُ فِيهِ تَحْوِي نَبْتَهُ فَهُوَ الْقَمِيمِ^(٢)

غَدَوْتُ بِهِ تَدَافِعِي سَبُوحٍ فَرَّاشُ نُسُورِهَا عَجَمٌ جَرِيمِ^(٣)

مِنْ التَّلَفُّاتِ بِجَانِبِهَا إِذَا مَا بَلَّ حَزَمَهَا الْحَمِيمِ^(٤)

إِذَا كَانَ الْحِزَامُ لِقُصْرَيْيَا أَمَامًا حَيْثُ يَمْتَسِكُ الْبَرِيمِ^(٥)

٢٥٩: يَدَافِعُ حَدًّا طَبِيبًا وَحِينًا يُعَادِلُهُ الْجَرَاءُ فَيَسْتَقِيمُ^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو سلمة بن عمرو بن نصر بن حارثة العطفاني ، ولقب أبيه الخرشب ومعناه الطويل ، وهو شاعر جاهلي ، ولكننا لم نقع له فيما بين أيدينا من كتب على ترجمة مطولة .

التفسير اللغوي : (١) تأوبه : راجعه . الخيال : الطيف . سليمي : محبوبته . يعتاد : يعاود . ذا الدين : المدين . الغريم : الدائن .

(٢) المختاض : اللوض الذي يخوض فيه الناس ، لكثرة عشبته والتفاف نبتة . الربد : مفردة ربداء ، وهي النعام . تحوي : تحاماه الناس فلم يعروه خوفا . العميم : الكثير الشامل للطف بعضه على بعض .

(٣) غدوت به : بكرت إليه . تدافعي : تدفعي . السبوح : الفرس التي تسبح بيديها ، كما يسبح الإنسان في الماء . فراش نسورها : الفراش : ما تطاير منها . والنسور : جمع نسر ، وهي قطع اللحم الصلب في باطن الحافر ، وصلابتها موضع المدح منها . عجم : نوى . الجريم : المجرور وهو المقطوع ، وهو ما طال مكثه في نخله حتى جف وصار تمرا ، ونواه أصلب النوى . (٤) من التللفات بجانبها : من الخيل التللفات ، والجملة كناية عن نشاطها ومراحها .

الحزم : موضع الحزام ، وهو أول ما يمسح العرق . الحميم : العرق . (٥) لقصرييها : لضلعها السفليين . البريم : الحيط المبروم ، أو السير من الجلد تشده المرأة حول وسطها .

(٦) الطيبان : مثني طبي ، وهو ما يشبه الخلف من الناقة والثدي من المرأة ، والضرع من ذات الظلف . يعادله : يقيمه ويعدله . الجراء : الجري ، فيستقيم : فيعتدل في سيره .

- كَيْتٌ غَيْرُ مُحْلَفَةٍ وَلَكِنْ كَلَوْنِ الصَّرْفِ عَلَّ بِهِ الْأَدِيمُ^(٧)
تَعَادَى مِنْ قَوَائِمِهَا ثَلَاثُ بَتَحْجِيلٍ ، وَقَائِمَةٌ بِهِمْ^(٨)
كَانَ مَسِيحَتِي وَرَقٍ عَلَيْهَا نَمَتْ قُرْطَيْنِهَا أُذُنٌ خَزِيمٌ^(٩)
تَعَوَّذُ بِالرُّقَى مِنْ غَيْرِ خَبَلٍ وَتُعْقَدُ فِي قَلَانِدِهَا التَّمِيمُ^(١٠)
وَتُمَكِّنُنَا إِذَا نَحْنُ اقْتَنَصْنَا مِنَ الشَّحَاجِ أَسْعَلَهُ الْجِيمُ^(١١)
هُوَىَّ عُقَابٍ عُرْدَةٍ أَشْأَزَتْهَا بَذَى الضَّمْرَانِ عِكْرِشَةُ دَرُومٍ^(١٢)

(٧) الكيت : الأحمر يميل إلى السواد . غير محلفة : خالصة اللون لا يخلف عليها أنها ليست كذلك . الصرف : صبغة حمراء تصبغ بها الجلود . عل : سقى مرة بعد مرة . الأديم : الجلد .

(٨) تعادى : تابع وتوالى . بتحجيل : التحجيل البياض في موضع القيد من قوائم الفرس . البهيم : الأسود أو السوداء .

(٩) المسيحة : الصفيحة أو السيكة . الورق : الفضة . نمت : رفعت . قرطيهما : حلقيهما . خذيم : مخدومة مثقوبة .

(١٠) تعوذ : يدعى لها بالحفظ . الرق : جمع رقية التأمم ونحوها . الخبل : الجنون . تمعد : تربط . القلائد : جمع قلادة العقود . التميم : جمع تيممة التعاويذ .

(١١) تمكنا : تهيء لنا . اقتنصنا : خرجنا للصيد والقنص . الشحاج : الحمار الوحشي يشجع بصوته دون أن يفصح به . أسعله : جعله مسعلاً نشيطاً كالسعادة ، وهى الغول . الجيم : الكثير من النبات .

(١٢) هوى : سقوط . العقاب : النسر . عردة : اسم لهضبة . أشأزتها : أقلقتها واستخففتها . بذى الضمران : بذلك المكان . العكرشة : أنثى الأرنب . الدروم : المقاربة الخطو .

تحليل الأبيات :

زار قلبه طيف سليمى ، التى لا يفارقه خيالها ، فهو معه فى كل زمان ومكان ،
يلازمه ملازمة الدائن لمدينه ، ويعاوده معاودة الغارم من غريمه ، ثم انتقل بعد بيت واحد
إلى غرضه الأصيل فأخذ يصف فرسه ، فقال :

ورب مرعى مخضب ، ومختاض موفور العشب ، ملتف النبت تحاماه الناس وخافوه
لكثرة هوامه وكواسره ، وتوقوه خشية وحوشه وجوارحه غدوت إليه فى بكرة النهار
لا أخشى بأسا ، ولا أخاف فيه فتكا ، فإنى أعتلى صهوة جواد سبوح لا يطلب راكبها ،
ولا يدركها طالبها ؛ إذا عدت تطاير من نسورها حصى له صلابة الحديد ، أو نوى التمر الذى
طال تجفيفه ، فأصبح نواه صلبا صلداً ، فإذا لزجها ، أو ركل مركلها تلعبت بمتنيها ،
وتلفتت بجانيبها ، يحدث منها هذا عند ما يبيل العرق موضع حزامها ، وذلك لحدة نشاطها ،
وكثرة مراحها ، وإذا عدت وحزامها محكم الربط عند ضلعها السفليين فإن عدوها ،
وانقباض بطنها ، وضغطها على أضلاعها يجعل ذلك الحزام عند طيبيها ، وأحيانا يقيمه
ويعدله استقامة عدوها ، واعتدال جريها .

فرسى تلك كميث خالصة اللون صافية الأديم ، لونها فى شدة حمرة ، وأديمها فى صفاء
كمثته ، كلون الصبغ الأحمر ينهل منه الأديم ويعل ، لينال صافى لونه ، وخالص قانيه ،
وهى محجلة القوائم الثلاث دهاء الرابعة ، والضد يظهر حسنه الضد ، فى قوائمها يظهر حسن
الضدين ، وكأن سبائك من الفضة الرقيقة قد صنع منها لكل قائمة قرطان ، ورفعا إليها ،
فكان الأقراط فى آذان مثقوبة .

هذه الفرس كريمة على ، أثيرة عندى ، فأنا لذلك أحفظها بالرقى ، وأقيها الشر
بالتعاويد دون أن يكون ذلك لحبل أصابها ، أو لمس نزل بها ، فهى سليمة من كل عيب ،
خالصة من كل شين ، وأنا أعقد فى قلائدها التمام ، وأضع فى عقودها التعاويد ، كأنها ولد
عزيز على أحبيه من عيون الحاسدين .

وهى تهيب لنا إذا خرجنا للصيد أن نصطاد أشق أنواع الحيوان صيدا ، فنصيد بها

الحمار الوحشى الذى قد أصبح لكثرة ما رعى ، ووفرة ما أكل كالغول يخيف كل صائد ، وينأى عن كل قاصد ، فهى تهوى عليه كما يهوى عقاب تلك الهضبة القوية العقبان ، أقلقها أن ترى بذلك المكان أرنبا متقاربا فى خطوه ، متدانيا فى سيره ، فهى لا بد أن تنقض عليه فتقصر أجله .

النقر :

هذه قصيدة كاملة فى وصف الفرس لم تتجاوز منها إلا بيتا واحداً ، فهى ثلاثة عشر بيتا ، ونقص بهذا أن الشاعر محتفل بغرضه ، حاشد له جميع قواه ، ولكنه لم يبلغ فيه المبلغ الذى كان يرجوه ، فماذا جاء من المعانى ؟

تكاد تحصر المعانى التى اشتملت عليها قصيدته فى العناصر الآتية :

- ١ — فرسه سبوح ذو نسور صلبة قوية . ٢ — تتلعب بجانيها عند ما تستثار للعدو .
- ٣ — ينقبض بطنها فيجرى عليه حزامها الحكم . ٤ — هى كملت اللون خالصة الكمية .
- ٥ — محجلة القوائم الثلاث دهاء الرابعة . ٦ — كأن قوائمها البيض مقرطة بأقراط فضية .
- ٧ — معوذة بالرقى والتأمم لإعزازها . ٨ — تتيح لنا الصيد مهما يكن المصيد .
- ٩ — تهوى كما يهوى العقاب على الأرنب .

هذه هى المعانى التى أوردتها الشاعر فى قصيدته ، وجميعها معان مطروقة ، والجديد منها ليس بنى بالكتعويذه إياها ، وتعليق التأمم فى القلائد ، وهو أمر يعرفه الخاص والعام ، فمن الناس حتى اليوم من يعوذ فرسه لاعتقادهم أن العين تصيبها قبل أن تصيب سواها ، والحق أن تخيله بياض قوائمها بأنها أقراط فضية خيال لا بأس به .

هذه هى المعانى التى لم يتناولها الشعراء ، وإن تناولوها ، فقد نهجوا فى تناولها غير نهجه ، وساروا بها فى غير طريقه ، أما ما سواها فكلها معان معروفة ، فقوله :
غدوت بها تدافعى سبوح فراش نسورها عجم أديم
يشبه قول عنتره :

وله حوافر موثق تركيبها صم النسور كأنها من جندل

وفى كل من البيتين ناحية جمال يمتاز بها عن الآخر ؛ فبيت سلمة يمتاز بأنه وصف
فرسه بصفتين هما سبحة فى عدوه ، وصلابة نسوره ، وبيت عنتره يمتاز بأن تشبيهه أقوى
من تشبيه سلمة فتشبيه النسور بالجندل أقوى من تشبيهها بالنوى مهما تكن صلابته .
وقول سلمة :

إذا كان الحزام لقصريها أماما حيث يمتسك البريم
يدافع حد طبيها وحينما يعادله الجراء فيستقيم
كقول بشر بن أبى خازم :

نسوف للحزام بمرفقيها يسد خواء طبيها الغبار
وبيت بشر أجمع من بيتى سلمة ، فقد زاد فى معناه أن الغبار الثائر فى مسيره يسد ما بين
مرفقيها ، أما القيود التى أوردتها سلمة فليست ذات قيمة فنية بقوله : « أماما حيث يمتسك
البريم » قيد ثقيل فى لفظه وفى معناه .

وإذا كانت الألفاظ توحى بمعانيها ، وتشعر بمدلولاتها ، وذلك هو دليل حسن اختيار
الأديب للفظه ، فإن إيجاء الألفاظ هنا على مدلولاتها إيجاء ضعيف ، ودلالاتها على مدلولاتها
غير كاملة ، فاختياره كلمة عكرشة لأنثى الأرنب لارقة فيه ، فحروف الكلمة ، وتجمع
هذه الحروف بعضها مع بعض يوحى بأنها اسم لغير الأرنب .
ومن الأبيات ما ليس واضح المعنى لأن صورته غير كاملة ولا منسقة ، وذلك يظهر
فى قوله :

كأن مسيحتى ورق عليها نمت قرطيهما أذن خذيم
فإن المعنى جميل ، ولكن التصوير غير كامل التكوين .

٥ — وقال عوف بن عطية من قصيدة أولها :

أَمِنْ آلِ مَيِّ عَرَفْتَ الدِّيَارَا بِحَيْثُ الشَّقِيقُ خَلَاءَ قِفَارَا؟^(١)
 وَأَعَدَدْتُ لِلْحَرْبِ مَلْبُونَةً تَرُدُّ عَلَى سَائِسِيهَا الْحِمَارَا^(٢)
 كُمَيْتًا كَحَاشِيَةِ الْأَنْحُمِ لَمْ يَدْعِ الصَّنْعُ فِيهَا عَوَارَا^(٣)
 رَوَاعُ الْفَوَادِ يَكَادُ الْعَنِيفُ إِذَا جَرَّتِ الْحِيلُ أَنْ يُسْتَطَارَا^(٤)
 لَهَا شُعَبٌ كَأَيَادِ اللَّغْبِيطِ فَضَضَ عَنْهَا الْبِنَاءُ الشَّجَارَا^(٥)
 لَهَا رُسْعٌ مُكْرَبٌ أَيْدٍ فَلَا الْعِظْمُ وَاهٍ وَلَا الْعِرْقُ فَارَا^(٦)
 لَهَا حَافِرٌ مِثْلُ قَعْبِ الْوَلِيدِ يَتَخَذُ الْفَارُ فِيهِ مَقَارَا^(٧)
 لَهَا كِفْلٌ مِثْلُ مَتْنِ الطَّرَا فِي مَدَدٍ فِيهِ الْبِنَاءُ الْحِتَارَا^(٨) : ٢٧٣

* ترجمه الشاعر : هو عوف بن عطية بن عمرو بن عبس من بني تميم شاعر فارس إلا أنه مقل . واختلف فيه أهو مخضرم أم هو جاهلي صرف ، والظاهر أنه لم يدرك الإسلام .
 التفسير اللغوي : (١) مَيِّ : اسم حبيته . الشقيق : ماء لبني أسد بن عمرو بن تميم . قفارا : ماحلا .

(٢) الملبونة : التي تسقى اللبن إكراما لها . سائسيها : فرسانها . الحمار : يقصد الحمار الوحشي .
 (٣) الحاشية : الأطراف . الأنحُمى : ضرب من البرود منسوب إلى أتحم باليمن .
 الصنع : الدواء الذي تصنع به في ضمورها . العوار : العيب .
 (٤) رواع الفؤاد : ذكية القلب . العنيف : الشديد الغليظ . يستطار : تحمله على أن يطير من فوقها .

(٥) شعب : جمع شعبة ويقصد قفار الظهر أو هي ما أشرف منها كالكاهل والعنق ، وهو أنسب للمعنى . الإياد : الإياد : المقدم من الغبيط . الغبيط : الرجل . فضض : فاض وفرق . الشجار : خشب الهودج .

(٦) الرسخ : الموضع المستدق بين الحافر وموضع الوظيف من اليد والرجل . مكرب : شديد موثق ، وهو وصف للجبل المحكم القتل . أيد : قوى شديد . واه : ضعيف . فار العرق : انتفخ ، والانتفاخ يضعف القوائم .

(٧) القعب : القدح . الوليد : الصبي . المغار : الحجر .

(٨) الكفل : مؤخر الظهر . الطراف : البيت من الجلد . الحتار : خيط يشده الطراف

تحليل الأبيات :

بدأ الشاعر قصيدته بالاستفهام التعجبي ؛ إذ كيف تعرف ديار آل مى الواقعة بالقرب من ذلك الماء ؟ لقد أصبحت خالية مقفرة ، لا أحد من الإنس يسكنها ، فلتختر سكنها الوحوش الأوباد ، بعد أن كانت مهبط الغيد النواعم ، ثم أخذ يتنقل فى وصف عشقه ولهوه فى شبابه وشيبه من معنى إلى معنى ؛ حتى بدأ يصف فرسه ، أليس هو من أكبر أسباب اللهو ؟ فيقول :

إنى أعددت ليوم الكر والفر ، والضرب والطنن ، فرسا غذيتها باللبن ، فكانت فتية قوية ؛ إذا طارد بها فارسها حمارا وحشيا رذته إليه مذبنا مطيعا ، فكأنها قيد الأوباد .
أعددتها فرسا كميت اللون ، كأنها فى صفاء لونها ، ووثاقة جسمها أطراف ذلك البرد النينى ، قد أحكم ناسجه نسجه ، فليس فيه ما يعاب به .

هى فرس ذكية الفؤاد ، متوفرة الإحساس ، نهاية للأرض ، جوابة للقفر ، تكاد تطير من فوق صهوتها الفارس العنيف حينما تبارى عتاق المذاكى ، فقار ظهرها فى صلابتها كإياد الرجل أزيل عنه خشب الهودج ، فبدت للأنظار متانته ، ورسغها موثق محكم ، مفتول مكرب ، فليس عظمها واهيا ، ولا عرقها منتفخا فائرا ، فيضعف ذلك من قوة قوائمها ، ويوهن من صلابة أرجلها ، وحافرها فى استدارته وتقعيبه مثل قدح الصبى ، بعيد الغور ؛ حتى ليكن أن يتخذ فيه الفأر جحرا ، ويجعل منه مغارا ، وكفلها مثل ظهر البيت المتخذ من الجلد ، المشدودة أطرافه ، فبدا أملس ناعما ، ممتلئا مكتنزا .

النقر :

المتأمل في هذه الأبيات يجد الشاعر قد أمعن في نعتها ، فله في كل بيت معنى أو أكثر من معنى ، وكلها معان مطروقة لا جدة فيها ، وإن لم نعتبر للسابق فضلا على اللاحق ، فكلهم ينظرون ويسمعون ، فينعتون ويصفون ، ولا يمنع ذلك من أن نجتمع بين بعض معانيه ، وبعض معاني من قدمنا عنهم القول ، يشبه بيته الأول بعض الشبه بيت امرئ القيس :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
وبيت امرئ القيس أطرف معنى ، وأقوى أسلوبا ؛ إذ ذكر ساعة صيده ، ووصف فرسه بأنه منجرد الشعر ، وقيد الأوابد ، وضخم الجسم ، وقوله : قيد الأوابد من معجزات الشعر .

وبيته الثاني يشبه بيت سلمة بن الخرشب :

كميت غير محلفة ولكن كلون الصرف على به الأديم
وبيت سلمة أفضل من وجوه ، أجملها ذلك الاحتراس « غير محلفة » فقد أكد المعنى وأكسبه روعة ، وتشبيه لونه « بأنه كلون الصرف على به الأديم » تشبيه بديع ، وقول عوف :
رواع الفؤاد يكاد العنيف إذا جرت الخيل أن يستطارا
بيت جميل وإن تكن فيه مبالغة من ناحية ، وقصور من أخرى ، أما المبالغة ففي استطارة العنيف ، أو قربها ، وأما القصور ، فشرطه الاستطارة بجريان الخيل معها ، ولم تكن المبالغة من سمات الشعر الجاهلي ؛ كما أن القصور اللفظي قد يوجد ، أما القصور المعنوي فقل أن يوجد .

٦ — وقال المرقش الأصغر* من قصيدة أولها :

أَمِنْ رَسْمِ دَارٍ مَاءٍ عَيْنِيكَ يَسْفَحُ غَدَا مِنْ مُقَامِ أَهْلِهِ تَرَوُّهُوا؟^(١)
 غَدُونَا بِصَافٍ كَالْعَسِيبِ مُجَلَّلٍ طَوِينَاهُ حِينًا فَهُوَ شَرِبُ مَلُوحٍ^(٢)
 أَسِيلٌ نَبِيلٌ لَيْسَ فِيهِ مَعَابَةٌ كَمِيتٌ كُلُونِ الصَّرْفِ أَرْجَلُ أَقْرَحٍ^(٣)
 عَلَى مِثْلِهِ آتَى النَّدَى مُخَايَلًا وَأَغْمَزُ سِرًّا ، أَيْ أَمْرِي أَرْبَحُ^(٤)
 وَيَسْبِقُ مَطْرُودًا ، وَيَلْحَقُ طَارِدًا وَيَخْرُجُ مِنْ غَمِّ الْمَضِيقِ وَيَجْرَحُ^(٥)
 تَرَاهُ بِشِكَاكِ الْمُدَجَّجِ بَعْدَ مَا تَقَطَّعَ أَقْرَانُ الْمُغِيرَةِ يَجْمَحُ^(٦)
 شَهِدْتُ بِهِ فِي غَارَةٍ مُسَبَّطَةٍ يُطَاعِنُ أَوْلَاهَا فَنَامَ مُصْبَحُ^(٧)
 كَمَا انْتَفَجَّتْ مِنَ الظُّلْبَاءِ جِدَايَةٌ أَشْمُ إِذَا ذَكَرْتَهُ الشَّدَّ أَفْيَحُ^(٨)
 ٢٨٢ : يَجْمُ جُجُومَ الْحَسَنِ جَاشَ مَضِيقُهُ وَجَرَدَهُ مِنْ تَحْتِ غَيْلٍ وَأَبْطَحُ^(٩)

* ترجمه الشاعر : هو ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة البكري عم طرفة بن العبد ، والمرقش الأكبر عمه ، والأصغر أشعر ، وأطول عمراً ، وقد أجاد الغزل ؛ لأنه من العشاق ، والوصف لأنه من الفرسان ، توفي حوالى سنة ٥٠٠ م فهو أقدم من امرئ القيس .

التفسير المفرد : (١) الرسم : بقية آثار الديار . يسفح : يسيل ويجرى . غدا من مقام : أصبح من إقامة إلى رحيل : تروحوا : ساروا في وقت الرواح ، وهو من زوال الشمس إلى الليل . (٢) غدونا . سرنا مصبحين . بصاف : بفرس خالص اللون . كالعسيب : كطرف السعفة في صفاء لونه . مجلل : وضع عليه الجلال . طويناه : ضمنا . شرب ملوح : ضامر متغير من حر الشمس . (٣) أسيل نبيل : أملس جميل . كمي : أحمر مائل إلى السواد . الصرف : صبغ أحمر يصبغ به الجلد . أرجل : محجل . أقرح : أغر الجهة . (٤) الندى النادى . مخايلا : محتالا . أغمز : أشير . (٥) مطرودا : يطرده فارس وراءه . طاردا : يطرد غيره أمامه . غم المضيق : يجرح : يصيد ، ومنه جوارح الطير . (٦) الشكات : جمع شكة ، السلاح . المدجج : اللابس السلاح . تقطع أقران المغيرة : تمزق نظراء الكتيبة . يجمح : ينفرد ويشرد . (٧) مسبطة : ممتدة طويلة الأمد . فنام : جماعة . مصبح : مغار عليها صباحاً . (٨) انتفجت : ثارت . جداية : شابة . أشم : على الأنف . أفيح : فسيح الخطأ . (٩) يجم : يجتمع شدة . الحسى : الرمل على الصخر يجتمع الماء تحته . جاش : غلى . الغيل : الماء الكثير . الأبطح : الحصى .

تحليل الأبيات :

يسائل الرقش نفسه ، أن رأيت آثار الحبيبة تسيل الدموع من عينيك مدرارا .
وتجري العبرات من مأكيك غزارا ، لأن من كانوا يحلون تلك الديار غدوا مرتحلين ، وأموا
غيرها مقروحين ؟

ثم يأخذ في نسيب رقيق ، ووصف بديع لريق الحبيب في أحد عشر بيتا يقتضب
بعدها نسيبه إلى وصف فرسه ، فيقول :

لقد غدونا إلى الصيد بفرس صافي اللون ، ضامر البطن ، مكرم عندي ؛ إذ الجلال فوق
متنيه يحميه من الحر والقر ، وقد ضمرناه حيناً حتى صار ضموره عنوان جماله .
هو أملس الجسم ناعمه ، جميل الخلق رائعه ، ليس فيه ما يعاب ، فهو كملت اللون كتمة
كأنها الصرف ، محجل القوائم ، أغر الجبهة « كأن بياض غرته خمار » .

وهو مظهر سراء وشرف لمتطيه ، فأفد به على نادى قومي معجبا مختالا ، معتزاً مزهوا ،
أسائل نفسي « أى أمرى أرجح ؟ » أيوم أخرج به للصيد ، فأبلغ مأرجو من قنص الشوارد ،
وصيد الأوابد ، أم يوم أستريح فأفد به إلى ذلك النادى الذى ينتظم سراة قومي ،
وأشراف قبيلي ؟ .

إنه حينما أخرج به للحرب والغارة يسبق إذا كان مطروداً ، ويلحق إذا كان طارداً ،
فهو ينبجى من المآزق ، ويفرج من المضايق ، ويشاركنى فى حربى ، فيضرب ويخرج .

وهو إلى كل هذه الصفات كريم ذلول ، سلس العنان ، سهل القياد ؛ إذا حمل فارسه
مدججاً بسلاحه ، مقلداً عتاده جعل النصر غايته ، فيعمل مع فارسه لإدراكه ، فإذا مافرق
فارسه الأقران ، وجدل الأبطال ، عاوده المرح والنشاط ، فإذا هو الفرس اللعوب الجموح ،
أليس قد شارك فى فوز فارسه ، وأسهم فى نصر سيده ؟

كم قد شهدت به غارات طويلة الأمد ، بعيدة الأجل ، يطاعن طليعة المغيرين جماعة
مصبتحون ، فأولئك وهؤلاء يدقون الرماح بالرماح ، ويكسرون النصال على النصال ،

فتسمع للفرس ثورة وهممة ، وانتفاجا وزجرجة ، كأنما هو في ثورته وانتفاجه ظبية فتيّة ، نشيطة قوية ، لاتهدأ ولا تسكن ، ولا تقف ولا تهمد .

هو فرس أشم طويل ، واسع الخطا ، إذا ذكرته بالشد على العدو اندفع اندفاع الحسى ينبع منه الماء تلو الماء ، وعراه مما حوله الماء المتدقق ، والحصى المتفرق .

النقر :

المرقش من الشعراء المجيدين ؛ لأنه كان عاشقا فارسا ، والعشق والفروسية من عناصر الشاعرية ، ومن مقومات الوصف بصفة خاصة ، ويظهر في هذه الأبيات المعدودة أنه نحا في وصفه نحوا يخالف إلى حد ما الطريق الذى نهجه بعده أكثر الشعراء ، أو أنهم لم ينهجوا نهجه فلم ينصفوه ، فعندى أن نهجه أوضح من نهج أكثرهم .

إنه لا يصف أجزاء الجسم عضواً عضواً ، وإنما يلم بهذه الأعضاء إلاما ، ثم ينصرف إلى غيرها ، فقرسه :

أَسِيلٌ نَبِيلٌ لَيْسَ فِيهِ مَعَابَةٌ كَمِثُّ كُلُونِ الصَّرْفِ أَرْجُلُ أَقْرَحُ

فها هو ذا قد وصفه بست صفات فى بيت دون أن يقال : إنه قصر فى وصفه .

أما النحو الجديد الذى نحا فهو الربط بينه وبين فارسه ، وتصويرهما صديقين متعاونين على ما يكسب المجد ، وينشر عنهما طيب الحديث ، فهو :

كَلَى مِثْلِهِ آتَى النَّدَى مُخَايَلًا وَأَغْمَزُ سِرًّا أَيْ أُمْرَى أَرْجَحُ؟

وَيَسْبِقُ مَطْرُودًا وَيَلْحَقُ طَارِدًا وَيَخْرُجُ مِنْ غَمِّ الْمَضِيقِ وَيَخْرُجُ

تَرَاهُ بِشِكَاتِ الْمُدَجَّجِ بَعْدَمَا تَقَطَّعَ أَقْرَانُ الْمَغِيرَةِ يَجْمَحُ

وهو بارع الإجابة عند ما يصور اندفاعه بين جماعة الخيل ، فيصوره باندفاع الحسى ، ضاق مسيله ، وجرده من تحته الماء والحصى ، إنها صورة دقيقة ، وإن ضاقت الألفاظ عن المعنى ، ولو أنه غنى بتكوين الصورة ، وتوضيح الغاية لكان قد بلغ أسمى ما يريد من التصوير ، والبيت هو :

يَجْمُ جُمُومَ الْحَسَنِ جَاشَ مَضِيقُهُ وَجَرَّده مِنْ تَحْتِ غِيلٍ وَأَبْطَحَ
ويعتمد المرقش على المقام الاعتماد كله ، فيقول مثلاً :

غَدُونَا بِصَافٍ كَالْعَسِيبِ مُجَلَّلٍ طَوِينَاهُ حِينًا فَهُوَ شَرِبُ مَلُوحٍ
فإلى أين غدا به ؟ إلى الحرب أم إلى الصيد أم إلى غيرها ؟ إنه لم يحدثنا من قبل عن
شيء من هذه الأشياء .

ثم ما الأمران اللذان يسأل عن معرفة الأربح فيهما ؟ في قوله :

على مثله آتى الندى مخايلاً وَأَغْمَزَ سِرًّا أَى أَمْرَى أَرْبَحَ ؟
إنه غامض ، فنحن لا ندرى أَلصَّيد يريد أم السباق ، أم الحرب أم اللهو ؟ وألنَّجاء يريد
أم الطلب كما يرى بعض الأدباء ؟ وقد عرضنا رأينا في التحليل ، ولعله أقرب الآراء إلى المعنى
الذى أراده .

وإذا تجاوزنا هذا الغموض حكمنا للمرقش بقوة الأسلوب وجماله ، ورونقه وحسنه ،
فأى جمال وقوة يفوقان جمال هذا البيت وقوته في طباقه الهادى ، ولفظه الجزل ؟
ويسبق مطروداً ، ويلحق طارداً ويخرج من غم المضيق ويخرج
وبعد ، فإن المرقش شاعر قد جاء قبل أوانه ، وفرع أهل زمانه .



نظرة فاحصة عن معاني الشعراء في وصف الفرس

أكثر أولئك الشعراء الذين اخترنا لهم بعض ما قالوه في وصف الفرس نجدون مقاما أو انتقالا ، ومن لم يكن منهم نجديا فقد طبع على أخلاق النجديين ، فأهل نجد في القديم والحديث أولونجدة وعزة ، وأصحاب فروسية و بطولة ، ولعل بلادهم العالية ، وإقليمهم الثابت أورثهم آيته ، وخلع عليهم طوله وعلياءه .

وإذن فليس عجيبا أن يجيدوا وصف الخيل ، وأن يبرعوا في نعت الجياد ، وأن يبرزوا غيرهم من الشعراء في رسم شياتها ، وتصوير سماتها ، فالخيل النجدية لاتزال مضرب المثل في الحسن ، وليس عجيبا ألا تتفق معانيهم ، وألا تتحد أفكارهم وأخيلتهم في وصفها ونعتها ، كما لمسنا ذلك في وصف الناقة — فإن محاسن النياق تكاد تكون محصورة في أجزاء جسمها ، وصلابة خلقها ، وليس الشأن كذلك في الخيل ، فمحاسن الخيل تتجاوز التكوين الخلقى ، والله در المتنبى إذ يعرف هذا المعنى فيقول :

وما الخيلُ إلا كالكرامٍ قليلةٍ وإن كثرتْ في عينٍ من لا يجربُ

إذا لم تلاحظ غيرَ حسنِ شياتها وأعضائها فالحسنُ عنك مغيبُ

هناك وصفها بمدركة الصيد ، ومتابعة الطرد ، وهناك وصفها عند المباراة في الحلبة ، والسباق في الميدان ، وهناك وصفها في الحرب ؛ إذ تشارك في الضرب والطعن ، وهناك وصفها في اللهو ، وهناك تصوير عدوها ، وتشخيص جرائمها ، ووصف خنانها وجيشانها إلى غير هذه المعاني التي مرت بنا ، وأفضنا القول في تبينها .

وليس أولئك الشعراء الذين اقتبسنا قبسا من شعرهم في وصف الخيل بأقدر شعراء العصر الجاهلي على وصفها ، ولكنهم من أقدرهم ، كما أن أولئك الذين اخترنا لهم بعض شعرهم في وصف الناقة ليسوا بأبرع من وصفها ، ولكنهم من أبرعهم ، ولكننا رمينا إلى الإكثار من عدد الشعراء ، فلم نختر لشاعر اخترنا له قبل في وصف الناقة ، وذلك لنظهر أن

هذا العصر غنى بالشعراء الذين أجادوا القول في كل مجال ، والذين سبقوا في كل ميدان ، ولو نهجنا غير هذا النهج لوجدنا أكثر من شاعر له في وصف الخيل الباع الأطول ، والقول الأفضل ، ومع ذلك ، ألم يفضل علقمة الفحل على امرئ القيس في نعت الخيل بصفة خاصة ؟ إننا لا نؤيد هذا الحكم ، ولكننا نسوقه دليلا على أن من الشعراء الذين تجاوزناهم من هم شعراء وصافون لا يشق لهم غبار .

ونحن في هذا المجال نجتمع ما تفرق من المعاني في التحليل ، لعل فيه ما ييسر على الناقد مهمته ، وييسره بمنهجه وغايته .

يكاد الشعراء الستة الذين اخترنا لهم يتفوقون في وصف أجزاء الفرس وشيائه ، وإذا كان بينهم خلاف فهو في القدر والكيف ، ولكنهم يختلفون في تصوير شيء غير تصوير الجسم ، وغير شيائه ، ذلك الشيء هو خلقها وكرمها ، وحسنها ونبلها ، فإذا قال امرؤ القيس في وصف فرسه بالضخامة والجسامة :

وَقَدْ أَغْتَدَى وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا
بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

وجدنا غيره ممن تقدمه في النشأة ، وسبقه إلى نعت الخيل بشر بن أبي خازم يقول :

يُضْمَرُ بِالْأَصَائِلِ ، فَهُوَ نَهْدٌ أَقْبُ مُقْلَصٌ فِيهِ اقْوِرَارُ

والقينا من جاء بعدها قد تابعهما في نعت جواده بهذه الصفة ، فيقول عنقرة :

وَلَرُبَّ مُشْعَلَةٍ وَزَعْتُ رِعَالَهَا
بِمُقْلَصٍ نَهْدِ الْمَرَاكِ هَيْكَلِ

ولكننا نلمح في بيت بشر معنى لم يتناوله باللفظ هو عنايته بذلك الفرس ، ورعايته له

في قوله : يضم بالاصائل ، فذلك التضمير من مظاهر العناية والتكريم .

وإذا وصف امرؤ القيس جواده بحدة النشاط ، وقوة الركض ، وشدة العدو ، فقال :

مِكْرٍ مِفْرٍ ، مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا
كَجُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

وجدنا من تقدموه قد تناولوه على نحو يقارب هذا النحو ، فقال بشر بن أبي خازم :

مَهَارِشَةُ الْعِنَانِ كَأَنَّ فِيهَا
جَرَادَةَ هَبْوَةٍ فِيهَا اضْفِرَارُ

وقال سلمة بن الخرشب :

وَتَمَكَّنُنَا إِذَا نَحْنُ افْتَقَصْنَا مِنْ الشَّحَاجِ أَسْعَلَهُ الْجَمِيمُ
هُوِيَّ عُقَابٍ عَرْدَةٍ أَشَارَتْهَا بِذِي الضَّمْرَانِ عِكْرَشَةٌ دَرُومُ

المعاني متقاربة ، ولكن التصوير متباعد ، والتشخيص مختلف ، فبيت امرئ القيس يشعر بالحدة في النشاط ، والقوة في العدو ، ويتخذ من الصخرة يسقطها السيل مادة تصويره في حين يتخذ بشر من مهارتها عنانها مادته ، ويزيدها تصويرا بقوله : كأن فيها جراحة هبوة ... وسلمة لا يُفنيه في هذا المعنى بيت بل يؤديه في بيتين ، يؤلف فيهما صورتين كاملتين دالتين على أقصى القوة ، وأوفر الحدة .

وامرؤ القيس يصف فرسه بالكمة ، فيقول :

كَمَيْتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالٍ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفَوَاءُ بِالْمُتَزَلِّ

فترى جميع من سبقوه ومن لحقوه وصفوا جيادهم بالكمة كأن الجياد العربية أو الخيل النجدية ليس فيها إلا هذا اللون ، فيقول سلمة بن الخرشب :

كَمَيْتٌ غَيْرُ مُحَلَفَةٍ ، وَلَكِنْ كَلَوْنِ الصَّرْفِ عَلَّ بِهِ الْأَدِيمُ
ويقول عوف بن عطية :

كَمَيْتًا كَحَاشِيَةِ الْأَنْحُمِ يَ لَمْ يَدْعِ الصَّنْعُ فِيهَا عَوَارًا
وقبل هؤلاء جميعا قال المرقش الأصغر :

أَسِيلٌ نَبِيلٌ لَيْسَ فِيهِ مَعَابَةٌ كَمَيْتٌ كَلَوْنِ الصَّرْفِ أَرْجُلُ أَقْرَحُ

وهكذا نجد اتفاقا في أكثر الأوصاف الجسمية بينهم ، وبمنظرة عابرة يمكن الجمع بين هذه الأوصاف ، ولكنهم يختلفون في أدائها ، وقد يتباعدون في عرضها .

أما المعاني التي انفرد بها بعضهم دون بعض ، فليست من السكثرة بمنزلة المعاني التي اتفقوا فيها ، فمن هذه المعاني قول امرئ القيس :

مِسْحٌ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَنَى أَمْرُنَ الْغُبَارَ بِالْكَدِيدِ الْمَرَّ كُلِّ

إنه في هذا البيت يجمع معنيين متضادين دون أن يسمى ذلك طباقاً ، وإذا كان الطباق جميلاً ، فالقدرة على مثل هذا النوع أجمل ، إنه نعمت فرسه بالاندفاع كالأثني ، والانصباب كالسيل ، ونعت السابحات الأخريات بالوني والكلال ، حتى ليثرن الغبار بضرهن الأرض الصلبة ، وهي صورة للفرس لا يصورها إلا من تتبع حركات الخيل : كبيرها وصغيرها عظيمها وضئيلها ، وهكذا تفتت الخيل المجهدة بسنابكها الثقيلة الأرض الصلبة .

ومن تلك المعاني التي انفرد بها ، فلم يشاركه أحد فيها ، ممن تقدمه أو ممن جاء بعده قوله يصور الدماء المتطايرة من صيده ، والتي ضرج بها فرسه :

كَأَنَّ دِمَاءَ الْمَهِادِيَّاتِ يَنْخَرِرُهُ غُصَارَةٌ حَنَاءَ بَشِيبٍ مُرْجَلٍ

فالمعنى فريد ، والتشبيه جميل ، والصورة كلها رائعة ، وقوله في وصف السرب الذي عن له ، فارتاع لمراه ؛ لأنه يعرفه مطارداً عنيفاً ، وصياداً حصيفاً ، فتفرق زرافات ووحداً :

فَقَرَّ لَنَا سَرَبٌ كَأَنَّ نَعَاجَهُ عَذَارَى دَوَارٍ فِي مَلَأَ مُذَيَّلٍ
فَأَدْبَرْنَ كَالْجَزَعِ الْمَقْصَلِ بَيْنَهُ بِحَيْدٍ مُعِمٍّ فِي الْعَشِيرَةِ مُخَوِّلٍ
فَأَكْثَمْنَا بِالْمَهِادِيَّاتِ ، وَدُونَهُ جَوَاحِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تَزَلِ

ومن هذه المعاني التي لم يشاركه فيها أحد ، ولم يبلغ مبلغ جمالها شعر وصفه أيطلی الفرس وساقيه ، ثم وصف سيره في إرخائه وتقريبه ، وذلك في قوله :

لَهُ أَيُّطَلَا ظَبْيٍ ، وَسَاقًا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءَ سِرْحَانٍ وَتَقَرِّيبُ تَقْفَلٍ

ويعجبنا منه ذلك التقسيم البديع ، فهو في الشطر الأول يصفه بصفتين جسميتين ، وفي الشطر الآخر ينعته بنعتين ليسا كذلك ، دون أن يضيق البيت بهذه المعاني ، فكان لكل هذا حامل لواء الوصف في قديم الشعر وحديثه .

ومن المعاني الفريدة في أبيات بشر بن أبي خازم قوله يصف شبهة فرسه حينما يبس عليها عرقها ، وجف حميها : درته وغراره :

تَراها مِنْ يَبِيسِ الماءِ شُهْباً مُخَالَطِ دِرَّةٍ مِنْها غِرارُ
وقوله يصور أثر سنا بكها الصلبة في الأرض المطمئنة :

بِكلِّ قَرَارَةٍ مِنْ حَيْثُ جالَتْ رَكِيَّةٌ سُنْبُكٍ فِيها انْهيارُ

ولعنترة في وصف الفرس المقام الأول بعد امرئ القيس ، فله فيه معان جواد ، إن لم
تخط بها جميعا ، فحسبنا أن نشير إلى بعضها لندل على براعته .

من هذه المعاني وصفه الفرس حين ينهته من حدثه ، ويحد من مراحه ، فلا يفتأ
يتلوى ويتثنى بالشارب الثمل ، والنشوان العجل ، وذلك في قوله :

وكانَ مِشِيَّتَهُ إِذا نَهَنَّتَهُ بالثكلِ مِشِيَّةٌ شاربٍ مُسْتَعِجِلِ

وكثير من الشعراء وصف قطاة الفرس وكفله ، ولكن أحدا منهم لم يصفه بذلك
الوصف الذي ترك في خيلة كل قارئ رسما للصخرة الناعمة الملساء ، يغشاها السيل الجارف ،
فلا يستقر لها قرار ، وذلك في قوله :

نَهْدُ القِطاةِ كأنَّها مِنْ صِخْرَةٍ مِلساءٍ يَغْشاها المِسيلُ بِمَخْفِلِ

فأما سلمة بن الخرشب ، فقد أبدع في وصف التحجيل إبداعا ، وأجاد في تصويره
أيما إجادة ، وذلك في بيته :

تَعادَى مِنْ قِوائِمِهِ ثلاثُ بِتَحْجِيلِ ، وَقائِمَةٌ بِهِمْ

كانَ مِسيحَتِي وَرِقٍ عَلَيْها نَمَتْ قَرطِئِها أُذُنٌ خَدِيمُ

فتصوير التحجيل في القوائم الثلاث بأنه كالأقراط المصنوعة من الفضة في الأذان المشقوقة
تصوير جميل ، فوق أنه يدل على سراء وثناء ، وحضارة ومدنية .

ولكننا لا ندرى كيف تكون الأذان ثلاثا ، ولا تكون اثنتين أو أربعا ؟ أحسب
أن الصورة غير محدودة .

أما عوف بن عطية فقد جاءت أبياته كلها وصفا لأجزاء فرسه ، وهو قصير النفس
في الوصف ، ولا نجد له معنى مبدا سوى قوله :

لِها حافِرٌ مِثلُ قَعَبِ الوَلِيدِ يَتَخَذُ الفأرُ فِيهِ مَغاراً

أما المرقش الأصغر فقد قدمنا في نقده أنه نهج في وصف فرسه نهجا جميلا ، لا ندرى لماذا لم يتأثره فيه خلفاؤه ، ولعل عدم الاتجاه مبغثه أنه كان شاعراً فارساً ، فهو يجد المادة الغزيرة لوصف فرسه في حربه أكثر من وجود هذه المادة لسواه ، وأكثر من تأمله هو لها في أيام سلمه ، سيان بعد ذلك أن تكون هذه الحرب مع الوحوش الأوابد أم مع الجيوش الجحافل .

وعهدنا بما قدمناه عن جمال معانيه ، وطريف أخيلته وأفكاره قريب ، فلا نعيده مرة أخرى .

وبعد ، فيبدو واضحاً أن عناية العرب بالناقة والإبل كانت أعظم من عنايتهم بالفرس والخيل ، إذ شعرهم في وصف الأولى ونعتها أوفر ، وإذ معانيهم في تصوير نفعها وفضلها أكثر ، وإذ أنفاسهم في عد أياديها أطول ، وإذن فنوعوتهم ترقى برقى الانتفاع بالمنعوت ؛ إذ مما لا ريب فيه أن الناقة للفقير والغنى ، ولل فارس وغير الفارس ، وللأهلى والجاد ، وليس ذلك شأن الفرس ، فهذه أداة زينة وهو ، وفروسية وحرب . كما أنه مما لا ريب فيه أن الفرس أجمل من الناقة وأوسم ، ولكن الانتفاع بها عند الناس جميعاً أولى بالرعاية من الانتفاع الخاص .

وقد قدمنا أن الملاحظ أن الشعراء يختمون وصف الناقة أو يبدؤونه بوصف ما يشبهها من البقر الوحشى أو الحمار ، أو الظليم أحياناً ، ويتمون وصف الفرس بذكر الصيد والطرْد ، فوصفهما سبيل إلى نعت سواهما ، فهما إذن - الناقة والفرس - الدعامة الراسخة لهذا الفن ، وعلى نهج الشعراء سنسير ، فنبدأ بوصف الأوابد .

(ح) وصف الأوابد

١ — قال لبيد بن ربيعة * في معلقته يصف البقرة الوحشية :

أَفْتَلَكْ أُمَّ وَحْشِيَّةً مَسْبُوعَةً خَذَلْتَ وَهَادِيَةَ الصَّوَارِ قِيَامُهَا؟^(١)
خَنَسَاءَ ضَيَّعَتِ الْفَرِيرَ فَلَمْ تَرَمْ عَرَضَ الشَّقَائِقِ طَوْفُهَا وَبُعَامُهَا^(٢)
٢٨٥ : لَمْعَرَّ قَهْدٍ تَنَازَعَ شَلَوَهُ غُبْسٌ كَوَاسِبٌ لَا يُمْنُ طَعَامُهَا^(٣)

* ترجمه الشاعر : هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر البكرى ، أحد فحول الشعر في العصر الجاهلى ، وتقول في العصر الجاهلى ، مع أنه عمر في الإسلام لأن مؤرخى الأدب يكادون يجمعون على أنه هجر بعد إسلامه الشعر استصغار الشأن بعد أن سمع القرآن الكريم ، ويزعمون أنه لم يقل بعد إسلامه إلا بيتا واحدا هو :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا
أو هو قوله :

ما عاتب الحر الكريم كنفه والمرء يصلحه المجلس الصالح
ومن مؤرخى الأدب الحديث من يعد هذه أسطورة ، ويذكر أن في ديوانه كثيرا من الشعر الدينى .

التفسير المفرد : (١) أفْتَلَكْ : اسم الإشارة يعود على الأتان التى شبه بها ناقته فى الأبيات السابقة لهذا البيت . الوحشية : يقصد البقرة ، فهى نعت لمنعوت محذوف . مسبوعة : أصابها السبع بافتراس ولدها . خذلت : تركت دون أن تنصر وتعان . الهادية : المتقدم أو المتقدمة . الصوار : القطيع من بقر الوحش ، والجمع الصيران . القوام : ما يقوم عليه الأمر ، أو الشيء . (٢) الخنساء : صفة من الخنس ، وهو تأخر أرنبه الأنف . الفرير : ولد البقرة الوحشية ، وجمعه الفرار . فلم ترم : فلم تبرح . عرض الشقائق : ناحية الشقائق ، والشقائق : الأرض الغليظة مفردا شقيقة . الطوف : الطواف والجولان . البغام : الصوت الرقيق الناعم . (٣) المعفر : الملقى على التراب ، وهو صفة للوليد . القهد : الأبيض . تنازع : تجاذب . شلوه : عضوه ، والجمع أشلاء كأعضاء . غبس : جمع أغبس وغبساء ، وهو مالونه كلون الرماد وهو صفة لموصوف محذوف هو ذئاب . لا يمن : لا يقطع ، ومنه قوله تعالى : « ولا تمنن تستكثر » .

صَادَفَن مِنْهَا غِرَّةً فَأَصْبَنَهَا إِنَّ الْمَنَايَا لَا تَطْيِشُ سِهَامُهَا (٤)
 بَاتَتْ وَأُسْبِلَ وَكَفَّ مِنْ دِيمَةٍ يُرَوِّى الْجُمَائِلَ دَائِمًا تَسْجَامُهَا (٥)
 يَعْلُو طَرِيقَةً مَتْنَهَا مُتَوَاتِرًا فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا (٦)
 تَجْتَاوُفُ أَصْلًا قَالَصًا مُتَنَبِّذًا بِعِجُوبِ أَنْقَاءِ يَمِيلُ هَيَامُهَا (٧)
 وَتُضَى فِي وَجْهِ الظَّلَامِ مُنِيرَةً كَجُمَانَةِ الْبَحْرِىِّ سُلَّ نِظَامُهَا (٨)
 حَتَّى إِذَا انْحَسَرَ الظَّلَامُ وَأُسْفَرَتْ بَكَرَتْ تَزَلُّ عَنْ الثَّرَى أَرْزَامُهَا (٩)
 ٢٩٢ : عَلِمَتْ تَرَدُّدُ فِي نِهَاءِ صَعَائِدِ سَبْعًا تَوْأَمًا كَامِلًا أَيَّامُهَا (١٠)

(٤) الغرة : الغفلة . فأصبتها ، فاتهمتها . لا تطيش : لا تخطئ . سهامها : جمع سهم ، وهو النبل ، وما يرى به .

(٥) أسبل : أرسل وأسال . الواكف : المطر المنهل . الديمة المطرة التى تدوم نصف يوم على الأقل . الجمائل : جمع خميلة ، وهى كل رملة ذات نبت وشجر . التسجام : الانصباب .

(٦) طريقة متنها : خط ظهرها من الحارك إلى الكفل . متواترا : متتابعاً . كفر النجوم غمامها : ستر ضوء النجوم الغمام ، والكفر : هو الستر .

(٧) تجتاف : تدخل فى جوف ، والضمير يعود على البقرة الوحشية . أصلا : جذع شجرة . قالصاً : مرتفع الفروع . متنبذا : متنجيا . بعجوب أنقاء : العجوب جمع عجب بسكون الوسط : وهو أصل الذنب ، والأنقاء : جمع نقي وهو الكشيبي من الرمل . والمراد أطراف الرمال المتجمعة . الهيام : الرمل ما يزال ينال ولا يتأسك .

(٨) وجه الظلام : أوله ، لأن الوجه أول ما يستقبل الرأى . الجمانة : القطعة من الفضة ، أو اللؤلؤة ، وهى المرادة هنا لنسبتها إلى البحر ، ومنه يؤخذ اللؤلؤ ، لا الفضة . البحرى : النسوبة إلى البحر أو البحرين ، إذ كان أهل إقليم البحرين مشهورين بالغوص على اللآلىء . سل نظامها : نزع خيطها .

(٩) انحسر : انكشف . أسفرت : أضاءت وظهرت . بكرت : غدت مبكرة . تزل : تزلق . أرزأما : قوأمها مفردا زلم .

(١٠) علمت : هلمت وفزعت . نهاء : جمع نهى وهو الغدير . صعائد : اسم مكان . سبعا : أى سبع ليال . توأما : جمع توأم أى بأيامها .

- حَتَّى إِذَا يَبْسُتْ وَأَسْحَقَ خَالِقُ لَمْ يُبْسِلْهُ إِرْضَاعُهَا وَفَطَامُهَا (١١)
 فَتَوَجَّسَتْ رَزَّ الْأُنَيْسِ فِرَاعَهَا عَنْ ظَهْرِ غَيْبِ الْأُنَيْسِ سِقَامُهَا (١٢)
 فَغَدَتْ كِلَا الْفَرَجَيْنِ تَحْسَبُ أَنَّهَا مَوْلَى الْمَخَافَةِ خَلْفُهَا وَأَمَامُهَا (١٣)
 حَتَّى إِذَا يَبْسُ الرَّمَاةُ وَأَرْسَلُوا غُضْفًا دَوَاجِنَ قَافِلًا أَعْصَامُهَا (١٤)
 فَلِحِقْنَ وَاعْتَكَرَتْ لَهَا مَدْرِيَّةٌ كَالسَّمْهَرِيَّةِ حَدُّهَا وَتَمَامُهَا (١٥)
 ٢٩٨: لَتَذُودَهُنَّ وَأَيَقَنْتُ إِنْ لَمْ تَذُ أَنْ قَدْ أَحَمَّ مِنَ الْخُتُوفِ حِمَامُهَا (١٦)

(١١) أسحق خالق : أخلق ضرع ممتلئ ، وليس ذلك هو المراد ، وإنما المراد ضرع مرتفع منضم إلى البطن لجفاف لبنه ، وقد استشهد اللسان على هذا المعنى بيت لبيد هذا . لم يبسه : لم يخلقه .

(١٢) فتوجست : فتسمعت خفي الصوت . رز الأنيس : الرز الصوت الخفي ، ويقصد بالأنيس الناس . فإزعها : فأفرعها . عن ظهر غيب : عن عدم رؤية لأصحاب الأصوات . سقامها : سبب سقامها وضعفها .

(١٣) فغدت : فصارت . كلا الفرجين : الفرج الواسع من الأرض وموضع المخافة ، وما بين قوائم الدواب ، فما بين البيدين فرج ، وما بين الرجلين فرج ، وهو المقصود هنا . مولى المخافة : أولى بالخوف ، فمولى بمعنى أولى ، وذلك كقوله تعالى « مأواكم النار هي مولاكم » .

(١٤) الرماة : الصيادون . غضف : جمع أغضف ، وهي الكلاب المسترخية الأذان . دواجن جمع داجن ، وهي العودات على الصيد . قافلا : يابسا . أعصامها : جمع عصام ، وهي سيور الجلد توضع في أعناق الكلاب .

(١٥) اعتكرت : رجعت وعطفت . الدرية : طرف القرن . السمهرية : الرماح المنسوبة إلى ممهر ، وهو رجل من قرية خطأ إحدى قرى البحرين عرف بتتقيف الرماح ، وكانت له زوجة تسمى ردينة تنسب إليها الرماح كذلك .

(١٦) لتذودهن : لتدفعهن . أحم : حان الموت . الختوف : جمع ختف وهو الموت . حماتها : موتها .

فَقَصَّدَتْ مِنْهَا « كَسَابِ » فَضَرَّجَتْ

بِدَمٍ ، وَغُودِرَ فِي الْمَكْرِ « سُخَامُهَا » (١٧)

فَبِتَلَّكَ إِذْ رَقَصَ اللَّوَامِعُ بِالضُّحَا وَاجْتَابَ أُرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا (١٨)

٣٠١ : أَقْضَى اللَّبَانَةَ لَا أَفْرَطُ رِيَّةَ أَوْ أَنْ يَلُومَ بِحَاجَةِ لَوَامُهَا (١٩)



(١٧) فَتَقَصَّدَتْ : فَتَقَصَّدَتْ . كَسَابِ : اسْمُ كَلْبَةِ الصَّيْدِ . فَضَرَّجَتْ : خَفَضَتْ بِالدَّمِ .
غُودِرَ : تَرَكَ . الْمَكْرَ : مَكَانَ الْكُرِّ . سُخَامُهَا : اسْمُ كَلْبِ الصَّيْدِ ، وَيُظْهِرُ أَنَّهُ كَانَ أَسْوَدَ ، إِذِ
السُّخَامُ السَّوَادُ .

(١٨) فَبِتَلَّكَ : الْإِشَارَةُ إِلَى النَّاقَةِ الَّتِي تُشَبِّهُ الْبَقْرَةَ الْوَحْشِيَّةَ . رَقَصَ اللَّوَامِعُ : اهْتَزَتْ .
الْقِيَا فِي اللَّوَامِعِ ، فَالْوَامِعُ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ . اجْتَابَ : لَبَسَ . أُرْدِيَةَ : جَمْعُ رَدَاءٍ ، وَهِيَ
الْأَثْوَابُ . الْإِكَامُ : جَمْعُ أَكْمَةِ الْمَرْتَفَعَاتِ .

(١٩) اللَّبَانَةُ : الْحَاجَةُ . لَا أَفْرَطُ : لَا أَقْصِرُ . رِيَّةَ : خَوْفًا . اللَّوَامُ : الْكَثِيرُ الْعَتَبِ
وَالْقَوْمِ .

تحليل الأبيات :

هذه الأبيات من معلقة ليبيد بن ربيعة ، وقد أظهر الشاعر في معلقته ضروبا من الافتنان في جميع فنون الشعر ، ولا سيما الوصف ؛ فقد تناول بالوصف الرائع الديار المقفرة ، والمنازل الدارسة ، والأمطار الواكفة ، ثم تغزل غزلا قصيرا ، وكأني بليبيد كان رجلا جادا كزهير ، إذ لم يلبث أن عاد إلى الوصف ، فوصف الناقة وصفا صافي النبعة ، غزير المادة ، وهذا الجزء أحد تلك التشبيهات ، فهو يشبهها بالبقرة الوحشية فيقول :

أفتلك الأتان « التي كان قد شبه بها ناقته قبل » أم البقرة الوحشية التي قد نكبتها السبع في ولدها ، حين غيبتها عنه ؟ إذ ذهبت ترعى مع صويحباتها من القطيع والصيران ؛ لتعود إليه وقد حفل باللبن ضرعها .

لقد خذلها زعيم القطيع وقائده ؛ إذ لم يستطع عن ولدها دفعا ، فهي هاتجة نائرة ، تطلب ولدها ، فلن يستقر لها من دونه قرار .

تلك البقرة الجميلة الخنساء ، المضيفة للفرير ، المفقودة الصغير ، لا تريم عن تلك الأرض الغليظة ، ولا تبرح عرض الشقائق طائفة صائحة صياحا رقيقا حزينا ، وكأنها تناديه فلا يجيبها ، فهي تبكي ذلك الفرير الذي طواه الرغام ، وغطاه التراب ، ففقر حسنه ، وغيب جماله ، تبكي ذلك الأبيض الناصع البياض الذي تنازعت الذئاب أشلاءه ، وتجادبت الغبس أعضائه ، فقد صادف من البقرة غفلة فاتهرزنها ، وأصبن منها غرة فاقنصن فريرها ، ولو لم يكن القضاء نافذا ، والقدر مبرما ما صادف الغفلة ، ولا أصبن الغرة ، ولكن « إن المنايا لا تطيش سهامها » .

ها قد ولى النهار ، وأقبلت جحافل الظلام ، فباتت باكية نائمة ، تشاركها في بكائها ديمة واكفة ، ويشاطرها عبراتها مزنة ماطرة ، تروى الحائل بمائها المنسكب ، ودمعها المنهمر ، وهى في ليلها المكفهر يغطى طرائق ظهرها ، وخطوط متنها ذلك المطر المتواتر المتتابع ، لا يقيها منه كن ، ولا يحجبها عنه كناس ، وقد ستر الغمام ضوء النجوم ، وكفر الركام نور الكواكب ، فكانت ليلة ليلاء اجتمع فيها على الخنساء الحزن والبرد والمطر ،

فإذا اشتد عليها التهطل جهدت أن تتقيه بالاستئثار تحت جذع شجرة مستطيلة الفروع ، ممتدة الأفنان ، وهذه الشجرة نائية عن غيرها من الأشجار .

إنها وقعت في كتيب من الرمل ينهال ولا يتماصك ، ويتساقط ولا يتساند ، فهي لفقد فريرها في حزن ، ومن الطبيعة في صرد ، ومن انهيار الرمل في فزع ، فما أشد منازل بها ! وما أعظم ما انتابها !

هذه البقرة بيضاء ناصعة ، فكأنها إذ تظهر في أول الليل ساطعة واضحة ، درة صدفية ، أو لؤلؤة بحرية ، قد وهى عقدها ، وانفرط نظامها ، فهي لا تستقر في مكان .

فإذا ما انكشف الليل ، وولى الظلام ، وتنفس الصبح ، وأسفر النور ، أصبحت مبكرة تنزع من الثرى قوائمها ، وتزل من التراب أزلامها ، ثم ظلت كما كانت هلمة فزعة ، لم يزايها هلمها ، ولا جانبها فزعها ، واستمر ذلك حالها في المكان المعروف بصعائد سبع ليال وثمانية أيام تبحث عن وليدها ، وكأنها تقدر أنه غائب وسيثوب :

وكل مسافر سيثوب يوما إذا منح السلامة والإيابا

وهي لم تر أحدا سلبه سلامته ، ولم تلاحظ عدوا انتهب من بين جنبيه روحه ، وإذن فلا بد من إياب .

وها هي ذى - وقد قضت ثمانية أيام سويا تبحث عنه فلا تجده ، وتهيب به فلا يفد عليها - تياس من عودته ، فيجف ضرعها ، ويسحق خلفها ، وقد كان امتلاؤه أول الأمر باللبن من أسباب لوعتها وأسائها ؛ إن ضرعها جف لاعن إرضاع بل عن غياب ، وها قد سمعت صوتا خفيا ، وتوجست من الناس شرا ، فارتاعت ولم تر ما يروعها ، وفزعت دون أن تتبين ما يفزعها ، ولكنها مع ذلك حقيقة بأن ترتاع وتفرع ، فالناس بسهامهم أسباب حتوفها ، وهم رسل منيتها ، فهي مضطربة محتلجة ، لا تدري من أين يحييها حينها ، أمن الأمام فتقيه أم من الخلف ؟ وهذا مالا حيلة لها فيه ؛ لأنها لا تبصره ولا تراه ، وليس لها إلى دفعه من سبيل .

إنها لا تتبين مصدر الصوت حتى تتقى المفاجأة ، وتتفادى المباغتة ، وهي قد فوتت

على الرماة أغراضهم ، فلم يصيبوا منها غرضاً ، ولم يسددوا نحوها سهماً ، فأرسلوا عليها
كلابهم المسترخية الآذان ، المضرة على الصيد ، قد جملت بالقلائد في الأعناق ، وزينت
بالأعصام في الأجياد ، فاحقت بها الكلاب ، فأبّت إليهن تدافعها عن نفسها :

وإذا لم يكن من الموت بدء فمن العجز أن تكون جباناً

كان ذلك منطق تلك البقرة قبل أن ينطق به المتنبي ، وكان مستقيماً ، فلها تلك المدرية
التي هي أشبه بالرمح السهمية في حدة نصلها ، وطول قناتها .

عظفت عليهن ، لتزودهن عن نفسها ، وهي واثقة أنها إن لم تستمت في الدفاع عن
حياتها ، فإن الحنف سيكون مآلها ، قصدها تلك السكبة الكسوب حتى سميت كساب
فجاجتها بضربة بقرنها ، فضرجت بدماؤها ، وأقبلت على سخام فتركتها مجدلاً ، فكان لها
النصر ، وحقا قيل : « من طلب الموت وهبت له الحياة » .

بتلك الناقة القوية السريعة التي تشبه في قوتها وسرعتها البقرة الوحشية المسبوعة
أقطع المغازات ، في ساعات الهجير ؛ إذ يلمع السراب سخا ، وإذا تلبس الآكام أردية
الآل ، أقطعها لأقصى أوطاري ، وأدرك مآربي ، لا أفرط في طلبها خشية أوارتيبا ،
وما على أن يلومني اللأمون .

النقد :

لقد كان لبيد أطول الشعراء في وصف البقرة الوحشية نفساً ، وهذه الإطالة لم تهن من
قوته ، بل جاء كالفرس الجواد ، كلما طال المدى ظهر كرمه ، وبدأ عزمه ، ذلك شأن لبيد
في وصفه يظهر قدرة فائقة ، ويبدى كفاية نادرة ، ويزجى فنونا من الافتنان ، ويسوق
ضروبا من الإحسان ، لم يزجها شاعر جاهلي بعد امرئ القيس سواه ، ولا سيما في معلقته
التي منها هذه الأبيات ، وفرق بينه وبين طرفه ، فإن طرفه وصف أعضاء الناقة وأجزاءها .
أما لبيد فوصف شيئاً غير أعضائها ، وصف ما تمدح له الناقة ، فشبهها بالقمامة الحمراء ،
إذ يقول :

فلها هبابٌ في الزمام كأنها صهباء خفّ مع الجنوب جهامها

ثم شبهها بالأتان الوحشية ، ثم شبهها بالبقرة المسبوعة ، وغرضه من جميع هذه الأوصاف السرعة .

ولليد صور شعرية ناطقة ؛ محيطة كل الإحاطة بما يصوره ، فهي تنفذ إلى الأعماق ، وتصل إلى اللباب ، فانظر تلك الصورة البارة في وصف بياض البقرة :

وتُضِيءُ في وجه الظلام منيرة كجمانة البحرى سُلَّ نظامها
لم يكنه أن يصفه بالجمانة ، فوصف ضوءها في الظلام ، ونسبها إلى موطنها ، ثم فرط عقدها ، لأن ذلك يصور حركتها الدائمة ؛ إذ ليس هناك ما يمسك هذه الحركة ، وانظر إلى قوله في وصف قرنها :

فلَحَقْنَ واعتكرت لها مدرية كالسمهرية جدُّها وتماها
وصف القرن بأنه كالرمح ، وليعطينا صورة كاملة ذكر أنه كان محمدا وطويلا ، وانظر إلى قوله يصف الفلاة يرقص فيها السراب :

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحا واجتأب أردية الظلام إكامها
إنها صور لا يجيد رسمها إلا شاعر مصور كليد .

وميزة أخرى لليد هي أنه يستطيع أن يجعل الوصف مجالا للحكمة والوعظ كقوله :

صادفن منها غيرة فأصبنها إن المنايا لا تطيش سهاها

وقوله :

لتدودهن وأيقنت إن لم تذ أن قد أحرم من الختوف حمامها
أليست هذه قدرة أخرى امتاز بها لييد ، ولم يشاركه فيها إلا زهير بن أبي سلمى ، ولم نجد من الشعراء سواهما من هيء له من التفوق في هذا الضرب ما هيء لزهير ولييد .

٢ — وقال النابغة الذبياني* من قصيدته التي أولها :

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلِيَاءِ فَالسَّنَدُ أَقْوَتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَأْفُ الْأَمَدِ^(١)

كَأَنَّ رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بِنَا يَوْمَ الْجَلِيلِ عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحِدٍ^(٢)

مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مَوْشَى أَكَارِعُهُ طَاوِي الْمَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ^(٣)

سَرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجُوزَاءِ سَارِيَّةٌ تُرْجَى الشَّمَالُ عَلَيْهِ جَامِدُ الْبَرْدِ^(٤)

٣٠٦هـ فارتاعَ مِنْ صَوْتِ كَلَّابٍ فَبَاتَ لَهُ

طَوْعُ الشَّوَامَتِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرَدٍ^(٥)

ترجمة الشاعر : هو زياد بن معاوية أحد الشعراء الثلاثة الذين حكم لهم بالسبق في الشعر ، وزعيم قاده ، وذوى البصر به ، كانت تقام له قبة من جلد في سوق عكاظ : ليتحاكم إليه الشعراء ، وكان من سرارة قومه ، ففض مدحه الملوك وأخذهم منهم الصلات من ذلك السراء ، وأجود شعره ما قاله في الاعتذار إلى النعمان بن المنذر ، وما ساقه في الوصف ، وقيل إنه لقب بالنابغة ، لنبوغه في الشعر بعد أن كبرت سنه توفي سنة ٦٠٤ م .

التفسير اللغوي : (١) مية : خليلته . العلياء : المرتفع من الأرض . السند : ما يقابل الإنسان من الجبل ، وهو فوق السفح . أقوت : خلت أو أفقرت . سالف الأمد : ماضى الدهر . (٢) الرحل : ما يوضع على ظهر البعير ، فيشبه السرج للفرس . زال النهار : حل وقت الزوال ، وهو الوقت الذي تتوسط الشمس فيه السماء . يوم الجليل : بذلك المكان الذي ينبت الجليل وهو الثمام . المستأنس : الذي ينظر بعينه كأنه يطلب الأنيس . وحده : منفرد . (٣) وجرة : فلاة بين مكة والبصرة ، وهي قليلة الماء لذلك لا يسكنها أحد . موشى : منقط . أكارعه : قوائمه ، ومفرده كراع كغراب . طاوى المصير : ضامر المصير ، وجمع المصير مصران ، وجمع الجمع مصارين . الفرد : الفريد الذي لا نظير له . (٤) سرت السارية : سارت السحابة ليلاً . الجوزاء : نجم يظهر صيفاً . سارية سحابة تسير بالليل . ترجى : تسوق برفق . الشمال : الريح تهب من جهة الشام . جامد البرد : الماء المتجمد قطعاً صغار الشدة البرد . (٥) فارتاع : فزع ، والضمير يعود على الثور الوحشى . كلاب : صاحب كلاب . طوع الشوامت : طيع القوائم ، الشوامت جمع شامة . الصرد : البرد الشديد .

- ٦ فَبَشَنُ عَلَيْهِ وَاسْتَمَرَ بِهِ
 ٧ وَكَانَ «ضُمْرَانُ» مِنْهُ حَيْثُ يُوزَعُهُ
 ٨ شَكَّ الْفَرِيصَةَ بِالْمَدْرَى فَأَنْفَذَهَا
 ٩ كَأَنَّهُ خَارِجًا مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ
 ١٠ فَظُلَّ يَعْجَمُ أَعْلَى الرَّوْقِ مُنْقَبِضًا
 ١١ لَمَّا رَأَى «وَاشِقُ» إِقْعَاصَ صَاحِبِهِ
 ١٢ قَالَتْ لَهُ النَّفْسُ: إِنِّي لَا أَرَى طَمَعًا
- صَمْعُ الْكُعُوبِ بَرِيَّاتٌ مِنَ الْحَرْدِ (٦)
 طَعَنَ الْمَعَارِكِ عِنْدَ الْحَجَرِ النَّجْدِ (٧)
 شَكَّ الْمُبَيْطِرِ إِذْ يَشْفِي مِنَ الْعَضْدِ (٨)
 سَفُودُ شَرْبِ نَسْوِهِ عِنْدَ مُفْتَادِ (٩)
 فِي حَالِكِ اللَّوْنِ صَدَقَ غَيْرِ ذِي أَوْدِ (١٠)
 وَلَا سَبِيلَ إِلَى عَقْلٍ وَلَا قَوْدِ (١١)
 وَإِنَّ مَوْلَاكَ لَمْ يَسْلَمْ وَلَمْ يَصِدِ (١٢)

(٦) فَبَشَنُ : ففرقهن ، والضمير يعود على الكلاب ، وإذا فهناك غير ضمران وواشق ، ويظهر أن هذين كانا أمهر الكلاب . صمع الكعوب : ضوامر ، ومفرد صمع أصمع ، وهو وصف للقوائم الملمس . بریات من الحرد : بريئات من الحرد ، وهو ترهل في المفاصل .

(٧) ضمران : اسم كلب . يوزعه : يغريه ويحضه . الحجر : الملاجئ . النجد : الشجاع من النجدة ، أو الذي يعرق من الكرب والشدة ، والأول هو المراد .

(٨) شكَّ الفريصة : طعنها وأنفذ فيها قرنه . والقريصة : قطعة لحم من مرجع الكتف إلى الحاصرة . المدرى : القرن . المبيطار : البيطار . العضد : بالفتح داء يصيب العضد .

(٩) كأنه : الضمير يعود على القرن . صفحته : جانبه . سفود شرب : السفود حديدة يشوى عليها اللحم ، والشرب جماعة الشاربين . نسوه : تركوه ومنه قوله تعالى : « نسوا الله فنسيهم » أى تركوه فتركهم ، إذ الله جل شأنه لا ينسى شيئاً . المفتاد : موضع النار التي فيها الشواء . (١٠) ظل : فاستمر اليوم كله وليس مراداً وإنما المراد فاستمر . يعجم : يعضغ . الروق : القرن . منقبضاً : منطوياً متجمعاً . الصدق : بالفتح الصلب . الأود : الاعوجاج .

(١١) واشق : اسم كلب آخر ، وسمى بذلك لأنه يشق اللحم . إقعاص صاحبه : الإقعاص القتل السريع الذي نزل بصاحبه ضمران . لا سبيل : لا طريق ولا رجاء . إلى عقل : إلى دية ، ولا قود : ولا قصاص . (١٢) قالت له النفس : ناجته نفسه وحدته . وله الضمير يعود على واشق . الطمع : الرجاء والأمل . مولاك : سيدك . لم يسلم : لم يسلم من الحسارة .

تحليل الأبيات :

ناجى النابغة دار محبوبته مية متوجعا متحسرا ؛ لأنه كان منها فى نعيم ، وبعد أن شفى قلبه بمناجاته إياها ، والتحسر عليها ، أخذ يصف ناقته فى بيتين انتقل بعدها إلى وصف الثور الوحشى ، والبيتان هما :

فعدُّ عما ترى إذ لارْتِجَاعَ له وانمِرَ القَتُودَ عَلَى عَيْرَانَةٍ أُجِدْ
مَقْدُوفَةٍ بِدَخِيسِ النَّحْصِ بَارِئُهَا له صرِيفٌ صرِيفُ الْقَعْوِ بِالْمَسَدِ
كَأَنَّ رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بَنَّا

فهو يقول : كَأَنى إذ أضع رحلى ساعة الزوال ، فوق ظهر ثور وحشى غير محدود النشاط ، فى ذلك المكان الموحش الذى لا أنيس لى فيه يزيل وحشتى ، ويؤنس وحدتى .

إنه من وحش وجرة القليلة الماء ، المعدومة الغذاء ، وهو ضامر كالسيف المصقول ، ليس له فى صقله نظير ، وهو إلى توجسه وخوفه ، وظمئه وجوعه قد أسرت إليه فى ليلة ضريرة النجم مزنة شمالية لاتمل البكاء ، ولا تترك النحيب ، فهى تحمل إليه البرد والبرد ، وتسوق له معها الخوف والحذر ، والجوع والظما .

لكل أولئك هو مضطرب الحس ، هلع النفس ، قد ضاعف ما هو فيه أنه سمع صوت صياد جاء يغزوه فى عقر داره ، ويطارده فى فلاته بقوانصه ، ولكنه قدر أن الله منحه أكارع ملساء ، وقوأم جرداء قد برئت من العيب ، وسلمت من الحرد ، فهى كفيلة بأن تدفع عنه هذه الكلاب المطاردة .

أقبل عليه زعيمها كما أراد منه سيده ، فإذا انصباب واندفاع ، وقفز ووثب ، ومدائرة ومراردة ، ومخادعة ومخاتلة ، ثم معركة حامية الوطيس طعن فيها الثور ضمران فى شجاعة ونجدة طعنة أفند بها قرنه فى بطنه ، فكان كأنه ييطار يشق عن داء ليغسله بالدواء ، وظهر القرن من الجنب الآخر مضرجا بدم الكلب ، كأنه سفود تركه فوق النار جماعة الشاريين ، فاهر واشتمل ، فصار كأنه عمود من النار ، وأخذ الكلب فى ثورة ويأس بعض أعلى القرن

الحالك الأسود ، القوى الصلد ، المستقيم الممتد ، وهو متقبض الجسم ، مكفهر الوجه ،
مما يشعر به من آلام الجراح والأوجاع .

وحين رأى واشق ماحل بأخيه من هزيمة وبوار ، واندحار وانكسار ، دون أن يحكم له
أحد بدية يودى بها ، أو قصاص يقتص به من عدوه الفاتك ، حدثته نفسه ، وقد استولى
عليها الفزع ، ونزل بها الجزع أنه لا يرى في ذلك الثور مطمعا ، ولا يرجو من وراء منازلته
مغنا ، فعليه أن يرضى من الغنيمة بالإياب ، فها هو ذا سيده يعود وقد خسر خسارة فادحة ،
دون أن يكسب شيئا ، فما أشق جده ! وما أتعس يومه !

النمر :

كأنى بالناطقة الشاعر الوصاف القاص قد عمد إلى وصف قصة تخيلها ، وقص منظر
تصوره ، غنى بأن يصف الثور الوحشى فى معركة حامية ، وبأن يقص علينا قصة حربية ،
والناطقة يجيد القصص ويحسن التصوير .

أتاح له الإجابة فى هذين النوعين خياله الواسع ، وشرفه الرفيع ، فقد هيات له حياته
المتحضرة ، ورحلاته المتعددة ، ومناذمته الملوك ، ومصاحبته الأقيال أن يتسع خياله
ويجود تصويره .

اختار لهذه المعركة أسلحتها ، وأعد لها عتادها : الثور الوحشى ، والكلاب المبتوثة ،
والشك والفرائص ، والمدرى والروق ، والبيطر والعضد ، والسفود والمفتاد ، ثم رأى أن
الصلح الشريف غير مستطاع فلا دية ولا قود ؛ فأى ألفاظ ميدان تنقص وصف ذلك
الميدان ؟ وأى صورة للمعارك أدنى من تلك الصورة التى أعد لها ألوانها ، وهياها ميدانها ؛
إذ يقول :

وكان « ضمران » منه حيث يؤزعه	طعن المearك عند الحجر النجد
شك الفريضة بالمدرى فأنفذه	شك المبيطر إذ يشفى من العضد
كأنه خارجا من جنب صفحته	سقود شرب نسوه عند مفتاد

فَظَلَّ يَعْجُمُ أَطْلَى الرُّوقِ مُنْقَبِضًا فِي حَالِكِ اللَّوْنِ صَدَقَ غَيْرِ ذِي أَوْدٍ

لقد كانت معركة النابغة معركة أليمة أسال فيها الدماء ، وكأنى به كان من تجار الحرب — كما يقال في الأساليب الحديثة — فعاش حياته داعياً إليها ، محرّضاً عليها ؛ حتى بين أنواع الحيوان .

تلك معاني النابغة تدلّ على بيئة حربية ، دلالتها على الخيل الحضرى ، فليس جميع العرب يعرفون : « سَقَوْدَ شَرِبِ نَسُوهُ عِنْدَ مُقْتَادِرٍ » وإنما هذا خيال من ينادم الملوك والأمراء .

أما أسلوبه فستقيم لأمت فيه ولا عوج ، ولا تركيب ولا تعقيد ، وإنما هو يسير على نمط عال من القول ، وقوة محكمة من الرصف . وأما الألفاظ فإن النابغة السهل العذب يجزل ويصلب عند ما يتناول وصف معاني الحياة الجزلة الصلبة كالفاقة والصحرى ، والأوابد والفيافي ، وكأنى به يريد محاكاة تامة للطبيعة ، وهذه إحدى نواحي قدرته وجلاله .



٣ — وقال سويد بن أبي كاهل اليشكري * من يتيمة التي أولها :

بَسَطَتْ رَابِعُهُ الْحَبْلَ لَنَا فَوَصَلْنَا الْحَبْلَ مِنْهَا مَا اتَّسَعَ^(١)

فَكَأَنِّي إِذْ جَرَى الْآلُ ضَحًّا فَوْقَ ذَيْالٍ بِحَدِيدِهِ سَفَعَ^(٢)

كَفَّ خَدَاهُ عَلَى دِيبَاجَةٍ وَعَلَى الْمَتْنِينَ لَوْ أَنَّ قَدْ سَطَعَ^(٣)

يَبْسُطُ الْمَشَى إِذَا هَيَّجَتْهُ مِثْلَمَا يَبْسُطُ فِي الْخَطْوِ الذَّرْعَ^(٤)

رَاعَهُ مِنْ طِيءٍ ذُو أَسْهَمٍ وَضِرَاءٍ كَنَّ يُبْلِينَ الشَّرْعَ^(٥)

٣١٩ : فَرَاهَنَ وَلَمَّا يَسْتَبِينَ وَكِلَابُ الصَّيْدِ فِيهِنَّ جَشَعَ^(٦)

* ترجمته الشاعر : سويد بن أبي كاهل اليشكري ، شاعر مخضرم عمر طويلا في الجاهلية ، ثم أدرك الإسلام ، فأسلم ، وقد عده نقاد الشعر من أجواد الشعراء ، وقصيدته التي منها هذه الأبيات من الرائع النفيس ؛ حتى كان العرب يسمونها باليتيمة لما تشتمل عليه من الحكمة الحكيمة ، والمثل الصادق ، ولا يحفظ التاريخ الأدبي للشاعر غير هذه القصيدة إلا القليل ، وإذن فإن يكن من المجيدين ، فقد كان من المقلين ، توفي سنة ٦١ هـ .

التفسير اللغوي : (١) بسطت : مدت . رابعة : اسم محبوبته . الحبل : يريد الوصل . فوصلنا الحبل : فأطلقنا حبل الوصل . ما اتسع : ما أمكن اتساع الوصل لنا . (٢) الآل : السراب . الذيال : الطويل الذيل من أي حيوان ويقصد هنا الثور الوحشي . سفع : السفع السواد المشرب بالحمرة . (٣) كف : ضم ، ومنه قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أمرت ألا أكف شعراً ولا ثوباً » يعني في الصلاة . الديباجة : صفحة الحد . على المتنين : على جانبي الظهر . سطع : ظهر ووضع . (٤) يبسط المشى : يوسع الخطو ويمده . هيجهته : أثرته ، مثلاً يبسط : مثل بسط . الذرع : الطلا ، وهو ولد البقرة الوحشية . (٥) راعه : أفزعه ، والضمير يعود على الذرع في آخر البيت السابق . لا على الثور . طيء : إحدى القبائل العربية للنسوبة إلى قحطان ، وكان أبناؤها معروفين بالمهارة في الصيد . ذو أسهم : وصف لموصوف محذوف أي صياد صاحب أسهم ، والأسهم جمع سهم النبال . الضراء : الكلاب المضراة على الصيد ، ومفردها ضار . يبلين : يخلقن . الشرع : الأوتار ، ومفردها شرعة . (٦) فراهن : ضمير النسوة عائد على الضراء ، والضمير الفاعل عائد على الثور : لما يستبين . لما يتحقق ويتبين . الجشع : الطمع وشدة الحرص على الصيد .

ثُمَّ وَلَّى وَجَنَابَانَ لَهُ مِنْ غُبَارِ أَكْدَرِيٍّ وَاتَّدَعَ^(٧)
فَتَرَاهُنَّ عَلَى مَهْلَتِهِ يَخْتَلِينَ الْأَرْضَ وَالشَّاةُ يَلْعَ^(٨)
دَانِيَاتٍ مَاتِلِبَسْنَ بِهِ وَائِقَاتٍ بِدِمَاءٍ إِنْ رَجَعَ^(٩)
يُرْهَبُ الشَّدَّ إِذَا أَرْهَقْنَهُ وَإِذَا بَرَزَ مِنْهُنَّ رُبْعَ^(١٠)
سَاكِنُ الْقَفْرِ أَخُو دَوِيَّةٍ فَاذَا مَا آنَسَ الصَّوْتِ امْصَعُ^(١١) ٣٢٤



(٧) وَلَّى : مضى وفر . جَنَابَانِ لَهُ : جانبان له . الْأَكْدَرِيَّ : النسب إلى الأكر وهو وصف من الكدرة وهي العبرة . اتَّدَعَ : تراخى في جريه ، ولم يجهد نفسه في عدوه ، لاطمئنانه إلى بعده .

(٨) مَهْلَتِهِ : تمهله وتباطؤه . يَخْتَلِينَ : يقطعن ، ومنه اختلى العشب : جزه وقطعه . الشاة : اسم للثور الوحشى . يَلْعَ : يستخف بهن ، ولا يجرد في بعده عنهن .

(٩) دَانِيَاتٍ : قريبات : مَاتِلِبَسْنَ : لم يختلطن به . وَائِقَاتٍ : موقنات . بِدِمَاءٍ : بجران دماء أو بمحركة تسيل فيها الدماء . إِنْ رَجَعَ : إِنْ عاد إلين وقرب منهن .

(١٠) يَرْهَبُ الشَّدَّ : يخيف العدو السريع فيطيعه . أَرْهَقْنَهُ : أعبته وأعجلته . بَرَزَ مِنْهُنَّ : بعد عنهن ، ومنه برز الفرس إذا سبق الخيل في الميدان وبعد فلم يدركه . رُبْعَ : اطمأن فأقام ، يقال « أربع على نفسك » أى توقف مطمئناً على نفسك .

(١١) سَاكِنُ الْقَفْرِ : كناية عن الثور الوحشى ؛ لأنه يعيش في القفار ، ومثلها أخودوية . آنَسَ : سمع وأحس . امْصَعُ : ولى ، يقال : مصع الفرس : مر مرا خفيفاً .

تحليل الأبيات :

بدأ سويد قصيدته بالغزل ، فأخبر أن حبيبته قد بسطت له حبل وصلها ، ومدت له في مرضاتها ، فبادلها شعورها ، ثم سار بعد الغزل في أفانين من الوصف حتى بلغ وصف ناقته ، فشبها بالثور الوحشي ، فقال :

كأنى في تلك القلاة المقفرة — وقد برق فيها السراب ، ولمع أمام السائرين ، وتألّق وسطع في عيون الناظرين ؛ إذ الشمس مشرقة ، والأشعة متألّئة — أركب نوراً ضاف الذيل ، أسيل الخد ، نبيل الصفحة ، نخداه أسفغان في سوادها حمرة تمنحهما حسنا ، وتكسوهما رونقا ، قد ضما على صفحة سوداء ، وجما على ديباجة سفعاء . أما جانباً ظهره فناصعا البياض ، ساطعا الإشراق ، يبسط المشى ، ويوسع الخطو إذا ظهر له ما يهيج به ، أو لمح ما يثيره ، حينئذ يبدو للرأى ، وكأنه الطلا سرعة عدو ، وشدة ركض .

وها هو ذا يظهر له ما يحتاجه ويثيره ، ظهر له صياد ماهر ، من قبيلة طيء المشهورة بالرماية ، المعروفة بالتسديد ، أسهمه لديه موفورة ، وكلابه معه مضرة ، فهي لكثرة استخدامها توهى أوتار الأسهم .

لقد رأى الثور هذه الكلاب ، ولم قد رآها من قبل ، ولم عرف ضراوتها وقوة مراسها ؛ إنه يراها على مدى بعيد ، ومن بعد سحق ، يعرفها حريصة على صيده ، طموحا في قنصه ، فولى دونهن مدبراً ، وقد اغبر جانباه ، واكدر متناه من الغبار المنشر من كره وفرة ، ومن شدّه وعدوه ، وإذ وثق بنأيه عنهن ، وأيقن عدم قدرتهن على لحاقه سار في تراخ وتباطؤ ؛ كأنه يشمت بهن ، ويسخر منهن ، فهن يقطعن الأرض عاديات ، ويختلن المفازة بسرعات ، أما هو فيسير متمهلاً ، « فكأنه آس يجس عليلاً » إنها تذو ولكنها لا تلحقه ، وتقرب من مكانه ولكنها لا تدانيه ، حينما يزداد قربها منه يخيف العدو فيطيعه ، ويهيب بالشد فيجيبه ، فإذا هو عاد راكض حين يرهقنه لحاقاً ، ويعجلنه إدراكاً ، فإذا ما أبعد عنهن ، وقف ينظر إليهن مطمئناً إلى قوته ، معتبطاً بسبقه وتفوقه .

إن هذا الثور ابن الصحراء ، وأخو المفاظات شديد الإحساس ، متوفّر الإدراك ،

فإذا ما أحس نامة ذهب عدوا ، وإذا شعر بحركة راح ركضا ، فإذا هو عن الشر بعيد ، ومن عدوان العدو أمين .

النقر :

في هذه الأبيات صورة واضحة لطرد الكلاب للثيران الوحشية ، فهي تحاول أن تختلها عن نفسها ، وتجاهدها لتقتنصها ، ولكن الأخرى دائماً اليقظة ، شديدة الحرص على ألا تقع في أيدي أولئك المعتدين .

انظر إلى الحركات في تلك الصور الشعرية : يراها عن بعد ، فيترقبها ، ثم يبتعد عنها عدوا ، ثم يقف متراخيا ناظرا إليها ؛ ليراهها إلى أين تسير وإلى أي جهة تقصد ؟ فهو يعرف في الكلاب الدهاء والخداع ، والمواربة والمناورة ، فإن سارت الكلاب يمينا سار هو شمالا ، وإن أقبلت تلك أدبر ذاك حتى يئأس الصياد من الصيد ، وتعجز الكلاب عن الطرد . إن الثور لا يطرف له طرف ، ولا يغمض له لحظ ، فذو الأسهم من ورائه حريص ، فإذا غفل عنه أصابه البوار .

كل هذه الصور رسمها سويد في أسلوب واضح قوى جميل ، فأى وضوح وقوة وجمال ينم عنها الشعر وتبدو في الصور يبرز قوله ؟

رَاعَهُ مِنْ طِيءٍ ذَوِ اسْهَمٍ وَضِرَاءُ كُنَّ يُبْلِنُ الشَّرْعَ
فَرَأَهُنَّ ، وَلَمَّا يَسْتَبِينَ وَكِلَابُ الصَّيْدِ فِيهِنَّ جَشَعَ
ثُمَّ وَلَى وَجَنَابَانِ لَهُ مِنْ غِبَارٍ أَكْدَرِيٍّ وَاتَدَعَ
فَتَرَأَهُنَّ عَلَى مُهْلَتِهِ يَخْتَلِينَ الْأَرْضَ وَالشَّاءُ يَلْعَ

أى تصوير لساكن الصحراء أروع من ذلك التصوير ؟ وأى معان لمعركة باردة « على حد تعبير رجال السياسة في هذا العصر » أوفر من هذه المعانى ؟ وأى ألفاظ مؤدية لهذه المعانى أدق من هذه الألفاظ ؟

الألفاظ مؤدية للمعانى أتم الأداء لولا أن القافية فيها غرابة حيناً ، وثقل حيناً ،

ولعل ذلك لطول القصيدة ، ولقلة الألفاظ التي تناسب الوزن ، فمن الألفاظ الثقيلة « اتدع ، امصع » .

ويختلف سويد عن النابغة في أن النابغة أحال الحرب الباردة إلى حرب حارة، فسويد يكتفي عن المنازلة بالخطاة ، فحين يقول النابغة :

كَأَنَّهُ خَارِجًا مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ سَفُودٌ شَرِبَ نَسْوَهُ عِنْدَ مُقْتَادٍ

يقول سويد :

دَانِيَاتٍ مَاتَلَبَّسْنَ بِهِ وَاقَاتٍ بِدِمَاءٍ إِنْ رَجَعْ

لقد سلك كل منهما مسلكا أراداه ، ولكن النابغة كان أوعر مسلكا، وأجمل صورا، وهذا أمر عرف عن النابغة ، فقد كان أميل شعراء عصره إلى المبالغة وإلى التصوير .



٤ — وقال امرؤ القيس * يصف الحمار الوحشى :

- كَأَنَّ وَرَحْلِي فَوْقَ أَحْقَبَ قَارِحِ^(١) بشربة أوطأو بعرنان^(٢) موحس^(٣)
تَعَشَّى قَلِيلًا ، ثُمَّ أَتَحَى ظُلُوفَهُ يُثِيرُ التُّرَابَ عَنْ مَبِيتٍ وَمَكْنَسٍ^(٤)
يُهِيلُ وَيُذْرِي تَرْبَهَا وَيُثِيرُهَا إِثَارَةَ نَبَاشِ الْهَوَاجِرِ مُخْمِسٍ^(٥)
فَبَاتَ عَلَى خَدٍّ أَحْمَ وَمَنْكَبٍ وَضَجَعَتْهُ مِثْلُ الْأَسِيرِ الْمُكَرَّدَسِ^(٦)
— وَبَاتَ إِلَى أَرْطَاةٍ حَقِيقٍ كَأَنَّهَا إِذَا أَلْتَقَتْهَا غَبِيَةٌ بَيْتُ مَعْرِسٍ^(٧)
٣٣٠ : فَصَبَّحَهُ عِنْدَ الشَّرُوقِ غُدِيَّةً كِلَابُ ابْنِ مَرْ أَوْ كِلَابُ ابْنِ سِنْدِسٍ^(٨)

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته في وصف الفرس ص ١٠٩ .

التفسير اللغوي : (١) الأحقب : الحمار الوحشى الأبيض مكان الحقيبة . القارح : الذى شق

نابه . شربة : اسم عين ماء . طاو : جائع غرثان . بعرنان : عرنان : اسم جبل . موحس : حذر خائف .

(٢) أتحنى ظلوفه : عدل أظفاره استعدادا للنبت والنبت . يثير : يسفى ويذرى : المبيت : اسم مكان من بات مكان البيات . المكنس : الكناس والمسكن .

(٣) يهيل : يسقط . يذرى : يطير ويثير . نباش الهواجر : النباش فى أوقات الظهيرة ، وهذا الوصف يلب للضبعة . مخمس : خامس خمسة .

(٤) أحمر : أسود أو أبيض فهو من أسماء الأضداد ، والوصف بالبياض هو المراد ، إذ وصفه فى أول بيت بأنه أحقَب . المنكب : مجتمع الكتفين . المكردس : المقيد ، والكردسة التقييد .

(٥) إلى أرتاة : إلى جانب شجرة أرتاة ، وثمر هذا الشجر يشبه العناب . الحقف : الرمل المجتمع . ألتقتها : بللتها وندتها . غبية : الغبية الدفعة الشديدة من المطر . المعرس : المتخذ له عرسا .

(٦) فصبحه : فجاءه عند الصباح . غدية تصغير غدوة ، ويصح غدية بفتح الغين ، فتكون من غير تصغير . ابن مروان بن سبب : صيادان ماهران من قبيلة طيء ، وقد قدمنا أن هذه القبيلة معروفة بحسن الرماية ، وسداد الإصابة .

- مُغَرَّةٌ زُرْقًا كَانَ عُيُونَهَا
 (٧) مِنَ الدَّمْرِ وَالْإِيحَاءِ نُورًا عَضْرَسِ
 فَأَدْبَرَ يَكْسُوها الرِّغَامُ كَأَنَّهَا
 (٨) عَلَى الصَّمَدِ وَالْأَكَامِ جَذْوَةٌ مُقْبِسِ
 وَأَيُّقَنَّ إِنَّ لَأَقِينَهُ أَنَّ يَوْمَهُ
 (٩) بِذِي الرِّمْتِ إِنَّ مَآوَتَهُ يَوْمُ أَنْفُسِ
 فَأَدْرَكَنَّهُ يَأْخُذْنَ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا
 (١٠) كَمَا شَبَّرَقَ الْوَلْدَانُ ثَوْبَ الْمُقَدَّسِ
 ٣٣٥: وَغَوَّزْنَ فِي ظِلِّ الْغَضَا وَتَرَكْنَهُ
 (١١) كَقَرَمِ الْهَيْجَانِ الْفَادِرِ الْمُتَشَمِّسِ



[اليدفم]

التفسير اللغوي : (٧) مغرة : جماعة لتكون أشد فتكا ، وأقوى عدوا . الذمر :
 الإثارة واللوم والتحريض . الإيحاء : الإشارة . نوار : زهر النبات . العضرس : شجر له
 نور أحمر . (٨) فادبر . فرجع . يكسوها الرغام : يغطيها الغبار ، حتى كأنه لها
 كالسكساء . الصمد : المكان المرتفع . الأكام : جمع أكمة وهي كالصمد في المعنى . جذوة :
 شعلة . مقبس : طالب قبس من نار . (٩) أيقن : وثقن ، والضهير عائد على كلاب ابن
 مرو ابن سنيس . بذى الرمت : كناية عن مكان به من شجر الرمت الكثير . وهو شجر
 يشبه الغضا ، وترعاه الإبل . ماوتنه : صابرته وجالده حتى الموت . يوم أنفس : يوم زهاق
 أنفس . (١٠) يأخذن : يعضضن . الساق : ما بين الكعب والركبة . النساء : عرق
 من الورك إلى الكعب . شبرق : مزق . الولدان : الغلمان . المقدس : الرجل المطهر نفسه
 من الأدناس . (١١) غورن : سرن في الأرض المنحدرة . كقرم الهجان : كالفتحل
 الكريم . الفادر : الناقة المنفردة . المتشمس : الشموس النور .

تحليل الأبيات :

في هذه الأبيات صور نابضة بالحياة ، وصور ساكنة هادئة أحيانا ، فهي تمثل الحياة أروع تمثيل ، أليست الحياة حركة وسكونا ، وحياة وهمودا ؟

إنك إذ تقرأ هذه الأبيات تتمثل البادية بحمرها الوحشية ، وشجرها المنبت في أطرافها ونواحيها ، ورمالها الصفراء ، وصحرائها الفيحاء ، وكلابها المضرة ، وصيادها الخائنين ، فهي صورة مرتبة واضحة ، أجزاؤها متناسقة ، وألوانها متألقة ، لا تجد في بعضها نبوا عن بعض ، ولا تسمع في حركة من حركاتها نشوزا ، وذلك هو الحس والخيال ، والروعة والجمال .

شبه امرؤ القيس ناقته من فوقها رحله بالحمار الوحشى الفتى ، ثم انصرف عنها إليه ، فهو ممتلئ نشاطا وعراما لأنه قارح ، أو لأنه طاوى الكشح ، أو لأنه قارح طاوى الكشح معا ، وهو قبالة عين ماء ، أو فوق جبل متباعد الأنحاء ، إنه هنا وهناك ؛ لأنه لا يسكن ولا يهدأ ، فهو خائف متوجس ، حذر متربص ، لم ينل من الطعام في أمسيته ما يسد جوعته ، أو يمسك صلبه ، إنه جامع أظلافه يهيل بها التراب ، كأنه يبحث عن مكس أو مسكن ، مثله إذ يهيل الثرى ويذريه كمثل الضباع تنبش التراب ساعة الظهيرة ، فإذا هيا له مناما هدا عزمه ، وفتر نشاطه ، ونام على خد ومنكب أبيضين ، وهو في ضجعته الهادئة كالأسير للمقيد لا يبدى حركة ولا يحدث ضجيجا .

قد اتخذ كناسه إلى شجرة تجمع حولها الرمل ، فكأنها إذا بللتها دفعة من المطر ، أوندتها مرزنة من سحاب ، بيت رجل أعرس ، فهو هادئ ساكن ، ولكنه إذ ينفجر الفجر ، ويتنفس الصبح تصبحه كلاب مضرة على الصيد كأنها في ضراوتها ودربتها « كلاب ابن مر أو كلاب ابن سنيس » .

وهي إلى هذه الضراوة مغرثة بجاعة ؛ لتكون أشد فتكا وأقوى عراما ، فعيونها لقسوة ذمرها وحرصها ، وشدة ثورانها وهياجها حراء مشتتة كأنها نوار غمرس .

رأى الحمار هذا الكلاب يذمر كلابه ، فشد يخلف من ورائه سحابا من الغبار ،

يكسو هذه الكلاب فكأنه - إذ يعلو الأصماد والآكام ، ويرتفع إلى الربا والنجد ، ويختلط الغبار المتطاير ببياضها ، فتغير لونها - جذوة من نار .

وكما أيقن أنه إن لاقى هذه الكلاب في وادي الرمث ، فإن نفوسا ستهلك ، ودماء ستهرق ، قد تكون نفسه إحداها ، وقد يكون دمه هو الدم المهرق سابق الريح ، وأمعن في شدة ؛ لا يبقى من عدوه على شيء .

ثم إنه يتصور أنها إن أدركته فستأخذ بساقيه ووركيه ، فتمزقها تمزيقا ، تمزيق الغلمان الأغرار ألقين الراهب المطهر ذا التقوى والبركات آثبا من بيت المقدس ، فهم يتبركون به ، فيمزقون ثيابه التماسا للبركة ، وطلباً للمغفرة .

هذه الكلاب انحدرت إلى ظل أشجار الغضا بعد أن يئسن من لحاقه ، وأيقن عدم القدرة على إدراكه ، وتركه قويا شيطا لم يمسه نصب أو لغوب ، فهو كالنحل الهجان ، المنفرد في حظيرته ، الشموس لا تقوى أحد على مواجهته .

النقر :

في معاني امرئ القيس وسويد بن أبي كاهل تشابه كثير ، وليس عظيما على سويد أن يقبس من امرئ القيس ، فإننا لا نكاد نجد شاعرا لم يكن عالما على امرئ القيس في معانيه ، فإذا قال امرؤ القيس :

وَأَيَّقَنَّ إِن لَّاقِيَنَّهُ أَن يَوْمَهُ بَذَى الرَّمْثِ إِن مَآوَتْنَهُ يَوْمُ أَنْفُسِ

ألفينا سويدا يقول :

دَانِيَةً مَاتَلْبَسَنَّ بِهِ وَاثْقَاتٍ بَدْمَاءُ إِن رَجَعْ

ومع أن واجب الأخذ أن يزيد الأخذ عن أخذ منه في المعنى أو في الأسلوب ، فإن هذا الواجب لم يؤده سويد ، فبيت امرئ القيس أدق في المعنى ، فقد حدد المكان الذي يكون فيه التماوت ، وهو أجل في الأسلوب ، وإذا قال امرؤ القيس :

فَبَاتَ عَلَى خَدِّ أَحَمٍّ وَمَنْكِبِ وَضَجَعْتَهُ مِثْلَ الْأَسِيرِ الْمَكْرَدَسِ

حاول سويد أن يتابعه ، فقال دون أن يبلغ تصوير امرئ القيس :

كُفَّ خَدَّاهُ عَلَى دِيبَاجَةٍ وَعَلَى الْمَتْنَيْنِ لَوْنٌ قَدْ سَطَعَ

فبيت امرئ القيس فيه وصف وفيه صورة : الوصف في الشطر الأول والصورة في الشطر الأخير ، أما بيت سويد فليس فيه غير الوصف .

وقد وصف امرؤ القيس الكلاب ، وهي عماد الصورة ، ولكن سويدا مر عليها عدوا ؛ كأنه خشى إن تريت ليصفها أن تلحقه ، « وأدركته يأخذن بالساق والنسا » أو يشبرقنه « كما شبرق الولدان ثوب المقدس » وتصور امرئ القيس الهدوء والسكون بأنه كهدهو الرجل المعرس يرسل لنا شعاعا عما كانت عليه بيوت المعرسين بعد أن ينفض السامرون .

لانبالغ فنقول : إن امرأ القيس أعظم شاعر عرفه العالم ، فقد نجد من يتعصب عليه ، أو يرمينا بالتعصب له ، ولكننا نقول : إنه أعظم شاعر عرفته الأمة العربية ، ونحن على ثقة أننا لن نجد معارضين ، حتى ولا أولئك الذين يقولون : « إن الشعر الجاهلي كان جناية على الأدب العربي » .



٥ — وقال علقمة الفحل * يصف الظليم من قصيدته التي أولها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم^(١)

كانها خاضب زعر قوادمه أجنى له باللوى شرى وتوم^(٢)

يظل في الحنظل الخطبان ينقعه وما استطف من التنوم مخدوم^(٣)

فوه كشق العصا لأيا تبينه أسك ما يسمع الأصوات مصلوم^(٤)

حتى تذكر بيضات وهيجه يوم رذاذ عليه الريح مغيوم^(٥)

٣٤١ : فلا تزيد في مشيه نفق ولا الزيف دوين الشد مسوم^(٦)

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته في وصف الناقة ص ٩٨ .

التفسير اللغوي . (١) استودعت : أومنت . نأتك : هجرتك . مصروم : مقطوع .

(٢) الخاضب : الظليم احمر ساقاه وجلده ، وخاضب صفة لموصوف محدوف : هو الظليم ، وهو ذكر النعام ، وهو يشبه ناقته به لسرعتها . زعر : جمع أزعر ، قليلة الشعر . قوادمه : جمع قادمة ، وهي الريشات الكبار في مقدم الجناح ، وفي رواية قوائمه . أجنى النبات : نضج وتمياً للجنى . اللوى : ما انعطف من الرمل . الشرى : شجر الحنظل . التنوم : شجر يشبه ورقة ورق الآس ، يسقط ورقه صيفاً ويترعرع شتاء . (٣) الحنظل الخطبان : هو الحنظل

فيه خطوط تضرب إلى السواد ، وهو أشد ما يكون مرارة . ينقعه : يستخرج حبه . استطف : ارتفع وأمكن . مخدوم : مقطوع لياً كله . (٤) فوه : قم . لأيا : شدة وبطناً . تبينه : تراه . أسك : أصم ، وأذن سكاء : صماء صغير الأذن لاصقتها بالرأس : مصلوم : مقطوع .

(٥) هيجه : أثاره . يوم رذاذ : يوم مطر خفيف ، عليه الريح : فيه الهواء . مغيوم : ملبد بالغيوم .

(٦) التزيد : السير السريع . النفق : بكسر الفاء السريع الاقطاع من كل شيء ، يقال فرس نفق أى لا يطيل الركض . الزيف : نوع من السير دون الشد . دوين : تصغير دون . الشد : العدو السريع . مسوم : مملول .

* هذا البيت منسوب في لسان العرب لدى الرمة ، ولكنه منسوب في شعراء النصرانية وفي الفضليات لعلقمة ، ثم إن لدى الرمة قصيدة من هذا الوزن والقافية ولكن البيت ليس فيها ، فلعل وزن القصيدة هو الذي خلط الأمر على صاحب اللسان .

- يَكَادُ مَنْسِمُهُ يَخْتَلُّ مُقْلَتَهُ كَأَنَّهُ حَازِرٌ لِلنَّخْسِ مَشْهُومٌ (٧)
وَضَاعَةٌ كِصْبِي الشَّرْعِ جُوجُوءُ كَأَنَّهُ يَتَنَاهَى الرَّوْضِ عُلْجُومٌ (٨)
يَأْوِي إِلَى حِسْكَ كُلِّ زُغْرِ حَوَاصِلُهُ كَأَنَّهُنَّ إِذَا بَرَّ كُنَّ جُرْثُومٌ (٩)
حَتَّى تَلَا فِي وَقَرْنِ الشَّمْسِ مُرْتَفِعٌ أَدْحَى عَرَسَيْنِ فِيهِ الْبَيْضُ مَرْكُومٌ (١٠)
يُوحِي إِلَيْهَا بِانْقَاضٍ وَنَفَقَةٍ كَمَا تَرَاظُنُ فِي أَفْدَانِهَا الرُّومُ (١١)
صَعْلٌ كَانَ جَنَاحِيهِ وَجُوجُوءُ بَيْتٌ أَطَافَتْ بِهِ خِرْقَاءُ مَهْجُومٌ (١٢)
تَحْفَهُ هِقْلَةٌ سَطْعَاءُ خَاضِعَةٌ تُجْبِيهِ بِزِمَارٍ فِيهِ تَرْنِيمٌ (١٣)

(٧) منسمه : ظفره ، والمنسم خاص بالبعير والنعام والقيط ونحوها . ويختل مقلته : يصيب عينه . حاذر : متأهب مستعد . النخس : غرز عود أو نحوه في جنب الدابة ، أو مقدمها أو مؤخرها لاستفزازها إلى الجري . المشهوم : الفزع المروع ، وأصله من شهم الفرس زجره ، وأيضا المشهوم الذي الفؤاد وليس مقصودا .

(٨) وضاعة : صيغة مبالغة من الوضع ، وهو نوع من عدو الإبل السريع ، والتاء في وضاعة للمبالغة لأنه وصف للظلم . الشرع : الآثار مفردا شرعة . جُوجُوء : صدره . التناهي جمع تنية ، وهي الأماكن المطمئنة ينتهي إليها الماء . علجوم العلجوم البعير الطويل المطلى بالقطران ، والوعل ، والثور المسن ، والشديد السواد ، ولعله يقصد الوعل .

(٩) يأوى : يلجأ . حسكل : الحسكل الصغار من ولد كل شيء ، وخص بعضهم بالحسكل ولد النعام أول ما يولد وعليه زغبه الواحدة حسكلة ، ورواية اللسان « يأوى إلى حسكل زغب حواصلها » والحواصل جمع حوصلة معدة الطائر . بركن . استنخن . جرثوم : جمع جرثومة وهي أصل الشجر . (١٠) تلافي : تدارك قرن الشمس : أول ما يبدو من قرصها . الأدحى : مبيض النعام . عرسين : يقصد الظلم ونعامته . مركوم : جمع متراكم بعضه فوق بعض . (١١) يوحى إليها : يشير إليها ، ويصوت لها . الانقاض : التصويت ، أُنْقَضَت العقاب صوتت ، ومثله النفقة ، فهي صوت الظلم . التراظن : تفاهم الأعاجم . الأفدان : جمع فدن بفتح الفاء والبدال ، وهي القصور . (١٢) الصعل : الدقيق الرأس والمنق من النعام أو النخل أو الناس ، والأول هو المراد . أطافت به : أحاطت به ، ودارت حوله . خرقاء : وصف لموصوف محذوف يقصد لامرأة خرقاء غير حازمة . مهجوم : ساقط مهدوم .

(١٣) تحفه : تحيط به . الهقلة : النعامة . السطعاء : الطويلة العنق . الخاضعة : التي تميل رأسها عند الرعى . الزمار : صوت أثني النعام . الترنيم : الغناء والتنغيم .

تحليل الأبيات :

هذه الأبيات تكلمة للأبيات التي اخترناها لعلقة في وصف الناقة ، فإنه بعد أن قال :
تلاحظ السوط شزراً وهي ضامرة كما توجس طاوى الكشح موشوم
سار في وصف ذلك الطاوى الكشح ، فكان هذا البيت تمهيد الوصف العظيم .

ذلك الظليم الأحمر اللون ، حتى لكأنه قد خضب بالحناء ، قواده قصيرة الشعر ،
إذ ذهب أصولها ، وبقي شكيرها ، له في المكان الذي يعيش فيه نوعان من الطعام قد
استوى نضجهما أو كاد ، هما : الشرى والتنوم ، فهو يظل يومه الأطول في استخراج حب
شجر الحنظل ، فوق أنه يتطف ما يرتفع من شجر التنوم ليكون له غذاء .

فم ذلك الظليم ضيق رقيق الشفتين لا يكاد يرى ، فكأنه شق في عصا ، وهو أصم
الأذنين لا يكاد يسمع ، أو هو مصلومهما ، وهو بهذا الوصف يشعرنا بأن أذنه صغيرة لاصقة
برأسه ، كأنه لم تخلق له أذن ، وفي المثل عن الظليم : « ذهب يطلب قرنين ، فعاد
بلا أذنين » .

إذا تذكر بيضه في أذنيه ، وهو يرى الشرى والتنوم ثار وهاج ، ويزيده احتياجا
سقوط الرذاذ تزجيه الريح ، ويسوقه الهواء الملبد بالغيوم ، وهو إذ يتزايد ليدرك بيضه
ويزف ، لا يستمه طول التزايد ، ولا دوام الزيف ، فلا ينقطع سيره ، ولا تنفق سرعته ،
حتى يبلغ غايته ، يكاد خفه يصيب عينه ، وذلك عند ما يشتد عدوه ، فيرفع خفه ويخفض
رأسه ، وهو في خفض رأسه كأنه متأهب للنخس ، فهو مروع فزع .

هذا الظليم وضاعة سريع ، صدره في تقوسه كعصى الأوتار ، كأنه في الأماكن
الأنسة بالسكان ، المنتهية بالماء بين الرياض وعل قد أنس ، فهو يلجأ إلى فراخه
الصغار الزغب الحواصل ، التي تشبه - وقد برك بعضهن بجانب بعض - أصل النخيل ،
فما زال يوضع حتى تدارك أذنيه ، وقد برز قرن الشمس ، وارتفعت أشعتها ؛ أدركه -
ومعه عرسه - مجتمعا متراكما لم يكسره أحد ، ولا سطا عليه كائن ، فشرع عندئذ ينقض

لها فتفهم إنقاضه ، وينقنق فتجيب على نقنقته دون أن يفهم أحد من إنقاضه ونقنقته شيئاً ، فكأنه وإياها روميان يتراطان في أحد قصور الروم .

ذلك الظليم دقيق الرأس والعنق ، تراه عند ما ينشر جناحيه حول صدره بيتاً من الشعر تقيمه امرأة غير صناع ، فكلماً أقامته سقط ، وهو بهذا يشير إلى أن الظليم ينشر جناحيه ثم ما يلبث أن يضمهما ، يصنع ذلك الصنيع مرات في أويقات .

إذا سار ذلك الظليم حفت به عرسه المديدة العنق ، الميالة الجيد ، ذات الصوت الرخيم ، والتنغيم الجميل

النقر :

هذا نوع فريد في تشبيه الناقة ، فقد رأينا أكثر الشعراء يشبهونها بالثور أو البقرة أو الحمار ، أما أن أحداً شبهها بالظليم ، فلا ، نغنى ممن اخترنا لهم من الشعراء ، وإذن فلن نتاح لنا الموازنة بينه وبين من تقدموه .

وعلقمة حينما شبه ناقته بالظليم وصف الظليم بأوصاف حسية ، وبأخرى عاطفية ، والناحية العاطفة قليلة في الشعر العربي ، فنعت الظليم بالتوجس ، والوشم ، والخضب ، وبالزغب والرعى ، وبضيق الفم ورقة الشفتين ، وصغر الأذنين ، وبالسرعة والصبر على الشد والعدو ، وكل هذه صفات منتزعة من الحس .

أما الأوصاف العاطفية فهي هياجه وثورانه عند ما يتذكر وهو في مرعاه بيضاته ، فإنه ينسى كل شيء إلا أن يصل إلى ذلك البيض ليتفقده بعد أن يمر بحسكه الذي يشبه جرثوم النخل في تراكمه ؛ إنه لتصوير للعاطفة الروم جميل :

حَتَّى تَذَكَّرَ بِيضَاتٍ وَهِيَجَهُ	يَوْمَ رَدَاذٍ عَلَيْهِ الرِّيحُ مَقِيَوْمُ
فَلَا تَزِيدُهُ فِي مَشْيِهِ نَفَقُ	وَلَا الزَّفِيفُ دُوبِينَ الشَّدِّ مَسْئُومُ
يَكَادُ مَنَسِمِهِ يَخْتَلُّ مَقْلَتَهُ	كَأَنَّهُ حَاذِرٌ لِلنَّخْسِ مَشْهُومُ
وَضَاعَةٌ كَصِيِّ الشَّرْعِ جُوجُوهُ	كَأَنَّهُ بَقْنَاهِي الرِّوَضِ عُلْجُومُ

يَأْوِي إِلَى حِسْكَ زُعر حواصله كَأَنَّهُنَّ إِذَا بَرَّكُنَّ جُرْثُومَ

وأنت ترى إلى جانب الناحية العاطفية أوصافا وصورا كاملة، كالصورة الأخيرة التي يشبه فيها صغاره وقد بركن مجتمعات متراكبات في أصل النخل .

ثم إن وصف مناجاة الظليم عرسه تصوير لا يصدر إلا عن عاشق متيم حديث للنساء، يعرف لغة القلوب ، ويفهم ومضات العيون :

يُوحِي إِلَيْهَا بِإِنْقَاضِ وَنَمَقَةٍ كَمَا تَرَاظَنَ فِي أَفْدَانِهَا الرُّومُ

ولكن الذي لا أجد له مكانا في الصورة التي رسمها لتخاطب الظليم وعرسه قوله :
— في أفدانها — فهل الروم لا يتخاطبون إلا في الأفدان ؟

ولولا أن من ألفاظ القافية ما هو ثقیل الوقع على السمع لبلغت القطعة الغاية في الجودة، مثل تنوم ، وعلجوم ، على أن هذا الثقل ينسيه جمال الصور .



نظرة فاحصة عن معاني الشعراء في وصف الأوابد

كان العرب يأنسون إلى أوابد صحاريهم ، ولكنها لم تكن تأنس إليهم ، ويعجبون بها ، وهي لا تعجب بهم ، بل لا تحبهم ولا ترضى عنهم ، يعجبون هم بجمالها وحسنها ، وتكره منهم بغيتهم وعدوانهم ، ولا عجب أن نرى هواها مختلفا ، فيرون فيها الجمال ، وترى منهم العدوان ، ويشاهدون في شياتها الحسن ، وتشاهد في طباعهم الجحود والكفران ، فكلفوا بها وبحشاؤها ، وركبوا الصعب في صيدها ، ونأت دونهم وأعرضت ، فهم وإياها في نضال مستمر ، وعراك متصل .

وصفوا جمالها ، وكانهم بتصوير هذا الجمال يُعذِّرون ، ثم طاردوها بكلابهم ، وحاولوا صيدها بقتيلهم ، وهم جميعا يكادون يتفوقون في هذه المعاني .

ومنهم من وصف طريقه إليها ، فوصف الصحراء وما يحف بها من عين جارية ، أو نبت ناجم ، أو سراب خادع ، فكانت معينا يستقون منه ، ومنهلا يصدرن عنه ، فسويد يصف الصحراء ، فيقول :

فَكَأَنِّي إِذْ جَرَى الْآلُ ضُحَا فَوْقَ ذَيْالٍ بِخِدْيَةٍ سَفْعُ

ويقول :

سَاكِنُ الْقَفْرِ أَخُو دَوِّيَّةٍ فَإِذَا مَا آنَسَ الصَّوْتُ امْصَعُ

والنابعة ينسب الوحوش إلى مواطنها التي نشأت فيها فيقول :

مِنْ وَحْشٍ وَجَرَةٍ مُوشِيٍّ أَكْرَعُهُ طَاوِي الْمَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ

ولبيد يقول في وصف الصحراء ووصف سرايها :

فَبِتْلَكَ إِذْ رَقَصَ اللَّوَامِيعُ بِالضَّحَا وَاجْتَابَ أَرْضِيَّةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا

ثم نراهم جميعا بصورن المارك أدق تصوير ، فيثيرون الغبار ، ويسيلون الدماء ، ويصفون الأوراق ، وقد نفذت في الأحشاء ، وقل منهم من ارتضى بأن ينهى الطراد بدون أن

يكون هناك طعن وقتل ، وكلهم يصفون صيادهم بالمهارة ، وينسبونهم إلى قبيلة ،
فيقول سويد :

راعَه من طيء ذُو أسْهمٍ وضِراءِ كَنَّ يُبْلينَ الشَّرْعَ
ويقول النابغة :

فارتاعَ من صوتِ كَلَّابٍ فباتَ له طوعُ الشَّوامِتِ من خَوْفٍ ومن صَرَدِ
ويقول امرؤ القيس :

فصَبَّحَه عِنْدَ الشُّروقِ غُدِيَّةَ كَلَّابٍ ابْنِ مُرٍّ أَوْ كَلَّابِ ابْنِ سِنْدِسٍ

وقد قدمنا أن ابن مروان سنبس صيادان طائيان اشتهرا بالحذق والمهارة . ويقول لبيد
يصف الذئب والرماة والكلاب والقرون :

لَمُعَقَّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِـلْوَه غُبْسٌ كَوَاسِبُ لَا يُمِنُّ طَعَامُهَا
حَتَّى إِذَا يُبْسِ الْأُمَاةُ وَأَرْسَلُوا غَضًّا دَوَاجِنَ قَافِلًا أَعْصَاهَا
فَلَجِحْنَ وَاعْتَكُرَتْ لَهَا مَدْرِيَّةَ كَالسَّمْهَرِيَّةِ حُدَّهَا وَتَمَامُهَا

أما تصويرهم للمعارك فتصوير بارع لا نكاد نحكم لأحدهم بالفضل على الآخر ، ولعل
سويداً كان رجل سلام ؛ لأنه أنهى المعركة دون أن تجرى دماء ، فقال :

فَرَاهَنَ وَلَمَّا يَسْتَبِينَ وَكَلَّابُ الصَّيْدِ فِيهِنَّ جَشَعُ
نَمَّ وَلَّى وَجَنَابَانِ لَهُ مِنْ غُبَارٍ أَكْدَرِيَّ وَاتَدَّعُ
فَتَرَاهَنَ عَلَى مُهْلَتِهِ يَخْتَلِينَ الْأَرْضَ وَالشَّاةُ يَلْعُ

أما النابغة فيشير الحرب عنيفة ، والمعركة حامية الوطيس تنتهي بفرائص تشك ، وبدماء
تسيل ، وبروق يعجم ، فيبلغ بتصويره مبلغاً رائعاً ، وذلك إذ يقول :

وَكَانَ (ضُمْرَانُ) مِنْهُ حَيْثُ يُوزَعُ طَعْنَ الْمَعَارِكِ عِنْدَ الْمَحْجَرِ النَّجْدِ
شَكَّ الْفَرِيصَةَ بِالْمِدْرَى فَأَنْفَذَهَا شَكَّ الْمُبَيْطِرِ إِذْ يَشْفِي مِنَ الْعُضْدِ

كَأَنَّهُ خَارِجًا مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ سَقُودُ شَرْبِ نَسْوِهِ عِنْدَ مَقْتَادِ
فَظْلٍ يَعْجُمُ أَعْلَى الرَّوْقِ مُنْقَبِضًا فِي حَالِكِ اللَّوْنِ صَدَقِ غَيْرِ ذِي أَوْدِ
أَمَّا امْرُؤُ الْقَيْسِ فَأَوْقَدَ نَارَ الْحَرْبِ ثُمَّ أَطْفَأَهَا ، وَكَتَفَى بِالْجُرْحَى دُونَ الْقَتْلِ ، فَقَالَ :
فَأَذَرَ كُنْهَهُ يَأْخُذُنِ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا كَمَا شَبَّرِقَ الْوَلَدَانُ ثَوْبَ الْمُقْدَسِ
وَعُورُونَ فِي ظِلِّ الْقَضَا وَتَرَكَنَهُ كَقَرَمِ الْهَجَانِ الْفَادِرِ لِلتَّشْمِسِ
وَلْيَبِيدَ يَجْرَى دِمَاءُ كَسَابٍ وَسَخَامٍ ، فَيَقُولُ :

فَتَقْصِدَتْ مِنْهَا «كَسَابٍ» فَضُرِّبَتْ بِدِمٍ ، وَغُودِرَ فِي الْمَسْكَرِ «سُخَامُهَا»
وَيُظْهِرُ أَنَّ أَخْلَاقَ كُلِّ شَاعِرٍ تَنْطَبِعُ فِي مَعَانِيهِ ، وَتَتَضَحُّ مِنْ أَفْكَارِهِ ، فَالشُّعْرَاءُ الْمَغْرَمُونَ
بِسُفْكَ الدِّمَاءِ ، وَالتَّمَتُّعُ بِرُؤْيَا الْأَشْيَاءِ ، وَشَهْوَةُ أَكْلِ لَحُومِ الْأَعْدَاءِ يَشِيرُونَ بِالْمَعَارِكِ ،
وَالَّذِينَ طَبَعُوا عَلَى الرَّحْمَةِ ، وَأَشْرَبَتْ قُلُوبُهُمُ الْعُطْفَ وَالْحَنَانَ ، تَنَازَلَتْ بِهِمْ نَفُوسُهُمْ عَنِ الْقَتْلِ ،
فَيَنْهَوْنَ مَعَارِكَهُمْ دُونَ قَتْلِ أَوْ مَصَابِيْنِ .

وَبَعْدَ ذَلِكَ أَجْلَى الصُّوَرِ تَظْهَرُ فِي وَصْفِ هَذِهِ الْمَعَارِكِ الَّتِي تَتَعَدَّدُ أَسْلِحَتُهَا ، فَهِيَ الْقِسْيُ
وَالرَّمَاخُ ، وَالْخَالَابُ وَالْأَنْيَابُ ، وَالْأُرُوقُ وَالْمَدَارِي ، وَجَمِيعُ هَذِهِ الْأَسْلِحَةِ لَهَا فِي الصُّوَرِ
الشَّعْرِيَّةِ مَكَانٌ أَيْ مَكَانٌ .



(د) صور متنوعة لمظاهر الطبيعة الحية

١ — قال زهير بن أبى سلمى * يصف معركة مع الحر الوحشية من قصيدته التى أولها:

صحا القلبُ عنِ سلمى وأقصرَ باطله وعُرِّى أفراسُ الصِّبَا ورَواحِلُه^(١)

إذا ما غدونا نبتغى الصَّيْدَ مرَّةً متى نَرَه ، فإنَّنا لا نُخْائِلُه^(٢)

فبينما نُبغِّى الوحشَ جاء غلامنا يدبُّ ويخفى شخصه ويضائلُه^(٣)

فقال : شياه راعاتُ بِقَرَّةٍ بمستأسد القريان حوِّ مسائلُه^(٤)

ثلاثُ كأقواسِ السَّراءِ ، وناشطٌ قد اخضرَّ من لَسِّ الغميرِ جحافلُه^(٥)

٣٥٤ : وقد خرَّم الطُّرادُ عنَه جِحاشَه فلم يَبْقَ إلَّا نَمْسُه وحلائلُه^(٦)

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته فى وصف الناقة ص ٨٨ .

التفسير اللغوى : (١) عرى أفراس الصبا : مثل ، ويريد أن يقول : عرى أفراس قد

كنت أركبها فى صباى ، فلم يعد هناك ما يدعونى لإسراجها بعد أن كبرت سنى .

(٢) غدونا : بكرنا . نبتغى : نطلب . لا نخائله : لا نخادعه لثقتنا من إدراكه .

(٣) يدب : يمشى على هيئته كمشى الطفل والضعيف والتمل . يضائله : يصغره لثلايفزع الصيد .

(٤) الشياه : الحر الوحشية . راعات . راعيات لا عبات . بمستأسد القريان : المستأسد

من النبات الذى طال وتم ، والقريان مجارى الماء إلى الرياض الواحد قرى . الحو : النبات

يضرب إلى السواد لشدة خضرته . مسائله : يقصد مسايل الماء ، والأصل عدم الهمزة لأن

الياء أصلية ، ولكنهم توهموها زائدة ، فهمزوها كما همزوا مصائب . (٥) أقواس

السراء : السراء شجر تتخذ منه القسى ، فهو يصف الثلاثة بالضمور . ناشط : يخرج من بلد

إلى بلد . اللس : الأخذ بمقدم الفم . الغمير : نبت يطول ثم يصيبه مطر ، فيخرج تحته نبت

أخضر ، فيكون غميرا لهذا الطويل أى مغمورا . الجحافل : جمع جفلة ، وهى لندى الحافر

كالشفة للإنسان .

(٦) خرَّم : فرق . الطراد : الصيادون : جحاشه : صغاره : حلائله : آتته .

- وقال أميرى : ماترى رأى ما نرى أنخذه عن نفسه أم نصوله ؟ (٧)
 فبتنا عراة عند رأس جوادنا يزاولنا عن نفسه وزاوله (٨)
 فنضربه حتى اطمأن قذاله ولم يطمئن قلبه وخصائله (٩)
 وملجئنا ما إن ينال قذاله ولا قدماء الأرض إلا أنامله (١٠)
 فلا يا بلائى قد حملنا غلامنا على ظهر محبوبك ظمء مفاصله (١١)
 فقلنا له : سدّد وأبصر طريقه وما هو فيه عن وصائى شاغله (١٢)
 وقلت : تعلم أن للصيّد غرة وإلا تضعها فإنك قاتله (١٣)
 فأتبع آثار الشياخ وليدنا كشوبوب غيث يحضن الأكم وابله (١٤)
 ٣٦٣ : نظرت إليه نظرة فرأيتُه على كل حال مرة هو حامله (١٥)

(٧) أميرى : الذى يؤمرنى ويستشيرنى . نصوله : نجاحه الحرب .

(٨) عراة : مؤترين . يزاولنا وزاوله : يعالجنا ونعالجه .

(٩) قذاله : موضع العذار من رأسه ، وهو أعلى جزء فيه . اطمأن : سكن .
 خصائله : جمع خصلة وهى كل لحمة فى عصب .

(١٠) ملجئنا : واضع اللجام فى قذاله . أنامله : أطراف أصابعه .

(١١) فلا يا بلائى : فبطئا بعد بطة ، وجهدا بعد جهد . محبوبك : مدمج . ظمء مفاصله :
 عطاشا مفاصله ، والمتصل بجمع كل عظمين ، وإذا كان ظمآن كان أيس له .

(١٢) سدّد : قوم صدر فرسك . أبصر طريقه : تبين خطة صائبة . وصائى : وصيتى .

(١٣) تعلم : اعلم . غرة : غفلة ، وأن يؤتى من حيث لا يشعر . وإلا تضعه : وإن لم
 تضع ما أوصيتك به من أن للصيّد غرة فعليه أن ينتهزها .

(١٤) فأتبع : فتبع غلامنا . كشوبوب غيث : كدفعة من المطر . يحضن : يقشر .
 الأكم : جمع أكمة المرتفعات . وابله : مطره الغزير .

(١٥) إليه : الضمير يعود على الفرس . حامله : الضمير يعود على الغلام .

يُثْرَنُ الْحَصَى فِي وَجْهِهِ وَهُوَ لَاحِقٌ سِرَاعٌ تَوَالِيهِ صِيَابٌ أَوَائِلُهُ (١٦)
 فَرْدٌ عَلَيْنَا الْعَيْرُ مِنْ دُونِ إِلَهِهِ عَلَى رَعْمِهِ يَدْمَى نَسَاءُهُ وَقَائِلُهُ (١٧)
 وَرُحْنًا بِهِ يَنْضُو الْجِيَادَ عَشِيَّةً مُحْضَبَةً أَرْسَاغُهُ وَحَوَامِلُهُ (١٨)
 ٣٦٧ : بَدَى مَيْعَةً لَا مَوْضِعَ الرَّمْحِ مُسَلِّمٌ لِبَطْءٍ، وَلَا مَا خَلْفَ ذَلِكَ خَاذِلُهُ (١٩)



(١٦) يثرن: الضمير يعود على الحجر. وجهه: الضمير يعود على الفرس. تواليه: أواخره،
 يريد رجليه وعجزه. صياب: قاصدة مفردا صائب كصاحب وصحاب. أوائله: يدها وصدره.
 (١٧) فرد علينا العير: فقطعه عن إلفه، ورجعه إلينا. من دون إلفه: من غير أمانه.
 يدمى: يسيل دمه. النساء: عرق من الورك إلى الكعب. فائله: الفائل عرق في الفخذ.
 (١٨) ورحنا به: وأمسينا بذلك الفرس. ينضو: ينسلخ وينخلع. محضبة: ملطخة
 بالدم. أرساغه: جمع رسغ وهو القدم. حوامله: قوائمه، مفردا حاملة.
 (١٩) الميعة: النشاط، وهي هنا الدفعة من السير. موضع الرمح: الكائبة، وهي قدام
 القربوس. قال النابغة «إذا عرض الخطى فوق الكواكب» معناه أن مقدمه لا يتخلل مؤخره،
 ومؤخره لا يتخلل مقدمه.

تحليل الأبيات :

هذه القصيدة من جياذ شعر زهير ، قالها يمدح بها حصن بن حذيفة الفزاري لامتناعه على عمرو بن هند ، ولكن المدح أضعف أدواتها ، وأقل أسباب جودتها .

فطاعها أبرع مطلع تبدأ به قصائد في الثناء على الأبطال ، وتحدث الرجال عن الرجال . عزف عن اللهو والهوى ، وصحا القلب عن سلى ، وأقصر عن امتطاء باطل الصبا والشباب ، وعريت أفراس كنت أركبها في الصبا .

وبعدئذ عرض للأطلال عرضا يسيرا ، ثم أخذ يصف فرسه ، يخرج به للصيد ، وكان وصف الصيد هو غايته الأولى من القصيدة ، إذ صورته في ثمانية عشر بيتا ، فقال :

حينما نغدو مبكرين نطلب الصيد ، نظاهره الصيال ، ونجاهره النضال ، لانرف مخاتلة ؛ لأن المخاتلة ضعف ، ولا نرتضى لأنفسنا الخادعة فالخداع لؤم ، هذا إلى ثقتنا أن فرسنا كريم لا يفوته الصيد ، وإذا نبحت عن الوحش نصيده أقبل خادمنا يمشى على هيئته ، ويضائل جسمه ، ويخفي شخصه ، خوف أن تراه الشياه ، فتعطى ساقها العنان ، فأنبأنا أن شياها ترتع وتلعب ؛ فهي تعيش في مرعى خصيب ، قد استأسد بنته ، وطال عشبها ، واسودت مسایل مائه ، مسایل القرين إلى الرياض .

إنها ثلاث شياه ضامرات كالقسي تصنع من شجر السراء ، منطويات ، لأنهن اجتزان بالرطب عن الماء ، فلم يضحمن وتمتد كدتهن ، وناشط لا يستقر في مكان ، ولا يقيم في بلد ، قد اخضرت جحافلها من أكل النبت المغمور ، وقد فرق الصيادون عنه جحاشه ، وأخذوا منه صفاره ، فهم يطردونه فيدعها ، فيقنصونها ، فلم يبق من حوله إلا نفسه وآتته .

وقال صديقه وأميره يؤامره ويشاوره : ألا ترى الرأي الذي نراه ؟ أنخدعه ونختله أم نصوله ونفاضله ؟ فبتنا عراة مؤثرين عند رأس فرسنا الصعب الذي يحاول الجوح ؛ لما هو فيه من حدة ونشاط ، فيجذبنا ونجذبها ، ويعالجنا ونعالجها ، فضر بناه حتى سكن

رأسه ، دون أن يطمئن قلبه ، أو تسكن خصائله ، وإذا ما أقبل خادمنا ليلجمه ؛ لم يتهيأ له ذلك إلا إذا وقف على أنامله ، فهو فرس نهد ، هيكل ضخم .

فبعد جهد ومشقة حملنا وليدنا عليه ، حملناه على فرس مدمج محبوبك ، لم يكتنز أو يترهل ، ومفاصله عطاش ظماء ، فهن صلد صلاب ، فقلنا لفارسه ناصحين : قوم صدر فرسك ، ولا تمل يمنية أو يسرة ، وتبين طريقك الذى تسير فيه ، ولا يشغلك عن وصاى التى أوصيك بها نشاط الفرس وعلاجه ، وحدته ومراسه .

قلت له : اعلم أن للصيد غرة فاهتبلها ، وفيه - أحيانا - غفلة فانتبهزها ، فإذا لم تضعيها فإنك دون ريب قاتله .

فتدبج الوليد آثار تلك الحجر ، مثله فى اندفاعه إليها ، وانصبابه عليها كمثل دفعة المطر يقشر وابل هذه الدفعة الأكم ، ويزيل ترابها فيظهر نباتها ، نظرت إلى الفرس نظرة تأمل ، فألفيت الوليد يحمل الفرس على الأمر الذى يريد ، فأخذت الحجر الوحشية تثير فى وجه ذلك الفرس الحصى ، وهو لاحق بها مدرك لها ، وأخاره سراع ، وأوائله صياب ، فلا مقدمه يخذله ، ولا مؤخره يسامه ، فأمكننا من العير ، ورجعه إلينا من غير أليفه ، رده علينا مرغما مقهورا ، قد سال الدم من عرقى النساء والفائل ، فقد طعنه فسد الطعنة ، فرحنا بذلك الفرس يتقدم الجياد وينسلخ منها عشية ، وقد خضبت من دماء العير أرساغه ، وضرجت بدمائه قوائمه ، فلم يكسر من حدة نشاطه مطاردته ، ولم ينل من شدة عرامه مناضلته .

كان ذلك الطرد بفرس ذى ميمة ونشاط لا يسلم كاثبته مؤخره ، ولا تخذل مؤخره كاثبته ، فأجزأوه يسند بعضها بعضا .

النقد :

بدأ زهير وصفه بطريقته في الصيد ، فهو لا يخادع لأن فرسه كريم يقيد الأوبد ،
ثم وصف خروجهم ، وفي هذا الوصف صور غلامهم تصويراً ناطقاً ، فهو يدب ديباً ،
ويخفي شخصه إخفاءً ، ويضائل جسمه ضئلاً ، وهو مصور بارع ، فذلك شأن كل من
يريد أن ينال شيئاً على غرة ، ويدركه في غفلة . ولكنه لا يتفق مع البيت الأول ، إلا إذا
قيل : إن الفارس لا يخاتل ، ولكن غلامه يخاتلون ، وهو عذر واه ، فالغلمان يأتمرون
بما يؤمرون ، ثم وصف المكان أدق وصف ، وفي وصفه إياه إغراء بالصيد ، فالشيء
في مرعى خصب ، فهي من غير شك سمينة غير مترهلة ، على أنه أكد هذا المعنى في البيت
الثاني إذ يقول :

ثلاث كأقواس السراء ، وناشط قد اخضرّ من لسّ الغمير جحافله

ثم سار في وصف الناشط ، فقال :

إنه قد فرق الطراد عنه صفاره ، وحرموه جحاشه ، فلم يبق إلا هو وأتفه ، وأخذ
يشاور أميره ، والأمير يؤامر غلامه في صيده ، أيجاتلونه أم يجاهرونه ؟ ويظهر أن الغلام
رأياً غير رأى الأمير ، فالأمير من طبعه أنه إذا رأى صيدا مرة ، فإنه لا يجاتله ، ووصف بعد
التشاور فرسه القوى النشط بأنه لا يسكن من حدته ، ولا يهدأ لشدته ، فقال :

فَبِتْنَا عُرَاةً عِنْدَ رَأْسِ جَوَادِنَا يَزَاوِلُنَا عَنْ نَفْسِهِ وَنَزَاوِلُهُ
فَنَضْرِبُهُ حَتَّى اطْمَأَنَّ قَدَالُهُ وَلَمْ يَطْمِئَنَّ قَلْبُهُ وَخَصَائِلُهُ

وتلك صورة لما بين الفارس والفرس أتمها بأن الفرس مع أنه قد اطمأن قذاله
إلا أن سائسه أقصر من أن يبلغ قذاله ، فهو لا يلجمه إلا إذا وقف فوق أنامله ، ثم وصف
بعدئذ الصيد ، والحديث الذي جرى بينه وبين الغلام ، وهذا الحديث يؤيد التناقض
الذي وقع فيه زهير في أول بيت من أبيات الوصف ، فوصاته هي :

وَقُلْتُ : تَعْلَمُ أَنَّ لِلصَّيْدِ غِرَّةً وَإِلَّا تَضِيعُهَا فَإِنَّكَ قَاتِلُهُ

ثم وصف الطراد ، فوصف الغلام وصفا يدل على قوته ، وينبئ عن مُنته ، وصوره صورة
تمّ عن حنكته وحكمته ، فهو يندفع على الشياخ : كشوئوب غيثٍ يحضن الأكَمَ وإبله ،
وأحكم وصف المطاردة ، فالشياخ تثير التراب في وجه الفرس ، وهو لاحق لها ، فتؤخرناه
تلحق مقدمتيه أو أواخره - يقصد الرجلين والعجز - تلحق أوائله يعنى اليدين والصدر .
وأدرك الغلام ما كان يرجو فقد أبلغه حصانه غايته :

فردّ علينا العَيْرَ مِنْ دُونِ إِيَّاهِ عَلَى رَغْمِهِ يَدْعَى نَسَاءَهُ وَفَائِلَهُ
وَرُحْنًا بِهِ يَنْضُو الْجِيَادَ عَشِيَّةً مَخْضَبَةً أَرْسَاغُهُ وَحَوَامِلُهُ

في هذه الأبيات جمال مبعثه حسن التصوير ، وروعة التعبير ، فقفافية الأبيات ذات جرس
موسيقى صاف هادئ ، ولكن أيناسب هذا الهدوء الصيد والطرْد ؟ إنه يناسب لأن
الخطاة التي نفاها في أول بيت هي التي اعتمد عليها في الصيد ، وترى هذا الجال في تلك
الدقة في تصويره « يدب ، ويخفي شخصه ، ويضائله » لم يكتف بالدبيب ، ولم يكتف به
مع إخفاء شخصه بل لابد من تمام الصورة بالمضائلة ، كما تراه في قوله :

ثلاث كأقواسِ السَّراءِ ، ونَاشِطٌ قَدْ اخْضَرَ مِنْ أَسِّ الْغَمِيرِ جِحَافُهُ

ثلاث متشابهات ، وواحد منفرد بصورة ، فلا بد أن يصفه ، فهو لا يقيم في بلد ، وهو
كثير الرعى ؛ حتى قد اخضرت جحافله من أكله بمقدم فمه ؛ وذلك لأنه لا يستقر
عند ما يأكل .

٢ — وقال امرؤ القيس * يصف حرباً ناشبة بين عقاب وذئب :

كأنها حينَ فاضَ الماءَ واختَمَكَ فتخاهَ لآحَ لها بالفقرِ الذَّيبُ^(١)
فأبصرتَ شَخَصَه مِن فوقِ مَرَقَبَةٍ ودُونَ مَوقِعِها مِنْهُ شِناخِيبُ^(٢)
فأقبلتَ نحوهَ في الجِوِّ كاسِرَةً يَمَحُّها مِنْ هُوىِّ اللوحِ تَصَوِيبُ^(٣)
صَبَّتْ عليه ولم تَنصَبْ مِنْ أُمِّهِ إِنَّ الشَّقَاءَ عَلَى الْأَشَقِينَ مَصِيبُ^(٤)
٣٧٢ : كالدَّلو بُتَّتْ عَراها ، وهى مُثْقَلَةٌ إِذْ خانَها وَذَمَّ مِنْها وَتَكْرِيبُ^(٥)

* تَرْجُمةُ الشَّاعِرِ : انظر ترجمته في وصف الفرس ص ١٠٩ .

التفسير اللغوي : (١) كأنها : الضمير يعود على الفرس التي كان يصفها قبل بقوله :

واليدُ سايحةٌ ، والرجلُ ضارحةٌ والعينُ قاذحةٌ ؛ واللنُ ملحوبُ
والماءُ منهمرٌ ، والشَّدُّ منحدِرٌ والقَصْبُ مضطمرٌ ، واللونُ غريبُ

الاحتمال : الانتقال . فتخاه : لينة الجناحين عريضتهما ، وهى وصف للعقاب قال الشاعر :

كأني بفتخاءِ الجناحينِ لِقوَّةِ دَفُوفٍ مِنَ الْعِقْبَانِ طَاطَأَتْ شِمَالِي

وفي رواية : « واحتفلت صقعاء » في رأسها بياض .

(٢) المرقبة : المكان المرتفع يعلوه الرقيب . الشناخيب : مفرداها : شنخاب أو شنخوب

أعلى الجبل ، وأعلى الكاهل ، وفقر الظهر ، والأول هو المراد .

(٣) كاسرة : منقضة تكسر جناحها ، أو تكسر ما تصيده كسرا . يحثها : يدفعها .

هوى : سقوط . اللوح : بضم اللام الهواء بين السماء والأرض . تصويب : انحدار .

(٤) صبت عليه . اندفعت إليه . من أمم ، من قرب .

(٥) بتت عراها : قطعت مقابضها ، وهى جمع عروة . مثقلة : ممتلئة ثقيلة . الوزم :

سيور بين آذان الدلو ، ويجمع على وذوم ، وأودام ، وأوزم . التكريب : جعل الكرب وهو

الحبل في الدلو .

لا كالتى فى هواء الجو طالبه^(٦) ولا كهذا الذى فى الأرض مطلوب^(٧)
 كالبرق والريح مرآتها عجب^(٨) ما فى اجتهد على الإصرار تعقيب^(٩)
 فأذكر كنهه ، فنالتة محالها^(١٠) فأنسل من تحتها ، والدف مثقوب^(١١)
 يلوذ بالصخر منها بعد ما فترت^(١٢) منها ومنه على الصخر الشايب^(١٣)
 ثم استغاثت بمتن الأرض تعفره^(١٤) وباللسان وبالشدقين تتريب^(١٥)
 ما أخطأته المنايا قيس أمثلة^(١٦) ولا تحرز إلا وهو مكتوب^(١٧)
 ٣٧٩ : يظل منججرا منها يراقبها^(١٨) ويرقب الليل إن الليل محبوب^(١٩)

(٦) كالتى فى هواء الجو : كناية عن العقاب . طالبة : باغية صيدا وحربا . كهذا : اسم الإشارة عائد على الذيب . مطلوب : مرغوب صيده . رويت هذه الأبيات لامرئ القيس رواها الجوهري ، ووهه ابن بزي ، وزعمها إبراهيم بن عمران الأنصارى ، ولكن صاحب كتاب شعراء النصرانية نسب بعضها لامرئ القيس .

(٧) كالبرق : يقصد العقاب . الريح : يقصد الذئب ، وهو يكتفى عن وصفهما بالسرعة فى الطيران والإرخاء . مرآتها تثنية مرآة بمعنى منظراها . عجب . عجب غريب . الإصرار . التصميم . التغيب : التقصير . وفى حديث هشام : كتب إليه يغيب عن هلاك المسلمين أى لم يخبره بكثرة من قتل منهم مأخوذ من الغب الورد ، فاستعاره لموضع التقصير فى الإعلام بكنه الأمر . (٨) محالها : جمع غلب أظفارها . فأنسل : فنزع نفسه برفق . الدف مثقوب : الجنب منقوب . (٩) يلوذ : يلجأ ويحتوى . فترت : تراخت . منها ومنه : من العقاب ومن الذئب : الشايب : جمع شؤبوب : يريد شدة اندفاع كل منهما .

(١٠) استغاثت : استعانت ، والضمير يعود على العقاب ، وهى رواية الحيوان تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، ولعلها استغاثت ليعود الضمير على الذئب فهو المغلوب المحتاج إلى العون ، وهو أقدر على إثارة الغر ، والشطر الأخير من البيت يؤكد هذا ، تريب : تراكم التراب فوق الشيء . (١١) المنايا : جمع منية ، وهى الموت . قيس : مثل قيد يعنى قدر أمثلة ، والأمثلة : رأس الأصبع . تحرز : تحصن . مكتوب : مكرور عليه ، مهجوم نحوه من كتب إذا كر . (١٢) يظل : يبقى طوال يومه . منججرا . محتبثا فى الجحر . يراقبها : يلاحظها . يرقب الليل : ينتظره . محبوب : مرغوب فيه لأنه منقذ له .

تحليل الأبيات :

سواء أحمّت هذه الأبيات لامرئ القيس أم لم تصح فإنها شعر جاهلي ، وإن كنا نكاد نشق أنها لامرئ القيس ، فإن روحه ظاهر فيها ، فهو أقدر من سواه على وصف مثل هذا المنظر لكثرة ما شاهد في الصحارى ، ولأن في الأبيات كثيرا من خصائصه التي تبدو في تسلسل الصور ، وتنوع التشبيهات والكنيات ، وجمال التقسيم .

وصف فرسه بأنها عند انهمار الماء ، وانحدار الشد ، وانضمام الحصر ، ولحوب المتن كالعقاب ظهر لها في الأرض القفر ذئب ، ثم تأكد رؤيتها إياه بعد أن تأملت من قفة لا يحجب الناظر منها حاجب ، ولكنَّ بينها وبينه ربا ونجادا ، فلم تحش قطعها ، بل أقبلت نحوه منقضة ، تكسر في انقضاضها إليه جناحيها ليشتد طيرانها ، يُضاعف هويها في ذلك الجو أنها تنقضَّ منحدرة ، اندفعت إليه من مكان بعيد ، وهوت عليه من مرقب سحيق ؛ لتنزل عليه سخطها ، وتنشب فيه مخالبها ، فما أشقاء ! إن الشقاء ليفد عليه من حيث يدرى ولا يدرى ، وحقا : « إن الشقاء على الأشقيين مصبوب » أو « إن الشقي بالشقاء مولع » .

هوت عليه قوية دافقة ، وانصبت نحوه عازمة عارمة ، كأنها الدلو المثقلة بالماء قد انبقت عراها ، وخانها وذمها وتكرهها ، فسقطت كجلود الصخر ، ليس كهذه التي تهوى من الجو تطلب صيدا في قوتها وعراها طالب ، ولا كذلك الذي يرعى فوق الأرض خوف ذلك الطالب مطلوب .

ما أشبه الطالب والمطلوب بالبرق والريح ، فالريح يعصف من ورائه البرق يلعب ، فنظرهما عجيب ومرآتهما غريبة ، إذ كلاهما يصير على الاجتهاد دون تقصير فيه ، ويعزم على أمر لا يحيد عنه ، هي تعزم على الفتك ، وهو يصير على الخلاص منها ، فإلى عزميهما تغيب . ولكنها أنفذت إصرارها ، وأدركت ما عزمته عليه ، فنالته مخالبها ، وأنشبت فيه أظافيرها ، ولكنه استطاع أن ينسل من تحتها ، وأن يتخلص من برائتها ، وقد نقب جنبه ، ونقب دَفّه ، وأخذ يلجأ إلى الصخور يختبئ تحتها ليحتمى بها منها ، وكان الصراع

قد ثبط من همتيهما ، والنضال قد أوهى من قوتيهما ، فانتقل الهجوم والدفاع ، والسكر والفر فوق ذلك الصخر الذى لجأ إليه ، ولاذ به ، فلبجأ إلى غير الصخر ، فاستعان بمتن الأرض يثير غباره ، ويهيج غفره ليحجب بذلك التراب عن العقاب شخصه ، فترب لسانه وشذقيه ، دون أن تخطئه المنايا ، أو يغلط الموت فى معرفة مكانه ، لم يخطئ الموت قيد أكلة ، ولا نفعه التحرز والتحصن وهى كارة عليه ، مندفعة إليه ، فهو يظل يومه مخفيا فى الأججار ، مخبئاً بين الصخور ، مترقباً الليل المحبوب ليحميه من ذلك العدو الجبار .

النقر :

وقفت العقاب على إرم ، فرأت الذئب بينها وبينه قمم الجبال والربا والنجاد ، فاندفعت إليه تهوى « يحثها من هوى اللوح تصويب » تلك أول الصور التى رسمها امرؤ القيس فى هذه الأبيات .

انصبت عليه كما تسقط الدلو المفعمة بالماء قد انبئت عراها ، وخانها وذمها وتكريها ، وهذه صورة أخرى ، وأجل من هاتين الصورتين تشبيههما بالبرق والريح ، وحقا إن مرآتاها عجب ، وبلوغ هذه الصورة وتكوينها فى كلمتين أغرب وأعجب ؛ ووصف الحركة ، وأن العقاب قد أنشبت فى الذئب مخالبها ، وأنه ينسل من تحتها منقوب الجنب لائذا بالصخر ، وصف بلغ القمة فى تصوير الحقيقة ، وصدق الوصف .

إنك واجد فى هذه الأبيات صوراً خلاصة متسقة ، كما أنك واجد فى هذه الصور حياة دفاقة ، وأى صورة تتدفق بالحياة أوضح من هذه :

فأدر كته ، فنالتـــــــــــــــــه مخالبها فأنسل من تحتها ، والدف منقوب
يلوذ بالصخر منها بعد ما فترت منها ومنه على الصخر الشايب

أدر كته ، تصور عدوها وملاحقتها إياه ، فنالتة مخالبها ، تصور قبضها عليه وإنشاب مخالبها فيه ، فأنسل من تحتها ، تصور محاولته الإفلات من مخالبها حتى استطاعه ، والدف منقوب

تصور الحال التي أفلت عليها ، يلوذ بالصخر ، تصور اختباءه بين الصخور ، بعد فتورها ،
وخود تدافعهما .

أما جمال الأسلوب فيبدو في أكثر الأبيات بل في جميعها ، فمن الجمال الفنان قوله :

صبت عليه ، ولم تنصب من أمم إن الشقاء على الأشقين مصبوب

يعجبك دون شك هذا الطباق السلي ، كما يعجبك ذلك الاحتراس في قوله من أمم .
أما الحكمة ، فهي أخلد الحكم « إن الشقاء على الأشقين مصبوب » وأجل ما فيها كلمة
مصبوب ، لأنها توحى باندفاع الشقاء إليه ، وسقوط البلاء عليه ، ومن جمال الأسلوب
قوله :

كالبرق والريح مرآتاها عجب ما في اجتهد على الإصرار تغيب

وبعد فالأبيات جميلة من جميع النواحي ، وكلما زدتها تأملا زدت شعورا بجمالها .



٣ — وقال عبيد بن الأبرص * يصف العقاب تصيد ثعلبا :

كأنَّهَا لَقَوَّةٌ طَلُوبٌ تَيْبَسُ فِي وَكْرِهَا الْقُلُوبُ^(١)
 بَاتَتْ عَلَى إِرْمٍ عَذُوبَا كَأَنَّهَا شَيْخَةٌ رَقُوبُ^(٢)
 فَأَصْبَحَتْ فِي غَدَاةٍ قُرٌّ يَسْقُطُ عَنْ رِيشِهَا الضَّرِيبُ^(٣)
 فَأَنْصَرَتْ ثَعْلَبًا سَرِيعًا وَدُونَهُ سَبَبٌ جَدِيدُ^(٤)
 فَنَفَضَتْ رِيشَهَا وَوَلَّتْ وَهِيَ مِنْ نَهْضَةٍ قَرِيبُ^(٥)
 ٣٨٥ : فَاشْتَالَ وَارْتَاعَ مِنْ حَسِيدِسٍ وَفَعَلَهُ يَفْعَلُ الْمَذُوبُ^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو عبيد بن الأبرص بن حنتم بن مالك بن زهير الأسدي أحد خول الشعر في العصر الجاهلي ، ويقال : إنه لم يكن يقول الشعر إلى أن هجاء وهجا أخته شاعر ، فرفع يديه إلى السماء مبتهلا ، وهو يقول : اللهم إن كان فلان ظلمي ورماني بالهتان ، فأدلى منه ، وانصرني عليه ، ثم نام ، فأناه آت في المنام بكبة من شعر ، وألقاها في فمه ، فقام وهو يرتجز هجاء في خصمه ، وقد مات قتيلًا ، قتله المنذر بن ماء السماء سنة ٦٠٥ م .

التفسير اللغوي : (١) كأنها : الضمير يعود على الفرس التي كان يصفها في الأبيات السابقة . اللقوة : العقاب ؛ سميت بذلك لأنها سريعة التلقي لما يطلب . طلوب : كثيرة الطلب ، تيبس : تجف من الخوف والفرع . القلوب : يعني قلوب الطير في أوكارها عند سماع حفيف جناحها .

(٢) الإرم : العلم من الأرض ، العذوب : التي لا تأكل شيئا ولا تشرب ماء . الشيخة : المعجوز . الرقوب : التي لا يبقى لها ولد .

(٣) القر . البرد . الضريب : الجليد .

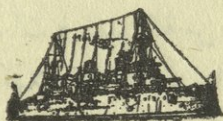
(٤) دونه : أمامه . سبب جديد : فلاة قاحلة مجدبة .

(٥) نفضت : حركت وهزت . ولت : طارت مبعدة . هي من نهضة : من طيران .

(٦) اشتال : رفع ذنبه . ارتاع : فزع . حسييس : صوت . المذوب والمزود : الخائف

الفرع .

- فنهضتْ نَحْوَهُ حَثِيثًا وحرَدَتْ حَرْدَهُ تَسِيبُ^(٧)
 فَدَبَ مِنْ خَلْفِهَا دَيْبًا والعَيْنُ حِمْلَاقُهَا مَقْلُوبُ^(٨)
 فَأَدْرَكَتْهُ فَطْرَحَتْهُ والصَّيْدُ مِنْ تَحْتِهَا مَكْرُوبُ^(٩)
 فَجَدَلَتْهُ فَطْرَحَتْهُ فَكَدَحَتْ وَجْهَهُ الْجَبُوبُ^(١٠)
 يَضْفُو وَخَلْبِهَا فِي دَفِّهِ لَا بُدَّ حِزْوُمُهَا مَنَقُوبُ^(١١) : ٣٩٠



- (٧) حثيثا : سريعة . حرَدَتْ : قصَدَتْ . تسيب : تنساب على الرمل .
 (٨) فدب : فسار في خفاء وحذر . الحِمْلَاق : باطن الجفن أو عروق العين .
 (٩) فطرحته : فرمته . الصيد : يقصد الثعلب . مكروب : مصاب بالكرب والشدة .
 (١٠) جدلته : فقتلته ، وأصله طرحته بالجدالة وهي الأرض . فكدحت : فخدشت .
 الجبوب : الأرض الصلبة .
 (١١) يصفو : يصيح . مخلبها : ظفرها . دفه : جنبه . حيزومها : صدرها .

تحليل الأبيات :

شرع عبيد يصف فرسه ، فلم يطل ؛ إذ لم يتجاوز في وصفه إياها هذه الأبيات :

فذاك عصرٌ وقد أراني تحملي نهدةً سُحوبُ
مُضَبَّرٌ خلَقها تَضِيرًا ينشَقُّ عن وَجْهِها السَّبِيبُ
زَيْتِيَّةٌ نائمٌ عَروَقها وَلَيْنُ أُمْرِها رَطِيبُ

ثم انتقل إلى تشبيه فرسه في شدة عدوها ، وسرعة شدها بعقاب خفيفة ، سريعة التلقى لما تطلب ، إذا أبصرتها الطيور في أوكارها أدركها حينها ، وبلغها حتفها ؛ إذ تيسر قلبها الرطبة ، وتنفج أفئدتها الطرية ، لأن الدماء لا تجرى فيها ، وذلك لكثرة ما تصيد منها .

قد باتت هذه العقاب فوق رابية عالية ، ومراقبة مرتفعة ، وإرم مستطيل ، عذوبا عن الأكل ، عزوفا عن الطعام ، كأنها شيخة مجوز ، بلغ منها اليأس كل مبلغ ، فلا رجاء لها في عقب ، فقد أدركتها سن الإياس ، لقد تكلت تلك الشيخة وليدها ، وأصابها الدهر في وحيدها ، فلم يقر لها في ليلها الأطول قرار ، ولا مس جفניה مجموع ، فأصبحت مبكرة في جو بارد ، وبرد قارس ، تجمد له الماء ، فصار جليدا متساقطا عن ريشها .

وإذ هي على تلك الحال من انقباض النفس وجود الحس ، أبصرت ثعلبا يستحث قوائمه ، وبينه وبينها فلاة قاحلة ، ومفازة مجدبة ، فنسيت ما كانت فيه من انقباض وخمود ، ونفضت ريشها نفضا ، ووثبت وثبة قوية ، إذ رأت الصيد مواتيا ، وطارت تجاهه ، فأصبح منها جد قريب ، فشال ذنبه لهم بالفرار ، بعد أن أفعم قلبه بالارتياح والفرح من ذلك الزيف المفاجئ ، والصوت المبالغ ، وصنع ما يصنع الخائف المذدوب ، والفرع المزود ، فأقبلت عليه مسرعة حثيثة ، وانسابت إليه انسياب الماء الدافق ، فتحول من خلفها حذرا ينظر إليها شزرا . ليتبين ما قدهم به ، فكان حلاق عينه مقلوب ؛ لأنه ينظر في اتجاه العقاب .

ولكن هذا الديب الخفى لم ينفعه ، والدوران من حولها لم يجده شيئا ، والتوجس والحذر لم يدفع عنه قضاء ، فقد أدركته فطرحته على الأرض ، وهى من فوقه جاثمة ، وهو من تحتها فى كرب وقنوط ، فقتلته بعد أن طرحته بالجدالة لا يقوى على دفاع ، ولا ينهض بمقاومة ، وخدشت وجهه بمخالبها الحادة ، وبالأرض الصلبة التى رمته فوقها ، وأخذ قبل أن يودى به يصيح ، وكأنه يتضرع ويستغيث فمخالبها فى جنبه تنقبه ، وأظفارها فى صفحته تنقبها ، ولكن من ذا يستمع للضراعة ، وأنى يجد للغيث ؟ وأعياء الصباح ، فقد نبت عن صدره ، فثلث به أسوأ تمثيل .

النقد :

فى هذه الأبيات دقة وصف ، وجودة تصوير ، وعلم بطبائع جوارح الطير ، فهى تبدو ساكنة هادئة ؛ حتى إذا أتاحت لها الفرصة فريسة نفضت عنها غبار الهمود ، وخلعت ريش الهدوء ، ونهضت فى وثبة المرح الشيط ، وليس كل إنسان يعرف ذلك الطبع فى العقبان ، وإعما يعرفه رجل البيداء ، وأخو الصحراء .

كما أجاد الشاعر تسلسل العرض ، وأبدع فى تصوير خطوات كل من العقاب والثعلب ؛ فالعقاب ينهض طائرا ، ويشند فى الطيران ، ويقف على مرقبة من الثعلب ، وكأنه يرسم طريق الهجوم عليه ، ويراها الثعلب فيدبر لنفسه مخلصا ، ويقدر له منفذا فيهم بالفرار ، فيفر ، يتلفت ذات اليمين وذات الشمال .

ولكنها وقد قاست الطرق إليه ، وقدرت أقربها نحوه ، تنساب انسياب الأنفى فتدركه فتطرحه فتجدله ، فتنبج جنبه وصدره .

صور حية ، وتمثيلية كاملة لا ينقصها منظر ؛ ولا تحتاج إلى مزيد ، كل ذلك فى أسلوب متسق ، فبعض الألفاظ يصور معانيه ، ويشعر باختيار الشاعر إياها ، فبسبب أفضل من غيرها من الألفاظ الدالة على الصحارى ، ويظهر أنه أثر الإكثار من بعض الحروف لتلائم

الموقف من هذه الحروف السين والباء ، فتيس ، ويسقط ، سريعا ، وتسيب وحسيس كلها ألفاظ مقصودة لنداتها، ومن الألفاظ الموحية بالمعاني: فاشتال وارتاع فإن زيادة التاء في الفعلين تشعرك باشتداد اشتياله ، وقوة ارتياعه .

والذى لانكاد نستريح إليه البحر الذى اختاره عبيد لقصيدته ، ويشاركنا فى نظرنا إلى ذلك البحر المضطرب الأمواج ، المختل الأوزان أبو العلاء المعرى ، فيقول :

وقد يخطئ الرأى امرؤ وهو حازم كما اختل فى وزن القريض عبيد
على أن مما يغفر له هذا الاضطراب أنه كان ذا نفس شاعرة ، وإن لم تكن وازنة ؛
فالشعر كما قدمنا فى أول هذه الفصول إثارة الشعور ، وإهاجة الوجدان ، لا ترتيب الألفاظ ،
وتنسيق الأوزان .



٤ — وقال زهير* يصف صقرا يطارد قطاة :

كأنها من قطا الأجبابِ حانَ لها ورَدُّ وأفردَ عنها أختها الشَّبَبُ^(١)
 جُونَيْةٌ ، كحصاةِ القسمِ مرتعها بالسَّيِّ ما يُنْدِتُ القَفْعاءَ والحَسَكُ^(٢)
 أهوى لها أسفعُ الحَدَيْنِ مُطَرِّقُ^(٣) ريشَ القوادِمِ لم يُنْصَبْ له الشَّرْكُ^(٤)
 لا شئَ أجودُ منها وهى طيِّبةٌ^(٥) نفساً بما سَوَفَ يُنْجِيها وتتركُ^(٦)
 دون السَّماءِ وفوق الأرضِ قدرُها عندَ الذَّنابَى فلا فوتٌ ولا دَرَكُ^(٧)
 عندَ الذَّنابَى لها صَوْتُ وَأَزْمَلَةٌ يكادُ يَخْطِفُها طُورًا وتَهْتَلِكُ^(٨)
 حتَّى إذا ما هوت كفُّ الغلامِ لها طارتُ وفي كفِّه من ريشِها بَتْكُ^(٩)

* ترجمته الشاعر : تقدمت في وصف الناقة ص ٨٨ .

التفسير المفرد : (١) كأنها : الضمير يعود على الفرس في الآيات قبل ، إذ يقول :

وصاحي ورده نهـد مراكلها جرداء لا فحج فيها ولا صكك
 الأجباب : جمع جب مواضع الآبار . حان لها . ظهر لها . ورد : الورد القوم يردون
 الماء ، أو هو ورود الماء ، وهو أنسب . (٢) القطا : الجنوى والكدرى . وفي كليهما
 سواد ، والفظاط غيرهما ، أو هو ما اسود جانب أجنحته وطالت أرجله ، واغربت ظهوره غبرة
 ليست بالشديدة ، وعظمت عيونه . حصاة القسم : الحصاة التي يقسم عليها الماء إذا قل مع
 المسافرين ، فيصبون عليها الماء حتى يغطيها ولا تكون إلا ملساء مجتمعة ، ولذلك تشبه القطاة
 بها في شدتها واجتماع خلقها . السى : ما استوى من الأرض . القفعاء : بقلة ذات نور أحمر .
 الحسك : ثمر النفل تشبه القث ولها نور أصفر . (٣) أهوى : اقض . أسفع الحدين :
 أسمر الحدين يشوبهما حمرة . مطرق : مجتمع الريش . القوادِم : ريش مقدم الجناح ، وهو ريش
 كبير . لم ينصب له الشرك : كناية عن أنه وحشى لم يؤخذ ولم يذل . (٤) أجود : أسرع .
 طيبة نفسا : راضية مطمئنة . تترك : تترك وتدع . (٥) دون السماء : تحت السماء .
 الذنابى : الذنب . فلا فوت : فلا بعد عن الصقر . ولا درك . ولا لحاق منه لها .
 (٦) عند الذنابى : عند الذنب . لها صوت وأزملة : لها صوت مختلط مضطرب من الفزع .
 تهتك : تجتهد في الإسراع . (٧) هوت : سقطت . بتك : قطع وزنا ومعنى .

- ثم استمرت إلى الوادى فألجأها منه وقد طمِعَ الأظفارُ والحَفَكُ^(٨)
 حتى استغاثتِ بماء لا رِشاءَ له من الأباطِيحِ فى حافاتِهِ البرَكِ^(٩)
 مَكَلَّلٍ بأصولِ النَجْمِ تَنسِجُهُ رِيحٌ خَرِيقٌ لُضاحِي مائِهِ حُبُكُ^(١٠)
 كما استغاثتِ بِسَيِّ فَرْ غَيْطَلَةٍ خافَ العيونَ فلم يُنْظَرْ به الحَشَكُ^(١١)
 ٤٠٢: فزَلَّ عنها ، وأوفى رأسَ مَرْقَبَةٍ كَمُنْصِبِ العِترِ دَمَى رأسِهِ النُّسْكُ^(١٢)



- (٨) استمرت : أى فى الطير والحرب . فألجأها : غمّلها على الوادى خوفها منه ، لأن بالوادى شجرا يمكن أن تختفى فيه . الأظفار : الخالب . الحنك . المنقار .
 (٩) استغاثت : استعانت والتجأت . لا رِشاءَ له : لا حبل ينزح به الماء ، وفيه كناية عن أنه ز . الأباطيح : جمع أبطح ، الأرض المستوية . فى حافاتِهِ : على شواطئهِ . البرك : جمع بركة وهى طيور من طيور الماء ، أو هى الضفادع .
 (١٠) مكلل : محيط به النبات كالإكليل . النجم : النبات الذى يقال له التيل ، قيل : إنه لا ينبت إلا على ماء ، أو فى موضع تحته ماء . ريح خريق : ريح شديدة . لُضاحِي مائِهِ : لبارز مائِهِ . الحبك : طرائق ، مفردا حبيك .
 (١١) السي : اللبن الذى فى الضرع قبل أن يدر . الفز : ولد البقرة . الغيطة : الشجر الملتف أو البقرة وهو المراد . خاف العيون : خاف الناس وخشيم . الحشك : احتفال الضرع باللبن .
 (١٢) فزل عنها : فسقط الصقر عن القطة . أوفى : بلغ . المرقبة : المكان المرتفع ينظر منه الرقيب . المنصب : الحجر يعثر عليه . العتر : والعيرة الديبحة تذبج تعبدا ونسكا . أو العتر الصم . دمى : أسال دمه . النسك : جمع نسيكة ما يذبح عليه .

تحليل الأبيات :

كأن فرسى تلك من قطا أرض ذات عيون وآبار ، فيفد عليها الواردون ، فهي منهم حذرة وجلّة ، ولا سياً وقد قنص أختها شبك الصائد ، وحباله القانص ، تلك القطاة جونية الشكل ، مستوية الخلق ، فظهرها أكدر ، وباطن جناحيها أسود ، وریش حلقةا أصفر ، واستواء خلقها يحكى استواء حصاة القسم ، يتقاسم عليها السفر ماءهم ، وقد أوشك أن ينفد ، وهي تحيا فى خصب ، وتعيش فى رتاع ، فلها فى سيات نوعان من الغذاء : بقلة من أحرار البقل ، وثمرّة من ثمر النّقل .

وإذ هي سعيدة بوطنها ، متمتعة برغد عيشها انقض عليها صقر ذو خدين أسفعين ؛ أشربت حرتهما بسواد ، وانضم ريش قوادمه بعضه على بعض ، وهو صقر كاسر ، لم يذله قانص ، ولا قنصه آسر ، فهو قوى خفيف .

وبدأت المطاردة ، فليس أجود من القطاة سرعة ، وهي ليقينها بسرعة طيرانها طيبة النفس ، مطمئة الفؤاد ، غالبة أن جناحيها سيهيات لها النجاة ، فهي تترك بعض ما تستطيعه ؛ لقد حلقا فى الجو ، بين السماء والأرض ، فهي أمامه ، وهو من خلفها ، يكاد يبلغ ذنبا ، فلا هو يدركها ، ولا هي تفوته ، وحينما تركت طيرانها أهوت إليها كف الغلام لتقبض عليها ، فاستجمعت قوتها ، وتخلصت من كفه ، وقد بقى فيها قطع من ريشها ، حتى بلغت الوادى ذا الشجر ، فهي تقدر على الاختفاء فى أغصانه ، أو الاختباء بين جذوعه وأفنائه ، بعد أن طمع ظفره فى القنص ، ومنقاره فى الخمش والنقر ، ولم تزل تجتهد فى الطيران ؛ حتى استغاثت بماء نجل يجرى على سطح الأرض ، فليس له غور ، ولا يحتاج إلى رشاء ينزح به ، لأنه فى أبطح مستو يتجمع حول حافاته البرك ، هذا الماء يكمله النجم ، وتحوطه أصول النبات الذى لاسوق له ، فإذا مرت به ريح الشمال الشديدة جعلت فى ظاهر ذلك الماء طرائق وأمواجا كأنها أجزاء النسيم ، وكانت استغاثتها بذلك الماء كاستغاثة ولد البقرة بالضرع الذى لم يحتفل بعد باللبن ، وهو يخاف أن ينظره الراعى ، فلا يدعه يشرب حتى ذلك السبى .

قد أجهد الصقر ، واختفت عن عينيه القطة ، فسقط عن مطارقتها مرغما ، ولكنه وقف فوق مرقبة ينتظر أن تبدوله مرة أخرى كحجر العتر الذي يدعى رأسه بدم ذلك العتر .

النقر .

يمتاز زهير بتصوير كثير من مناظر البيئة العربية الدقيقة ، وبرسم عديداً من عادات العرب التي لا ترد على خواطر أكثر الشعراء ، ولعل مصدر هذا أمران : أولهما تجويد شعره ، فذلك التجويد يبعث على التأمل الطويل ، والتدبر فيما يقول ، والآخر طول عمره ، واستمداده حكمته من حياته وحياة أمته ، انظر إلى قوله يصف القطة باستواء الخلق ، واملاس الظهر :

جونية كحصاة القسم مرتعها بالسبي ماتنتب القفعاء والحسك
لقد ذكر لنا عادة من عادات العرب في أسفارهم ورحلاتهم ، هي قسمهم الماء بينهم ، وذكر هذه العادة يوحى إلينا بقلّة الماء في بلاد العرب ، وقلة الماء يتبعها قلة العشب ، وندرّة النبات ، ولكنه في هذا البيت بالذات أشعرنا أن من بلاد العرب أرضاً ذات مراعي خصبة ، ومزارع نظرة .

ثم هذه صورة أخرى من الصور الجميلة التي تستطيع أن ترسم منها مصوراً لجزء من بلاد العرب دون أن تخاف الخطأ أو توصف بالتجاوز في الرسم ، تلك هي :

حتى استغاثت بماء لارشاء له من الأباطح في حافاته البرك
مكلل بأصول النجم تنسجه ريح خريق لضاحي مائه حبك
وصف الماء الذي استغاثت القطة به بأنه لا يحتاج إلى رشاء ؛ وإذن فهو نجل وأنه ينزّ في أرض مستوية ؛ ليس فيها أغوار ؛ وأن على حافاته ذلك الطير الأبيض من طيور الماء ؛ أو الضفادع وهو أنسب في هذا المقام ، ثم إن النبات الصغير يلف ذلك الماء ويجوّه ، وقد تنسج الريح فوق الماء الظاهر طرائق وحبكا .

ثم هذه النظرة الدينية التي صوّر لنا فيها إحدى عاداتهم في عبادتهم ، وهي الذبح في شهر رجب للأصنام تنسكا وتعبداً ، وتلك النظرة في قوله :

فزّل عنها وأوفى رأس مرقبة كمنصب العتر دمي رأسه النسك
أما أسلوب زهير فهو الأسلوب المصفي الذي قل أن تجد فيه ما يعيبه ، فقد كان من عبيد الشعر ، فكيف يخون سيده ، أو يهمل شأن أميره ؟

هـ — وقال أبو ذؤيب الهذلي * يصف صيد الجمر الوحشية :

فوردن والعيقُ مَقْعِدُ رَائِي الضُّضْرَاءِ خَلْفَ النَّجْمِ لَا يَتَقَلَّعُ^(١)
فَشْرَعَنَ فِي حَجَرَاتٍ عَذْبٍ بَارِدٍ حَصْبِ الْبِطَاحِ تَعِيبُ فِيهِ الْأَكْرَعُ^(٢)
فَشَرِبَنَ ، ثُمَّ سَمِعَنَ حِسًّا دُونَهُ شَرَفُ الْحِجَابِ وَرَيْبُ قَرْنٍ يُقْرَعُ^(٣)
وَنَيْمَةً مِنْ قَانِصٍ مُتَلَبِّبٍ فِي كَفِّهِ جَشٌّ أَجَشُّ وَأَقْطَعُ^(٤)
٤٠٧ : فَفَكَرْنَهُ ، فَفَرَنْ فَا مَرَسَتْ لَهُ سَطْعَاءُ هَادِيَةٌ ، وَهَادٍ جُرْشَعُ^(٥)

* ترجمته الشاعر : أبو ذؤيب كنية اشتهر بها الشاعر ، واسمه خويلد بن خالد بن محرت الهذلي ، كان شاعراً خلا ، أدرك الإسلام فأسلم ، سئل حسان بن ثابت عن أشعر الناس ، فقال : حيا أم رجلا ؟ قال سائله : بل حيا ، فقال : حيا هذيل ، ورجلا أبو ذؤيب ، وهذه الأبيات من قصيدته التي يرثي بها بنيه الحمسة الذين اغتالهم الطاعون في عام واحد بعد أن صاروا رجالاً بأس ونجدة وأول القصيدة هو :

أمن المنون وريها تتوجع ؟ والدهر ليس بتعب من يحزع

التفسير المفرد : (١) فوردن : نون النسوة تعود على الجمر الوحشية . العيق : كوكب يظهر بإزاء الثريا . رايء الضرباء : الرابيء الرجل فوق الضرباء ينظر ما يفعلون ، والضرباء : جمع ضرب الضاربون بالقداح . لا يتقلع : لا يتقدم ولا يرتفع . (٢) فشرعن : ضمير النسوة يعود على الجمر ، فمددن أعناقهن ليشربن . الحجرات : النواحي ، مفردها حجرة . الحصب : الماء فيه الحصباء ، وهو أصفى ما يكون . البطاح : بطون الأودية ، مفرده أبطح . الأكراع : جمع كراع مستدق الساق ، ويريد أكرع الحمير . (٣) حسا : صوتا . دونه : بينه . شرف الحجاب : منقطع أرض الحرة ، وقيل : إنما يريد حجاب الصائد ؛ لأنه لا بد أن يستتر بشيء . ريب قرع : قرعا يرب ويفزع ، ويريد قرع القوس وصوت الوتر . (٤) نيمية : يريد نيمية القانص ، وهي ما نم عنه ، المتلب : المتقلد كمناته . الجش : القضيب من النبع تصنع منه القسي . الأجش : الغليظ الصوت . أقطع جمع قطع ، وهو النصل العريض القصير .

(٥) ففكرنه : فأنكرنه . فامترست له : فأقبلت عليه ولصقت به . السطعاء : الطويلة العنق . الهادية : المتقدمة . الجرشع : الغليظ الممتلئ الجنين .

- فرى ، فَأَنْقَذَ مِنْ نَجْوَدٍ نَائِطٍ سَهْمًا نَحْرًا ، وَرِيشَهُ مُتَصَمِّعٌ^(٦)
 فَبَدَأَ لَهُ أَقْرَابُ هَادٍ رَائِعًا عَنْهُ فَمِيتَ فِي الْكِنَانَةِ يَرْجِعُ^(٧)
 فرى ، فَأَلْحَقَ صَاعِدِيًّا مُطَجَّرًا بِالْكَشْحِ ، فَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْأَضْلَعُ^(٨)
 فَأَبْدَهْنَ حَتُوفَهُنَّ : فَهَارِبٌ بِذِمَائِهِ ، أَوْ بَارِكُ مُتَجَمِّعٌ^(٩)
 ٤١٣ : يَعْثُرْنَ فِي عَلَقِ النَّجِيعِ كَأَنَّمَا كُسِيتَ بِرُودَ بَنِي تَزِيدَ الْأَذْرُعُ^(١٠)



- (٦) النجود : العلة الطويلة . العائط : التي اعتاطت رحمها فبقيت أعواما لا تحمل .
 متصمغ : منضم بعضه فوق بعض من الدم المتجمد عليه .
 (٧) الأقرب : الخواصر ، والذي بدا له قرب واحد فجمعه بما حوله . رائعا : منصرفا
 مائلا . عيث : مديده إلى كنيانته ليأخذ سهما . يرجع : يمدده .
 (٨) الصاعدي : نسبة إلى بنات صعدة على غير قياس وهي الحمر الوحشية ، وقيل الأسهم ،
 والأول رأى اللسان . مطجرا : سهما بعيدا . الكشع : ما بين الحاصرة إلى الضلع من الخلف .
 (٩) فأبدهن حتوفهن : فأعطاهن حتفهن وهلاكهن . بذمائه : ببقية نفسه . المتجمع :
 الساقط على الأرض .
 (١٠) علق النجيع : متجمد الدم . بنو تزيد : بطن من قضاة تنسب إليه البرود .

تحليل الأبيات :

وردت الحر الوحشية الماء وكوكب العيوق يبدو خلف الثريا ، كما يظهر الرقيب خلف
 لاعبي الميسر ينظر ما يفعلون ، فإذا نهى قدح حفظه خشية التبديل ، ولا يكون العيوق كذلك
 إلا آخر الليل في شدة الحر ، فشرعت الحر تشرب من جميع نواحي الماء ، تشرب ماء عذبا
 خصرأ ، حصب البطاح ، جاريا ليس نجلا ، بل هو فياض تغيب فيه أكرع هذه الحر ،
 فما زلن يشربن هادئات هادئات ، حتى أزال هدوءهن ، وأفقدن هناءتهن ، صوت بينه
 وبينهن شرف مرتفع ، فهن لا يتبين مصدره ، فاشتد منه ريبهن ، وعظم فزعهن ، فهو يريب
 كما يريب قرع القوس أو صوت الوتر ، سمعن صوت وتر ذلك الصياد المتقلد كنانته ، المتلجب
 بأسهمه ونباله ، الحامل في يده قوسه ، وهو إلى كل هذا ذو صوت أجش ، ونصل
 عريض قصير .

فأنكرن هذا الصوت ، وكان إنكارهن له سبب نفورهن منه ، وبعدهن عنه ، وأخذ
 بعضهن يمترس بالآخر ، فتنضم السطعاء الطويلة العنق إلى الجرشع الغليظ الجنين ، كأنها
 تطلب حمايته ، ويمترسها هو كذلك ؛ كأنه يلتمس حمايتها .

وكان هذا الامتراس قد أضرَّ بهن ، فقد رمى الصياد سهمه ، فأنفذه في أتان عجلة طويلة ،
 قوية مكتنزة ، إذ لم تحمل ولم تلد فتهدى قوتها ، فسقط السهم المريش فيها ، وقد انضم ريشه
 وتجمع ، فكان أقتل وأفتك .

وظهر لذلك الصائد الماهر خاصرة حمار رائغ عن إخوانه ، منصرف عن رفاقه ، فأمال
 يده إلى كنانته يستخرج منها سهماً ليرمي به ذلك النافر الشارد ، ورمى فأدرك سهمه البعيد
 الرمي حمرا صاعديا ، أصابه في خصره ، فاشتملت على ذلك السهم المسدد أضلاع ذلك الحمار ،
 وفرَّق الموت عليهن ، ووزع المنون فيهن ، فمنهن من أصيب إصابة غير قتالة فهو هارب بذمائه ،
 ومنهن من إصابته قاتلة فهو بارك في مكانه لا يستطيع حراكا ، وهذه الأتُن الهاربات تتعثر
 في طريقها ، والسهم في أذرعها ، والدم المتجمد يعلوها ، فطرائق الدم في تلك الأذرع كطرائق
 برود بنى تزيده ، كلاهما يشتمل على خطوط حمر تضرب إلى السواد .

النقر :

الناظر في أبيات أبي ذؤيب يجد صوراً متتابعة متعاقبة ، يأخذ بعضها بأعناق بعض ؛ فالحر ترد الماء سحراً ، فيشرعن يشربن من نواح مختلفات ، وبعد أن شربن سمعن حساً يحجبهن عنهن شرف الحجاب ؛ ونخمة قانص متقلد كنفاته ، ففكرن الصوت والنخمة ، فنفرن فتلاصقن ، وهكذا يسير في تصويره كأنه قطار إبل .

وتلك الصور صادقة صدقاً واضحاً ، ليس للغلو فيها نصيب ، فالحر ترد الماء سحراً إذ العيوق يتخذ له مرقبة خلف الثريا التي تقف دون أن تسير ، وتثبت لا تتلعب ، ثم صورها ترد الماء ملتفات حول شاطئه ، دوائر عند حجراته ، وليس هذا الماء نزا بل تغيب فيه الأكرع .

وكأنك تتأمل الصائد ، وهو يرى سهمه ، فيصيب هدفه ، فيخر ذلك الهدف ، وقد تصمع ريش السهم من آثار الدم ، وذلك في قوله :

فرمى ؛ فأنفذ من نجد عائط سهماً ، نخر ، وريشه متصمع
وها هو ذا يصف لك الصيد ، فهو أتان عبلة طويلة حرمت الحمل ، فهي فتية قوية ، ويظهر أن فقد أبي ذؤيب بنيه الخمسة جعله يستهين بالحياة ، ويستخف بالبقاء ، فهو في أبياته يصف الصائد بأنه تابع الرمي حتى كاد يفنى الحر ، وينوع مواطن الإصابات ، وهاك قوله يثبت ما نقول :

فرمى ، فألحق صاعدياً مطحراً بالكشح ، فاشتملت عليه الأضلع
فأبدن حنوفهن : فهـارب بدمائه ، أو بارك متجمع
ولا بد أن الصورة في آخر الأبيات ستعجبك ، فهي صورة حقيقية صادقة ، إذ ذلك شأن كل ما يطارده الصائدون ، هروب وإلا تخوف .

أما الأسلوب فجزل قوى ملائم لموضوعه تشيع فيه حروف تكسبه هذه الجزالة مفردة أو مركبة مع غيرها كحرف الشين مثلاً ، وهناك حروف تتابع ، فلا تحدث تنافراً كقوله : ففكرنه فنفرن ، فقد تكررت في هاتين الكلمتين الفاء ، والنون والراء ، دون أن يشعر القارئ بثقل ، بل لعله شعر برضا عن الشاعر .

وبعد فالأبيات من قصيدة حكم لها بالجمال ، وهذه الأبيات من أروع أسباب جمالها .

٦ — وقال تأبط شراً * يصف الغول ، وقد تقاتلا :

- ألا من مبلغٍ فتيانٍ فهم ^(١) بما لاقيتُ عند رَحَى بَطانٍ
 بأني قد لقيتُ الغولَ تهوى ^(٢) بسهبٍ كالصَحيفةِ صَحَصَحانٍ
 فقلتُ لها : كلانا نَضُو أين ^(٣) أخو سفر ، فخلَى لي مكاني
 فشَدَّتْ شدةً نحوى فأهوى ^(٤) لها كَفَى بمصقولٍ يمانِي
 فأضربُها بلا دَهَشٍ ، فخرَّتْ ^(٥) صريعاً للبيدين وللجِرانِ
 فقالت : عدُّ ، فقلتُ لها : رويداً ^(٦) مكانك إني ثَبْتُ الجَنانِ
 فلم أنفكْ متكِكاً عليها ^(٧) لأنظرَ مُصباحاً ماذا أتاني
 إذا عِينانٍ في رأسٍ قبيحٍ ^(٨) كرأسِ الهرِّ مشقوقِ اللسانِ
 ٤٢١ : وساقاً مَخْدَجٍ ، وشوأةً كَلْبٍ ^(٩) وثوبٌ من عباءٍ أو شُشنانِ

* ترجمته الشاعر : هو ثابت بن جابر بن سفيان التيمي ، ولقب بتأبط شراً ؛ لأنه تأبط سيفه وخرج ، فسئلت عنه أمه ، فقالت : تأبط شراً وخرج ، وهو من صعاليك العرب الفتاكين ، ومن لصوصهم العدائين ، هذا إلى أنه كان أجمع العرب وأبصرهم ، وأكيدهم وأعداهم ، قيل عن عدوه : إن الخيل لم تكن تدركه ، والظباء لم تكن تفوته ، وله شعر جيد ، توفي سنة ٥٣٠ م .

التفسير اللغوي : (١) فهم : أبوحى وابن عمير بن قيس بن عيلان . رحى بطان : أرض بالبادية ، (٢) الغول : حيوان لا وجود له ، تخيله العرب فوصفوه ، ومن معاني لفظ الغول الحية . تهوى : تنقض . بسهب : بفلاة . الصَحَصَحان : الأرض المستوية الجرداء . (٣) نضو أين : سقيم نصب . أخو سفر : كثير الأسفار . فخلَى : فاتركي . (٤) فشَدَّتْ شدةً : فوثبت وثبة . فأهوى : فأسقط . بمصقول يمانِي : بسيف محدد مرهف منسوب إلى اليمن . (٥) دَهَش : تخير واضطرب . فخرَّتْ : سقطت . صريعاً : مصروعة مقتولة . للجِران : لمقدم عنق البعير . (٦) عدُّ : ارجع للقتال . رويداً : تمهلاً . مكانك : الزمى مكانك . ثَبْتُ الجنان : ثابت القلب . (٧) متكِكاً : معتمداً . مصباحاً : عند تنفس الصبح . (٨) الهر : القط . (٩) ساقاً مَخْدَج : ساقاً حيوان ناقص الخلق لم تتم أيام حمل أمه به . الشوأة : قحف الرأس وجلده . العباء : العباءة . الشنان : السحاب .

تحليل الأبيات :

انتصر تأبط شرا على الغول . قال الجاحظ عنها : إنها اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار ، ويتلون في ضروب الصور والثياب ، ذكر أكان أو أنثى إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى ، وإذا كان ذلك أمره ، فهو فيما يرى لا ينتصر عليه إلا الأبطال الأشداء ، فمن حق تأبط شرا إذن أن يذيع نصره لا في قبيلة بنى فهم فحسب ، بل له أن يذيعه في الآفاق ، فهو نصر مؤزر ، وفوز مظفر .

لاقي تأبط شراً - في فلاة مستوية جرداء ، لاماء فيها ولانبات ولاحيوان - غولا تنقض عليه انقضاض الصاعقة ، وتنفض إليه انتفاض الجنان ، وتهوى نحوه هوى الصخرة من شاق الجبل ، فلم يأخذه انقضاضها وهويها ، بل قال لها باغيا لنفسه ولها السلامة : لا عليك بأس ، فكلانا نضو أين ، وسقيم نصب ، وأخوسفر ، فخلي عنى أخلى عنك ، واتركنى لشأنى أتركك لشأنك ، ولكن كيف لها أن تدعه ؟ وأنى لها أن تخلى عنه ؟ لم تصخ إليه ، ولم تستمع له ، ومتى استمع القوى للضعيف أو لمن ظننه ضعيفا ؟

لقد شدت عليه شداً شديداً ، وعدت نحوه عدوا بعيداً ؛ حتى دانت فصار منه قاب قوسين أو أدنى ، فهو على بسيفه المصقول دون أن يصيبه من هجومها دهش ، أو يلحقه من انقضاضها خور ، فسكانت الضربة حاسمة ، فخرت على الأرض مصروعة خائرة ، سقطت على يديها وجرائها ، فأثارها الضربة التي لم تعرفها من قبل ، وأزعجتها الوثبة التي لم تكن تتوقع لها ذلك الأثر .

كيف تهزم ، وقد تعودت الانتصار ؟ لقد صاحبت به أن عد ، فسأريك كيف يكون القتال ، فأجابها ، وقد أفرخ روعه ، واطمأن لضربه فؤاده ، مهلاً ورويداً : قفى مكانك ، وأنا منك حيث تشائين ، إننى ثبت الجنان ، لا أفر من ميدان .

واتكأت عليها بظبة سيفي حتى لا تهرب بجراحها فتنجو منه ، بعد أن التمت إليها المسالمة فأبتها ، وطلبت إليها المهادنة ، وكلانا في حال تدعو إليها فعصتني ، اعتمدت عليها

بسمفى إلى أن يتنفس الصبح ، لأتحقق من ذلك العدو الباسل ، ولأتبين فى الصباح ماذا
أحمد من سُراى .

فإذا حيوان غريب ليس له فى أنواع الحيوان ضريب ، إن عينيه مخنفيتين مخبتيتين
فى رأس مستدير كأنه رأس الهر ، وهو مشقوق اللسان ، وذو ساقين قصيرتين ، كأنهما
الحيوان لم يتكامل خلقه ، ولم يتم تكوينه ، وشواة رأسه كشواة رأس الكلب ، وجلده
ناعم أزرق كأنه فى نعومته عباءة ، وفى زرقته قطعة من سحاب .

فذلك الحيوان الصريع قد أخذ من كل حيوان أقبح ما فيه ليكون بشع النظر ،
قبيح الشكل ، مخيفا لكل ناظر إلا إذا كان تابط شرا .

النقر :

لا يشعر الناقد البصير بقوة هذه الأبيات ، ولو أنه زعم أنها أبيات موضوعة لما عد
مجازا الصواب ، فليست فيها القوة التى يمتاز بها الشعر الجاهلى ، فهو قد هول تهويلا عظيما
فى عجز البيت الأول بذلك الإيهام « بما لا قيت عند رضى بطن » ولكن هذا التهويل
مالبث أن توارى ، ولو أنه أراد الاستمرار فيه لبالغ فى وصف الغول ، وفى تصوير اعتدائها
عليه ، ولكنه لم يزد على أن قال : « بأنى قد لقيت الغول تهوى » وليس من اللازم
اللازب أن يكون هويها إليه ، ثم إنه أخذ يحاورها ، فقال لها ولم تقل له ، وليس مثل
هذا من الأسلوب الجاهلى .

بقى أنه انتظر إلى الصباح حتى يعرف ما هى ، ويتبين حقيقتها ، وإذن فقد كان قتله
إياها عن جهل بها ، وعدم معرفة لها ، وهذا المعنى يهون من شأنها .

أما الأسلوب فلا نكاد نجد فيه الجزالة البدوية ، ولا القوة الجاهلية ، ولا سيما فى مثل
هذا الغرض ، وشعر تابط شرا فى غير هذه الأبيات يفيض بالجزالة ، ويفعم بالقوة .

ويكاد البيتان الأخيران من الأبيات يشهدان بالصنعة ، وهو إذ يصف فيهما الغول
يصفها وصفا لا ينبى بقبح ، فيتم الوصف بالقبح ، وكأنى به لم يستطع أن يحدد لون الجلد
بقوله : وثوب من عباء ، فعطف عليه بقوله أو شنان .

٧ — وقال الشنفرى * يصف الذئب من قصيدته المعروفة بلامية العرب ، وأولها :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيَّكُمْ فإني إلى قومٍ سِوَاكُمْ لَأُمِيلُ^(١)

وَأَغْدُو عَلَى الْقَوْتِ الزَّهِيدِ كَأَغْدَا أَزَلُّ تَهَادَاهُ التَّنَائِفُ أَطْحَلُ^(٢)

غَدَا طَاوِيًّا يُعَارِضُ الرِّيْحَ هَافِيًّا يَخُوتُ بِأَذْنَابِ الشَّعَابِ وَيَعْسِلُ^(٣)

فَلَمَّا لَوَاهُ الْقَوْتُ مِنْ حَيْثُ أُمَّةَ دَعَا فَاجَابَتْهُ نَظَائِرُ نَحْلِ^(٤)

٤٢٦: مَهْلَهْلَةٌ شَيْبُ الْوُجُوهِ ، كَأَنَّهَا قِدَاحٌ بِكَفِّي يَاسِرٌ تَتَقَلَّقُ^(٥)

* ترجمه الشاعر : هو من بنى الحرث بن ربيعة بن الأواس بن الحجر من الأزد ، شاعر من أهل اليمن معدود في العدائين الذين لا تلحقهم الخيل ، وكانت فيه شجاعة وحذق ، والشنفرى اسمه ، وقيل لقبه ، وهو ابن أخت تأبط شرا الشاعر السابق ، وقيل عن قتله : إنه حلف ليقتلن مائة رجل من بني سلامان ، فقتل تسعة وتسعين ، ثم احتالوا عليه فأمسكه رجل منهم اسمه أسيد بن جابر ، ثم قتله ، فرب به رجل من أعدائه . فرفس جمجمة الشنفرى ، فدخلت شظية منها برجله فمات فتمت القتلى مائة ، وهى أسطورة طريفة ، توفى سنة ٥١٠ م .

التفسير اللغوى : (١) أقيموا : ارفعوا . بنى أُمى : كناية عن الإخوة ، والنداء به يشعر بالعطف والرحمة . صدور مطيكم : صدور المطايا هواديتها وجرانها .

(٢) أغدو : أصبح مبكراً . القوت : الطعام . الزهيد : القليل اليسير . الأزل : القليل لحم الوركين : تهاده . تنادفه . التنايف . جمع تنوفة ، وهى الفلاة . الأطحل : الذئب فى بياضه غبرة .

(٣) طاويا : خميصا جائعا . هافيا : مسرعا . يخوت : ينقض . الشعاب : جمع شعب ، وهى المنحنيات فى الجبال . يعسل : يسرع باهتزاز . (٤) لوَاهُ القوت : أماله البحث عن الطعام وأعجزه . أمه : قصده . دعا : عوى . نظائر : جمع نظير أنداد . نحل . جمع ناحل . المهزلى .

(٥) مهلهلة : قليلة اللحم . شيب الوجوه : كناية عن بياضها . الياسر : اللاعب بسهام الميسر يحركها بين يديه ، وقداح الميسر سهامها ، مفردا قدح ، وهو أيضا للسهم قبل أن يراش .

أَوْ الْحَشْرُمُ الْمَبْعُوثُ حَضَحَتْ دَبْرَهُ مَحَابِيضُ أَرَادَهُنَّ سَامٍ مُعْسَلٌ^(٦)
 مُهْرَتُهُ ، فَوَهُ كَأَنَّ شُدُوقَهَا شَقُوقُ الْعِصَى كَالْحَاتِ وَبُسْلٌ^(٧)
 فَضْجٌ وَضَجَتْ بِالْبَرَّاحِ ، كَأَنَّهَا وَإِيَاهُ نُوحٌ فَوْقَ عَلِيَاءِ تُكَلُّ^(٨)
 وَأَغْضَى وَأَغْضَتْ ، وَأَتَسَى وَأَتَسَتْ بِهِ مَرَامِيلُ عَزَّاهَا وَعَزَّتُهُ مَرْمِلٌ^(٩)
 شَكَوْا وَشَكَّتْ ، ثُمَّ ارْغَوَى بَعْدُ وَارْغَوَتْ وَلَلصَّبْرُ إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ أَجَلٌ^(١٠)
 ٤٣٢ : وِفَاءٌ وَفَاءَتْ بَادِرَاتٍ ، وَكُلُّهَا عَلَى نَكْظٍ مِمَّا يُكَاتِمُ مُجْمِلٌ^(١١)



(٦) الحُشْرَمُ : رئيس النحل . المَبْعُوثُ : المنبعث للسير . حَضَحَتْ : حث وحض . الدبر : جماعة النحل . المَحَابِيضُ : جمع محبض ، وهى عيدان يتخذها مشتار العسل ، فيثير بها النحل . أَرَادَهُنَّ : مخفف أَرَادَهُنَّ أى ثبتهن وركزنهن : سَامٍ : رجل عال مرتقى . مُعْسَلٌ : مشتار العسل .

(٧) مُهْرَتُهُ : مشقوقة الأفواه . فَوَهُ : جمع أفوه المفتوح الفم . كَالْحَاتِ : عابسات الوجوه . الْبُسْلُ : جمع باسل وهو الكريه المنظر .

(٨) الْبَرَّاحِ : الأرض الواسعة لا نبت فيها . نُوحٌ : جمع نائحة باقيات صائحات . تُكَلُّ : جمع تاكل ، وهى الفاقدات الأولاد .

(٩) أَتَسَى : امتثل واقتفى . مَرَامِيلُ : جمع مرميل ، وهو الذى لا زاد معه . عَزَّاهَا : سلاها ، وأصل التركيب : عزاها مرميل ، وعزته مراميل .

(١٠) ارْغَوَى : رجع . الشَّكْوُ : الشكوى . أَجَلٌ : أحسن وأفضل .

(١١) وِفَاءٌ : رجع . بَادِرَاتٍ : النكظ : شدة الجوع . الْمُجْمِلُ : المحسن حاله .

تحليل الأبيات :

بنى أمى : أقيموا صدور مطاياكم للرحيل ، واستنضوها من مناخها للسفر ، أما أنا فدعوني أبحث عن قوم سواكم أعيش بينهم ، وأقضى بقية أيامي معهم ، فإني إلى غيركم أميل . ثم انتقل بعد أغراض عدة إلى وصف الذئب متخذاً من تشبيه نفسه بذئب تمهيداً لوصفها . فقال : إني أعيش على أيسر الطعام ، وأحيا على أزهد القوت ، شأني شأن الذئب الأزل الأطحل ، تتقاذفه التناثف ، وتتهاداه المفاوز ، يغدو طاوى المصير ، خميص البطن ، يسابق الريح ، ويعارض العاصفة ؛ ينقض في مؤخرات الشعاب ، ويهوى في طرق الجبال ، باحثاً عن طعامه ، ساعياً إلى قوته ، وإذا امتنع عليه الطعام حيث قصد ، وعز عليه القوت في مسعاه عوى بألسا ، وناح يأسا ، فأجابه ذئاب نحل ، ونظائر هزل ، ذئاب خفيفة اللحم ، هزيلة الجسم ، بيضاء الوجوه ، شيب الرؤوس ، كأنها خلقتها قداح يحركها يامر ، ويقلقها قامر ، وكأنه يعسوب النحل قد انبعث للسير ، ودعا جماعات النحل للطيران معه عيدان أنارت تلك الجماعات قد ركزها مشتار العسل .

تلك الذئاب مشقوقة الأفواه ، مفتوحتها ، كأن أشداقها في اتساعها شقوق العصي ، وهى عابسات الوجوه ، كريهة المنظر ، بشعة المرأى ، فضج الذئب البائس ، وأجابه الذئاب البائسات في أرض واسعة لا يسمع فيها إلا الصدى ، ولا يرى إلا السراب ، فكان الذئاب معه نساء فوق مرتقى من الأرض ، تكن أبناءهن ، فهن ينحن عليهم ويعولن .

وأغضى على الجوع والقذى وأغضت معه ، وامثل ما أريد عليه ، وامثلت ، واتخذت منه أسوة ، وجعلته لها قدوة ، فكلها مراميل سلاها عن فقدان زادها أخ مرمل ، وعزاها عن جوعها أخ جائع .

لقد شكا وشكون ، وانصرفنا عن العواء وانصرف ، ورأين أن الصبر أجمل بهن ، والتجملد أحسن منهن ، ورجع إلى العدو ورجعن إليه بعد أن لم تجد صيداً تطعمه ، ولا قوتا تأكله ، وهن على شدة جوعهن يكتمن أمرهن ، ويتجملن بالصبر .

النقد .

في هذه الأبيات جمال من وجوه عدة ، فمعانيها واضحة تدل على أن الشاعر عالم بما

يقول ، متمكنا مما يصور ، فالشاعر الذى يعيش فى البادية هو الذى تبهره صورة الذئب ،
يعوى من الجوع ، ويصيح من الغرث ، فما تمضى هنية على عوائه وصياحه ، حتى تجاوبه
ذئاب أخرى هى أيضا غرثى جياع ، فأى جمال أبدع من قوله ؟

غدا طاويا يعارض الريح هافيا يخوت بأذئاب الشعاب ويعسل
فلما لواه القوت من حيث أمه دعا فأجابته ————— نظائر نحل

ثم من هذا الذى يستطيع وصف الذئاب ذلك الوصف الدقيق لإلرجل عاش فى التنايف
وعاشر الأطالس ، ولاحظ أعضاء جسمها عن قرب ، فأعجب بها ، أو نفر منها ؟ وأى دقة
وصف تعلو دقته ، إذ يقول ؟

مهلهلة ، شيب الوجوه ، كأنها قداح بكفى ياسر تتقلقل
أو الخشرم المبعوث حثث دبره محايض أرداهن سام معسل
مهرتة فوه كأن شـدوقها شقوق العصى ، كالخات وبسل

هذه بعض معانى هذا الشاعر أفاضتها عليه حياته البدوية فأجاد عرضها ، وأبدع
فى تصويرها ، فأى عرض أجود من عرضه ، وأى تصوير أبدع من تصويره إذ يقول ؟

فضج وضجت بالبراح كأنها وإياه نوح فوق علياء شكل
وأغضى وأغضت ، واتسى واتست به مراميل عزاه وعزته مرمل
شكا وشكت ، ثم ارعوى بعد وارعوت وللعبر إن لم ينفع الشكو أجمل
وفاء وفاءت بادرآت ، وكلها على نكظ مما يكاتم بمجمل

إن الأسلوب ليفرع أقوى الأساليب الجاهلية ، وقد كساه جمالا ذلك التنسيق والتتابع ،
فضج وضجت ، وأغضى وأغضت ، واتسى واتست ... الخ .

لقد نالت القصيدة التى منها هذه الأبيات عناية الأدياء فى القديم والحديث ، فى الشرق
والغرب ، وهى جديرة بتلك العناية ، وأجدرها بها تلك الأبيات التى لم يعرف الشعر العربى
لها نظيرا فى وصف الذئاب ، وقد روى عن الرسول الكريم أنه خاطب أصحابه بقوله :
« علموا أولادكم لامية العرب ، فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق » .

٨ — وقال المرقش الأكبر* يصف ذئباً نزل به فأطعمه :

ولمّا أضأنا النارَ عند شوائنا عرانا عليها أطلسُ اللونِ يابسُ^(١)
نبذتُ إليه حَزَّةً مِنْ شوائنا حياءَ، وما خُشى عَلَى مَنْ أَجالِسُ^(٢)
٤٣٥ : فَأَضَ بِهَا جَذْلانَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ كما أَبَ بالَنْبِ الكَمِيّ المُحَالِسُ^(٣)

تحليل الأبيات :

أوقدنا ناراً ، وأرسلنا ألسنتها تطاول السماء ، وتتسأحي إلى الجوزاء ، وتدعو الجياع الغرثى ، والسابلة الخماص ، ليشاركونا في شوائنا ، ويقاسمونا زادنا ، فنزل بنا ضيف أطلس اللون ، بأس الحال ، خميص البطن ، فرق له قلبي ، وإن يكن هو غليظ القلب ، ورث لبؤسه نفسى ، وإن يكن هو خبيث النفس ، فرميت إليه بقطعة من الشواء حياء أن يقال: بخل عن حيوان جائع ، وإن يكن ذلك الحيوان ذئباً ، وخشية أن يتحدث الناس عنى أنى ضمنت على طارق ، وإن يكن ذلك الطارق من ضواري الوحوش .

لست بالبذىء على الجليس ، وإن لم يكن لى بالأنيس . فرجع بهذه الحزة جذلان فرحا ، ينفذ رأسه من الفرح ، ويهزه من الغبطة ، مثله فى غبطته وسروره كمثل الكمي المقاتل لا يترك الميدان ؛ حتى يقضى على خصمه ، ويعود بالفئ الكثير .

التقيد :

هى أبيات تصور كرم العربى ، وأنه فى سبيل حسن الأحداثة ، وجميل السيرة ، لا يفرق فى إسداء معروفه بين الإنسان والحيوان .

ولا أرى فيها من الجمال الفنى ما يبهى الناظر إلا فى تصويره لجذله ، فإن ذلك التصوير يوحى بأن الشاعر من كفاة الحرب ، وأحلاس الجياد .

* ترجمه الشاعر : هو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة البكرى ، والمرقش لقبه ، وهو عم المرقش الأصغر ، ولكن الأصغر أشعر منه ، وهو مع ذلك شاعر فحل مجيد فى غزله وحماسته ، توفى حوالى سنة ٥٥٢ م .

التفسير اللغوى : (١) أضأنا النار : أوقدناها . عرانا : نزل بنا . أطلس اللون : أغبر ، والطلس : العبرة إلى سواد . (٢) نبذت له : رميت إليه . الحزة . القطعة . خشى : عيى وبذأ . (٣) فأض : فصار . جذلان : فرحان . ينفذ رأسه . يهزه مظهره جذله . أب : رجع . الكمي : الفارس فى كامل عدته . المحالس : الشديد الذى لا يبرح مكانه فى الميدان .

٩ — وقال النابغة * يصف أثر سم الحية ، ويصف خبثها :

فَبْتُ كَأَنَّ سَاوَرْتَنِي ضَيْلَةٌ مِنْ الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السَّمُّ نَاقِعٌ (١)
يُسَهِّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلْيِ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعٌ (٢)
٤٣٨ : تَفَاذَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سُمِّهَا تَطَلَّقَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تَرَاجَعُ

تحليل الأبيات :

يصف النابغة ما نزل به من هم وأسى ، حينما علم ما توعد به أبوقابوس ، وما أذره إياه ؛ إذ بات ليله الأطول مسهداً كأنما لدغته أفعى دقيقة الجسم ، رقشاء اللون ، السم الزعاف في أنيابها . يسهر الليل الأطول ، ليل التمام ملدوغها ، لا يتقابل جفناه ، ولا تعرف طريق النوم عيناه ، قد جعل الحلي والخلخال في يديه ، دأمة الجرس ، مستمرة الصوت ؛ حتى لا ينام لديفها ، فيسرى السم في أجزاء جسمه ، ويدب الموت في مفاصله . يخاف الرقاة منها ، ويتناذرون عقباها ؛ إذ ليست لهم بمطواعة دائماً ، فحينما تحيهم ، وحينما تعصهم ، وطوراً تطلق الراق ، فليس له بها شأن ، وطوراً تراجع ، فتدعن لأمره .

النقد :

أجاد النابغة تصوير حال الرجل المهدد ، ينذره من يقدر على ضربه ، كما أجاد في تصوير حال السليم عند العرب ، وفي رسم تطييبهم سليمهم ، فهم يلبسونه الحلي ويحكونها ؛ لسمع جرسها فلا يقلب عليه النوم ، فيدب السم في جسمه ، وتناذر الرقاة إياها ، ينبئ أنها رقشاء قتل . أما الأسلوب ؛ فيبدو جماله في اتساق ألفاظه ، وانتظام حروفه ، وملاءمة بعضها لبعض ؛ فالسين في البيت الثاني يشعر تكرارها بوسوسة الحلي ، وجرسها ، على أن السين أكثر من سواه في البيتين الآخرين ، وجعل خبرات الجملة الاسمية التشبيهية قوى المعنى وجملة .

ترجمه الشاعر : انظر الترجمة في وصف الأوابد ص ١٥٤ .

التفسير اللغوي : (١) ساورتني : واثبتني ، أو وثبت على . ضيئة : رقيقة الجسم . الرقش : جمع رقشاء . وهي الحية فيها نقط سود وبيض . الناقع : البالغ القاتل . (٢) يسهد : يمنع من النوم . ليل التمام : أطول ليالي الشتاء ، والتمام مثلث التاء والفتح أكثرها . السليم : اللسوع ، وسمى كذلك تفاؤلاً بسلامته . القعاقع : الأصوات مفردة قعقة .

١٠ — وقال عنقرة بن عمرو بن شداد العبسي * يصف الثعبان الأسود :

أَتَرْجُو حَيَاةً يَابْنَ بَشْرٍ بَنٍ مِسْهَرٍ وقد عَلِقْتَ رِجْلَكَ فِي نَابِ أَسْوَدَا (١)
أَصَمَّ جِبَالِي إِذَا عَضَّ عَضًّا تَزَايَلْ عَنْهُ جِـلْدُهُ فَتَبَدَّدَا (٢)
بَسِلَعٍ صَفًّا لَمْ يَبْدُ لِلشَّمْسِ بَدْوَةٌ إِذَا مَرَّاهُ صَاحِبُ الْيَمِّ أُرْعَدَا (٣)
لَهُ رِبْقَةٌ فِي عُنُقِهِ مِنْ قِمِصِهِ وَسَائِرُهُ عَنْ مَتْنِهِ قَدْ تَقَدَّدَا (٤)
رَقُودٌ مُخَيَّـاتٍ كَأَنَّ لِسَانَهُ إِذَا سَمِعَ الْأَجْرَاسَ مِكْحَالَ أُرْمَدَا (٥)
٤٤٤ : يُفِيَّتُ النَّفُوسَ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ الرُّقَى وَإِنْ أَبْرَقَ الْحَاوِي عَلَيْهِ وَأُرْعَدَا (٦)

* ترجمه الشاعر : انظرها في وصف الفرس ص ١٢٢ .

التفسير اللغوي : (١) ابن بشر بن مسهر : لم تقع له على ترجمة ، وهو كما يبدو أحد أعداء عنقرة . علقت رجلك : قيدت . أسود : يقصد نفسه ، فهو يصف نفسه بـثعبان أسود . (٢) أصم : لا يسمع ، وهو وصف للذكر من الحيات غالبا . جبالى : نسبة للجبل ، ورواه اللسان أصم قطارى ، والقطارى : الضخم . تزايل : تساقط . فتبدد : تفرق ، ورواية اللسان « تزيل أعلى جلده فتزيده » (٣) السلع : بالكسر : الشق في الجبل . الصفا : جمع صفاة : الحجارة الصلدة . صاحب اليم : الراقى . اليم : الحية كما ورد في لسان العرب . أرعد : أصابته الرعدة . (٤) الربقة : بالكسر الجبل . قميصه : يعنى به جلده المنسلخ عنه . سائرُه : جميعه أو باقيه . متنه : ظهره . تقدد : تفرق أو جفّ وبيس . (٥) رقود ضحيات : كثير الرقاد في الضحا . الأجراس : جمع جرس إذا فتحت الهمزة الأصوات ، وبكسر الهمزة التصويت . المكحال : ما يكتحل به ، وهو طبعاً أسود من أثر الكحل . الأرمد . الموجوع العين . ومن طريف ما جاء في وصف لسان الحية بالسواد قول الآخر :

كأَنَّمَا لِسَانُهُ عَلَى فِيهِ دخان مصباح ذكت ذواكيه

قال أبو العباس ثعلب : « يقال إنه لم يسمع في صفة الحية أحسن من هذا البيت » .

(٦) يفيت النفوس : يميتهما فجأة . تقع الرقى : تحدث الرقى التي ترقى بها جروحه . أبرق الحاوى وأرعد : تهدد وتوعده بما يتلو من العزائم .

تحليل الأبيات :

يهدد عنقثة أحد أعدائه بأن حياته صارت مما يرجى ، وأن بقاءه عاد مما يمتنى ، ولكن هل يجاب الرجاء ، وتحقق الأمانى ؟ أتتحقق الأمانى وقد اتصلت رجلاك بباب ثعبان أسود ؟ إنه لن يستمع إلى ندائك ، ولن يلي دعائك .

والشاعر يقصد بذلك الأسود نفسه ، ثم انصرف إلى وصف الثعبان شأن غيره من الشعراء ، فإذا فى أذنيه وقر ، وفى مسمعيه صمم ، وإذا هو أسود جبلى ، استمد من الجبل غلظته ، وأخذ عنه خشونة طبعه ، وإن يكن ناعم للمس ، إذا عض مساوره عضه تساقط عنه جلده ، وتبدد منه لحمه ، يعيش ذلك الأسود فى سلوع الجبال ، وشقوق الصفا ، ينام نهاره ، ويصحو ليله ، فلا يبدو للشمس إلا قليلا ، فإذا مارآه الحاوى صديق الحيات ارتعد جسمه ، واصطكت أسنانه ، لأنه لم يرم قبله مثله ، ولا عرف له نظيرا ، فيملا قلبه بالخوف ، ويستولى على فؤاده الرعب ، وإن كان هو الذى يخيف الأفاعى ، ويرعب الأسود .

هذا الثعبان مطوق العنق ، فكأن له فى عنقه حبلا صنع من جلده المنسلخ عنه ، وثوبه الأبيض الذى يخلعه بين الحين والحين ، لقد خلع سائر هذا الثوب عن ظهره ، ولم يبق منه إلا ما نطق به عنقه ، وهو كثير الرقاد فى الضحا إذ تسطع عليه أشعة الشمس فتسرى الحرارة فى جسمه ، وتذب الحياة المتدفقة بالسّم فى أجزائه ، فإذا أيقظه جرس ، أو نبهه صوت أخرج لسانه الأسود الذى يشبه فى شدة حلكته مكحال الأرمد ، الذى لا يفتأ يذّر به الكحل على عينه الرمءاء .

يقضى على النفوس ، ويقبض الأرواح فى مثل سرعة البرق ، أو ومضة الطرف ، قبل أن يبلغ الراقى برقيته غايته من الشفاء ، وقبل أن يبذل الطبيب لسليمه الدواء ، وسيان عنده بعدئذ أن يبرق الحاوى ويرعد ، وأن يتهدد ويوعد ، فقد قضى لبانته ، وبلغ غايته .

النقد :

ليست الأبيات من الناحية الفنية في قوة شعر عنتره ، حينما يصف الخليل أو الحرب ، فهي أولا غير مترابطة الأجزاء إذا تجاوزنا البيت الثاني ، فالشطر الأول من البيت الثالث لا تناسب بينه وبين الشطر الآخر ، فالشطر الأول يذكر فيه أن وطن ذلك الثعبان سلع صفا ولم يبد للشمس في حين أن الشطر الآخر « إذا مارآه صاحب اليم أرعدا » والعلاقة بين الشطرين معدومة أو تكاد ، وهذا نفسه يقال عن البيت الخامس .

أما الأسلوب فمستقيم واضح ، وإذا كان فيه جمال فإنه يستمد من البيت الثاني والرابع والسادس ، فالبيت الثاني استخدم في الشرط إذا المفيدة لليقين ، أي أنه يتبدد جلد من يلدغه إذا لدغ دون أن يرجى للملذوغ شفاء ، أو ينتظر له دواء ، وقد مهد لهذا الشرط بالوصف « أصم جبالي » .

وجمال البيت الرابع في وصف الثوب المنسلخ عن جلد الثعبان ، وأنه يتفرق عن سائر ماعدا عنقه ، وهي ملاحظة لا يتنبه إليها إلا أبناء التنايف والمفاوز .

وجمال البيت الأخير في قوله : يفيت النفوس فهو تعبير بليغ بإيجازه ؛ وفي استخدام إن الشرطية التي تفيد الشك فقد لا يبرق الحاوي ولا يرعد خشية أن تكون عاقبة الإبراق والإرعاد الثورة والعصيان ، وكذلك في ذلك الطباق الوهمي بين أبرق وأرعد .

وعلى أي فعنتره أقدر من يصف الأسود ، فله من صفاتها حظ أي حظ .

١١ — وقال عروة بن الورد العبسي * يصف الأسد :

تَبَغَّانِ الْأَعْدَاءُ إِمَّا إِلَى دَمٍ
وإِمَّا غُرَاضُ السَّاعِدِينَ مُصَدَّرًا^(١)
يَظْلُ الْأَبَاءُ سَاقِطًا فـ____وق مَقْنَهُ
له الْعَدُوَّةُ الْأُولَى إِذَا الْقِرْنُ أَصْحَرَا^(٢)

كأنَّ خُواتَ الرَّغْمِ رِزْءُ رِزْهِ
مِنَ اللَّاءِ يَسْكُنُ الْعَرِينَ بَعَثَرًا^(٣) : ٤٤٧

* ترجمه الشاعر : هو عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هرم العبسي ، شاعر فحل ، وفارس صنديد ، وصعلوك معدود ، وجواد معروف ، كان يلقب بعروة الصعاليك لجمه إياهم ، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ، وقيل لقب بهذا اللقب لقوله :
لحى الله صعلوكا إذا جن ليله مصافى المشاش ألفا كل مجزر
قال عبد الملك بن مروان في حديث عنه : « ما سرنى أن أحد العرب ممن ولدنى لم يلدنى إلا عروة بن الورد » .

التفسير اللغوي : (١) تبغاني الأعداء : تبغى كابتغى : طلب وتمنى . إما إلى دم : إما إلى قوم أصبتهم بدم ، فلم عنى ثأر . عراض الساعدين : عريض الساعدين ، وهى كناية عن موصوف هو الأسد . المصدر : من نعوت الأسد العريض الصدر .
(٢) الأباء : القصب واحدة أباءة . المتن : الظهر . العدوَّة الأولى : الوثبة الأولى . القرن : التنظير . أصحر : خرج إلى الصحراء للمبارزة .
(٣) الخوات : الصوت والدوى . الرزء : بضم الراء وكسرهما : المصيبة . العرين : بيت الأسد فى الأجمة . عثر : مأسدة قبل تباله .

تحليل الأبيات .

تمنى أعدائي أن يثأر منى سوامي ، وأن ينزل بي الحين من غيرهم ؛ لأنهم أضعف من أن يدركوا منى ثأرا ، أو ينالوا منى ترة ، فإن لم يبلغوا هذه الأمنية فأميتهم الأخرى أن يلقاني أسد غضنفر عريض الساعدين ، منبسط الصدر ، يسكن أجمة كثيفة الأشجار ، يغطي متنه قصبها ، ويستتر ظهره بأبواها ، فلا تتحرز منه قافلة ، ولا تحترس من فتكه جماعة ، فإذا برز منها إلى الصحراء كانت له الوثبة الأولى على عدوه فيدعه مجذلا .

هذا الأسد دوى صوته كدوى الرعد ، أو أن الرعد من زئيره ، وخواته رزء يصاب به سامعه ، فهو يكاد يصم الآذان ، وهو يسكن مأسدة عثر التي عرفت أسودها بالعرامة ، وشهرت بالشراسة والفظاظة .

النقد :

البيت الأول من هذه الأبيات الثلاثة جميل بإشاراته ، رائع بكناياته ، إذ أشار الشاعر إلى أن أعداءه لا يتطاولون إلى سماءه ، ولا يتسامون إلى مصاولته ومعاداته ، فغاية قوتهم أن يتمنوا أن يخلصهم الله منه بأعداء يقتلونهم بعد أن قتل منهم ، أو بأسد قوى غشوم يستطيع أن يصصره ، فالبيت يجمع بين الفخر والهجاء والوصف ، وتلك قدرة أي قدرة ، والإيجاز لم يبعث فيه غموضا ، فالقارئ الموحية بالمعنى بارزة واضحة .

وكذلك البيت الثاني جميل ، وإن لم يبلغ جمال البيت الأول ، فقد وصف خلق الأسد وأنه يكن حتى يتمكن ، وحينئذ يثب وثبته فتكون الفاضية ، والبيت الأخير أقل الأبيات جمالا ، فوصف صوته أنه كالرعد معنى تنقصه الطرافة ، وكذلك نسبته إلى مأسدة عثر ، وإن يكن أوحى بهذه النسبة إلى أنه ضيف جبار ، فإن القارئ قد يحمل الوم إلى أن الشاعر اختار هذه المأسدة بالذات لتستقيم له القافية بحسب .

١٢ — وقال النابغة* يصف الحية أيضا :

صِلُّ صَفًّا لَا تَنْطَوِي مِنَ الْقِصْرِ طَوِيلَةُ الْإِطْرَاقِ مِنْ غَيْرِ خَفَرٍ^(١)
 دَاهِيَةٌ قَدْ صَغُرَتْ مِنَ الْكِبَرِ كَأَنَّمَا قَدْ ذَهَبَتْ بِهَا الْفِكْرُ^(٢)
 ٤٥٠ : مَهْرُوتُهُ الشَّدَقِينَ حَوْلَاءِ النَّظَرِ تَفْتَرُّ عَنْ عَوْجِ جَدَادٍ كَالْإِبَرِ^(٣)

تحليل الأبيات :

وحية خبيثة عاتية تتخذ من الصخر الصلد لونا لها ؛ حتى لا يتبينها الرائي ،
 ولا تلتوى على نفسها ؛ لقصر جسمها ، تطيل الإطراق ، وتمن في التهويم دون أن يكون
 إطراقها لحياء أو طأطأة رأسها لخبيل ، وإنما هو لاهتيال الفرصة ، والاستعداد للعدوة .

وهي داهية دهياء ، ومصيبة نكراء قد طال أجلها ، فعظم خبثها ، وإن صغر جسمها ،
 حتى لكان كثرة الفكر هي سبب سقمها ، وأصل ضآلتها ، ولم لا ؟ أليست تفكر
 في العدوان ، وتنطوي على الغدر والخيانة ؟

وهي واسعة الشدقين حولاء العينين ، تفتح شديقها الأهرتين عن أسنان عوج حداد
 كأنها الإبر .

النقر :

أجاد النابغة وصف الحية حتى إنها لتخيف دون أن ترى ، فالصورة التي رسمها لها
 صورة نكراء ، وكذلك أبدع في وصف خلقها فهي خبيثة داهية « طويلة الإطراق من
 غير خفر » .

وأسلوب النابغة هو أسلوبه الجميل الرائع ، العذب السائغ ؛ فالحية : « لا تنطوي من
 القصر » وهي « طويلة الإطراق » وهي « قد صغرت من الكبر » .

* ترجمته الشاعر : انظر ترجمته في وصف الأوابد ص ١٥٤

التفسير اللغوي : (١) الصل : الحية الخبيثة جدآ ، الصفا : الحجر الصلد مفردة صفاة .
 الإطراق : إرخاء العينين إلى الأرض . الحفر : الحياء . (٢) داهية : مصيبة . ذهب
 بها الفكر : كناية عن صفة هي السقم . (٣) مهروثة الشدقين : واسعة الشدقين .
 تفتت : تكشف . جداد : الجداد بالفتح والكسر صرام النخل .

نظرة في شعر الطبيعة الحية عند العرب

عرضنا فيما تقدم صوراً متنوعة لوصف الطبيعة الحية في الشعر العربي ، وقد تناولت هذه الصور أكثر ما خص الله به البيئة العربية من حيوان ، سواء في ذلك الأنس منها والمستوحش ، وإذا كنا قد تركنا من حيوان الجزيرة العربية بعضه ، فليس ذلك لأن الشعراء أهملوه ، وإنما لأننا لم نقصد استقصاء ما قالوه ، ولو قصدناه لبلغ الأمر منا حد الإطالة ، ثم إن بعض ما تناولوه بالوصف عبوه عبراً ، فلم يتجاوزوا فيه البيت أو البيتين أو الثلاثة ، وقد رمينا في هذا الكتاب إلى عرض نماذج كاملة وصور تامة ، إلى أن بعض هذا الذي تركناه ليس بذى أثر عظيم في حياتهم ، فاستمددنا قلة عنايتنا به من ضالة احتفالهم له ، فلم نذكر من الأوانس غير الناقة والفرس والكلاب ، وإن كنا قد ذكرنا الهر فقد جاء ذكره عرضاً لا عمداً ، وذلك لأن الهر ليس له عندهم من نفع ، وإذا كان فهو قليل لا يؤبه له ، وإذا كان بينهم من وصف غير الناقة والفرس ففي بيت أو بيتين ، وذلك كقول امرئ القيس يصف المعز :

إذا مالم تكن إبل فعزى كأن قرون جلَّتْها العصي

٤٥٢ : فتملاً يبتنا أقطاً وسمناً وحسبك من غنى شبع وري

ولكننا ذكرنا من الأوباد أكثر ما في بلاد العرب ؛ وذلك لأن الشعراء أكثروا القول في وصفها ، حسياً وعاطفياً وإن لم يرض قولنا هذا زعماء الأدب في هذا العصر ، وإلا فبإذا نفسر وصف متمم بن نويرة حزنه حين يشبهه بوجد الأظفار الروائم في قوله :

وما وجد أظفار ثلاث روائم أصبن مجراً من حوارٍ ومصرعاً

يذكرن ذا البث الحزين بيته إذا حنت الأولى سجعن لها ممّا

إذا شارف منهن قامت فرجعت حيننا فأبكي شجوها البرك أجمعا

٤٥٦ : بأوجد منى يوم قام لمالك مُنادٍ بصيرٍ بالفراق فأمسما

أليس هذا الشعر من أروع ما يمكن أن يكون عليه الوصف العاطفي ؟ وإن كان هذا الضرب من الوصف قليلا نادرا .

وتركنا القليل من حيوان الصحارى وأوابدها ؛ إما لأن الشعراء لم يعيروه اهتماما ، وإما لأننا لم نجد فيه الروعة التي تحملنا على اختياره وتحليله ونقده ، وإما لغير هذا وذلك ، لأننا رأينا من أوصافه ما يمكن أن يندرج تحت غيره ، أو لأننا وجدنا القدر الذى قيل لا يحتمل التحليل ، فلم نقف عند الضبعة لضالة شأنها عندهم ، وإن كانوا قد وصفوها ، من هذا قول متمم بن نويرة حين تذكر أنه سيموت ، وأن الضبع ستأكله دون أن يدفع عنه سيفه :

يالهف من عرفاء ذاتِ فليلةٍ جاءتْ إلىّ على ثلاثِ تجمعٍ
ظلتْ تُراصدنى وتنظر حولها ويرى بها رمقٌ وأنى مطمِعُ
وتظلُّ تنشِطُنِي وتُلجِمُ أجريا وسطَ العرينِ وليس حىّ يدفعُ
٤٦٠ : لو كان سيفي باليمين ضربتها عنيّ ، ولم أؤكلْ وجنبي الأضيعُ

ومن هذا الذى لم نذكر أوصافه لأن غيره من فصيلته يغنى عنه الوعل ، وقد أجاد وصفه فى قصيدة رثاء المرقش الأكبر فقال :

لو كان حىّ ناجياً لنجّا من يومِهِ المزلّمُ الأعصمُ
فى باذخاتٍ من عمّاية أو يرفعه دُون السَّماءِ خيمُ
من دونه يبيضُ الأنوق وفوق قه طويلُ المنكبينِ أشمُ
٤٦٤ : يرقاه حيثُ شاء منه وإم ما تنسُهُ منيَّةٌ يهزمُ

وسنورد بعد أن نعرض صوراً للطبيعة الساكنة صوراً للطبيعة المختلطة الجامعة بين المتحركة والساكنة ، لنكون قد بلغنا غاية ما نبغى من كمال هذا الفن .

ولعل من الخير لنا أن نبدي ملاحظات عن الصور الكثيرة التي عرضناها للطبيعة الحية ، نلم بها إلما لتكون مفتاحاً لمغاليق هذا الفن ، فيعبره من شاء أن يتبسط فيه :

١ - أكثر الصور التي أوردتها الشعراء الجاهليون صور حسية خالصة ، والتقليل منها عاطفي متصل بالحسي ، وتعليل ذلك عندي هو أن كثرتهم كانت تعتمد على حواسهم أكثر مما تعتمد على إحساسهم الباطني ، وشعورهم الداخلي ، إلا في الرثاء فالعاطفة فيه متحركة .

٢ - أغلب هذه الصور واضح التصوير ، كامل التكوين ، وإذا وجدنا في خلال قراءتنا صوراً غير واضحة أو غير كاملة حكمنا بأن رغبتهم في الإيجاز ، وشغفهم بالإكثار من الصور والمعاني هي سبب ذلك الغموض أو القصور .

٣ - كل شعرهم خال من التكلف ، فهو فطري كطبيعتهم ، صادق كفطرتهم ، بعيد عن الغلو والمبالغة إلا قليلاً ، ومن أولئك الذين كانوا يعتمدون إلى المبالغة المحدودة النابغة ، وقد ذكرنا ذلك عنه عند تحليلنا شعره .

٤ - كانوا يرسلون أنفسهم على سجيتهما فلا يرعون في أوصافهم ترتيباً ، وإنما يجيء كما يفد على خواطرهم ، فقد يبدؤون بالتافه ، ويتركون الجليل الشأن ، وقد ينظرون إلى الذنب ويتركون الرأس ، لأن ذلك ورد على خواطرهم دون الآخر ، أو لأن له في نفس أحدهم شأنًا أقوى من شأن ذلك الذي أخره أو أهمله ، وعليك أن تنظر وصف طرفه لناقته لتؤمن بهذا الرأي ، فمع أنه لم يترك من دقائق أعضائها شيئاً فقد أهمل وصف سنامها ، مع أن السنام من أعظم أجزاء الناقة نفعا وقيمة .

٥ - تكاد معانيهم تتفق فيما يعرضون له ، وإن اختلفت الصور ، وذلك لأنهم - كما قدمنا - يعتمدون على الحواس أعظم الاعتماد ، فإذا قال الشنفرى في وصف أشداق الذئاب :

مُهْرَّتَةٌ فَوْهٌ ، كَأَنَّ شُدُوقَهَا شُقُوقُ الْعِصَى كَالْحَاتٍ وَبُسْلُ

قال علقمة بن عبدة الفحل :

فَوْهٌ كَشَقِّ الْعَصَا لَأَيَّا تَبَيَّنَهُ أَسْكُ مَا يَسْمَعُ الْأَصْوَاتَ مَصْلُومَ

وإذا قال النابغة الذبياني :

سَرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجُزَاءِ سَارِيَةٌ تَرْجِي الشَّمْلُ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرْدِ
قال لبيد بن ربيعة :

بَاتَتْ وَأَسْبَلَ وَكَفَّ مِنْ دِيمَةٍ يُرْوِي الْخِمَائِلَ دَائِمًا تَسْجَاهُهَا
وما قدمناه من ذلك التشابه يغني عن عديد الأمثلة .

٦ — لبيتهم عليهم أعظم الفضل إذ استمدوا منها جميع صورهم وتشبيهاتهم ، وقد قدمنا الكثير من هذه الأنواع ، أليس صفاء سمائهم ، ورقابتهم نجومها وكواكبها هو الذي أوحى إلى أبي ذؤيب الهذلي قوله ؟

فَوَرَدَنَ وَالْعَيُّوقُ مَقْعَدُ رَائِي الضُّ ضُرْبَاءَ خَلْفَ النَّجْمِ لَا يَتَقَلَّعُ
وأليست طبيعة بلادهم ، وما فيها من نجاد ووهاد ، وصخور ورمال ، وجذب وخصب هي التي هيأت لامرئ القيس أن يقول ؟

يَلُودُ بِالصَّخْرِ مِنْهَا بَعْدَ مَا فَتَرَتْ مِنْهَا وَمِنْهُ عَلَى الصَّخْرِ الشَّائِبُ
ثم يقول :

يَظُلُّ مُنْجَبًا حَرًّا مِنْهَا يَرِاقِبُهَا وَيَرْقُبُ اللَّيْلَ ، إِنَّ اللَّيْلَ مَحْبُوبُ
وأن يقول زهير :

حَتَّى اسْتَفْثَاثَ بِمَاءِ لَارِشَاءَ لَهُ مِنْ الْأَبَاطِحِ فِي حَافَاتِهِ الْبُرْكَ
مُكَلَّلٍ بِأَصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ رِيحٌ خَرِيقٌ لِصَاحِي مَائِهِ حُبْكُ

٧ — كانوا حينما يصفون ينتقلون من المشبه إلى المشبه به ثم ينصرفون إليه ، ولا يعودون إلى المشبه ، وقد تقدمت لنا في هذا الأمثلة الكثيرة في الانتقال من وصف الناقة إلى وصف البقرة الوحشية ، ومن وصف الفرس إلى وصف الصيد والطرود أو العقاب أو سواها مما يشبهه الفرس في عدوه وشده .

٨ — كان وصفهم لأوانس الحيوان ، أطول من وصفهم لأوابده لإلهم إياه ، وعشرته

لهم ، ومقامه بينهم ، وعظم استفادتهم منه ، وكان نعتهم للناقة أحفل من وصفهم للفرس ، وقد عللنا ذلك قبل بأنهم كانوا ينظرون إلى القيمة النفعية للحيوان ، ولوأنهم نظروا إلى الجمال والحسن دون غيره لكان وصفهم للفرس أكثر .

على أنهم ليسوا جميعا كذلك ، فالشعراء الفرسان احتفلوا بنعت الفرس أى احتفال ، ونظروا إليه نظرة الحب يرى في كل حركة من معشوقه حسنا وجمالا .

٩ — للتشبيه عندهم المنزلة الأولى بين ضروب البيان ، وأكثر ما يستخدمون من أدواته « كأن » فهى أول ما ينظرون إليه عند إرادة التشبيه ، على أنهم لجأوا إلى المجاز والاستعارة حيناً ، وإلى الكناية الجميلة ، والإيماء الطريف أحياناً ، فمن الاستعارة قول الشنفرى :

فلما لواه القوتُ من حيث أمه دعا ، فأجابته نظائرُ نحلٍ
مُهَلِّلةٌ ، شيبُ الوجوه ، كأنها قداحُ بكفى ياسرٍ تَمَقَّلُ
ومنها قول عنتره :

له رِبْقَةٌ فى عُنْقِهِ من قَيْصِهِ وسائرُهُ عن مَتْنِهِ قد تَقَدَّدا
ومن الكناية البليغة قول المرقش الأكبر :

نبذتُ إليه حَزَّةً من شوائِنَا حياءُ ، وما غشى على من أُجالِسُ
فَأَضَ بها جَذْلانَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ كما آبَ بالنَّهْبِ السَّكْمَى المَحالِسُ
ومنها قول زهير :

أهوى لها أَسْفَعُ الحَدَّيْنِ مُطَرِّقٌ ريشَ القَوادِمِ لم يُنْصَبْ له الشَّرْكُ
لأشئٍ أجودُ منها وهى طَيِّبَةٌ نفساً بما سوف يُنْجِها وَتَتَرَكَ

١٠ — كانوا يؤثرون فى هذا الفن بالذات الألفاظ الجزلة ، والكلمات الضخمة التى تستمد جزالتها من صخور صحاريهم ، وتنال ضخامتها من جلاميد جبالهم ، فإذا انصرفوا عن هذا الفن إلى سواه رقت الألفاظ ، ولانت الكلمات ، فاستمع إلى هذه الأبيات من قصيدة النابغة يصف بها الناقة :

فمدّ عما ترى إذ لا ارتجاع له وأنهم القُتود على عَيْرَانَةٍ أُجِد
مقدوفة بدخيس النَحْضِ بازِلها له صريفٌ صريفُ القَعْوِ بالمَسَد
كَأَنَّ رَحْلِي وقد زالَ النَّهَارُ بِنَا يومَ الجَلِيلِ على مُسْتَأْنِسٍ وَحِد
من وحش وجرة موشى أكارعُهُ طاوى المصير كسيف الصَّيْقِلِ القَرْدِ

فإذا ما انتقل إلى غير ذلك الفن رق وعذب ، فقال :

فتلك تَبْلُغُنِي النِّعَمَانِ إِنِّ له فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعد
ولا أرى فاعلاً في الناس يُشَبِّهُهُ ولا أحاشي من الأقوام من أحد
إلا سليمانَ إذ قالَ الإلهُ له : قُمْ في البرِّيَّةِ فَاخْذُهَا عن الفَنَدِ
٤٦٨ : وخيسُ الجنِّ إني قد أَذِنْتُ لَهُمْ يبنون تدمر بالصَّفَّاحِ والعمد

١١ — كانوا يؤثرون مطالع القصائد وأوائلها بهذا الفن ، فهم إذا أرادوا الغزل بدعوا بوصف الأطلال ، ومنهم القليل الذي يعدو وصف الأطلال إلى النسيب ، وهذا قلما يطيل في نسيبه ، وهاك المثال :

بانت سعادُ فأَمْسَى القلبُ معمودا وأخلفتك ابنةُ الحرِّ المواعيدا
كانها ظبيةٌ بكرٌ أطاع لها من حوملٍ تلعات الجوِّ أو أودا
قامت ثريبك غداةَ البينِ مُنْسَدِلاً تخالهُ فوق متنها العناقيدا
وبارداً طيباً عذَّباً مُقَبَّلاً مُحَيِّفاً نبتةً بالظَّلمِ مَشْهُودا
٤٧٣ : وحرّةٌ خرجَ تَدْمَى مَناسِمُها أعلتها بيَ حتى تقطع البيدا

١٢ — قلما تخلو قصيدة من الوصف بمعناه الخاص أى وصف الطبيعة الحية أو الهامدة ، وقدّمنا أجزاء من الوصف هي بعض قصائد الباعث عليها الرثاء ، وفي ذلك الدليل على عنايتهم به ، والحجة على احتفالهم له ، وأنه يكاد يبلغ ثلث شعرهم ، وقد قدمنا في الفصول ما يثبت ذلك .

١٣ — كانوا يسمون الأشياء بأسمائها مهما تسكن تلك الأسماء مستهجنة مستقبحة ،

ولا يعدلون إلى الكناية لأنهم لا يعدون ذلك خروجاً على الآداب ، ولا مجافاة للأذواق السليمة ، وليس عليهم في ذلك عاب ، فإن الذي يحملنا الآن على الكناية والإيماء والإشارة عاملان : الدين الذي أدبنا بأدب القرآن ، وأخذنا بأسلوبه العفّ الرفيع ، والمدنية التي علمتنا التحرز في الأقوال دون التحفظ في الأعمال .

وقد تجنبنا عرض شعر فيه الصريح من هذه الألفاظ ، بل قد عدلنا عن نماذج بالغة الروعة تجنبنا لهذه الصراحة المقيتة في هذا العصر .

١٤ — قل الوزن القصير في شعر العصر الجاهلي ، ولعل من أبرز الدوافع إلى اختيار البحور الطويلة فنّ الوصف ، لتكون الصور التي يصورونها كاملة التكوين في البيت ؛ إذ أنهم كانوا يكرهون التضمن ، ولا يعدون إليه إلا مضطرين ، ومعلقة عبيد بن الأبرص - وهي من مخلع البسيط ، وبعضها مضطرب الوزن - على الرغم من روعة بعض صورها منظورة فيها إلى تلازم بعض الصور لبعض ، وإن لم يكن ذلك تضميناً ، فانظر إلى قوله :

فأَدَرَ كَتْمَهُ فطَرَحَتْهُ وَالصَّيْدُ مِنْ تَحْتِهَا مَكْرُوبُ
فَجَدَلَتْهُ فطَرَحَتْهُ فَكِدَّحَتْ وَجْهَهُ الْجُبُوبُ
يَضْغُو وَخَلْبُهَا فِي دَفِّهِ لَا بُدَّ حَيْرَومِهِ مَنقُوبُ

١٥ — لم يلجئوا إلى الزخرفة اللفظية متعمدين ، ولم يريدوها متكلفين ، ولكن ذلك لا ينفي أنهم جعلوا أساليبهم بالطباق ، وبغير الطباق مثل قول امرئ القيس :

مِكْرٍ مِفْرٍ ، مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَا كَجَلَمٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ

ومثل قول الشنفرى :

مُهِرَّةٌ فَوْهُ ، كَأَنَّ شُدُوقَهَا شُوقُ الْعِصَى كَالْحَاتٍ وَبُسْلُ

وقد لفتنا النظر إلى كثير من تقسياتهم التي تروع بحسنها ، وتخلب بفنها ؛ مثل :

وَأَغْضَى وَأَغْضَتْ ، وَأَتَسَى وَأَتَسَى بِهِ مَرَامِيلُ عَزَّاهَا ، وَعَزَّتُهُ مَرِمْلُ
شَكَوْشَكَتْ ، ثُمَّ ارْعَوَى بَعْدُ ارْعَوَتْ وَلِلصَّبْرِ إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ أَجْمَلُ
وَفَاءٌ وَفَاءَتْ بَادِرَاتٍ وَكُلُّهَا عَلَى نَكْظٍ مِمَّا يُكَاتِمُ مَجْمَلُ

وبعد فهذه نظرة لنا بعدها نظرة أخرى في نهاية الكتاب إن شاء الله .

الفصل السادس

الطبيعة الساكنة

الطبيعة الساكنة تنظم جميع الأشياء التي يجرى فيها ماء الحياة في السماء والأرض ، فتشمل أجرام السماء وأفلاكها ، ونجومها وكواكبها ، وسحبها وغيوثها ، ورعودها وبروقها ، كما تشمل صحارى الأرض ورياضها ، ووهادها ونجادها ، وجديها وخصبها ، وبحارها وأنهارها ، وكل ما تتذكره عقول العلماء ، وتصنعه يد الإنسان .

وإذن فإنها تنقسم إلى قسمين : الظواهر الطبيعية ، والآثار الإنسانية .

الطبيعة الساكنة عند العرب :

لم يول العرب الطبيعة الساكنة العناية التي أولوها الطبيعة المتحركة ، وليس ذلك معناه أنهم قصرُوا فيها أو صدوا عنها ، فإن لهم في تصويرها ونعتها ما يخلد به أدب أى أمة فى أى عصر ، ولكننا نقيس هذه بتلك فحسب .

كانت حياة العرب قائمة على الانتجاع والارتحال ، والتحمل والانتقال سعياً وراء الكلاً ، وبجثا عن الماء الذى ينبت الكلاً ، فيقيمون حيث يحلون خيامهم ، وينصبون أثافيهم ، ويوقدون نيرانهم ، ويجمع فتیانهم بفتياتهم ؛ إذ لم يكن هناك حجاب مضروب ، ولا شرك منصوب ؛ فالقلوب - فى أغلب أمرها - نقية ؛ والنفوس سامية عن الصفائر أبية ، فتنشأ صلات ودوح ، أكثره حب عفيف عفيف ، وبعضه حب ماجن هازل ، ثم يكون عود إلى الأوطان بعد أن جف الزرع ، وامتلأ الضرع ، واشتد القيظ ، ورمضت الأرض ، فيذكر الشعراء تلك الساعات السعيدة ، والذكرى تهيج لذى الهوى ، يذكرون ما كان بينهم من لقاء وفراق ، وقرب ونأى ، ثم يصفون الأماكن التى نزلوا بها ،

والديار التي رحلوا عنها ، والملاعب التي لعبوا فيها ، ويبكون الأطلال التي خلفوها ، والآثار التي تركوها ، يصلون هذه النعوت بالنسيب ، ويربطون الوصف بالنسيب ، وقل أن تجد نسيبا ليس مسبوqa بوصف للأطلال ، ومشفوعا بوصف للظعان ^{في الحالة} .
لذلك كان وصف الأطلال أهم أوصاف الطبيعة الساكنة ، وأكثرها في شعرهم ^{ذكر الشعر والنحو والنحو} تناولا ، وقد يدفعهم الشوق إلى الحبيب ، والوله بالمعشوق إلى وصف الليل وطوله ، والسهد وأثره ، والنجوم ووقوفها ، والشهب وثباتها .

وإذن فإننا نستطيع أن نحكم بأن النسيب ، وهو من الأغراض الأولى في الشعر العربي كان أحد بواعث وصف الطبيعة الساكنة .

والعرب يعيشون على الغيث ، فهو منبت كلهم ، وباعث زروعهم ، وحياة ضرعهم ، بل الغيث حياة بلاد العرب ، إذ ليس فيها أنهار جارية ، ولا عيون ثرور ، فإذا ومض البرق ، أو قصف الرعد ، أو سقط الغيث ، أو كسا السحاب السماء عباءته السوداء أذنتهم السعادة ، وواتام رغد العيش ، ففاضت قرائح الشعراء ، وجرت خواطرهم بنعت هذه الظواهر ، فكان وصفهم لها أقوى من وصف مظاهر الأرض عدا الأطلال .

أما وصف الصحراء ، وما تشتمل عليه ، وما يظهر فيها فإنه يحجى تبعا لوصف الطبيعة الحية التي تسكن الصحارى ، وتعيش في التنايف ، فهم يصفونها حينما يعرضون لوصف حيوانها ، فيصفون امتدادها ، أو رمالها ، أو سرابها ، وقد يصفون جوها : بردها وحرها في أبيات قليلة ، ومعان محدودة .

ولأن بلاد العرب ليس فيها أنهار ولا بحار ، فوصف هذين القسمين من أقسام الطبيعة الساكنة ضئيل أو يكاد يكون معدوما إلا إذا جاء عارضا ، كوصف الليل بموج البحر ، أو كوصف نهر الفرات في شعر النابغة ، وقد كان من الشعراء الرحالين ، أو النيل في شعر الأعشى .

فإذا ما انتقلنا إلى وصف الآثار الإنسانية ألفتنا أكثرتهم أهل قصف وجون ، ولهو وعبت ، فرأينا الخمر أهم ما عنوا به من وصف هذه الآثار ، يصفونها ، ويصفون

كثوسها ، ويصفون سقاتها ، وندمانها ، بل يصفون آثارها في شاريها ، ويولونها
الحظ الكبير من العناية والتقدير .

والعرب شعب حربي أوتي أبنؤه صلابة وجلدا ، وعرامة وعزما ، ومنحتهم بيئتهم
شراسة ونخوة ، وحرية ومروءة ، فهم لا يقيمون على ضيم ، ولا يرضون بالهون ، فلا تهدأ
سواكنهم ، ولا تخمد خواطرهم ، فحروبهم مشتتة ، وغارات بعضهم على بعض متصلة ،
وأيامهم متلاحقة ؛ وعدوانهم على جيرانهم مستمر ؛ فلا غرو أن يصفوا أسلحتهم ؛ وأن
يتغنوا بعنادهم ؛ بل أن ينسبوا إلى أوطانها ؛ أو إلى صياقلتها ومثقيها اعتزازا بها ؛
وافتنارا بصنعها .

ولا غرو كذلك أن يصفوا الجيوش وكتائبها ؛ والأبطال وأيامها ؛ والحروب وآثارها ؛
سيان في ذلك من يدعو إليها ؛ ومن ينفرد منها .



٢ — وقال زهير بن أبي سلمى * في مطلع معلقته :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلِّمْ بِحُومَانَةِ الدَّرَاجِ فَلَمْ تُشَلِّمْ؟ (١)
 ودار لها بالرقمتين كأنها مراجعُ وشمٍ في نواشِرِ معصم (٢)
 بها العينُ والآرامُ يمشينَ خلفه وأطلاؤها ينهضنَ من كلِّ مَجْم (٣)
 وقفتُ بها من بعد عشرينَ حِجَّةً فلايًّا عرفتُ الدَّارَ بعدَ تَوْهَم (٤)
 أنافي شَفْعًا في مُعرَّسٍ مرَّجَلٍ ونوئًا كجِذْمِ الحَوْضِ لَمْ يَتَلَم (٥)
 ٤٨٥ : فلما عرفتُ الدَّارَ قلتُ لربِّها ألا انعمَ صباحًا أيُّها الرِّبْعُ واسلم (٦)

* ترجمته الشاعر : انظر ترجمته في وصف الناقة ص ٨٨ .

التفسير المفرد : (١) أم أوفى : زوج زهير طلقها ، وأراد مراجعتها فأبت ، فكان يذكرها في شعره . الدمنة : ما اسود من آثار الديار . لم تكلم : لم تتكلم ، وترد على من يخاطبها . الحومانة : الأرض الغليظة . الدراج فالتشلم : موضعان بالعالية . (٢) بالرقمتين : بين الرقمتين ، والرقمتان إحداها قرب البصرة ، والأخرى قرب المدينة ، وهما متباعدتان . مراجع : أو مراجيع جمع مرجوع وهو المحدد . الوشم : الفرز بالإبر حتى يسيل الدم ، ثم يذر عليه السكل ليسود . النواشر : جمع ناشرة عروق المعصم . والمعصم : موضع السوار من اليد . (٣) العين : جمع عيناء ، وهى البقرة الوحشية الواسعة العينين . الآرام : الظباء الخالصة البياض : خلفه : متتابعة يخلف بعضها بعضا . الأطلاء : جمع طلا وهو ولد الظبي . مجثم : مكان الجثوم . والجثوم : التلبد بالأرض . (٤) بها : بالدار أو يقصد بمكانها إذ هى قد زالت . حجة : سنة . فلايًّا : فجهداً ومشقة . بعد تَوْهَم : بعد تفرس وطول تأمل . (٥) أنافي : جمع أنفية ، والأنافي ثلاثة أحجار توضع عليها القدر ، ويقال : رماء الله بثلاثة الأنافي أى بدهاية عظيمة كالجلبل ، لأنهم كانوا إذا لم يجدوا أنفية جعلوا الثلاثة الجبل يسندون عليه القدر . المعرس هنا : موضع الرجل ، والأصل مكان النزول ليلا . النوئى : حاجز من تراب يرفع حول البيت لئلا يدخله الماء . الجذم : الأصل . لم يتلَم : لم يتهدم . (٦) الربع : مكان الإقامة في فصل الربيع ، ثم أطلق على كل منزل . انعم صباحا : طب صباحا ، ومثله عم صباحا وتقدير الماضى منه وعم يعم ولا ينطق به ، وكان دعاء للملوك ، ويخص الدعاء بالصباح ، لأن الغارات كانت تبدأ صباحا . اسلم : من الشكبات والنوازل .

تحليل الأبيات :

أمن دمن زوجي الغالية التي قلتني عن حب ، وهجرتني عن ودّ ووجد ، دمنة أسأله
فلا تحيب سؤلى بعد طول العهد ، وأناجيه فلا تبادلني النجوى مع حرقة البعد ؟ تلك
الدمنة في حومانة هذين الموضعين .

كان لأم أوفى أكثر من دار ، فلها أخرى بين الرقتين : رقتي البصرة والمدينة ،
قد انمحت أعلامها ، ودرست آياتها ، فصارت الرسوم والآثار بعد أن جرى عليها السيل
والطر كالوشم المجدد في عروق المعصم ، بعد أن كانت تحمل هذه الدار الزوجة الغالية ، والحبيبة
الغانية صارت مرتع البقر الوحشي الواسع العيون ، والآرام الخالصة البياض ، ينتقلن فيها
من مكان إلى مكان ، ويتبع بعضها بعضا من مناخ إلى مناخ ، وأطلاء هذه البقرات
والظليبات ينهضن من مجاثمن مرحات نشيطات . وقفت على تلك الدمن أتعرف موطن
الحبيبة ، وأتبين دار الفاتنة الغالية بعد فرقة طالت دون أن أنسى ذكرها ، إنها فرقة
عشرين عاما ، فبعد جهد ومشقة ، وطول تفرس وتأمل عرفت موقع الدار ، وموطن الأحباب .
ماذا رأيت ؟ رأيت أنافي سودا ، قد اختلطت الحمرة بسوادها في مكان الرجل منها ،
وتبينت النوى الذي كان يحجز عنها الماء عندما يفيض السيل ، كأنه أصل الخوض لم يتهدم ،
وإذ كانت هذه الأشياء هي التي دلتني على آثار الدار ، فقد أخذت أدعو لها بالخير والسلام .

النقر :

بدأ زهير قصيدته بذلك الاستفهام التحسري ، فكان قويا في مطلعته ، وإن ضاقت
ألفاظ البيت عن معناه ، وفي بيته الثاني أشعرنا أن أم أوفى من ذوات الثراء والسراء ، فلها
أكثر من دار تتنقل فيها كلما أرادت النقلة ، وكذلك جاءت ألفاظ البيت أضيق من معناه ،
وإن تسكن الصورة التي صور بها فعل الأمطار والسيول في ذلك المكان صورة واضحة ،
دلت فيما دلت على أن عادة الوشم عادة بعيدة القدم ، وأوضح من هذه الصورة وأجمل ،
الصورة في البيت الثالث فهي صورة كاملة لا ينقصها من أسباب الحسن والجمال شيء ، أما
الصورة في البيت الخامس فصورة غير دقيقة وإن حاول الشاعر أن يهب لها الدقة بذلك
الاحتراس في آخر البيت ، ولم يفت الشاعر أن يدعو للدار بالنعمى ، وأن يتنى لها السلامة
من الغارات والنكبات .

٣ — وقال لبيد بن ربيعة العامري* في مطلع معلقته :

عفت الديار محلها فقامها بمنى تأبّد غولها فرجامها^(١)
مدافع الريان عرّى رسمها خلقاً كما ضمن الوحي سلامها^(٢)
دمن تجرم بعد عهد أنيسها حجج خلون حلالها وحرامها^(٣)
رُزقت مرايع النجوم وصابها ودق الراعد جودها فرهامها^(٤)
من كل سارية وغادٍ مدجنٍ وعشية متجاوبٍ إرازامها^(٥)
٤٩١ : فعلا فروع الأبهقان وأطفلت بالجلهتين ظباؤها ونعامها^(٦)

* ترجمه الشاعر : انظر الترجمة في وصف الأوابد ص ١٤٦ .

التفسير اللغوي : (١) عفت الديار : درست وزالت معالمها . المحل : الموضع يحل به القوم أياما ، ثم يرتحلون . المقام : ما طالت الإقامة به فهو ضد المحل . منى : موضع في ديار بني عامر . غولها فرجامها : موضعان . تأبّد : توحش .

(٢) مدافع : مجارى الماء جمع مدفع بفتح الميم . الريان : اسم جبل . الخلق : البالى . الوحي : الكتابة ، وجمعه بضم الواو . سلامها : حجارتها جمع سلمة .

(٣) دمن : جمع دمنة ما اسود من الآثار . تجرم : انقضى بتمامه . حجج : سنوات . خلون : مضين . حلالها وحرامها : أشهر الحل والحرم .

(٤) مرايع النجوم : الأتواء الربيعية مفردة مربع . الودق : المطر . الجود : الغزير من المطر . الرهام : المطر اللين .

(٥) السارية : السحابة الممطرة ليلا . الغادى : السحاب الممطر غدوة . المدجن : السحاب المطبق يغطى آفاق السماء . الإرزام : الصوت ، ويقصد صوت الرعد .

(٦) الأبهقان : نبت يطول عريض الورق أحمر الزهر يؤكل واحدة أبهقانة ، أو هو الجرجير البرى . أطفلت صارت ذوات أطفال . الجلهتان : مثني الجلهة وهى جانب الوادى .

والعينُ ساكنةٌ عَلَى أَطْلَافِهَا عُوْذًا تَأْجِلُ بِالْقَضَاءِ بِهَامِهَا (٧)
 وَجَلَّ الشَّيْوَلُ عَنِ الطَّلُولِ كَانَتْهَا زُبُرٌ تَجِدُ مُتَوْنَهَا أَقْلَامُهَا (٨)
 أَوْ رَجَعُ وَاشْمَةِ أَسْفَ نَثُورِهَا كَيْفَ تَعْرِضُ فَوْقَ هِنَ وَشَامِهَا (٩)
 ٤٩٥ : فَوْقَتْ أَسَافُهَا ، وَكَيْفَ سُؤْأَلْنَا صَمًّا خَوَالِدَ مَا يَبِينُ كَلَامُهَا؟ (١٠)



(٧) العين : البقر الوحشي الواسع العيون ، مفرد لها عيناء . الأطلاء : أولاد البقر الوحشي . العوذ : جمع عائد الحديثة النتاج . تأجل : تصير آجلا جمع إجل ، وهو القطيع من بقر الوحش . البهام : جمع بهمة بفتح الباء ولد الضأن ، والمقصود هنا ولد البقرة الوحشية .
 (٨) جلا : كشف . زبر : جمع زبور الكتاب . تجد : تجدد . المتون : الظهور جمع متن .
 (٩) الرجع : التريد . أسف ثورها : ذركلها . الكفف : جمع كفة . تعرض : ظهر .
 (١٠) الصم : الصلاب الواحد أصم . خوالد : بواق . الدارات .

تحليل الآيات .

عفت ديار أحبابي ومحيت آثارها ، لافرق بين ديار يحل فيها للاستقراضة والاستراحة ، ثم يرحل عنها ، وبين ديار يقام فيها ، ويطول السكن إليها ، تلك الديار بمنى قد توحشت وتوحش مايجاورها ، فتوحش غولها ورجامها ومجارى المياه في جبل الريان ، عرت رسمها السيول ، وكشفت آثارها الأمطار ، حتى أصبحت تلك الرسوم بالية ، وهذه الآثار خلقة ، وإن كان لا يزال للرسوم بقية ضئيلة تشبه الكتابة فوق الأحجار .

هذه الدمن السود انقضى عليها من يوم رحيل أهلها عنها حجج كثيرة ، وسنوات عدة ، اشتملت هذه وتلك على الأشهر الحل والحرم ، وهذا تأكيد للمعنى ، إذ السنة الواحدة تستمل عليهما ، ولقد رزق الله تلك الآثار من أنواء الربيع المطر الغزير ، الذى يصحبه الرعد القاصف ، فأمرعت تلك الحلة وأعشبت ، وكيف لا تفرع وتعشب ، والأمطار تنسكب عليها بالليل والنهار ، فى المساء والصباح ، تتجاوب رعودها ، ويتسامع الناس قصفها ، فاستطال النبات ، وأطلقت الطباء ، وباض النعام فأفرخت فى جانبي الوادى ، إذ خلا المكان من السكان ، فأمن على أطفالهن وفرادهن ، والأبقار الوحشية ساكنة إلى أطلالها ترضعها ، إذ هى حديثة عهد بالنتاج ، وأولادها تصبح قطعانا فى تلك الفلاة التى أصبحت مرتع الأوابد بعد أن كانت مرتع الأوانس .

وكان من آثار هذه الأمطار الغزيرة ، والسيول المنهمرة أن كشفت السيول عن تلك الطلول ، التى غطاها التراب ، حتى لكأنها كتب خفيت سطورها لطول عهد كتابتها ، فجاء كاتب فجدها بأقلامه ، أو كأن هذه السيول فى كشفها الآثار امرأة واشمة عمدت إلى وشم قد وهى أثره فى اليد ، وضعف ظهوره ، فأعادته بالفرز وبذر الكحل عليه ، فعادت داراته واضحة كما كانت .

وقفت أنفرس هذه الرسوم وأناملها ، ثم أخذت أناجيتها وأسائلها ، وكيف لى بمناجاة الصم الصلاب ؛ وكيف بمساءلة أحجار لا يبين كلامها ، ولا يظهر حديثها ؟ أسأل من لا يجيب عن أولئك الأحباب ؟ أناجى من لا يبين بحديث الحب والشوق ، والوجد والهوى ؟ إن الوجد يذهل العقل ، وإن الهوى يسلب اللب .

النقد :

ألقى الشاعر الخبر دون تأكيد كأن المخاطب مؤمن بصدقه ، موقن بصحة حديثه ، لذلك كان هذا الخبر أوثق من الإنشاء حديثاً ، وزاد الكلام حسناً ذلك التفصيل بعد الإجمال ، محلها مقامها ، وغولها فرجامها ، وإذن فالبيت الأول قوى كل القوة ، وتشبيهه ما بقى من الآثار بما بقى من الكتابة فوق الأحجار تشبيه بديع غريب على الشعر العربي لم نقرأ لشاعر آخر غير لبيد ، قرأنا تشبيه زهير وطرفة وهما :

ودار لها بالرقمتين كأنها مراجع وشم في نواشر معصم
نخولة أطلال بريقة شهمد * * * تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقد أورد هو هذا المعنى في قوله .

أورجع واشمة أسف نثورها كنفقا تعرض فوقهن وشامها
أما البيت الثالث :

دمن تجرم بعد عهد أنيسها حجاج خلون حلالها وحرامها
فيشبهه قول زهير :

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلاياً عرفت الدار بعد توهم
وبيت زهير أجمل ، وعندى أن « حلالها وحرامها » حشولاً كل سنة تشتمل على هذه الأشهر ، وجميل منه ذلك الطباق « من كل سارية وغاد مدجن » أو ذلك التقسيم في البيت نفسه :

من كل سارية وغاد مدجن وعشيرة متجاوب إرزامها .

إن هذه الأبيات أوفى معاني ، وأكثر صوراً ، وأدق تصويراً من قطعي امرئ القيس وزهير ، ولعل ذلك أنه كان أشد منهما تأثراً بموضوعه ، ولولا بعض كلمات فيها ثقل كقوله : الأيهقان ، وبالجلهتين ، واجتماعهما في بيت واحد لقلنا إنه بلغ غاية الكمال .

٤ — وقال النابغة الذبياني في مطلع معلقته :

يادارَ مِيَّةَ بالعلياءِ فالسَّندِ أقوتَ وطالَ عليها سالفُ الأمدِ (١)
 وقفتُ فيها أصيلاً أُسألُها عيَّتَ جواباً، وما بالرَّبعِ من أحدِ (٢)
 إلّا أوارى لآيَا ما أبينُها والنَّوى كالحوضِ بالملومةِ الجلدِ (٣)
 ردتْ عليه أقاصيه ولبده ضربُ الوليدةِ بالمسحاةِ في الثَّادِ (٤)
 خلتُ سبيلَ أتى كانَ يحبسُهِ ورفعتُهِ إلى السَّجفينِ فالنَّضدِ (٥)
 ٥٠٢: أختُ خلاءَ ، وأضحى أهلُها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبدي (٦)

ترجمته الشاعر : انظر ترجمته في وصف الأوابد ص ١٥٤ .

التفسير اللغوي : (١) مية : اسم محبوبته . العلياء : مكان مرتفع من الأرض . السند : ما قالك من الوادى ، وعلا من السفح . أقوت : أفقرت من أهلها . سالف الأمد : ماضى الدهر . (٢) أصيلاً : الأصيل الوقت قبيل المغرب ، وأصيلاً البدل ، إذ تصغيره على أصيلان ، فأبدل بالنون اللام ، وأصيلان أصلها إعلان الذى هو جمع أصيل كـ رغيف ورغفان ، وخطئوا من قال بهذا ؛ لأن الجمع لا يصغر إلا إذا كان من جموع القلة ، وهى :

أفعلة أفعّل ثم فعله ثم أفعال جموع قلة

وقالوا بل هو مصدر مثل التكلان والغفران . عيت : عجزت .

(٣) الأوارى : مفردا آرى ، وهو معلف الدابة ومحبسها . لآيا : جهدا ومشقة . أبينها : أستبينها . النوى : الحاجز من التراب يجعل حول البيت والحيمة ليمنع وصول السيل . الظلم : وضع الشئ فى غير محله ، والمظلومة : الأرض التى قد حفر فيها فى غير موضع الحفر . الجلد : الأرض الغليظة الصلبة من غير حجارة . (٤) أقاصيه : جمع أقصى ، وهو ما بعده ، وضده أدنى . لبده : ألصق التراب بعضه ببعض . الوليدة : الخادم الشابة . الثَّاد : المكان الذى التراب . (٥) خلت : تركت . الأتى : السيل يأتى من بلد إلى بلد . يحبس : يمتنع . السجفين : مثنى سجن ، وهو الستريكون فى مقدم البيت . النضد : ما ضد ونسق من متاع البيت .

(٦) أمست : يريد صارت . خلاء : خالية من السكان . احتملوا : ارتحلوا . أخنى عليها . غيرها وأفسد آياتها . لبدي : آخر نسور لقمان بن عاد ، وهو غير لقمان الحكيم الوارد فى القرآن الكريم ساء لبدا لأنه ظن أنه أبدي فلا يموت ، ولا يذهب ، وزعموا أنه حين كبر ، قال له : انهض لبدي فأنت نسر الأبد .

تحليل الأبيات :

يناجي الشاعر الديار ، ويتمنى أن تشاطره المناجاة ، تلك الديار الواقعة بين العليا
فالسند ، أقمرت من أهلها ، وطال إقمارها ، وبعد العهد بسكانها ، لقد وقفت في رسوم
هذه الديار ساعة الأصيل ، وقد تراجعت في نفسى الذكريات ، وتجاوبت العواطف والأفكار ،
وقفت أسائلها عن الأحباب الذين كانوا يسكنونها ، والأصدقاء الذين تساقينا وإياهم كئوس
الهوى ، فلم تحر جوابا ، فعجزت عن التعبير ، وكيف تعبر وقد خلت من الأنيس ؟
ليس في رسوم هذه الدار إلا محاسن الدواب ومعالف الحيوان ، وحتى هذه لا يكاد
الرأى يتيقنها ، وإلا النوى الذى كانوا يقيمونه مانعا للسيل ، فهو كالخوض فى الأرض
الصلبة الصماء ، لبد ترابه ، حتى يستقر بعضه على بعض .

خلت الخادم السبيل للسيل المنهمر ، والأنى المنسكب الذى كان ذلك النوى يحبس عنه
الدار ، وبلغ سحفا البيت ، بل تجاوزها إلى متاعه المنضد ، وأساسه المنسق ، فليس ما يدعو
إلى حجز الماء عنها ، فقد أفضت خالية من قاطنيتها الذين احتملوا عنها ورحلوا منها ؛ فغيرها ،
وأذهب آياتها القادر على تغيير كل شيء ، وإزالة آثار كل حي ، «أخنى عليها الذى أخنى على لبد»

الفقر :

النابعة فى هذه الأبيات دون قدره ، وقد دفعه الإيجاز إلى تحميل شعره معانى أكثر
مما تحتمل ، فقد نادى الدار ثم لم يذكر سبب النداء ، إنه يريد أن يتحدث إليها عن
حبيبته ، أين ذهبت بها الأيام ؟ وكيف كان حالها عند احتماها ؟ إلى آخر هذه المعانى التى
ترد بخاطر من يريد إلى الدار خطابا ، وكأنى بالنابعة ناقض نفسه ، فقد نادى الدار ، وأخذ
يسائلها فميت بالجواب ، وما بالربع من أحد ، فهو يعلم هذا قبل سؤالها إذ يقول :

« أقوت وطال عليها سالف الأمد » وإذن فما كان ينتظر الجواب من السكان بل من
الدار ، والأبيات الثلاثة الأخيرة ليس فيها جمال إلا ذلك الذى يدل على شرفه ومسرته ،
فالوليدة تضرب بالمسحاة فى الثأد ، ورفعته إلى السجفين ، وليس كل الناس لديارهم
سجوف ، والشرط الأخير جماله أنه جرى مجرى المثل .

٥ — وقال المرقش الأكبر* من قصيدة أولها :

هل تعرف الدار عفارسمها إلا الأثافي ومبني الخيم^(١) ؟
 أعرفها داراً لأسماء فالد دمع على الخدين سح سحيم^(٢)
 أمست خلاء بعد سكائها مقفرة ما إن بها من إرم^(٣)
 إلا من العيين ترعى بها كالفارسين مشوا في الكمم^(٤)
 ٥٠٦ : بعد جميع قد أراهم بها لهم قباب وعليهم نعم^(٥)

* ترجمته الشاعر : انظر ترجمته في وصف ذئب أطعمه ص ٢٠٩

التفسير اللغوي : (١) عفارسمها : زال أثرها . الأثافي : جمع أثفية ، وهي ثلاثة أحجار توضع فوقها القدر . الخيم : جمع خيمة وهي بيت يبنى من عيدان الشجر ، فإذا كان من صوف أو شعر فهو بيت ، وقيل : تطلق الخيمة على جميع ذلك .

(٢) أسماء : هي معشوقته ، وكانت ابنة عمه عوف بن ضبيعة . سح : مصبوب . سحيم : سائل .

(٣) أمست : صارت ويصح أن يراد بها معناها الحقيقي ؛ إذ كانوا يرحلون ليلاً ؛ ليكون ذلك أطيب للسفر ، وأيسر على الظعائن . خلاء : خالية . من إرم : من أحد ، أو من إرم من علم يدل عليها .

(٤) العيين : جمع عيناء البقر الوحشي ، ولقب بهذا السعة عينونه . ترعى . ترعى ، والتشديد يزيد الفعل قوة ، فكأنه يقول ترعى كثيراً . الكمم : جمع كمة القلائس .

(٥) بعد جميع : بعد حي . قد أراهم بها : قد كنت أراهم بها . قباب : جمع قبة وهي بناء سقفه مستدير مقعر . عليهم النعم والرغد وهناء العيش .

تحليل الأبيات :

يناجي الشاعر قلبه ويسأله : أهو يعرف الدار التي محيت آثارها ، ودرست رسومها ، وطمست معالمها ، ولم يبق منها إلا الأثاث ، وما أضال شأنها وأهون أمرها ، وإلا أصل الخيام ؟ وقد أجابه قلبه الجياش بالحب الفياض بالحس ، إنه يعرفها ؛ لأنها دار أسماء العزيزة عليه ، الأثيرة لديه ، فشموره الباطني يوحى إليه بمكانها ، وإن لم يبق من تلك حتى الأثاث ، ولذلك فدموعها على خديها منصبة ، وعبراتها من مقلتها منمهرة .

وا أسفاه ! لقد أُمست تلك الدار خالية من سكانها ، مقفرة من قطانها ، فليس بها من أحد ، لقد احتملوا ليلا ؛ لأنهن منعمات مرفهات لا يمتلن سفر النهار ، ولا يستطعن الظن في حرارة الشمس .

أفقرت تلك الدار من الإنس فعرها الوحش ، كانت تسكنها أسماء الحساء ، فأضحت تسكنها البقرة العيناء ، ترعى عشبها ، وتمرع في مراعيها ، فالبقر لاختياهن بجماهن ، ولبياضهن ، واستدارة قرونها حول رؤوسهن يشبهن الفرس يختالون في قلائسهم .

بعد حي أقنأ فيه حيناً ثم تركناه قد أراهم يجتمعون بهذه الدار مرة أخرى ، لهم قباب مرفوعة ، وخيام منصوبة ، وعليهم نعمة سابقة ، وفيهم هناة صافية .

النقر :

معاني المرقش فيها جدة وطرافة لم ترد في شعر من عرضنا بعض أوصافهم للأطلال ، من ذلك مناجاته قلبه ، وادعاؤه أن قلبه هو الذي عرف دارها ، هو لم يذكر قلبه صراحة ، ولكن السياق يعينه ، ثم هذا التشبيه في البيت الرابع فيه صورة جميلة :

إلا من العين ترعى بها كالفارسين مشوا في السكم

فتصوير القرون تتلاقى فوق رؤوس البقر بالقلانس فوق رؤوس الفرس تصوير لم يقع لشاعر سواه ، وإذا كان لنا ما نأخذه عليه ، فهو الغموض في البيت الأخير ، وقد شرحناه كما هدانا إليه فكرنا ، وشرحه غيرنا غير هذا الشرح ، ولعلنا أن نكون أقرب إلى الصواب .

٦ — وقال بشامة بن الغدير* من قصيدته التي أولها :

لَمَنِ الدِّيَارُ عَفَوْنَ بِالْجَزَعِ بالدَّوْمِ بَيْنَ بُحَارٍ فَالْشَّرْعِ^(١)
 دَرَسَتْ وَقَدِيقَتْ عَلَى حَجَجٍ — بعدَ الأُنَيْسِ عَفَوْنَهَا — سَبْعِ^(٢)
 إِلَّا بَقَايَا خَيْمَةٍ دَرَسَتْ دَارَتْ قَوَاعِدُهَا عَلَى الرَّبْعِ^(٣)
 فَوَقَّتْ فِي دَارِ الْجَمِيعِ وَقَدْ جَالَتْ شُئُونُ الرَّأْسِ بِالْذَمْعِ^(٤)
 كَمَرُوضٍ فَيَاضٍ عَلَى فَلَجٍ تَجَرَّى جَدَاوُلُهُ عَلَى الزَّرْعِ^(٥)
 ٥١٢ : فَوَقَّتْ فِيهَا كِي أُسَانِلَهَا غَوَجَ اللَّبَانِ كَطَرَقِ النَّبْعِ^(٦)

* ترجمته الشاعر : انظر ترجمته في وصف الناقة ص ٧٤ .

التفسير اللغوي : (١) عفون : درسن وزلن . الجزع : منعطف الوادى حيث انحنى .
 الدوم ، وبحار ، والشرع : أسماء أمكنة .
 (٢) درست : زالت . حجج : جمع حجة سنوات . بعد الأنيس : بعد السكان المؤنسين .
 عفونها : محونها . سبع : صفة لحجج ، والفصل بين الموصوف والصفة قبيح .
 (٣) تقدم أن قلنا : إن من رجال اللغة من يقول الخيمة بناء من شجر ، فإذا كان من صوف
 أو شعر مسمى بيتاً ، وقد يطلق على الجميع . دارت قواعدها : مالت قواعدها وأسسها . الربع :
 دار الربيع ، ثم أطلقت على كل دار .
 (٤) دار الجميع : الدار التي يجتمع فيها الحى . جالت : دارت واضطربت . شئون : جمع
 شأن ، وهو العرق الذي يجري منه الدمع .
 (٥) العروض : النواحي . القياض : الماء الكثير الفيضان . الفلج : النهر العظيم .
 الجداول : النهرات الصغيرة مفردها جدول .
 (٦) غوج اللبان : اللبان الصدر ، وغوج واسع الجلد ، فهو يضرب لسعته . كطرق النبع :
 كالقضيبي من شجر النبع .

تحليل الأبيات :

يتساءل الشاعر في لهفة الفزع الجزع عن أصحاب هذه الديار المقامة بمنعطف الوادى من الدوم بين بحار والشرع فقد عفون ، وزال أثرهن ، وطمست آياتهن ، درست واستمر دروسها سبع سنوات ، ليس بها أنيس تسكن النفس إليه ، وتقرّ العين به ، ويطمئن القلب له .

لم يبق من هذه الديار شيء حتى البقية الباقية من جذوعها درست وعفت ، ومالت قواعدها ، ودارت قوائمها التي كان يقوم عليها ذلك الربع ، فوقفت في الدار التي كانت مجتمع الحى ، ومنتدى القوم ، فأخذتني العبرات ، وجالت في شئوني الدموع ، فإذا دموعي تجري في مجارى الدمع فياضة غزيرة ، فتمتدّ وتفرق كالنهر يفيض بمائه الغزير في نواحيه وعروضه ، فتجري منه جداول ذات اليمين وذات الشمال فوق الزرع .

وقفت في آثار هذه الديار أمتطى فرسا قد ضمّر جسمه ، واتسع جلد صدره لأسائلها أحاديثها عن ساكنيها ، ولأبادلها النجوى عن كان يحل بها من أولئك الذاهبين .

النقد :

لا أظن بشامة بن الغدير وهو يسأل عن أصحاب الديار العافية يجهل هؤلاء الأصحاب ، وإنما هو تجاهل العارف بعثه في نفسه أنه لا يرى أولئك الأصحاب الأخلاء ، كما لا أظن أنه يعنى هؤلاء الأخلاء صاحبة أو خليطة ، فقد أعفاه الله من العشق ، ولكنه يعنى الأخلاء والخلصاء ، أولئك الذين كان يجتمع بهم في حبيهم ومنتدياتهم ، أليس قوله ؟ فوقفت في دار الجميع وقد جالت شئون الرأس بالدمع

دليلا على هذا ؟

وليس في الأبيات من المعاني ما يبهر ، ولا من الصور ما يسحر ، وأحسب أن تشبيهه الدفع بالنهر الكبير يتفرع إلى جداول تسقى الزروع تشبيهه ليس فيه دقة الصور ، ومراعاة أجزاء الصورة .

٧ — وقال الحارث بن حنظلة اليشكري :

- لَمِنْ الدَّيَّارِ عَفُونٌ بِالْحَبْسِ ؟ آيَاتُهَا كَهَمَارِقِ الْفُرْسِ (١)
 لَأَشْيٍ فِيهَا غَيْرُ أَصْوَرَةٍ سَفَعِ الْخُدُودِ يَلْحَنُ كَالشَّمْسِ (٢)
 أَوْ غَيْرِ آثَارِ الْجِيَادِ بَأْغِ رَاضِ الْجِمَادِ وَآيَةِ الدَّعْسِ (٣)
 غَبِسْتُ فِيهَا الرِّكْبَ أَحَدِسُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ وَكُنْتُ ذَا حَدْسِ (٤)
 حَتَّى إِذَا التَّفْعُ الظُّبَاءُ بِأَطْرَافِ الظَّلَالِ وَقَلْنُ فِي السُّكُنْسِ (٥)
 وَيُسْتُ مِمَّا قَدْ شَفِغْتُ بِهِ مِنْهَا وَلَا يُسْلِكُ كَالْيَأْسِ (٦)
 أَمِّي إِلَى حَرْفٍ مُذَكَّرَةٍ تَهْصُ الْحَصَى بِمَوَاقِعِ خُنْسِ (٧)

٥١٥ :

* ترجمته الشاعر : هو الحارث بن حنظلة بن مكروه بن يزيد بن عبد الله بن مالك اليشكري من شعراء العراق ، وهو شاعر خلل يضرب به المثل في الفخر ، فيقال أغر من الحارث بن حنظلة ، وهو من أصحاب المعلقات ، وزعموا أن معلقته ارتجلها بين يدي عمرو بن هند ، وقال الأصمعي إنه ارتجلها وهو ابن مائة وخمسة وثلاثين سنة وقد توفي حوالي سنة ٥٧٠ م .

التفسير اللغوي : (١) عفون : درس . الحبس : اسم موضع . آياتها : علاماتها وأعلامها . مهارق : جمع مهرق بضم الميم وفتح الراء ، قال في اللسان وهي الصحيفة البيضاء يكتب فيها ، فارسي معرب ، والجمع المهارق قال حسان :

كَمْ لِلنَّازِلِ مِنْ شَهْرٍ وَأَحْوَالٍ لَّالِ أَسْمَاءٍ مِثْلَ الْمَهْرَقِ الْبَالِي
 وقال الحارث بن حنظلة : « آياتها كهمارق الحبش » وهو خطأ من ابن بري إذا الروي السين كما ترى . (٢) الأصورة : جمع صوار بضم الصاد وكسرهما قطعان البقر . سفع : جمع أسفع وهو الأسود المشرب بالحمرة . يلحن : يظهرن . (٣) الأعراض : جمع عرض بضم العين النواحي . الجماد : مفردة جمد مثل رمح ورمح المرتفع من الأرض ، واستشهد اللسان بقول امرئ القيس :

كَأَنَّ الصَّوَارِ إِذْ يَجَاهِدُنْ غَدَوَةً عَلَى جَمْدِ خَيْلٍ تَجُولُ بِأَجْلَالِ
 الدَّعْسُ : الوطء . وآيته : أثره وعلامته . (٤) أحدس : أظن . (٥) قلن : من القيولة ، وهي نوم نصف النهار . الكنس : جمع كناس ، وهي بيت الظبي يحفره في أصل الشجرة ليستتر بها . (٦) شغفت به : أغرمت به . لا يسليك : لا يخفف عنك . (٧) أممي : أرتفع . الحرف : الناقة الماضية . المذكرة : التي تشبه الفحل في صلابتها . تهص الحصى : تدق الحصى فتكسره . المواقع : المطارق مفردة ميقعة . الخنس : القصار الأنوف ، مفردها خنساء .

تحليل الأبيات :

لمن هذه الديار التي عفت آثارها ، واحت أعلامها بالحبس ؟ إن أعلامها البيض ، وآياتها الواضحات كانت تبدو كالصحف البيضاء التي تنسب إلى أبناء الفرس ، أضحت وليس فيها إلا قطعان البقر الوحشي السفع الخدود ، البيض الظهور ، التي تبدو كأشعة الشمس سطوعا ، وليس فيها غير آثار الجياد ، تبدو في نواحي تلك الديار ، وفي مجادها ومرتفعاتها ، فترى آثار وطئها ، ومظاهرها ركضها .

لقد وقفت عند تلك الديار أجدس وأخن ، وأنفوس وأنجم ، أين أولئك الذين عمروها ؟ أين الخنس الجوارى الكنس اللأى ملأها جمالا وفتنة ؟ أين ملاعبهم وملاعبين التي كنا نقضى فيها أوقات الهوى ، وسويغات اللهو ، أين وأين ؟ وماذا ينفع التساؤل ؟ إنه يجدد الحسرات ، ويبعث دقان الهموم والأحزان . وحين توسطت الشمس كبد السماء ، وفاءت الظباء إلى الظلال ، وقلن في الكناس ، ويئست من بعث الذكريات التي شغفت بها ، وأيقنت أنها لا ترد ماضيا ، ولا تعيد ذاهبا ، كان ذلك اليأس سلواتي ، « ولا يسليك كاليأس » وإذن فلأرفع رحلي فوق ناقة جمالية ترق الحصى بمناسمها .

النقد :

اتفق بشامة بن الغدير والحارث بن حلزة في المطلع ، والتساؤل عن أصحاب الديار ، والاستفهام عن كان يقطنها ، معنى تواردت عليه خواطر الشعراء ، فليس هناك بينهم آخذ ومأخوذ منه ، ويظهر فضل الحارث على بشامة في أنه شبه آثار الديار وأعلامها بصحف الفرس وهو تشبيه جميل يدل على اتساع ثقافة ، وبعد خيال ، كما تظهر حكمته في قوله :

« ولا يسليك كاليأس » . وجميل من الحارث كذلك وصف الأصورة بأنهن يلحن كالشمس ، فمن من الشعراء منحها هذا الجمال ، والجناس قليل في الشعر الجاهلي ؛ وقلته تضفي عليه الحسن ، وقد أبدعه الحارث في قوله :

أو غير آثار الجياد بأعراض الجماد وآية الدعس

وكذلك حبسه الركب ليحدث ويخمن ، وتركه إياك ليحدث فيما كان يحدث به ، وتخمن ما كان يخمنه جمال أي جمال ، وبعد فالأبيات جميعها من رائع الشعر .

٨ — وقال عميرة بن جميل * من قصيدته التي أولها:

ألا ياديار الحى بالبردان^(١) خلت حجاج بعدي لمن ثمان^(٢)
 فلم يبق منها غير نؤي مهدم^(٣) وغير أوار كالر كى دفان^(٤)
 وغير حطوبات الولائد ذذعت^(٥) بها الریح والأمطار كل مكان^(٦)
 قفار مرورات يحار بها القطا يظل بها السبعان يعتركان^(٧)
 يثيران من نسج التراب عليهما قيصين أسماطاً ويرتديان^(٨)
 وبالشرف الأعلى وحوش كأنها على جانب الأرجاء عوذ هجان^(٩) : ٥٢٥

* ترجمته الشاعر : هو عميرة بن جميل بن عمر بن مالك بن الحارث بن حبيب التغلبي شاعر جاهلي يعد من الشعراء البرزين ، وهو فيما يظهر من الشعراء القليلين كذلك ، توفي حوالى سنة ٥٧٠ م .

التفسير اللغوي : (١) الحى : البطن من بطون العرب . البردان : اسم موضع . خلت : مضت .

(٢) النؤى : الحاجز من التراب يقام لمنع السيل عن البيت . الأوارى : جمع آرى وهى معالف الدواب ومحابسها . الركى : جمع ركية ، وهى البر . دفان : جمع دفين ، مندفئات .

(٣) الحطوبات : جمع حطوبة ، وهى ما احتطب الإمام وجمعه . الولائد : جمع وليدة الإمام . ذذعت : فرقت .

(٤) قفار : جمع قفر ، وهى الأرض القاحلة الخالية من الزرع . المرورات : التي لا تنبت شيئاً لانعدام الماء فيها . السبعان : مثنى سبع وهو كل ما يفترس من الحيوان : يعتركان : يلتمس كل منهما أكل الآخر لما هما فيه من جذب دفع غيرها من الحيوان إلى ترك ذلك . (٥) أسماطاً : غير محشوة ، وهو أن يكون القميص طاقاً واحداً .

(٦) الشرف : المرتفع من الأرض . الأرجاء : النواحي مفرداً رجا . العوذ : الإبل أو الخيل أو الظباء الحديثة التاج مفرداً عائد ، وجمعه عوذ وعوذ وعوذان ، وجمع الجمع عوذات . الهجان : السكرام يستوى فيه الذكر والمؤنث ، والمفرد والجمع .

تحليل الأبيات :

ألا ياديار قومي وخيام أهلي بالبردان ، لقد مضى على تركهم إياك وزوجهم عنك ثمانى حجج ، وهو زمن طويل يغير الأحوال ، ويبدل الأوضاع ، وإذن فليس غريبا ألا يبقى منك غير نوى مهدم ، وحاجز مثل ، وغير معالف الدواب ومحابسها التي صارت لطول العهد وبعد الأمد كالآبار المطمورة ، وغير الخطوبات التي جمعتها الإماء من بقايا الجذور ومتساقط الأغصان ؛ ليجمعن منها وقودهن في قارس البرد ، لقد فرقها الرياح السافيات ، وجرت بها الأمطار الغزيرة كل مجرى .

واحرق قلباه ! لقد أصبحت تلك الديار التي كانت تقيه بأعز الناس ، وأكرم الأجناس قفارا لا نبت فيها ولا ماء ، ولا إنس فيها ولا وحش ، فهي تنائف يضل فيها القطا ، فلو أن بها سبعة لآخذوا يقتتلان حتى يتفانيا في سبيل الطعام .

وهما في تقاتلهما يثيران التراب فينسج فوق ظهريهما ثوبين رقيقين ، لو هبت عليهما الريح لأزالتهما .

ولكن بأعلى هذه الصحراء وحوشا ضارية كأنها لاستيحاشها في مختلف النواحي وجوانب الأرجاء إبل هجان من خلفها سقابها ، أوظباء خنس من ورائها أطلاؤها .

النقد :

جرى الشاعر على ماجرى عليه غيره من الوقوف بالديار بعد حجج يعدها ، ثم غير الأشياء التي لاتزال دالة على أنه كان في المسكان ديار ، وكان في هذه الديار سكان وقطان ، ولكنه ذكر فيما بقي من الآثار ما لم يذكره سواه ، ذكر الخطوبات ، والحق أن بقاء الخطوبات بعد حجج ثمان أمر غير منظور ، فالوحوش التي لاتجد غذاء من حق نفوسها عليها أن تأكل كل ما تجد ، ثم إنه وقع فيما يكاد يكون تناقضا : السبعان يعتزكان فيتفانيا ، لأنهما لا يجدان الغذاء ، وبالشرف الأعلى وحوش كأنهما عوذ هجان . أليس هذا تناقضا ؟ إنه كذلك .

وعلى أى فالأبيات معانيها كمعاني أى شعر آخر في وصف الأطلال .

٩ — وقال ثعلبة بن عمرو العبدى * فى مطلع قصيدته :

لَمَنْ دِمْنُ كَأَنَّهُنَّ صَحَائِفُ قِفَارٌ خَلَامُنِهَا الْكَثِيبُ فَوَاحِفُ^(١)
فَمَا أَحَدَتْتَ فِيهَا الْعُهُودَ كَأَنَّمَا تَلْعَبُ بِالسَّمَانِ فِيهَا الزَّخَارِفُ^(٢)
أَكَبَّ عَلَيْهَا كَاتِبٌ بِدَوَاتِهِ يُقِيمُ يَدَيْهِ تَارَةً وَيُخَالِفُ^(٣)
رَجَا صُنْعَهُ مَا كَانَ يَصْنَعُ سَاجِمًا وَيَرْفَعُ عَيْنِيهِ عَنِ الصَّنْعِ طَارِفُ^(٤)



* ترجمته الشاعر : هو ثعلبة بن حزن بن زيد مناة بن الحارث بن ثعلبة العبدى ، وهو شاعر قصير النفس فيما يبدو ، مغمور بين الشعراء ، وإن كان له من القصائد قصيدتان اختارها الفضل الضبي ، كما اختار له البحترى فى حماسته ، وشعراء الجاهلية .

بنوى : الحاجز من التراب يقام لمنع عن البيوت السيل . الرق : جلد رقيق يكتب فيه أو الصحيفة البيضاء . منمنا : مزخرفا .

(٢) أذاعت : نشرت . الأرواح : جمع ريح نسيم كل شئ ، والريح مؤنثة . الحول : العام المحرم : الذى له ذمة وعهد .

(٣) دوارج : جمع دارجة ، وهى الأرواح المغيرة لظواهر الأشياء بما تسفيه من تراب . معلما : معروفا .

(٤) البلى : الإخلاق والقدم . توها . تظننا .

تحليل الأبيات :

يسائل حاتم قلبه ، أتعرف هذه الأطلال الدوارس ، والآثار الطوامس ، والنوى المهدم ، والجذم المثلث ؟ إن الأرض تبدو كالرق ، وهذه الآثار فوقه كأنخط المزخرف ، والرسم المزركش ، لقد نشرت الأرواح في هذا المكان عواصفها بعد أن فارقه قاطنوه ، وتركه ساكنوه ، تركوه أياما طويلا ، وشهوراً عدة ، هذه الأرواح تنقلت من مكان إلى مكان ، ودرجت من موضع إلى موضع ، فغيرت ظاهر ترابه ، وكسته ترابا غير ترابه الذي كان له ، وأزالت الأيام معالمه ، وطمست أعلامه .

ليست الرياح فحسب هي التي غيرت المعالم والأعلام ، ولكنه طول البلى ، وقدم العهد ، حتى أصبحت لا أعرف الأطلال إلا بالوهم والظن ، ولا أتين الآثار إلا بالחס والشعور .

النقد :

المعاني التي أوردها حاتم في أبياته تلك معان قليلة ، وليس فيها معنى يمكن أن يقال إنه انفرد به ، ولا أحسب أن الحول يفعل في الديار هذا الذي صورته حاتم ، فقد استقصرنا ثمانى حجج في قصيدة عميرة بن جعل ، ورأينا أن تأثيرها لا يبلغ تصويره ، فكيف بالعام الواحد ؟ هل نقول : إنهم قلدوا زهيراً فلم يجيدوا التقليد ؟ وذلك في قوله :

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم
وكذلك قال حاتم :

وغيرها طول التقادم والبلى فما أعرف الأطلال إلا توها
ولكن بعدكم كان ذلك التقادم والبلى ، إنه بعد :

أذاعت به الأرواح بعد أنيسها شهوراً وأياماً وحولا محرما
قد يقال إنه لا يقصد حولا واحدا ، ونقول بل يقصده ، فلو أراد غير ذلك لاستبدل بأيام أعواما .

المعاني المشتركة وغير المشتركة في وصف الأطلال

يكاد الشعراء يتفقون في وصف الأطلال ، ولهم في هذا عذرهم ، فالبينة التي توحى إليهم بأفكارهم واحدة ، والمعين الذي يمتحنون منه واحد ، والمصر الذي يعيشون فيه واحد ، وكل هذه عوامل توجب اتفاق الأفكار .

إذا قال امرؤ القيس محمداً دار محبوبته :

قفاً نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فخومل
قال زهير مراعيًا ذلك التحديد :

أمن أم أوفى دمنمة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتشــــــــــــــــلم ؟
وقال ليبيد :

عفت الديار محلها فقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

وعلى هذا النمط سار أكثر الشعراء بعدهم ، لم يحددوا عنهم إلا قليلاً .
ثم إذا قال امرؤ القيس إن هذه الدور بعد أن كانت ملعباً للأوانس أصبحت مرتعاً للآرام ، في قوله :

ترى بحر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل
قال زهير :

بها العيين والآرام يمشين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم
وقال ليبيد .

والعين ساكنة على أطلالها عوداً تأجل بالقضاء بهامها
وقال المرقش الأكبر قبلهم :

إلا من العين ترعّى بهم كالفارسيين مشوا في الكمم
وكلهم أسكنوا هذه الدور العين والظباء والوحوش ، حتى وإن تسكن هذه الدور قد صارت إلى فناء وبلى ، وأصبحت صحارى جرداء ، كقول عميرة بن جمل :

قفار مرورات يحاربها القطا يظل بها السبعان يعتركان

يثيران من نسج التراب عليهما قيصين أسماطا ويرتديان

وبالشرف الأعلى وحوش كأنها على جانب الأرجاء عوذ هجان

وأكثرهم وصف فعل الأمطار بها ، وأثر الودق والساريات فيها ، ولكنهم أوردوه في صور مختلفة ، كلها صور قوية جميلة ، وبخاصة صور لبيد والنابعة ، كما وصفوا فعل الرياح في تلك الآثار فأجادوا التصوير .

ولكن بعض هؤلاء الشعراء معانى سبقوا إليها فاتبعوا فيها ، أو لم يتبعوا لشهرة نسبتها إلى أصحابها ، فمن هذه المعانى قول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحول

فكثير من الشعراء جرى في غباره ، ولكنهم لم يبلغوا شيئاً وإن أجادوا ، ومن سبقه منهم جاء بجزء من المعنى ، لم يسقه مساق امرئ القيس في إحاطته وشموله ، وحسنه وجماله ، قال بشامة بن الغدير :

فوقفت في دار الجميع وقد جالت شئون الرأس بالدمع

وقال المرقش الأكبر :

أعـرفها داراً لأسماء فالد مع على الخدين سح سجم

ومن المعانى التى انفرد بها الحارث بن حنظلة تشبيه ظهور البقر الوحشى بالشمس في قوله :

لا شئ فيها غير صورة سفع الخدود يلحن كالشمس

حقاً إنه لم يجد هذا الذى يلوح ، ولكن التأمل يدفع إليه ، فأول ما يلوح الظهور . ومنها حبسه الركب ليحدث ويخمن ، وذلك في قوله :

فحبست فيها الركب أحدث في كل الأمور ، وكنت ذا حدس

وقد أجاد ثعلبة بن عمرو العبدى في وصف المصور ، ولم يشاركه أحد في معناه وهو قوله :

فما أحدثت فيها العهد كأنما تلعب بالسمات فيها الزخارف

أكب عليها كاتب بدواته يقيم يديه تارة ويخالف

رجا صنعه ما كان يصنع ساجيا ويرفع عينيه عن الصنع طارف
ومنهم من دلت تشبهاته وصوره على بيئته وثقافته ، ومن هؤلاء النابغة في قوله :
خلت سبيل أتى كان يحبسـه ورفعته إلى السجفين فالنفـد
وقول المرقش الأكبر :

إلا من العـين ترعى بها كالفارسيين مشوا في الكـم
وقول الحارث بن حلزة :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كهـارق الفـرس
وقول حاتم الطائي :

أعرف أطلالا ونؤيا مهـدما كخطك في رقّ كتابا منمنا

وبعد فحسب الشعراء قدرة وتفوقا أنهم حببوا إلينا الأطلال ، وإن تكن ظاهرة فراق ،
وشغفونا بالآثار ، وإن تكن رمز جذب وقحط وإفقار ، وهذه عبقرية هي الغاية عند
العباقرة والنابعين .



(ب) وصف الليل

١ — قال مهلهل بن ربيعة * :

أَلَيْتَنَا بَدَى حُسْمٌ أَنْ يَرَى إِذَا أَنْتِ انْقَضَيْتِ فَلَا تَحُورِي ^(١)
فَإِنْ يَكُ بِالذَّنَائِبِ طَالَ لَيْلِي فَقَدْ أَبَيْكَ مِنَ اللَّيْلِ الْقَصِيرِ ^(٢)
وَأَنْقَذَنِي بِيَاضُ الشُّبْحِ مِنْهَا لَقَدْ أَنْقَذْتُ مِنْ شَرِّ كَبِيرِ ^(٣)
كَأَنَّ كَوَاكِبَ الْجُوزَاءِ عُوذُ مُعْطَفَةٌ عَلَى رَبْعٍ كَسِيرِ ^(٤)
كَأَنَّ الْفَرْقَدَيْنِ يَدَا بَغِيضٍ أَلَحَّ عَلَى إِفَاضَةِ قَمِيرِي ^(٥)
أَرَقْتُ وَصَاحِبِي بِجَنُوبِ شَعْبٍ لَبَّرَقِي فِي تَهَامَةِ مُسْتَطِيرِ ^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو أبو ليلى عدى بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر التغلبي شاعر نجدى مجيد ، قيل عنه إنه أول من قصد القصائد وهلهل الشعر ، وحسبه غمراً أن يكون امرؤ القيس وارث شاعريته ، وقابس عبقريته ، ولقب مهلهلا لقوله :

لما توغل في الكراع هجينهم هلهلت أثار مالكا أو صنبلأ
وحدثوا عنه أنه كان من أصبح أهل زمانه وجهاً ، وأفصحهم لساناً ، وأشدهم بأساً ، وقد لقبه أخوه كليب بزير النساء لأنه كان صاحب لهو ، كثير المحادثة للنساء ، وفي هذه القصيدة يقول :

ولو نشر المقابر عن كليب لأخبر بالذنائب أى زير
توفي حوالى سنة ٥٠٠ م

التفسير اللغوى : (١) حسم : موضع بالبادية ، ويظهر أنه أقام به فى أحد أيامه . لا تحورى : لا ترجعى . (٢) الذنائب : موضع بنجد على يسار الطريق إلى مكة .

(٤) كواكب الجوزاء : أحد أبراج السماء ، واسم نجم يعترض فى جوز السماء ، والأول هو المراد . عوذ : جمع عائد ، وهى الناقة يعوذ بها ولدها ، وكل أثنى إذا وضعت لمدة سبعة أيام لأن ولدها يعوذ بها . معطفة : منحنية مائلة . الربع : الفصيل ينتج فى الربيع ، وهو أول النتاج ، فإذا نتج فى آخره فهو هبيع ، يقال : « ما لهم ربع ولا هبيع » . كسير : مكسور . (٥) الفرقدان : نجمان قريبان من القطب الشمالى يهتدى بهما ، وأحدهما أقل نورا من الآخر . بغيض : مبغض . إفاضته : دفعه إلى اللعب . قميرى : مقامر .

(٦) أرقط : سهرت . الشعب : الطريق فى الجبل ، أو مسيل الماء ، أو الحى العظيم أو الناحية ، والأول هو المراد . تهامة : أرض منخفضة ، وبلاد جنوبى الحجاز . مستطير : منتشر .

تحليل الأبيات :

أيتها الليلة الليلاء التي قدّرت على أن أقضيها بذى حسم ، لينحسر ظلامك ، وليذهب سوادك ، وليسفر صبحك ، ولينفلق وضحك ، فإذا ما زلت من الأفق فلا تعودى مرة أخرى .
لقد طال ليلي بالذنائب حيث قتل أخى ؛ إذ جافانى النوم ، ولا زمنى السهاد ، وإن يسؤنى هذا فكم من ليال بكيت من قصرها ، وشكوت سرعة كرها ، وأنقذنى من بكائى عليها بياض صبحها ، وإشراق شمسها ، لقد أنقذت من شر كبير ، وأنجيت من ألم كثير .

أما ليلتى تلك فقد وقفت نجومها ، فكان كواكب الجوزاء متجمعاتٍ متلبثات نياقٍ عائدات ، قد كسر ربعهن ، فهن لا يرمن دونه ، ولا يتحولن عنه ، أو كأن هذين النجمين المعروفين بالفرقدين يدا رجل مكروه ، مبغوض مقامر ، فهو يلح فى إفاضته ويبالغ فى دفعاته ، فيداه لا تفتئان تتحركان فى مكان بعينه .

لقد أرقّت وصاحى الذى يشاطرنى آلامى وأوصابى بجنوب ذلك الشعب ، لبرق لمع من أرض تهامة ، وهو منتشر الضوء ، متباعد المعان .

النقد :

كان قتل كليب المعين الذى فاضت منه شاعرية مهلهل ، والمنبع الذى انبثق منه شعره ، فهو أول من وصف الليل بالطول هذا الوصف الذى جرى عليه الشعراء من بعده ، ومعانيه وإن كانت مكررة إلا أنها بالنسبة إليه مبتكرة ، فهو يقول من قصيدة أخرى ما يشبه أبياته فى هذه القصيدة :

وصار الليل مشتملا علينا كأن الليل ليس له نهار
وبت أراقب الجوزاء حتى تقارب من أوائلها انحدار
ويقول فى قصيدة أخرى :

بات ليلى بالأنعمين طويلا أرقب النجم ساهراً لن يزولا
وهكذا فتح الطريق لمن جاء بعده من الشعراء ، وعلى رأسهم امرؤ القيس وارث شعره ومعانيه .

٢ — وقال امرؤ القيس * في وصف الليل :

وليلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلَى بَأْنُوعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي^(١)

فقلتُ له لِمَا تَمْطَى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءً يَكْلِكِلِ^(٢)

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ^(٣)

٥٤٣ : — فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجُومَهُ بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلُ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ^(٤) !



* ترجمه الشاعر : انظر الترجمة في وصف الفرس ص ١٠٩ .

التفسير اللغوي : (١) وليل : ورب ليل طويل قضيته مسهداً . أرخى : أسبل وأسدل .

سدوله : جمع سدل ستوره ، ليبتي : ليختبر ويمتحن .

(٢) لما : حين . تَمْطَى : تمدد . بصلبه : بظهره . وأردف أعجازاً : وأطال مآخيره ، من قولهم أردف الراكب غيره أركبه ورائه على مطيته ، والأعجاز جمع عجز مؤخر الدابة . ناء بكلكل : نهياً لينهض بصدرة فيثقل مقدمه .

(٣) ألا : حرف تنبيه . انجلى : انكشف . الإصباح : ظهور الصباح . بأمثل : بأفضل وأحسن .

(٤) يالك : أسلوب تعجبي ، فهو يتعجب من طوله وامتداد ساعاته . مغار الفتل : محكم الفتل موثق البرم . شدت : ربطت وربطاً محكماً . يذبيل بذلك الجبل الراسخ من جبال نجد .

تحليل الأبيات :

يشكو امرؤ القيس من ليله الذى طال أمده ، فزاد فيه ألمه ، فيقول :
رب ليل كموج البحر المتلاطم أسدل على ظلمته ، وبسط فوق وحشته ، وأرسل إلى
ألوانا من الهموم ، وأسدل على أنواعا من الأحزان ، ليختبر منى ، ويمتحن قوتى ، ويتبين
جلدى وصبرى ، فقلت له وقد رأى منى صبرا وعزما ، وقوة ومنة :

أيها الليل الطويل أتمنى عليك بعد أن عرفت عزيمتى أن ينفلق صبحك ، وينكشف
ضوءك ، وأن تزول غياهبك ، وتهتك أستارك ، وإن يكن ذلك الصبح المأمول ليس بأوضح
منك وجها ، ولا بأمثل منك حسنا ، فكلما مبعث هم ، ومصدر غم وكره ، ولكنه
التغير قد يشعر ببعض الراحة .

ما أعجبك ليلا ثابتا لا يتزعزع ! راسخا لا يتزعزع ، حتى لكأن نجومه السائرات شدت
إلى راس من الجبال بمغار الفتل من الأبراس والجبال ، فليس لها مسير وإن طال
بها الأمد .

النقد :

امرؤ القيس أقدر من وصف الليل ، وهذه الأبيات أروع ما قاله فى وصفه ، ومبعث
روعتها تصويره الليل فى نكره ووحشته ، وهوله ورهبته ، بأعوج البحر تطوى ما يصادفها ،
وكذلك مناجاته الليل مناجاة تم عن الصبر مع اليأس ، وهذه قدرة لا يؤتاها إلا امرؤ القيس
« وما الإصباح منك بأمثل » وتصوره الليل بالجلل يتمنى بصلبه ، ويردف بأعجازه ،
وينوء بكل كلفة تصوير جميل لتشبيهه المعنوى بالحسى ، وتصوره النجوم قد ثبتت فى السماء
لا تريم عن مكانها بأنها مشدودة بأمراس تصور مستمد من البيئة ، أخذ بيراعته
فى التصور والتصور .

هذا ومن القدماء من عاب على الشاعر التضمين ، بتعليق معنى البيت الثانى بالبيت
الثالث ، ولا نرى فى ذلك عيبا ، وإنما العيب أن نتكلف جمع معنى فى بيت لا يتحمله .

٣ — وقال النابغة الذبياني * في وصف الليل أيضا :

كَلَيْنِي لَهُمْ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيَهُ بَطِيءُ الْكَوَاكِبِ (١)

تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ : لَيْسَ بِمُنْقُضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرعى النُّجُومَ بَأَثْبٍ (٢)

٥٤٦ : وَصَدْرٍ أَرَا حَ الْبَيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٣)



* ترجمته الشاعر : انظر الترجمة في ص ١٥٤ .

التفسير اللغوي : (١) كَلَيْنِي : اتركيني ودعيني . أُمَيْمَةُ : ابنته ، يصح فيها الفتح والضم ، والضم أحسن ، والفتح أشهر ، قال الحليل بن أحمد : من عادة العرب أن ترخم عندما تنادى المؤنث ، فلما لم يرخم « بسبب الوزن » أجرى الترخيم على لفظها ، فأثى بالفتح . نَاصِبٍ : متعب منصب ، كقوله تعالى : « في عيشة راضية » أى عيشة مرضية ، أولهم ذى نصب . أَقَاسِيَهُ : أكابده . بَطِيءُ الْكَوَاكِبِ : كناية عن صفة هى الطول والامتداد .

(٢) تَطَاوَلَ : امتد وطال . لَيْسَ بِمُنْقُضٍ : ليس بمنته . يَرعى النُّجُومَ : قيل أراد النجم الذى يتقدم النجوم ، فهو منها بمنزلة الراعى لها ، ويؤيد هذا المعنى رواية : « وليس الذى يهدى النجوم بَأَثْبٍ » وإذا غاب الراعى ضل المرعى ، وقيل : أراد يراعى النجوم يقصد نفسه ، وقيل : أراد به الصبح . بَأَثْبٍ : براجع .

(٣) وَصَدْرٍ : ورب صدر ، يقصد صدر نفسه . أَرَا حَ : أعاد ورد من راحت الإبل إلى مناخها عشياً إذا ارتدت . الْعَازِبَ : النأى البعيد . تَضَاعَفَ : تكاثر . مِنْ كُلِّ جَانِبٍ : من جميع النواحي .

تحليل الأبيات :

دعيني يا بنيتي لهومى وأوصابى ، دعيني لهمّ ناصب ، وأتركيني لليل قد طال ، حتى أملّ ، وامتد إلى أن أثقل وأسأم ، فسكوا كبه بطيئة المسير ، ونجومه كأنها لا تحول .

لقد استطل ذلك الليل لما نزل بي من الهموم والأوجاع ، حتى حسبت أنه لن ينتهى ، وظننت أنه مقيم لا يريد أن ينقضى ، وأن الراعى الذى يرعى النجوم ويهدها سواء السبيل ، ويسوقها إلى غايتها من الأفق البعيد ، قد ذهب إلى غير أوبة ، وتركها دون أن ترجى له رجعة ، وإذن فستبقى تلك النجوم حيرى لا تعرف لها قراراً .

دعيني يا أميمتى لصدر قد أثقلته الهموم ، ورد له الليل ما استطار منها فى النهار ، فتضاعف حزنه ، وتكاثف شجنه .

النقد .

هذه الأبيات من أروع ما نظمته فى وصف الليل شاعر ، وهوفيهما تابع لامرئ القيس ، وإن اختلف القدماء فى تفضيل أيهما على الآخر ، فبالغ امرؤ القيس على غير عهد الأدب به ، فسوى بين النهار والليل فى الهم ، فقال أنصاره : إن المبالغة هنا أجدى وأفضل ، وقصد النابغة على غير عهد الأدب به أيضاً فى قوله :

وصدر أراح الليل عازب هم تضاعف فيه الحزن من كل جانب
واقترى به الشعراء إيماناً بجمال معناه ، فقال أحدهم :

أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهمم بالليل جامع

وقال أنصاره فى سبب تفضيله : « إنه جعل صدره مراحاً للهموم ، وجعل الهموم كالنعم السارحة تسرح نهارة ، ثم تأتى إلى مكانها ليلاً ، وهو أول من استثار هذا المعنى ، ووصف أن الهموم مترادفة بالليل لتقيد الأحاط عما هى مطلقة فيه بالنهار ، واشتغالها بتقيد اللحظ عن استعمال الفكر » .

ومناجاة فئاته من آيات جماله ، فالبنت أشد شعوراً بمصاب أيها ، وأوفر عاطفة نحوه ، يشجها شجوه ، ويحزنها هم ، فهى منه قلبه وكبدته .

(ح) وصف السحاب والبرق والغيث

١ — قال امرؤ القيس * يصف ديمة :

دِيمَةٌ هَظْلَاءُ فِيهَا وَطْفٌ طَبَقَ الْأَرْضِ تَحْرَى وَتَدُرُ^(١)
تُخْرِجُ الْوَدَّ إِذَا مَا أَشْجَذَتْ وَتَوَارِيهِ إِذَا مَا تَشْتَكِرُ^(٢)
وَتَرَى الضَّبَّ خَفِيفًا مَاهِرًا ثَانِيًا بُرْنُهُ مَا يَنْعَفِرُ^(٣)
وَتَرَى الشَّجَرَاءَ فِي رَيْقِهَا كَرُوسٍ قَطَعَتْ فِيهَا خُمُرُ^(٤)
سَاعَةً ، ثُمَّ انْتَحَاهَا وَابِلٌ سَاقِطٌ إِلَّا كَنَافٍ ، وَاهٍ ، مُنْهَمِرٌ^(٥)
رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ، ثُمَّ انْتَحَى فِيهِ شَوْبُوبٌ جَنُوبٌ مُنْفَجِرٌ^(٦)
نَجْمٌ حَتَّى ضَاقَ عَنْ آذِيهِ عَرْضُ خَيْمٍ ، فَخُفَافٌ ، فَيُسِرُ^(٧)

* ترجمه الشاعر : أقرأها في وصف الفرس ص ١٠٩

التفسير اللغوي : (١) الديمة : للطر يدوم في سكون دون رعد ولا برق . الوطف : استرخاء السحابة ، وتدلى ذيلها ، ودنوها من الأرض . تحرى : تتحرى المكان وتثبت فيه . تدُر : تمتليء .

(٢) الود : اسم جبل ، أو هو الود في لغة أهل نجد ، كأنهم سكنوا التاء فأدغموها في الدال ، وكلا المعنيين ذكره اللسان . أشجذت : أقامت وسكنت . تواريه : تخفيه . تشكر : تهطل بالمطر ، وفي رواية تعتكر .

(٣) الضب : حيوان زاحف يشبه الجرذون ذنبه كثير العقد ؛ حتى ضرب به المثل ، فقيل : « أعقد من ذنب الضب » . البرثن : الخلب . ما ينعفر : لا يصيبه العفر ، وهو التراب . (٤) الشجراء : الأرض ذات الشجر . ريقها : أولها . خمر : جمع خمار ، وهو للمرأة كالعمامة للرجل .

(٥) انتحاه : قصدها . وابل : مطر شديد يصدر عنه السيل . ساقط الأكناف : ثابت النواحي . واه : ضعيف يتشقق منه الماء ، وينخرق عنه المطر . منهمر : شديد الانصباب . (٦) راح : سار عشيًا . تمره : تستدره . وأصله من مرى الضرع إذا مسحه ليدر ، الصبا : ريح باردة تهب من الشمال . شوبوب : دفعة من مطر . الجنوب : ريح تهب من الجنوب . (٧) نجم : سال وصب . آذيه : موجه . عرض : ناحية أو اتساع . خيم وخفاف ويسر : أسماء أمكنة قريبة من الدهناء ، أو في بلاد بني يربوع .

تحليل الأبيات :

هذه مطرة دائمة التسكاب ، ومزنة ماضية الانصباب ، غايتها ملء أطباق الأرض بدموعها الغزار ، فترى أوتاد الأخبية بادية ظاهرة عند ما تنقلع عن السكب ، وخافية متوارية عند ما يحتفل المطر ، ويشد الغيث ؛ فهي تبدو إذا هدأت ، وتتوارى إذا غضبت ، وترى الضب ، وقد أبرزه المطر من جحره سابجا ماهراً ، خفيفا نشيطا ، يثنى برثنه ويبسطه ، كما يثنى السابح ذراعه ويمده ، فلا ينغفر بالتراب ، فقد أذهب طول الانسكاب ، وترى الأرض ذات الأشجار ، وقد غطاها المطر أول دفعاته ، فليس يبدو منها إلا رءوس أشجارها ، فظهرت وقد علاها الزبد كرموس انفصلت عن أعناقها ، وغطتها خمرها ، استمر هذا الغيث ساعة ، ثم اعتمدها وابل منهمر ، وسيل منحدر ، يعم نواحيها ، ويفعم أكنافها ، فالسحاب متشقق بالماء .

راح ذلك السحاب عشيا - وقد استدرته ريح الصبا ، ومراه بردها - راح يتكاثف ويتراكم ، ثم قصده ريح الجنوب وافدة من بحر الهند مثقلة بالقطار ، فأضافت إليه دفعة أخرى ، فإذا هو ينصب انصبابا حتى ضاق عن آذيه المضطرب وموجه المصطخب عرض هذه الجهات مع اتساع آفاقها ، وامتداد أكنافها .

الفهر :

في هذه الأبيات جمال تحدث عنه القدماء ، فقالوا : « إن هذا أشعر ما جاء في وصف الغيث » وسأل أبو عمرو بن العلاء ذا الرمة : أى الشعراء الذين وصفوا الغيث أشعر ؟ فقال امرؤ القيس وأنشد الأبيات .

ولكنهم تركوا حكمهم دون تحليل شأنهم في جميع نقدهم ، ومواطن الجمال التي أجلوها هي تلك الصور المتعاقبة ، فالديمة مسترخية الذوائب ، والأوتاد عارية حيناً ، ومغطاة حيناً ، والضب سابح حاذق يثنى برثنه ويبسطه شأن السباح الماهر ، إذ يبسط ذراعيه ويثنيهما ، والأرض الشجراء غطيت ، فليس يبدو منها غير رءوس أغصانها يغطيها الزبد الأبيض ، كأنه الخمر ، وهي صور فيها الكثير من مظاهر البادية ، فيها وتد الخباء ، والضب ، والبرثن والخمر .

٢ — وقال الأعشى * في معلقته يصف السحاب والمطر :

بل هل ترى عارضاً قد بت أرمقه كأنما البرق في حافاتِه شعل^(١)
له رداف وجوز مفاقم عمل^(٢) منطق يسجل الماء متّصل^(٣)
لم يلهني اللهو عنه حين أرقبه ولا اللذّاذة من كأس ولا شغل^(٤)
فقلت للشرب في درنا وقد ثملوا : شيموا ، وكيف يشيم الشارب الثمل^(٥) ؟
قالوا : نمار بطن الخال ، جادها فالعسجدية ، فالأبلاء ، فالرجل^(٦)
فالسفح يجري ، فخير ، فبرقته حتى تدافع منه الربو ، فالجيل^(٧)
حتى تحمل منه الماء تكلفة^(٨) روض القطا ، فكثيب الغينة السهل^(٩)
٥٦١ : يسقي دياراً لها قد أصبحت غرضاً زوراً تجانف عنها القود والرسل^(١٠)

* ترجمه الشاعر : هو ميمون بن قيس بن جندل بن بكر بن وائل أحد أعلام الشعر في العصر الجاهلي وأقدر الوصفين للخمر ، وكان لشعره جرس جميل فغني به ولقب بصناعة العرب ، أدرك الرسول الكريم ، وأراد الإسلام خدعه عنه بالمال أبو سفيان فمات على غير دين سنة ٦٢٩ م .

التفسير المفرد : (١) العارض : السحاب يعترض الأفق . أرمقه : أنظر إليه . حافته : جمع حافة أطرافه . شعل : جمع شعلة قطع الشرر .
(٢) رداف : سحاب قد ردفه من خلفه . جوز : كل شيء وسطه . المفاقم : العظيم الواسع . عمل : دائم . منطق : قد أحاط به فصار بمنزلة المنطقة . سجل : جمع سجل وهو ملء الدلو ماء . (٣) لم يلهني : لم يشغاني . أرقبه : ألحظه . اللذّاذة . الاشتها . من كأس : يعني من خمر . (٤) الشرب : جماعة الشاربين كالركب والسفر . درنا : أحد منافذ فارس ، وهي دون الحيرة ، وقيل : إنها باليمامة : ثملوا : انتشوا . شيموا : انظروا إلى البرق . (٥) نمار وبطن الخال : موضعان . جادها : أمطرها . العسجدية ، والأبلاء : موضعان . الرجل : مسایل الماء ، واحدها رجلة . (٦) السفح . منحدر الجبل . البرقة : الأرض الغليظة فيها حجارة ورمل وطين . الربو : ما نشز من الأرض ، وهو هنا اسم موضع . الجبل : موضع باليمامة . (٧) تحمل : احتمل . تكلفة : مشقة . روض القطا : اسم مكان ، قيل : إذا خرجت تريد البصرة فأول ما تطلّ السفح ثم الحربة ، ثم قارات الجبل ، ثم بطن السلي ، ثم عيان ، ثم روض القطا ، ثم العرمة ، وهذه كلها من أرض اليمامة . الغينة . الأرض الشجراء ، وهي هنا اسم موضع . (٨) غرضاً : هدفاً . زوراً : ميلاً . تجانف : تباعد . القود : الخيل . الرسل : الإبل .

٣ — وقال عبيد بن الأبرص * يصف السحاب .

إِنِّي أَرَقْتُ ، وَلَمْ تَأْرُقْ مَعِيَ صَاحِ
لِئَسْتَكِفَّ بُعِيدَ النَّوْمِ لَوَّاحِ^(١)
يَا مَنْ لَبِيقِ أَيْتِ اللَّيْلِ أَرْقُبُهُ !
فِي عَارِضٍ كَمْضِيءِ الضُّبْحِ لَمَّاحِ^(٢)
دَانٍ مُسِيفٌ فَوْقَ الْأَرْضِ هَيْدَبُهُ
يَكَادُ يُمَسِّكُهُ مَنْ قَامَ بِالرَّاحِ^(٣)
كَأَنَّ رَيْقَهُ لَمَّا عَلَا شُطْبًا
أَقْرَابُ أَبْلَقَ يَنْفِي الْخَيْلَ رَمَّاحِ^(٤)
٥٦٦ : فَمَنْ بِحَوَازِهِ ، كَمَنْ بِعَقْوَتِهِ
وَالْمُسْتَكْنُ كَمَنْ يَمْشِي بِقِرْوَاحِ^(٥)

* ترجمه الشاعر : اقرأها في وصف العقاب ص ١٨٩ وهذه الأبيات منسوبة أيضا
لأوس بن حجر .

(٤) ريقه : أوله . لما علا : حين ارتفع . شطبا : جمع شطبة ، وهي الطريقة أو الخط في
متن السيف ونحوه . الأقرب : جمع قرب وهي الحاصرة . الأبلق : الأبيض فيه سواد . رماح :
صاحب رمح ، وينفي الخيل كناية عن سبقة إياها ، وتفوقه عليها .
(٥) الحوزة : الناحية ، وحوزة المملكة ما بين تخومها ، وفي رواية بنجوتها . والنجوة
المكان المرتفع . العقوة : الساحة ، وما حول الدار والمحلة ، وكلها تصلح لدعوى جمع العقوة
عقواء . المستكن الساكن الختبي في مسكنه . بقرواح : بأرض بارزة للشمس ، قال في اللسان :
« والقرواح يكون أرضاً عريضة نحو الدعوة ولا نبت فيه ولا شجر ، بل طين وسبالق .
والقرواح أيضا : البارز الذي ليس يستتره من السماء شيء ، وقيل هي الأرض البارزة للشمس »
ثم أورد البيت .

تحليل الأبيات :

عرف عبيد بن الأبرص بالإجادة في وصف الطبيعة بنوعها : حيها وهامدها ، ومن الأدباء من ينسب القصيدة التي منها هذه الأبيات إلى أوس بن حجر ، ولكنها بشعر عبيد أشبه ، إذ أنه أورد معانيها تلك في غير هذه القصيدة ، كقوله :

ودنا يضيء ربابه غابا يضره حريقه
حتى إذا ما ذرعه بالماء ضاق فما يطيقه
هبت له من خلفه ريح يمانية تسوقه

فاستمع إليه يقول : إني أرقط وصاحبي السهاد ، ولكنك لم تشاركني أيها الصاحب في مهادي ، ولم تقاسمني أرقط لتنظر معي ذلك السحاب الملتف ، وتشيم ذلك البرق المضيء ، ما أجل هذا البرق الذي يهتك حواشي الظلام ، فأنا لذلك أقضى ليلي أخطئه إذ يلعب في سحاب يعترض وجه السماء ، فكأنه الشمس تبدو من الجانب الشرقي فتبديد أسداف الظلام . لقد دنا دنوا شديدا ، وأسف إلى الأرض إسفاقا عظيما ، فكأن مطره خيوط تتساقط على الأرض يوشك الإنسان أن يدهمه براحتيه ، ويزيحه بكفيه ، كأن أوله حينما ارتفع في طرائق وخطط أصول لأخاذ فرس أبلق قد غلب سواده بياضه يتقدم خيولا أخرى ، وينفي عن طريقه القود الجياد ، من فوق صهوته الفارس الرماح .

النقد :

قلنا : إن عبيداً من أقدر وصافي الطبيعة ، وشعره على قلته يزخر بوصفها ، وهو يعتبر زعيم الوصاف الواقعيين ، فتصويره دقيق صادق ، لا تكلف فيه ولا مبالغة ، وصوره واضحة بارزة « يكاد يلمسها من شاء بالراح » وبيته « دان مسف . . . » رائع التصوير صادق التعبير ، وقد كرر معنى قوله : « كأن ريقه لما علا . . . » في قصيدة أخرى فقال :
كأنما بين أعلاه وأسفله ريط منشرة أو ضوء مصباح
إلا أن هذا البيت أوفر معنى ، وأدق وصفاً ، وأصنى أسلوباً .

وبعد فعبيد شاعر معجب بالطبيعة ، فأولته آياتها ، ومنحت شعره محاسنها .
فالناس جميعا في خياله سواء ، لافرق بين من يقيم في حوزة أو نجوة ، ومن يلزم ساحة أو عقوة ، ومن يستكن في قرار مكين ، ومن يسير في أرض تسطع عليها أشعة الشمس ، فلا يحجبها عنها حجاب .

٤ — وقال حنظلة الطائي* في وصف القمر :

ومهما يكن من ريبٍ دهرٍ فإنتى أرى قمرَ الليلِ المُعذَّبِ كالفتى^(١)
يَهْلُ صغيراً ، ثمَّ يَعْظُمُ ضَوْؤُهُ وصورتُهُ حتى إذا ما هو استوى^(٢)
وقربَ يَجْبُو ضَوْؤُهُ وشعاعُهُ ويمصَحُ حتى يستسِرَّ فما يرى^(٣)
٥٧٠ : كذلك زيدُ الأمرِ ، ثمَّ انتِفاضُهُ وتكراره في أثره بعد ماضى

تحليل الأبيات :

مهما ينزل بي من أحداث الزمان ، وصروف الحداث ، فإننى صابر له ، راض به ، لأننى أعلم أن هذه سنة الكون حياة وموت ، وبقاء وفناء ، حتى القمر يعذب كما يعذب الفتى ، ويهنأ كما يهنأ ، فتصيبه النعماء والبأساء ، ويلقى الهناء والشقاء ، أراه يهل صغيراً لا يكاد يرى ، ثم يتعاظم ضوؤه ، وتتكامل استدارته شيئاً فشيئاً ، حتى يستوى على عرشه بدراً منيراً ، ويتألق في سمائه نوراً وضاءً ، ولكنه ما يلبث أن يعود إلى حاله الأولى ، فيأخذ ضوؤه في الحبو ، وشعاعه في الانطفاء ، ونوره في الانمحاء ، حتى يغيب عن الوجود ليلة أو ليلتين ، كما تغيب الحياة عن الإنسان فلا يرى ، ويطويه ما يطوى جميع الكائنات .
ذلك شأن المرء يرتفع ثم يهوى ، ويكمل ثم ينقص ، سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

النقمة :

الأبيات تصوير دقيق لحال الخلاق في هذا الوجود ، فكل كائن يعتوره ما يعتور القمر ، وينزل به ما ينزل بالإنسان ، وفي الأبيات فلسفة غريبة عن العصر الجاهلى .

* ترجمه الشاعر : هو حنظلة بن أبى عفراء بن النعمان بن حبة بن سبعة الطائي ، ويروى عنه حديث مع النعمان وأنه كان السبب في تنصر النعمان وقومه ، وقصته طويلة ذكرتها كتب الأدب ، وهى إلى الأساطير أقرب منها إلى الحقائق التاريخية ، ولم يبق من شعره إلا القليل الذى لا يدل غليلاً ، وكانت وفاته حوالى سنة ٥٩٠ م .

التفسير اللغوى : (١) ريب الدهر : صرفه وحده .

(٢) يهل : يظهر . استوى : تكامل . (٣) يجبو : ينطفئ . يمصح : يمتدح ، يقال : مصحت الدار امتدحت أثرها . استسرى القمر : اختفى ليلة أو ليلتين ، وهو من السرار بفتح السين .

(د) وصف الصحراء والبرد والحر

١ — قال الأعشى* من معلقته يصف الصحراء .

و بلدةٍ مثلِ ظهرِ الترسِ موحِشَةٍ لِلْجَنِّ بِاللَّيْلِ فِي حَافَتِهَا زَجَلٌ^(١)
لا يَنْمَى لَهَا فِي الْقَيْظِ رِكْبُهَا إِلَّا الَّذِينَ لَهُمْ فِيهَا أَتَوَا مَهْلٌ^(٢)
٥٧٣ : قَطَعْتُهَا بِطَلِيحٍ جَسْرَةً سُرُحٍ فِي مَرَقِيقِهَا إِذَا اسْتَعْرَضْتُهَا فَتَلٌ^(٣)
تَحْلِيلُ الْأَبْيَاتِ .

رب صحراء مستوية ملساء تشبه في امتوائها وملوستها ظهر الترس ، موحشة مقفرة لانبات فيها ولا ماء ، ولا إنسان ولا حيوان ، فما يسكنها إلا الجان ، يبدون في الليل إذ يشمل السكون السكون ، فيلبون ويصخبون ، ويلهون ويصيحون ، فرحابو ظنهم الذي لا يشاركهم فيه أحد ؛ لا يعتمد السير فيها إبان الهجير ، ولا يسمو إلى قطعها حين القيظ إلا القوم العطاريف ، والسادة الأشراف الذين يقدمون على الهول ، ولا يعبثون بالخطر .

قطعت هذه البلدة جريثا مقداما بناقة قد أعيأها المسير ، وأضناها الرحيل ، وهي مع هذا جسر ماضية ، لاتهن ولا تنى ، سيرها هين لين ، إذا تأملتها وجدت فيها جمالا وحسنا ، فهي بعيدة ما بين المرققين ، منفرجة الجانبين .

النقد :

تشبيه الصحراء بالترس تشبيه جميل ؛ إذ أن الترس فوق استوائه فيه لمعان يشبه لمعان السراب في الصحراء ، واستعارة عزيف الجن بالليل بالزجل معنى رائع .

* ترجمه الشاعر : اقرأ ترجمته في ص ٢٦٠ .

التفسير اللغوي : (١) الترس : صفحة من الفولاذ تحمل للوقاية من السيف ونحوه ، جمعه أتراس ، وتراس ، وتروس ، وترسة . حافاتها : جوانبها جمع حافة . زجل : الزجل : المصخب واللب والضجيج والطرب .

(٢) لا ينامي : لا يعتمد ، ولا يسمو . الهل : بالتحريك التقدم وفلان ذو مهل ذو تقدم إلى ما فيه الخير والشرف .

(٣) الطليح : العيا الذي أضناه السفر ، ويطلق على الذكر والمؤنث . الجسرة : الناقة الضخمة الطويلة القوية . سرح : لينة في سيرها . الفتل : تباعد ما بين المرققين عن الجانبين .

٢ — وقال سويد بن أبي كاهل* في وصف الصحراء :

وفلاةٍ واضحٍ أقرابها بالياتٍ مثلُ مُرْفَتِ القزع^(١)
يسبحُ الآلُ على أعلامها وعلى البيدِ إذا اليومُ مَتَعَ^(٢)
٥٧٦ : فركبناها طَلَى مَجْهولها بِصِلابِ الأرضِ فيهن شَجَعَ^(٣)

تحليل الأبيات :

رب مومة مقفرة ، وفلاةٍ موحشة ، قد وضحت أقرابها ، وظهرت جوانبها وأطرافها ، فطرقها باليات لكثرة السير فيها ، فهي لبلاها تشبه المرفت المحطم مما يبق في الجوانب من شعر الرأس ، يجرى الآل على جبالها ، ويسبح السراب فوق أعلامها ، ويلعب في يديها ، عند ما ترتفع أشعة الشمس ؛ وتنتشر في الآفاق خيوطها البيض ، فركبنا هذه الصحراء على جهلنا مسالكها دون أن نخشى فيها ضلالا ، فحسبنا بها علما أقرابها وجوانبها الظاهرة الواضحة ، ركبناها بنجيل صلاب الخوافر ، متوفرة النشاط ، متوافرة المراح .

النقر :

الأبيات الثلاثة فيها حسن وروعة ، وتشبيه الحصى المحطم المكسر بالشعر المتجمع في جوانب الرأس فيه عمق فكرة ، وإن لم يستو التشبيه كل الاستواء ، وملاحظته السراب فوق الأعلام ملاحظة الرجل البدوي الذي تخلبه مناظر البادية .

* ترجمه الشاعر : اقرأ ترجمته في ص ١٥٩ .

التفسير اللغوي : (١) الفلاة : الصحراء الواسعة ، وتجمع على فلات وفلا ، وفلى . أقرابها : خواصرها ، مفردهما قرب بضم القاف وسكون الراء وضمتها ، والمقصود هنا الجوانب والأطراف . باليات : رثات خلقات . مرفت : محطم . القزع : جمع قزعة بقايا الشعر في الرأس .

(٢) الآل : السراب . الأعلام : الجبال مفردهما علم . البيد : الصحارى المقفرة مفردهما يبداء . متع اليوم : ارتفعت شمس .

(٣) صلاب الأرض : كناية عن الخيل ذات الخوافر الصلبة . الشجع : جنون النعاط .

٣ — وقال المرقش الأكبر يصف الصحراء أيضا :

ودويّة غبراء قد طال عهدُها نهالكُ فيها الورْدُ والمرءُ ناعسٌ^(١)
 قطعتُ إلى معروفها مُنكراتها بعينها مة تنسلُّ والليلُ دامسٌ^(٢)
 تركتُ بها ليلاً طويلاً ومنزلاً وموقد نارٍ لم ترمهُ القوايسُ^(٣)
 ٥٨٠ : ونسمعُ ترقاءً من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقيسُ^(٤)



* ترجمه الشاعر : اقرأ ترجمته ص ٢٠٩ .

- التفسير المفرد : (١) الأنامل : هكذا وردت ، ولعلها الأرامل . الطعم : الطعام .
 قلص در اللقاح : ارتفع لبن الناقة الحلوب . الصبر : البرد الشديد .
 (٢) الإماء : جمع أمة الرقيقات . الجعن : أصل الشجر الواحدة جعنة . البالي : القديم .
 عكوف : مستديرات حولها . القرارة : ما لزق بأسفل القدر من مرق أو حطام تابل محترق ،
 أو من أو غيره .
 (٣) الودع : حرز أبيض مشقوق كشق النواة . الأهجن : الأبيض . ينباع : ينثني ويتأوى .
 (٤) الدر : اللبن . الحروس : النساء ، والبكر أول ولادتها .

تحليل الأبيات :

وصحراء مقفرة قد اسودَّ لونها لبعدها بالنبات والماء تهالك فيها الإبل ، وتمايل في مسيرها من الآن ، وتأخذ السنة السائر فيها ، ويخالط النعاس عابرها لعموده وخود نفسه ، قطعت مجهولها إلى معروفها ، ومنكراتها الغامضة إلى مسالكها الواضحة بناقاة قوية جريئة ، تنسل في جنباتها انسلال الأرقم ، والليل دامس ، والظلام طامس .

تركت بهذه الدوية ليلا طويلا سهرته ، ومنزلا طيبا أقمته ، وأثافي نار لم يجرؤ على اقتباس النار منها القابسون ، وكنت تسمع في تسيارك ترقاء اليوم وصياحه ، كأنه دق النواقيس بعد أن هدا كل كائن ، وسكن كل متحرك .

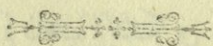
النقد :

اتفق المرقش مع الأعشى وسويد في بعض المعاني ، وزاد عليهم معاني آخر ، فوصفه الإبل بالتهالك ، والسفر بالنعاس معنى استقل به ، ووصفه الليل بالطول ، والمنزل الذي نزل به والموقد الذي أوقد فيه ناره معنى آخر لم يشارك فيه ، ووصفه زقاء اليوم وتشبيهه إياه بضرب النواقيس معنى ثالث ؛ وإذن فإن المرقش كان أقدر على وصف الصحراء من زميله ، ومعانيه أجمل من معانيهما ، وصوره أكمل من صورهما ، ولا بد أنك مشاركي في الرأي .

فوق أن في أسلوبه جمالا ملحوظا ، يظهر في ذلك الطباق في قوله :

٤ — وقال عمرو بن قميئة * يصف البرد :

ليس طُعْمِي طُعْمَ الْأَنَامِلِ إِذْ قَلَصَ دَرُّ اللَّقَاحِ فِي الصَّنَنِيرِ^(١)
 ورأيتَ الإمامَ كالجُنَيْنِ البَا لِي عُكُوفًا عَلَى قَرَارَةٍ قِذْرِ^(٢)
 ورأيتَ الثَّخَانَ كَالْوَدْعِ الْأَهْ جَنِّ يَنْبَاعُ مِنْ وَرَاءِ السَّيْتِ^(٣)
 ٥٨٤ : حَاضِرُ شَرِّكُمْ ، وَخَيْرُكُمْ دَرُّ رُخْرُوسٍ مِنَ الْأَرَانِبِ بِكَرٍ^(٤)



* ترجمه الشاعر : هو عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة ، شاعر جاهلي عاصر امرأ القيس وصاحبه ، ودخل معه بلاد الروم ، وفيها هلك ، فلقب بعمرو الضائع ، وهو الذي يقول عنه امرؤ القيس .

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
 فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكا او نموت فنعذرا

وقد توفي حوالى سنة ٥٣٠ م .

التفسير اللغوي : (١) الأنامل : هكذا وردت ، ولعلها الأرامل . الطعن : الطعام .
 قلس در اللقاح : ارتفع لبن الناقة الحلوب . الصنير : البرد الشديد .
 (٢) الإمام : جمع أمة الرقيقات . الجعن : أصل الشجر الواحدة جعنة . البالي : القديم .
 عكوف : مستديرات حولها . القرارة : مألزق بأسفل القدر من مرق أو حطام تابل محترق ،
 أو بمن أو غيره .

(٣) الودع : حرز أبيض مشقوق كشق النواة . الأهجن : الأبيض . ينباع : ينثني ويتأوى .

(٤) الدر : اللبن . الخروس : النساء ، والبكر أول ولادتها .

تحليل الأبيات :

ليس طعامى رديئاً دينثا كطعام الأرامل عند ما يقر البرد ، ويشتد الصنبر ، وتتقلص
اللقاح ، ويرتفع اللبن من الضروع ، وعند ما تبدو الإمام عظاما لالحم فيهن ، فكأنهن جذوع
الأشجار انقطعت من أصولها ، فنضب ماؤها ؛ وجف أصلها ، تبدوا أولئك الإمام مستديرات
حول القدور يستخلصن مالزق بها ، ولصق بقراراتها وحافاتهما من حطام محترق ، أو تابل
ملتصق ، وعند ما ترى الدخان أبيض قد زال أثر وقوده فكأنه ودع الأصداف يتثنى
وراء الأستار .

إنكم قوم شركم حاضر ، وخيركم ذاهب ، مثلكم فى نضوب خيركم ، وجفاف مائكم كمثل
لبن الأرنب النفساء البكر لما يدر لبنها ، ويمتلى * ضرعها .

النقد :

الأبيات فى الفخر بالكرم ، وهجاء أعدائه ووصفهم بالبخل ، ولكنه انحرف إلى
وصف البرد وأثره فى الكائنات فأحسن الوصف وأجاد التصوير . ولا سيما فى وصف
استدارة الإمام حول القدر ، فهو تصوير واقعى دقيق ، وتصويره الدخان بالودع الأبيض
يتثنى ويتلوى تصوير جميل .



٥ — وقال النابغة الذبياني * يصف الفرات :

فَمَا الْفَرَاتُ إِذَا هَبَّ الرِّيحُ لَهُ تَرْمِي أَوَاذِيهِ الْعَبْرَيْنِ بِالزَّبَدِ ^(١)
يُمِدُّهُ كُلُّ وَادٍ مُتَرَعٍ لِحَبِّ فِيهِ رُكَامٌ مِنَ الْيَنْبُوتِ وَالْخَضَدِ ^(٢)
يَظُلُّ مِنْ خَوْفِهِ الْمَلَّاحُ مُعْتَصِمًا بِالْخِيزَرَانَةِ بَعْدَ الْأَيْنِ وَالنَّجْدِ ^(٣)
يَوْمًا بِأَجُودَ مِنْهُ سَيْبَ نَافِلَةٍ وَلَا يَحُولُ عَطَاءَ الْيَوْمِ دُونَ غَدِ ^(٤)



* ترجمته الشاعر : انظر ترجمته في وصف الأوابد ص ١٥٤

التفسير اللغوي : (١) الأواذي . الأمواج للفرد آذى . العبران : الشاطئان .
الزبد : رغاوى الماء .

(٢) يمدّه : يزيد في مائه . للترع : المحتلّ . اللجب : ذى الصوت : الركام : الحطام
للتكاثف التراكم . الينبوت : شجر الحشخاش واحده ينبوتة . الخضد : ما خضد وتكسر .

(٣) يظل : يستمر طول يومه . الملاح : صاحب السفينة . معتصما : ممتعا . الخيزرانة .
السكان ، وهو دفة السفينة ، ويروى الحيسفوجة ، وهو الشراع . الأين : التعب والإعياء .
النجد : العرق والكرب .

(٤) بأجود منه : بأكثر منه عطاء . السيب : العطاء . النافلة : الزيادة .
لا يحول : لا يمنع .

تحليل الأبيات :

ليس نهر الفرات ، وقد هبت عليه الرياح العواصف ، فثارت أمواجه ، وترامى آذيه على شاطئه بالزبد ، تمده الوديان المترعة ، اللجة بالماء الغزير ، يتناثر فيه الحطام ، ويتجمع من الينبوت والخضد الركام ، فيخشاه الملاح ، ويخافه النوقى ، فيتقيه بسكان سفينه ، ويعتصم منه بدفة مركبه بعد أن بلغ منه الأين والإعياء كل مبلغ ، ونال منه الكرب والشدة كل منال ، ليس الفرات وتلك حاله ، وهذا وصفه عند ما يفيض فيروى ، ويطمو فيغنى ، بأجود منك يدا ، ولا بأكثر منك مدا ؛ إذ الفرات لا يفيض فى كل آن ، وفيضك لا يحد بزمان .

النقد :

جاء وصف الفرات عرضا حين أراد النابغة أن يصف النعمان بالكرم والسخاء ، فصور فيضان الفرات حينما تهب عليه الرياح ، وتتلاطم الأمواج ، ويصطخب الآذى ، وصوّر مده ، وما يجمله معه من حطام وركام ، كل ذلك فى أسلوب قوى قوة الماء حين يشور ، والنهر عند ما يفيض ، وقد اصطفى الألفاظ التى لا ينوب عنها غيرها فى معانيها . فالآذى ، والعبرين ، والزبد واللجب ، والركام والينبوت كلها ألفاظ تشعرك بالروعة والقوة ، وبالغ كما كان ذلك شأنه ، فلم نشعر إلا أنه صادق فيما روى ، وهذا خير ما يرجى من شاعر .

وصف الآثار الإنسانية

(١) وصف السفينة

١ — قال طرفه* في وصف السفينة من معلقته:

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غَدَوَةٌ خَلَايَا سَقِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ^(١)
عَدُولِيَّةٍ أَوْ زَيْنِ سَقِينِ ابْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي^(٢)
يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْرُومَهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمَفَايِلُ بِالْيَدِ^(٣) ٥٩١

* ترجمه الشاعر : اقرأ الترجمة في صفحة ٦١ .

التفسير اللغوي : (١) حُدُوج : جمع حُدَج وهو المركب من مراكب النساء . غَدَوَةٌ : صبحا . خَلَايَا : جمع خلية ، وهي قرارة السفينة ، من خلية النحل ، وهي موضع غسلها ، أو هي السفينة العظيمة ، أو السفينة التي تسير بدون ملاح . النَوَاصِف : جمع ناصفة : وهي الرحبة الواسعة تكون في الوادي . دَد : اسم موضع .

(٢) عَدُولِيَّة : وصف لموصوف محذوف هو سفينة ، وعدُولِيَّة نسبة إلى عدولي إحدى جزائر البحر الفارسي ، وقيل إنها نسبة إلى قوم كانوا ينزلون بهجر . ابْنِ يَامِن : ملاح من أهل هجر . يَجُور : يميل . يَهْتَدِي : يعضى للقصد .

(٣) حَبَابَ الْمَاءِ : طرائقه وأمواجه . الْحَيْرُوم : الصدر كالقيدوم . الْمَفَايِل : الذي يلعب لعبة الفبال ، وهي تراب أو رمل يكومونه ، ثم يخبثون فيه خبيثاً ، ثم يشق الفبال تلك الكومة بيده ، فيقسمها قسمين ، ثم يقول : في أي الجانبين خبأت ، فإن أصاب ظفر ، وإن أخطأ قر .

تحليل الأبيات :

كان مراكب تلك الخليفة الحسبية المنسوبة إلى بنى مالك - وهي تظعن صباحا في عظمتها
وضخامتها تقطع ذلك الوادى الواسع من دد - سفائن عظيمة ، كأنها سفينة عدولية أو من
سفن ذلك الملاح الماهر ابن يامن ، فهي في مسيرها تميل إلى الشاطئين حيناً ، وتهتدى
في مسيرها ، فتستقيم ولا تنحرف يمنة ولا يسرة حيناً .
هذا الملاح الماهر يشق بصدرها طرائق الماء ، ويقطع أمواجه ، كما يقسم لاعب الفيل
الرمل براحته .

النقد :

تشبيه هوداج النساء بالسفن تشبيه دقيق ، فلهوداج كما للسفن قرارات و بطون يجلس
فيها السفر ، والهوداج في امتدادها تشبه السفن في تتابعها ، والوادى الواسع تسير فيه مراكب
النساء أشبه ما يكون بالبحر ، وانصرف عن حدود المالكية إلى وصف السفينة العدولية ،
فقال : إن ملاحها يميل بها ويقصد على حسب الريح ، وهو حيناً يقصد في مشيه فيشق
حيزومها الماء يشبه المقاييل عند ما يقسم الرمل ، وقد قال القدماء إن هذا التشبيه من أروع
ما تخيله شاعر .



٢- وقال عنتره* يصف الروضة من معلقته :

أَوْ رَوْضَةٌ أَنْفًا تَضْمَنُ نَبْتَهَا غَيْثٌ قَلِيلٌ الدَّمَنُ لَيْسَ بِمَعْلَمٍ (١)
جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بَكْرٍ حُرَّةٍ فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدَّرْهِمِ (٢)
سَحَّاءُ تَسْكَبُ أَفْكَلُ عَشِيَةٍ يَجْرِي عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ (٣)
وَحَلَا الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَارِحٍ غَرْدًا كَفَعَلِ الشَّارِبِ الْمَتَرَّمِ (٤)
هَزَجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ قَدْ حُكَّ الْمَكْبُ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْذَمِ (٥)



* ترجمته الشاعر : اقرأ الترجمة في ص ١٢٢ .

التفسير اللغوي : (١) الروضة في الأصل : المكان المظمن يجتمع إليه الماء فيكثر نباته .
أنف : التام من كل شيء ، وقيل هو أول كل شيء ، وروضة أنف لم يرعها أحد . الدمن : جمع دمنة السرجين ، وقيل معناه قليل اللبث لم يدمن عليها . ليس بمعلم : ليس بمعروف .
(٢) جادت : سحت . البكر : من السحاب الذي لم يطر . الحرة : الخالصة ، وقيل الكثيرة للطر ، وفي رواية عين ثرة ، والثرة : الكثيرة الماء . القرارة : الموضع المظمن من الأرض يجتمع فيه السيل .

(٣) السح : الصب والانسباب ، والتسكاب : السكب . لم يتصرم : لم يقطع .

(٤) غردا : مفردا . الشارب : السكران : المترنم : المتغنى .

(٥) هزجا : مصوتا تصويتا مسرعا . المكب : القبل على الأمر . الأجزم : المقطوع اليد .

تحليل الأبيات :

وصف عنبرة في بيت يسبق هذه الأبيات رائحة ثغر عبلة بأنه :

٥٩٧: وكان فارة تاجر — بقسيمة سبقت عوارضها إليك من الفم

أو أن رائحته كرائحة روضة تامة النبات ، موفورة الأزهار ، تسقى سقيا خفيفا ، فلا يضر الماء الدائم نباتها ، ولا ينال من جمالها ، ولا يقطف الزوار الكثيرون أزهارها ، فعبيرها محبوس عليها ، وزهرها يفوح في جنباتها .

جادت على هذا الموضع سحب بكر كثيرة الغيث ، سخية بالماء ، فتركت تلك السحب المطمن من أرض ذلك المكان مفعما بالماء ، فإذا به في استدارته ولعانه كالدرهم ، وكأني بالشاعر رجع يصف الروضة قبل أن ينجم نباتها ، فوصف الموضع بأن الماء فاض عليه ؛ حتى اشتعلت أرضه نباتا .

ينصب المطر عليه انصبابا ، وينسكب الغيث في جميع نواحيه انسكابا ، ففي كل العشايا يند عليه المزن ، فيجري بين جنباته ، ويفيض على حواشيه وطرقاته ، فيهب لنبتة النمو والزكاة .

وحينما نضرت أزهاره ، وينعت أثماره خلا الذباب بتلك الروضة ، فهو يغرد فيها تغريدا مستمرا ، مثله في تغريده وترنمه كمثل الشارب التمل قد أفاضت عليه النشوة السرور والمرح ، فأخذ في الغناء والتنغيم ، لا يقفه عن الغناء سبب ، ولا يمنعه من الترنم مانع . ذلك الذباب يغني غناء متتابعا ، ويغرد تغريدا مستمرا ؛ فهو يحك ذراعا بذراع ؛ ويقدح جناحا بجناح ؛ مثله في قدحه كمثل رجل ناقص اليد يقدح النار من الزندين .

النقد :

هذه الأبيات في وصف الروضة وذبابها من أروع ما نظم شاعر جاهلي فوصفه قرارة الماء بالدرهم تصوير رائع جميل ؛ ووصفه الذباب في تغريده تصوير رائع جميل كذلك ؛ ولقد حكم له زعماء الأدب القديم بأنه أجاد في تصويره كل الإجادة . ولولا الفصل بين الموصوف والصفة في البيت الأخير لكانت الأبيات آية الجمال

٣ — وقال الأعشى * يصف روضة من معلقته:

ماروضةٌ من رياض الحزن مُعشبةٌ خضراء جادَ عليها مُسبلٌ هطلٌ^(١)
يُضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ مؤزَّرٌ بعيمٍ النبتِ مكتهلٌ^(٢)
٦٠٠ : يوما بأطيبَ منها نشرَ رائحةٍ ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأصلُ^(٣)

تحليل الأبيات :

ضمن الأعشى غزله وصف الروضة فعبه عبرا كما فعل عنقرة قبله ، فإنه ليصف محبوبته هريرة بطيب النشر ، فيقول :

٦٠١ : إذا تقوم يضوع المسك أصورة والزئبق الورد من أردانها شمل
إذ يرى أن الروضة دونها نشرًا ، وأقل منها عطرا ، فيقول :

ليست روضة مثناف من رياض الحزن والربا قد أعشبت فنضرت ، واخضرت فأزهرت ، بما جاد عليها المطر الهطل ، والغيث المنسكب ، فزهرها المبتسم ، ونورها الريان المتفتح يضاحك الشمس وتضاحكه ، يبدو لها في ثوب ضاف من النبت ، وإزار سابغ من الزرع . ليست روضة هذا شأنها بأطيب من محبوبته نشرًا ، ولا بأحسن منها ساعات الأصيل عطرا .

القمر :

الأعشى في وصفه الروضة أكثر دقة من عنقرة ، ويظهر أن حياته أ كسبته معارف أوسع ، فعرف أن رياض الحزن أنضر من رياض الخفض ، وأن الزهر يفوح عبيره ويذكو أريجه في ساعات الأصيل عنه في غيرها من ساعات النهار لتباعد الشمس والنفي عنه ، كما أن تصويره الزهر يضاحك الشمس تصور يدل على حضارة ومدنية .

* ترجمه الشاعر : اقرأ الترجمة في ص ٢٦٠ .

التفسير اللغوي . (١) الحزن : الأرض المرتفعة . وضدها الخفض . معشبة : منبثة . مسبل : منسكب . هطل : كثير الانسكاب .

(٢) الكوكب : نور الروضة . الشرق : الريان : مؤزر : مؤزر بالنبت . مكتهل : متكامل .

(٣) النشر : الرائحة الطيبة . دنا : قرب . الأصل : جمع أصيل ، وهو من العصر إلى العشاء .

(ح) وصف الخمر وسقاتها وندمانها

١ — قال الأعشى * يصف النادمة :

- وأبيضَ مُختلطٍ بالكرِ
أَتَانِي يُؤَامِرُنِي فِي الشُّمُو
فَرُحْنَا نَبَا كُرْ جَدَّ الصُّبُو
فَقَمْنَا وَلَمَّا يَصْحُ دِيكُنَا
تَنْخُلُهَا مِنْ بَكَارِ الْقَطَا
فَقُلْنَا لَهُ : هَذِهِ هَاتِيهَا
فَقَامَ ، فَصَبَّ لَنَا قَهْوَةً
كَمَيْتًا تَكْشِفُ عَنْ حَمْرَةٍ
٦٠٩ :
- مِ لَا يَتَغَطَّى لِإِنْفَادِهَا^(١)
لِ لَيْلًا ، فَقُلْتُ لَهُ : غَادِهَا^(٢)
ح قَبْلَ الْفُفُوسِ وَحُسَّادِهَا^(٣)
إِلَى جَوْنَةٍ عِنْدَ حَدَّادِهَا^(٤)
فِ أَزْرِقُ أَمِنْ أُكْسَادِهَا^(٥)
بَأْدَمَاءَ فِي حَبْلِ مُقْتَادِهَا^(٦)
تَسْكُنُنَا بَعْدَ إِزْعَادِهَا^(٧)
إِذَا صَرَّحَتْ بَعْدَ إِزْبَادِهَا^(٨)

* ترجمته الشاعر : اقرأ ترجمته في ص ٢٦٠ .

- التفسير اللغوي : (١) مختلط بالكرام : مصادق لهم . لا يتغطى : لا يتساكر . لإنفادها : لإنهاؤها .
(٢) يؤامرني : يشاورني . الشمول : الخمر الباردة . غادها : باكرها .
(٣) الصبوح : الخمر تشرب صباحاً ، وضدها الغبوق .
(٤) لما : لم . ديكنا . أى ديك الفجر الذى يؤذن بالصبح . الجونة : الخاية المطلية
توضع فيها الخمر . حدادها : سبي الخمار حدادا لمنع الخمر وحفظه إياها وإمساكها لها حتى يندل
له ثمنها الذى يرضيه ، وفى بعض الكتب جدادها بالجيم ، قال الأزهري : هذا حاق التصحيف
الذى يستحي من مثله من ضعفته معرفته ، فكيف بمن يدعى المعرفة الثاقبة ، وصوابه بالحاء .
(٥) تنخلها : تخيرها . بكار القطاف : مباركة القطف والجنى . أزرق : تصغير أزرق
وهو صاحبها ، ويكنى به الرومى لأنه أزرق العينين ... أ كسادها : بوارها .
(٦) بأدماء : بناقة يخالط يياضها سمرة . مقتادها : صاحب قيادها .
(٧) قهوة : خمرة . تسكننا : تهدئنا . إزعادها : يقصد إزبادها وفورانها .
(٨) كميता : خمرة يغطي حمرتها سواد . صرحت : صفت . إزبادها : فورانها وانتشار
الحب فوقها .

- فجَالَ عَلَيْنَا بِأَبْرِيقِهِ مُخَضَّبُ كَفٍ بِفِرْصَادِهَا^(٩)
 فَرُحْنَا تَنَعُّمًا نَشْوَةً تَخُورُ بِنَا بَعْدَ قُصَادِهَا^(١٠)
 فَقَالَ: تَزِيدُونَنِي تَسْعَةً وَلَيْسَتْ بِعَدَلٍ لِأَنَادِهَا^(١١)
 فَقُلْتُ لِمُنْصَفِنَا: أَعْطِهِ فَلَمَّا رَأَى حِرْصَ شُهَادِهَا^(١٢)
 أَضَاءَ مِظْلَتَهُ بِالسَّارَا جِ، وَاللَّيْلِ غَامِرُ جَدَادِهَا^(١٣)
 دَرَاهِمُنَا كُلُّهَا جَيِّدٌ فَلَا تَحْبِسُنَا بِنَقَادِهَا^(١٤)
 فَبَاتَتْ رَكَابُ بَأْ كَوَارِهَا لَدَيْنَا، وَخَيْلٌ بِالْبَادِهَا^(١٥) :٦١٦

- (٩) فجَالَ : فطاف . مخضَّب كَف : مصبوغ الكف بخضاب الحناء . بفِرْصَادِهَا : بصبغها الأحمر ، ويطاق على التوت الأحمر ، وهو شديد التأثير فيما يمسّه .
 (١٠) تَنَعُّمًا : تبعث فينا الشعور بالنعماء . نَشْوَةً : أول السكر . تَخُورُ بِنَا : تذهب بقوانا .
 (١١) تَسْعَةً : أى تسعة أباريق . بَعْدَل : بمعادلة . لِأَنَادِهَا : لنظرائها .
 (١٢) لِمُنْصَفِنَا : لساقينا وخدامنا .
 (١٣) الْمِظْلَةُ : الخيمة . غَامِر : مغط وشامل . الْجَدَاد : الأهداب .
 (١٤) تَحْبِسُنَا : تؤخرنا في انتظار التقاد : التقاد النقد ، وتبين الجوهر السليم من البهرج الزيف .
 (١٥) رَكَاب : جمع ركب الإبل . الْأَكْوَار : جمع كور القطيع منها أو أداتها . الْأَبَاد : جمع لبد وهو المجلس تحت السرج .

تحليل الأبيات :

كان الأعشى زعيم المدمنين ، فلا غرو أن يكون للخمر زعيم الوصافين ، ولقد تأثره من جاء بعده من الشعراء في جميع العصور : العصر الجاهلي والأموي والعباسي ، وأبياته هذه قصة شرب كاملة ، فهذا صديقه المشرق الوجه ، النبيل الأصل ، المصادق للكرام الذي لا يتساكر حتى إذا نفدت الخمرة ، قد أقبل يشاوره في الشراب ، ويؤامره على الراح ، أيعاقرها في المساء أم يعاقرها في الصباح ؟ فيشير عليه بأن يغادها ، وحينئذ يذهبان لمباكرة الصبح قبل أن يصحو النيام ، ويستيقظ العذال والحساد . قبل أن يصيح الديك مؤذنا بانفلاق الفجر وتنفس الصبح ، يذهبان إلى خاية مترعة يحفظها من الشرب راع أمين ، وخار حريص ، فهو لا يقدمها إلا لمن يثق من وفائه ، ويطمئن إلى سرائه وثرائه ، ومن حقه أن يفعل هذا فقد تخير كرمها ، واصطفى قطفها رجل رومي خير بصناعته ، فهو آمن كسادها ، مطمئن إلى سرعة نفاذها .

فقلنا له : هات كئوسك ، وأترع أباريقك ، ثمنا تلك الناقة الأدماء يسوقها لك راعيها إذا لم ترض ثمنها دراهم جيادا ، فقام إلى جونتته فصب لنا منها قهوة معتقة ، تهدي النفوس النائرة ، وتسكن الأجسام المرعدة ، صب لنا خمرة كميता تبدو حمرتها عند ما تزول رغوتها ، ويتكشف صريحها عن زبدها ، وأخذ يحول علينا بأبريقه ، ويطوف بكئوسه فتى مخضب الكف ، مصبوغ الراحة ، كأنما قد خضبها بالفرصاد ، فصرنا ننعم بالنشوة ، ونهنا بأول السكر ، حتى خارت منا القوى ، وهمدت الأجسام بعد أن كثر في طلبها القاصدون ، ولكن ذلك الصديق لم تكن قواه قد خارت ، ولا جسمه قد همد ، فقال : تزيدونني تسعة أباريق وليست بمعادلة لمثيلاتها ، بل هي أعظم امتلاء ؛ وكأنه يخاطر ويراهن أنه أقدر الشرب على الشراب ، فراهناء على احتسائها ، وقلت لساقينا : أعطه إياها ، وحين رأى حرص الشاهدين على هزيمته أضاء خيمته ، وأشعل سراجيه ، فقد أقبل الليل شاملا السكون بظلامه ، مغطيا الدنيا بستاره ، فقلنا للخمار هاك دراهمك ، وكلها جيد ، فلا تجبسننا حتى تنفدها فسا بها من زيف ، وما فيها من بهرج ، فباتت ركابنا من فوقها أكوارها ، وأمست خيولنا تعلوها ألبادها ، فقد شغلنا الشراب النهار ووهنا من الليل .

النَّعْم :

هذه قصة شراب لا يستطيع ترتيب فصولها ، وتنسيق مناظرها إلا رجل عاقر الخمر ،
وعشق الشراب ، فهو القدير على تأليف المناظر ، وتنظيم المشاهد ، فصديقه يؤامره
في الشمول ، فيشير عليه بأن يشربها صبوحة ، ويرسم لك بعدئذ يوما كاملا للمدمنين ،
فيحسن رسمه ، ويحيد الحوار ، ويصور لك أحاديث النشأوى ، حينما تتحكم فيهم الراح :

فقال تزيدوننى تسعة وليست بعدل لأندادها

فقلت لمنصفنا : أعطه فلما رأى حرص شهادها

أضاء مظلته بالسرا ج ، والليل غامر جدادها

لقد ذهبت السكره ، وجاءت الفكرة ، فحسبه ما احتسى ، وكافيه ما استقى ؛ والأبيات مفعمة
بالمعاني ، مترعة بالصور ، زاخرة بالجمال ، جمال الأسلوب ، وجمال النغم ، وجمال القافية ،
فأى صورة يستطيع أن يصورها فنان قدير أصدق من تصوير الأعشى الخمر إذ يحتسيها
الاحتسى فتخور قواه بعد أن يعلوها الزبد ، وذلك في قوله :

فقام فصب لنا قهوة تسكننا بعد إرعادها

كميتا تكشف عن خمره إذا صرحت بعد إزبادها

وأى جمال فى الطباق أوضح من « تسكننا بعد إرعادها » ؟

وأليس يروق القارى ذلك الوزن الراقص الذى اختاره الشاعر لخرتيه ؟ .

ولا غرو ففناظهما هو صناجة العرب ، وزعيم المدمنين .

٢ — وقال عمرو بن كلثوم * في مطلع معلقته:

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي خَمُورَ الْأَنْدَرِينَا ^(١)
 مُشْعَشَعَةً كَأَنَّ الْحُصَّ فِيهَا إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا ^(٢)
 تَجُورُ بِذِي اللَّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِينَا ^(٣)
 تَرَى اللَّحْزَ الشَّحِيحَ إِذَا أُمِرَتْ عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِينَا ^(٤) : ٦٢٠

* ترجمته الشاعر: هو أبو عباد عمرو بن كلثوم بن عمرو بن مالك بن عتاب التغلبي، كان أبوه من سادات قومه، فتزوج ليلي بنت مهلهل بن ربيعة، فولدت له عمرا، فهو شريف من ناحيته، فشب عمرو مزهوا بنفسه، مختالا بقومه؛ حتى قيل إنه سادهم وسنه خمس عشرة سنة، ولا يعرف الأدب له من الشعر غير هذه القصيدة إلا أياتا قليلة ولكنه عد بها من خول الشعراء توفي حوالي سنة ٥٧٠ م.

التفسير اللغوي: (١) هي: استيقظي. بصحنك: بقدحك الكبير. اصبحينا: استيقنا الصبح، وهو شراب الصباح. الأندرين: قرية في جنوبي حلب على مسيرة يوم للراكب. (٢) مشعشة: ممزوجة، يقال شعشع الشراب إذا مزجه بالماء. الحص: نبت له زهر أحمر يميل إلى الصفرة يشبه الزعفران. سخينا: حال من الماء أي حارا، وهناك من يرى أن سخينا فعل وفاعل بمعنى جدنا، والأول أولى لوجهين الأول أن أندرين كانت للروم حينئذ ومن عادتهم أن يشربوا الخمر ممزوجة بالماء السخين، والآخر أنها فعلا وفاعلا تعيب الشعر بالسناد، وهو اختلاف الحركة قبل الروي.

(٣) تجور: تميل. بذى اللبانة: يصاحب الحاجة. عن هواه: عن حاجته ولبانته.

(٤) اللحز: الضيق الصدر السيء الخلق. الشحيح: البخيل. أمرت: أديرت.

مهينا: محتقرا.

تحليل الأبيات :

ألا استيقظي أيتها الساقية من غفوتك ، واصحي من سنتك ، فأديرى علينا الراح ،
وطوفي بالصبوح ، ولا تدخرى من خر أندرين كأسا ، ولا تبق من قهوتها صحن ، أديرها
علينا مشعشة ممزوجة ، فكأنها إذا ما مزجت بالماء السخين قد خلطت بالزعفران ،
فهى حمراء صفراء ، هذه الخمر تنسى صاحب اللبانات لبانتة ، وتصرف ذا المهام عن مهامه ،
فهو ينصرف عند ما يدوقها إليها ، ولا يفكر فيما سواها .

وهى القديرة على تغيير الشائل ، وتبديل الطبائع ، فتجعل الرجل الضيق الصدر ،
السيء الخلق سمحا وديعا ، سهلا لنا ، وتصير من الرجل الكز الشحيح ، الضنين البخيل ،
سخيا كريما ، لا يبقى على مال ، فإذا أديرت عليه كثوسها أسرف فى إنفاق دراهمه
ودنانيره ، ولم يقم لها وزنا ، ولا عرف لها صوتا .

النقد :

عمرو بن كلثوم هو الشاعر الأوحى الذى افتتح معلقته بوصف الخمر ، وخالف بذلك
سنة الشعراء فى عصره ، ولعله فيما صنع كان متأثرا بها ، مشغوبا بشربها ، ومن الأدباء من
يرى أن خلطا أصاب نظم القصيدة ، فقدم متأخرا ، وآخر متقدما ، ويزعم أن مفتتح
القصيدة هو :

٦٢١ : قفى قبل التفرق يا ظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا

وأيا كان الأمر فقد وصف عمرو الخمر فى إيجاز وصفا بارعا فى بيته :

مشعشة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

ووصف أثرها فى النفوس ، وفعلها فى الندامى وصفا لانهية الجمال ، ولا غاية لحسن تصويره :

تجور بذى اللبانة عن هواه إذا مذاقها حتى يلينا

ترى اللعز الشحيح إذا أمرت عليه لماله فيها مهينا

وقد كشف لنا عن بعض عادات أهل الروم فى معاقرتهم الخمر ، وأنهم لا يشربونها شمولاً ،
بل يشربونها حارة كما ذكر ذلك أبو العلاء فى رسالة الغفران .

٣ — وقال علقمة الفحل * يصف مجلس شراب:

قد أشهدُ الشَّربَ فيهم مِزهرٌ رَيمٌ^(١) والقومَ تصرَّعُهمُ صهباءُ خرطوم^(٢)
 كأسٌ عَزِيزٌ من الأَعْنابِ عَتَقَها^(٣) لبعْضِ أحيائها حَانِيَّةٌ حَوْمٌ^(٤)
 تَشْفَى الصَّدَاعَ ولا يؤذيكِ صالِبُها^(٥) ولا يخالِطُها في الرَأْسِ تدوِيمٌ^(٦)
 عَانِيَّةٌ قَرَفٌ لم تَطْلُعْ سَنَةً^(٧) يَخْنُها مُدْمِجٌ بالطينِ مَخْتومٌ^(٨)
 ظَلَّتْ تَرَقُّقُ في الناجودِ يَصْفَقُها^(٩) وليدٌ أَعْجَمَ بالكِتانِ مَفْدومٌ^(١٠)
 كَانَ إِبْرِيْقَهُمْ ظَبْيٌ على شَرَفٍ^(١١) مُقَدَّمٌ بسِبا الكِتانِ مَرثومٌ^(١٢)
 أَيْضُ أَرْزَهَ للضَّحِ راقِبُه^(١٣) مُقَلَّدٌ قَضْبَ الرِّيحانِ مَفْعومٌ^(١٤)

* ترجمه الشاعر : انظر الترجمة في ص ٩٨ .

- التفسير اللغوي : (١) الشرب : جماعة الشاربين . المزهر الريم : العود المترنم .
 الصهباء : خمر من عصير العنب الأبيض . الخرطوم : أول ما ينزل منها صافية .
 (٢) العزيز : الملك . عتقها : جعلها قديمة معتقة . حانية : قوم حارون نسبوا إلى الحانة ،
 الواحد حاني . الحوم : الطائفون حولها من حام يحوم كدار يدور وزنا ومعنى .
 (٣) الصداع . وجع الرأس ، ومثله الصالب . التدويم : الدوران .
 (٤) العانية : المنسوبة إلى عانة ، وهي إحدى قرى الجزيرة . القرقف : الخمر ترعد
 الشارب . لم تطلع سنة : مكثت في خايتها سنة دون أن يكشف عنها . يخنها : يسترها . المدمج :
 الدن طين بالطين . مختوم . معلم عليه .
 (٥) ترقق : تضطرب وتهتز . الناجود : الباطية العظيمة . يصفقها : ينقلها من ناجود
 إلى ناجود . مفدوم : مغطى فمه عند السقي . وكان الأعاجم يغطون فم الساقى ، ومثلها مقدم .
 (٦) شرف : مرتفع من الأرض . مقدم : مغطى فم الإبريق . بسبا الكتان : بسائب
 الكتان ، خذف جزءا من الكلمة ، والسائب الشقق . مرثوم : المكسور أنفه .
 (٧) أبرزه : أخرجه لتصبيه الريح . الضح : الشمس . راقبه : مراقبه وحافظه . مقلد :
 معلق . مفعوم : مسدود بالريحان .

تحليل الأبيات :

يفخر علقمة بالخر ويزهو بشربها ، فيقول : إنه قد يشهد جماعة الفدائي ومجلس الشراب والغناء ؛ إذ تصرع القوم الصهباء ، وتستولى على عقولهم الراح ، فتدار علينا كأس العزيز ، قد عصرت عقارها من الأعناب ، وعقتها خمارون ماهرون ، فهم يطوفون حولها ، كأنها معبودهم ، ويدورون على بواطيمها ، كأنهم يقدسونها ، هذه الخمر المعتقة تشفى الصداع ، وتزيل الدوار ، وإن يكن شأن الخمر غير ذلك ، فتأثيرها لنفاسها غير تأثير سواها ، وكيف لا يكون ذلك أثرها ؟ وهي المنسوبة إلى عانة ، وهي إن أرعدت الجسم فإنها تزن الرأس ، فقد بقيت في دنها سنة كاملة ، لم يفض ختامها ، ولا رفع غطاؤها ، فهي مدججة بالطين ، تضطرب في جوتها ، وتترقق في ناجودها ، ينقلها من باطية إلى أخرى فتى أعجمي ، ووليد رومي برع في صناعة الخمر ؛ لأنه يسقى الملوك ، فهو يسقيهم مغطى الفم ، حتى لا يشاركهم في استنشاق عبيرها ، وهو أدب تأدب به في قصور الأمراء والملوك ، إبريق أولئك الشرب يشبه في بياضه وصفائه وطوله وامتداده ظبيا مستشرقا من أعلى ، مغطى بشقق من الكتان ، وقد كسر أنف ذلك الظبي .

أبرز الوليد الإبريق الأبيض ليرى أشعة الشمس ، وتصيبه ريح الشمال ، وهو يراقبه ويحافظ عليه ، فله عنده الإكبار والإعزاز ، فهو كالمغطى بأغصان الريحان ، وذلك لطيب ريحه ، وأرج عبيره ، يفعم الأنوف برائحته المبهقة .

النقد :

وصف علقمة الشرب وقد صرعتهم الصهباء فأحسن وصفهم ، كما أنه صور تعتيق الخمر فأحسن التصوير ، ونفى عن الخمر أبرز ما تعاب به وهو أنها تصدع الرأس ، وتذهب العقل ، ولكنه لم يوفق إلى دليل يقيمه على ذلك الأثر ، ثم إنه وصفها بأنها قرقف ، وهذه ترعد الجسم فوق أن اللفظ قبيح ثقيل ، ويظهر أن عانة كانت معروفة بالخمر في العصر الجاهلي إلى جانب بابل .

٤ — وقال الأسود بن يعفر النهشلي * يصفها ويصف ساقها وندمانها :

- ولقد هُوتُ وللشبابِ لذادةً بسُلالةٍ مُزجتْ بماءِ غوادِي (١)
 مِن خمرٍ ذِي نَظَفٍ أَغْنَى مُنْطَقِي وأَفَى بها لِدِراهِمِ الإِسْجَادِ (٢)
 يَسَمَى بها ذُو تَوَمَتَيْنِ مُشْمَرٌ قَنَاتٌ أَنَامِلُهُ مِنَ الْفِرْصَادِ (٣)
 والبَيْضُ يُنَمِّشِي كَالْبَدُورِ وَكَالدُّمَى ونَوَاعِمُ يَمْشِينَ بِالْأَرْفَادِ (٤)
 والبَيْضُ يُرَمِّنُ الْقُلُوبَ كَأَنَّهَا أُدْحَى بَيْنَ صَرِيمَةٍ وَجِجَادِ (٥)
 يَنْطَفِنَ مَعْرُوفًا ، وَهَنٌ نَوَاعِمُ بَيْضُ الْوُجُوهِ رَقِيقَةُ الْأَكْبَادِ (٦)

٦٣٤ :

* ترجمته الشاعر : هو الأسود بن يعفر بن عبد الأسود بن جندل بن نهشل ، أحد شعراء الجاهلية الفحول كان من ندماء النعمان بن النذر ، قال عنه ابن سلام الجمحي : « كان يكثر التنقل في العرب يجاورهم فيدم ويحمد ، وله في ذلك أشعار ، وله واحدة طويلة رائعة لاحقة بأول الشعر لو كان شفعها بثملها قدمناه على أهل مرتبته ، وهو يريد القصيدة التي منها هذه الأبيات . توفي حوالى سنة ٦٠٠ م .

التفسير اللغوي : (١) اللذادة : اللذة . السلالة : خالص الشراب وأوله . الغوادى : جمع غادية السحب تنשא غدوة .

(٢) النظف : الأقراط مفردها نظفة . الأغنى : الذى يخرج صوته من خياشيمه . منطوق : لابس المنطقه . وافى بها : أقبل بها . دراهم الإسجاد : دراهم الأكسرة كانت عليها صور يكفرون لها ويسجدون .

(٣) التومتان : اللؤلؤتان . قنات أنامله : اشتدت حمرة أنامله فضربت إلى السواد . الفرصاد : صبغ أحمر أو هو التوت الأحمر .

(٤) البيض وصف لموصوف محذوف يقصد الغانيات . الدمى : جمع دمية التماثيل الصنوعة من الرخام ونحوه . الأرفاد : جمع رفد الأقداح العظيمة .

(٥) الأدحى : السكان تبيض فيه النعامة . الصريمة : القطعة من الرمل . الججاد : ما غلظ من الأرض وارتفع .

(٦) معروفا : قولنا . رقيقة الأكباد : كناية عن حسن الخلق ولين الجانب .

تحليل الأبيات :

يصف الشاعر نفسه بأنه من أهل اللهو واللجون ، فكلم قد لها وجن ، واللهو شهوة ،
وللجون لذة ، ومن أدوات لهوه سلافة ممزوجة بماء الغوادي ، وشمول مشعشة بابن السحاب
يديرها فتى اتخذ من الحسن كساء ، ومن الجمال لباسا ، فأذناه مشنفتان بالنطف ، وصوته
محل بالفتنة ، وخصره مزين بالمنطقة ، فهو يضم إلى جماله الطبيعي جميع أسباب الحسن
والزينة ، أقبل هذا الفتى على جماعة أثرياء يدفعون ثمن الراح من دراهم الأكاسرة التي
نقشت عليها صور آلهتهم ، وزينت برسم معبوداتهم .

يطوف ذلك الساقى على الندامى وقد زين بلؤلؤتين ثمينتين ، مشمرا عن ساعدين
كأنهما صيفا من العاج أو سويا من البلور ، وكأن أنامله وقد صبغتها الخمر مخضبة بالقرصاد .
يدع الفتى دمه لئلا منه الكؤوس قيان روائع يدرن كأنهن البدور جمالا ، والدمى
قواما ، وفي أيديهن الأقداح المترعة ، والكؤوس المفعمة يدرنهن على الشرب ، فيرمينهم
بمحاجرهن ، ويصببنهم بعيونهن ، فيشققن قلوبهم ، فكأنها وقد نقبتها هذه النظرات
أداحى نعام بين صريم وجاد ، فهن ينطقن كلاما لنا ، ويسقن حديثا عذبا ، في نعومة
ورقة ، إلى أنهن « بيض الوجوه رقيقة الأكباد » .

الفقر :

أجاد الشاعر وصف الساقى والساقيات ، وأحسن تصوير مجلس الشراب ، وصوره
تصويرا كاملا الأجزاء ، تام العناصر ؛ حتى إنه ليجب إلى أولى الزهد والعبادة أن يشهدوا
ذلك المجلس الذي يظهر فيه ذلك الساقى ذو التومتين و :

والبيض تمشى كالبدور وكالدمى ونواعم يمشين بالأرفاد

والبيض يرمين القلوب كأنها أدحى بين صريمة وجاد

وأسلوب الشاعر رقيق عذب ، وكأنه اقتبس رفته من راحه ، وأخذ عذوبته من رحيقه ،
لا بل من بيضه ونواعمه .

٥ — وقال عدى بن زيد * يصفها ويصف الساقية من قصيدة أولها :

بَكَرَ الْعَاذِلُونَ فِي وَضَحِ الصَّبْحِ يَقُولُونَ لِي أَمَا تَسْتَفِيقُ؟^(١)
وَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا، فَجَاءَتْ قَيْنَةً فِي يَمِينِهَا إِزْرِيقُ^(٢)
فَدَمَّتْهُ عَلَى عَقَارٍ كَمِينِ الدَّيْكِ صَنَى سُلَافَهَا الرَّاؤُوقُ^(٣)
مُرَّةً قَبْلَ مَزْجِهَا، فَإِذَا مَا مَزَجَتْ لَدَّا طَعْمَهَا مَنْ يَذُوقُ^(٤)
وطفًا فَوَقَّعَهَا فِقَاقِيعُ كَالْيَا قُوتِ حَمْرٍ، يَرَبِّهَا التَّصْفِيقُ^(٥)
ثُمَّ كَانَ الْمِزَاجُ مَاءً سَحَابٍ لَا صَدَى آجِنٌ وَلَا مَطْرُوقُ^(٦) ٦٤٠

* ترجمه الشاعر : هو عدى بن زيد بن حماد بن زيد بن أيوب « وأيوب هذا أول من سمى بهذا الاسم من العرب » شاعر تيمى فصيح ، عاش أجداده بالحيرة وكان أبوه زيد أحرق العرب في الكتابة فتولاها لكسرى أنوشروان ، وتعلم عدى العربية والفارسية والكتابة بهما ، وبعد أن شب صار مقدما عند النعمان الثالث ، ونديما له ، ثم صار كاتباً في ديوان كسرى أنوشروان ، ورحل إلى الشام فأقام بدمشق زمناً ، ثم عاد إلى كسرى ، وخرج من عند كسرى إلى الحيرة ، فتزوج هند بنت النعمان بن المنذر ، فبقيت زوجة له حتى قتله النعمان ، فترهبت في دير عرف بإسمها حتى ماتت ، وكان قتل النعمان لعدى حوالى سنة ٥٨٧ م .

- التفسير اللغوى : (١) بكر : قاموا بكرة . العاذلون : اللامون . تستفيق : تفيق من غيك .
(٢) الصبوح : الحجر تشرب في الصباح . القينة : الجارية الغنية .
(٣) فدمته : صفته بالفداء ؛ وهو مصفاة أو نحوها توضع فوق الإناء ليصفي ما فيه . العقار : الحجر . السلاف : خالص الشراب وأوله . الراووق : المصفاة .
(٤) مزجها : خلطها بالماء . لدا طعمها : التذ بطعمها .
(٥) طفًا فوقها : علا فوقها . التصفيق : نقل الشراب من إناء لآخر ليصفو .
(٦) صدى : متغير . آجن : راكد فاسد . مطروق : مباح للناس .

تحليل الأبيات :

بدأ عدى قصيدته بالغزل ، فذكر أن عاذليه بكروا يعذلونه على وجده ، ويلومونه على جواه ، ويدعونه إلى أن يستفيق من هواه ، وليس هؤلاء العاذلون من الحساد المبغضين ، ولكنهم من الندامى الحبين ، فما إن انتهوا من عذلهم إياه في ابنة عبد الله حتى دعوا بالخر ليضطبحوا ، فأقبلت ساقية فاتنة ، وقينة ساحرة في يمينها الإبريق مترعا بالمدام ، ممتلئابينت الحان ، فوقه فدامه على عقار مصفى ، كمين الديك صفاء ولمعانا ، هي قبل أن نمرجها ببن السحاب مرة ، فلما مرزناها به راقنا ذوقها ، ولذنا طعمها ، راقنا جميعا ، ولذنا طرا ، لا فرق بين حديث الشراب ومدمنه ، وإذا هي بعد أن مرزناها تطفو فوقها الفقاعات كاللآلى ، ويعاوها الحب كالدرر ، هذه الفقاعات لها حمرة كحمة الياقوت يزيد حسننها ، ويضاعف جمالها تنقلها بين الأكواب ، وتداولها في الأباريق والكؤوس .

ثم كان مزاجها ماء صافيا مسكوبا من المزن ، ومصبوبا من السحاب ، لا راكدا ولا فاسدا ، فهو غير متغير اللون أو الرائحة أو الطعم ، وليس كذلك مطروقا لكل وارد ، ولا مباحا لكل قاصد ، فيعكره كثرة الواردين ، ويغيره تعدد القاصدين .

النقد :

عدى بن زيد أرق شعراء العصر الجاهلي ؛ لأنه عاش عيشة حضرية ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « من بدا جفا » .

وعدى في هذه القصيدة أرق من الشعراء العباسيين ، تبدو رفته في أسلوبه ، وفي ألفاظه ، وتبدو الرقة في كثرة تداول الحرف الذي اختاره قافية لقصيدته وهو القاف ، فانظر إلى هذا البيت :

فدمته على عقار كمين الديك صفى سلافا الراووق

وقد أخذ بعض معانيه كثير من شعراء الخمر كالأخطل وأبي نواس وشوقي ، وأخذهم إياها دليل إعجابهم بها .

نظرة في وصف الخمر ومجالسها

(١) كانت الخمر في العصر الجاهلي من مظاهر السراء والثرء ومن دلائل المروءة والنبالة ، ومن أسباب العزة والفتوة ، فأقبل عليها كل من يريد أن يتسمع الناس عنه أنه سري ثري ، كريم نبيل ، ولم ينحرف عن معافرتها إلا قلة ضئيلة رأت فيها غير ما يراه الآخرون ، ولعل أولئك الذين انحرفوا عنها قد شاركوا الآخرين في وصفها ، وأسهموا معهم في نعتها .
وها قد عرضنا خمسة نماذج لوصفها ، وهي وإن تكن قليلة إلا أنها تشعرنا باحتفالهم لها ، واحتفالهم بها ، وجميعهم من ذوى المراكز الخطيرة في الجزيرة العربية سواء كان خطرهم ذاك مؤثلاً أو مستحدثاً ، وقد تفرعت بينهم أساليب الوصف ، فهذا الأعشى يصور لنا مجلساً تبارى فيه الشرب ، في حوار ممتع ، ونجوى رائعة . وفي تصوير بارع ، وتلوين دقيق ، من مثل قوله :

فقام فصب لنا قهوة تسكننا بعد إرعادها

كيتا تكشف عن حمرة إذا صرحت بعد إزبادها

وهذا عمرو بن كلثوم يتحدث عنها حديث الأشراف النبلاء ، فلا يصف أثرها في الجسم ، أو فعلها في الرأس ، وإنما يصف أثرها في الأخلاق ، وفعلها في الخلخال ، فهي :

تجور بذى اللبانة عن هواه إذا مذاقها حتى يلينا

تري اللحن الشحيح إذا أمرت عليه لماله فيها مهينا

أما علقمة الفحل فيصف مجلس الشراب تدار فيه الراح على نفحات المزهر الرنم ، « والقوم تصرعهم صهباء خرطوم » وينسب الكأس إلى أنها « كأس عزيز من الأعناب عتقها » ويصف الإبريق ويصوره تصويراً غير واضح فهو كالظبي المستشرف ، وقد وضخنا وجه الشبه في التحليل على النحو الذي ارتضيناه ، وعلى أى فالخمر معتقة قد :

ظلت تفرق في الناجود يصفقها وليد أعجم بالسكتان مفدوم

كان إبريقهم ظبي على شرف مفدم بسبا السكتان مرثوم

وإذا كان للناقد ما يأخذه على علقمة فهو صلابة لفظه ، وجزالة كله التي لا تلائم الخمر
الرفيقة الساسة ، ونعتها بما لم يعهد فيها ؛ إذ لم يعرف إلا المدمنون — إن كانوا — أن الخمر
تشفى الصداع ، « ولا يخالطها في الرأس تدويم » .

أما الأسود بن يعفر فقد انصرف عن الحديث في الخمر إلى الحديث عن سقاتها ، فأبدع
في وصفهم ، وأجاد في تصويرهم ، فيقول :

والبيض تمشى كالبدور وكالدى ونواعم يمشى بالأرفاد
والبيض يرمين القلوب كأنها أدحى بين صريمة وجاد
ينطقن معروفا وهن نواعم يبيض الوجوه رقيقة الأكباد

أى تصوير للجمال أوضح من ذلك التصوير ؟

أما عدى بن زيد فقد وصف الخمر بالصفاء ، فالساقية قد صفت الخمر بالقدام فقال :

قدمته على عقار كعين الديك صنى سلافها الراووق
ولعل قائل أن يقول : ما العقار وما السلاف ؟ فنقول : إن العقار غير السلاف في المعنى
الدقيق ، فقد سميت الخمر عقارا لأنها عاقرت الدن ، أما السلاف فالخمر لأول عهدا ، وهنا
تبدو دقة عدى في استعمال الألفاظ . وكأنى بشوق بك قد نظر إلى قول عدى :

وطفا فوقها فقاقيع كاليا قوت حمير يزينا التصفيق

فتدرك ما فيه من نقص ؛ إذ قال :

حرف كأسها الحبيب فهى فضة ذهب

فالقفاقيع لا تكون كالياقوت ، وأحسب أن قوله « حمر » هذه حشو فالياقوت لا يكون
إلا أحمر ، فأما صدى في قوله : « لا صدى آجن ولا مطروق » : فلم نثر لها على معنى
صريح يلائم البيت ، فعانى الصدى الصريح لا يؤدي المعنى المراد ، ففسرناها بتابعه ،
وعلى كل فعدى من زعماء وصف الخمر ، وأسلوبه آية الرقة والسلاسة ، ولعل حياته
في فارس والحيرة والشام منحه من المعاني ما لم يمنحه شاعر سواه .

(د) وصف الأسلحة

١ — قال أوس بن حجر* من قصيدة أولها :

صَحَا قَلْبُهُ عَنْ سَكْرَةٍ وَتَأَمَّلَا وَكَانَ يَذْكُرِي أُمَّ عَمْرٍو مَوْكَلَا^(١)

وَإِنِّي امْرُؤٌ أَعَدَدْتُ لِلْحَرْبِ بَعْدَمَا رَأَيْتُ لَهَا نَابًا مِنَ الشَّرِّ أَغْصَلَا^(٢)
أَصَمَّ رُدَيْنِيًّا كَانَ كُـمُوبَةً نَوَى الْقَسْبِ عَرَاصًا مَزْجًا مُنْصَلَا^(٣)
عَلَيْهِ كَصَبَاحِ الْعَزِيزِ يَشْبُهُ لَفِصْحٍ وَيَحْشُوهُ الذُّبَالُ الْمُفْتَلَا^(٤)
وَأَمْلَسَ حَوْلِيًّا كَنَهْيٍ ، قَرَارُهُ أَحْسَنَ بَقَاعٍ نَفَحَ رِيحٌ فَأَجْفَلَا^(٥)
كَانَ قُرُونُ الشَّمْسِ عِنْدَ ارْتِفَاعِهَا وَقَدْ صَادَفَتْ طُلُعًا مِنَ النَّجْمِ أَعْزَلَا^(٦) : ٦٤٦

* رَمَحَةُ الشَّاعِرِ : هُوَ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ بْنِ أَسِيدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ تَمِيمٍ ، كَانَ شَاعِرَ مَضَرَ حَتَّى أَسْقَطَهُ النَّابِغَةُ وَزُهَيْرٌ ، وَاسْتَقَرَّتْ لَهُ شَاعِرِيَّةُ تَمِيمٍ ، وَمِنْ النِّقَادِ مَنْ يَقْدِمُ عَلَيْهِ عَدَى بْنُ زَيْدٍ وَلَسْنَا عَلَى رَأْيِهِمْ . تَوَفَّى سَنَةَ ٦١٠ م .

التفسير اللغوي : (١) تأمل : تدبر . يذكُر : يبتدُر . أم عمرو : خليلته . موكلا : مشغولا . (٢) أعددت : جهزت . أعصل : ملتويا معوجا . (٣) أصم : صلباً متيناً . ردنيا : منسوباً إلى ردينة العروقة بتثقيف الرماح مع زوجها سمهر . القسب : الثمر اليابس . عراصا : كثير اللعان . مزجا : موضوعاً له الزوج . منصلا : مركباً له النصل . والزوج : الحديدية في أسفل الرمح ، والنصل الحديدية في أعلاه . (٤) العزيز : الملك . يشبه : يشعله . لفصح : بكسر الفاء من أعياد النصارى ، وبالفتح الصبح ، والأول هو الراد . الذبال : فتيل السراج . المقتول : المقتول فتلاً محكماً . (٥) أملس حولياً : درعاً ملساً قد مضى على نسجها حول ، والدرع تؤثت وتذكر . النهى : الغدير . القرار : القعر . بقاع : بأرض سهلة مطمئنة . فأجفل : خاف وفزع . (٦) قرون الشمس : أشعتها ، وقرن الشمس أول ما يبدو منها عند شروقها . الطلع : المكان المشرف . النجم : النبات الصغير . أعزل : منفرداً .

- ترددَ فيه ضوؤها وشعاعها فأحصن وأزىن لأمرى إن تسربلاً! (٧)
 وأبيضَ هندياً كأنَّ غرارَه تَلَأْتُوْ بَرَقٍ في حَـجِي تَكَلَّلَا (٨)
 إذا سُلِّ من غمْدٍ تَأْكُلْ أَثْرُهْ عَلَى مِثْلِ مِصْحَاةِ اللُّجَيْنِ تَأْكُلَا (٩)
 كأنَّ مَدَبَ النَّمْلِ يَتَّبِعُ الرُّبَا وَمَدْرَجَ ذَرٍّ خَافَ بَرْدًا فَأَمْهَلَا (١٠)
 عَلَى صَفْحَتَيْهِ مِنْ مُتُونٍ جَلَّاهُ كَفَى بِالذِّى أُبْلَى وَأُنْعَتْ مُنْصَلَا (١١)
 وَمَبْضُوعَةٌ مِنْ رَأْسِ فِرْعَ شَطِيطَةٍ بِطُودٍ تَرَاهُ بِالسَّحَابِ مُجَلَّلَا (١٢)
 عَلَى ظَهْرِ صَفْوَانٍ كَأَنَّ مُتُونَهْ عَلَنَ يَدُهْنِ يَرْلِقُ الْمَتَنَزِّلَا (١٣)
 يُطِيفَ بِهَا رَاعٍ يَجْشَمُ نَفْسَهْ لِيَكَلَّا فِيهَا طَرْفَهُ مُتَأَمِّلَا (١٤)

٦٥٤ :

- (٧) فأحصن : أفلع تعجب من حصن ، أى فما أحصنه . تسربل : لبس السربال .
 (٨) غرارَه : حده . حجي : سحاب . تكلل : لبس الإكليل ، وهو شبه عصاة
 تزين بالجواهر .
 (٩) تأكل : توهج واشتد لمعانه . أثره : فرنده وجوهره . المصحاة : إناء للشرب ، وفي
 رواية مسحاة ، وهى أداة تشبه المبرد ، ولعلها أنسب . اللجين : الفضة .
 (١٠) مدب : مصدر ميمى ، ديب . يتبع الربا : يقصد المرتفعات . مدرج : درج .
 الدر : صغار النمل أو هو الهباء المنتشر فى الهواء . فأسهل : فنزل من الجبل إلى السهل .
 (١١) على صفحته : على جانبيه . متون : جمع متن ظهور . أنعت : حسن . المنصل :
 السيف .
 (١٢) المبضوعة : المقطوعة ويعنى بها القوس . الشطية الفلقة من الغصن أو نحوه .
 الطود : الجبل . مجللا : ملتفا بالسحاب .
 (١٣) الصفوان : الصخر الصلد . علن : سقين مرة بعد مرة ، والعلل السقى للمرة الثانية ،
 وضده النهل . المتنزل : النازل ببطء وحذر .
 (١٤) يطيف بها : يدور حولها . يجشم : يكاف . ليكلأ : ليردد . طرفه : عينه
 متأملا : متدبرا متمعنا .

- فَلَا قَى امْرَأً مِنْ مَيِّدَعَانَ وَأَسْمَحَتْ قَرَوْنَتُهُ بِالْيَأْسِ مِنْهَا وَعَجَلَا (١٥)
 فَقَالَ لَهُ : هَلْ تَذْكُرُنَّ مُحَسَّبًا يَذُلُّ عَلَى غُفْمٍ وَيَقْصُرُ مُعْجَلًا ؟ (١٦)
 عَلَى خَيْرٍ مَا أَبْصَرْتَهَا مِنْ بِضَاعَةٍ لِمُلْتَمَسٍ بَيْعًا لَهَا أَوْ تَبَكَّلًا (١٧)
 فَوَيْقَ جَمِيلٍ شَامَخِ الرَّأْسِ لَمْ تَكُنْ لَتَبْلُغَهُ حَتَّى تَكُلَّ وَتَعْمَلَا (١٨)
 فَأَبْصَرَ أَهْلَابًا مِنَ الطَّوْدِ دُونَهُ يَرَى بَيْنَ رَأْسَيْ كُلِّ نِيقَيْنٍ مِهْبَلًا (١٩)
 فَأَشْرَطَ فِيهَا نَفْسَهُ وَهُوَ مُعْصِمٌ وَالْقَى بِأَسْبَابِ لَهُ وَتَوَكَّلَا (٢٠)
 وَقَدْ أَكَلَتْ أَظْفَارَهُ الصَّخْرُ ، كَلَّمَا تَعْيَا عَلَيْهِ طُولُ مَرَقٍّ تَسَهَّلَا (٢١)
 فَمَا زَالَ حَتَّى نَالَهَا وَهُوَ مُشْفِقٌ عَلَى مُوْطِنٍ لَوْ زَلَّ عَنْهُ تَقْصَلَا (٢٢)
 ٦٦٣ : فَأَقْبَلَ لَا يَرْجُو الَّذِي صَغُرَتْ بِهِ وَلَا نَفْسَهُ إِلَّا رَجَاءَ مُؤْمَلَا (٢٣)

- (١٥) ميدعان : عين . أسمعحت : سمحت . قرونته : نفسه ، اليأس : انقطاع الأمل .
 (١٦) غفم : ربح . يقصر : يقصر ويعيا .
 (١٧) للتمس : لطالب . تبكلا : غنيمة .
 (١٨) جميل : تصغير جبل ، والتصغير للتعظيم . تكل : تعب وتعيا . تعمل :
 تجهد ومتصب .
 (١٩) الأهلاب : جمع لهب وهو الصدع في جانب الجبل . نيقين : ثنية نيق ، وهو
 المكان المرتفع . مهبلا : الهوة الناهية في الأرض .
 (٢٠) فأشروط : فأعد وألزم نفسه . معصم : ممسك . أسباب : وسائل . توكل :
 اعتمد على الله .
 (٢١) تعيا : أعجزه . مرق : رقي . تسهل : طلب السهل ، وفي رواية توصل .
 (٢٢) مشفق : خائف . زل عنه : سقط عنه : تقصلا : تفرقا .
 (٢٣) لا يرجو : لا ينتظر نفسه التي صعدت به . رجاء مؤملا : رجاء متمنى منتظرا .

- فَلَمَّا قَضَىٰ مِمَّا يُرِيدُ قَضَاءَهُ وَحَلَّ بِهَا حِرْصًا عَلَيْهَا فَأَطْوَلَا (٢٤)
- أَمَرَ عَلَيْهَا ذَاتَ حَدٍّ ، غَرَابُهَا رَقِيقٌ بِأَخْذٍ بِالْمَدَاوِسِ صَيَقَلًا (٢٥)
- عَلَىٰ لَحْذِيهِ مِنْ بُرَايَةِ عُوْدِهَا شَبِيهُ سَفَا الْبُهْمَىٰ إِذَا مَا تَفَتَّلَا (٢٦)
- فَجَرَدَهَا صَفْرَاءَ ، لَا الطَّوْلُ عَابَهَا وَلَا قِصْرٌ أَزْرَىٰ بِهَا فَتَعَطَّلَا (٢٧)
- إِذَا مَا تَعَاطَوْهَا سَمِعَتْ لِصْوَتِهَا إِذَا أَنْبَضُوا عَنْهَا نَثِيًّا وَأَزْمَلَا (٢٨)
- وَإِنْ شَدَّ فِيهَا النَّزْعَ أَدْبَرَ سَهْمُهَا إِلَىٰ مُنْتَهَىٰ مِنْ عَجْسِهَا ثُمَّ أَقْبَلَا (٢٩)
- وَحَشَوِ جَفِيرٍ مِنْ فُرُوعٍ غَرَابٍ تَنْطَعُ فِيهَا صَانِعٌ وَتَنْبَلَا (٣٠)
- ٦٧١ : تُخَيِّرُنْ أَنْضَاءَ ، وَرُكْبَنَ أَنْضَلَا كَجَمْرِ الْقَضَائِي يَوْمَ رِيحٍ تَزِيلَا (٣١)

- (٢٤) حل بها : نزل بها . فأطال : فأطال المقام والحلول .
- (٢٥) ذات حد : كناية عن السكين . غرابها : حدها . المداوس : جمع مدوس كبير آلة الصيقل يتقف بها القسي .
- (٢٦) براية . بقايا البرى . السفا : من السنبل حسكه . البهمى : نبات يشبه الشعير . تفتل : التف بعضه على بعض .
- (٢٧) فجردها : خلعها من قشرها . أزرى بها : عابها . فتعطل : فلا تعمل .
- (٢٨) تعاطوها : تناولوها . أنبضوا عنها : حركوا وترها . نثيا : صوتا ؛ والنثيم صوت القوس والأسد والظبي . أزملا : ريفنا .
- (٢٩) أدبر : تحول . عجبها : مقبضها ومثله معجبها .
- (٣٠) الجفير : الكتانة توضع فيها السهام . تنطع . تأنق ، ومثلها تنبل .
- (٣١) أنضاء : جمع نضو هزلا ، ويقصد به السهم قبل أن يراش . الأنصل : جمع فصل ، وهو الحد . القضا : شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب ، وجمره يبق زمنا طويلا لا ينطفيء ، تزيل : تفرق وتوزع .

فَلَمَّا قَضَىٰ فِي الصَّنْعِ فِيهِنَّ فَهْمَهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تُرَاشَ وَتُصْقَلَ (٣٢)

كَسَاهُنَّ مِنْ رِيَشٍ يَمَانٍ ظَوَاهِرًا

سُخَامًا ، لُوْأَمًا ، لَيْنَ الْمَسِّ ، أَطْحَلًا (٣٣)

٦٧٤ : فَذَاكَ عَتَادِي فِي الْحُرُوبِ إِذَا التَّنْظَتْ

وَأَرْدَفَ بَأْسٌ مِنْ خُطُوبٍ وَأَعْجَلَا (٣٤)



(٣٢) فهمه : حذقه ، وفي رواية همه . تراش : يركب فيها الريش . تصقل : تحدد .

(٣٣) يمان : منسوب إلى اليمن . سخاما : ريشا ظاهرا . لواما : ريشا يلائم بعضه بعضا . أطحل : أغبر يميل إلى السواد .

(٣٤) انتظت : اشتعلت وتلظت . أردف : تبع . بأس : شدة .

تحليل الأبيات :

صحا القلب عن سكرته ، وأفاق الفؤاد من غوايته ، وكان من قبل مشغولاً بمحبوبته ،
صحا ومن حقه أن يصحو ، فالعزة تنسى الإنسان ملاذها ، والمجد يصرف المرء عن هواه ،
وهذه الحرب التي هي من أقوى أسباب العزة والمجد قد تكشفت ، فلنأخذ لها أهبتها ،
ولنعد ليومها عتادها .

قد أعددت لها ربحاً صلباً ثقفته رديئة فأحسننت ثقافه ، فكعوبه كنوى التمر اليابس
نعومة وملاسة ، ثم أزجته وأنصلته ، فبدا كأن عليه مصباح ملك يشعله في يوم عيد ،
فيحشوه الذبال المقتل ، والقاتل المحكم ؛ ليكون ضوءه أسطع ، ونوره ألمع .

وأعددت لها درعا ملساء نسجها ناسجها في عام كامل ، فهي في تماوج نسيجها ، وبريق
قتيرها كالغدير تلعب بمائه الريح الهادئة ، ويداعبه النسيم العليل ، فيلمع موجه ، ويظهر
فوقه دوائر بيض ، أو كأن لمعانها أشعة الشمس صادفت مستشرفاً من نبت ناجم ، فضوءها
يتردد عليه ، ونورها ينبسط فوقه ، فكأنه الثوب يتردى به ذلك النجم الأعزل ، فما أعظم
حصانته ، وما أجمل زينته !

وأعددت لها سيفاً مهنداً ، وأبيض مرهفاً كأن حده برق يتلألأ وسط سحب
مستدير ؛ إذا سل من غمده توهج فرنده ، وتأكل رونقه ، فصار في توجيهه ولمعانه كمسحاة
من اللجين ، وكأن رونقه في التماع صفحتيه ديب نعال تصعد في الربا يقابله درج هباء
يسقطه إلى الأرض خشية البرد ، وكفى هذا الذي أبلى غمده ، وأحسن نعتة منصلاً !

وأعددت لها قوساً قد بضعت من فرع شجرة نبتت في جبل جليل بالسحاب ، فوق
ظهر صخر أصم ، كأنه قد نهل وعلّ من دهن يزل منه الحذر ، ويزلق من مسيره على
صخره البطيء ، فاكسب من ذلك الصخر صلابته وملاسته ، يدور حول هذه الشجرة
راع يكلف نفسه مالا يطيق ، ويحشمها مالا تستطيع ؛ ليمتع بمرآها طرفه ويردد فيها
بصره ، وإذا هو يتأملها ، ويتمتع فيها لاقى امرأ من « ميدعان » وقد يئست نفسه من

الوصول إليها ، ومجلت عن بلوغها ، فقال له ذلك « المبدعاني » أتعرف من يخبر بالخير
ويقتصر عنه ؛ ويأمر بالبر ولا يفعله ؟ إنه أنا ذلك الخبير الأمر ، إنها خير ما يبصر به المرء
الذى يلتبس بيما أويرجور بها ، إنها فوق جبل شامخ القمة ، مستطيل القنة ، ولن تبلغه
حتى تتعب وتنصب ، وتعمل فتجهد ، فرأى شقاً يستطيع أن ينفذ منه ، ومخرماً قد يقدر أن
يصعد فيه ، ولكنه يرى بين مرتفعين هوة قد يسقط منها فتودى به ، فألزم نفسه أن يبلغ
قمته ممسكاً بأسباب الحياة ، معتصماً بالتوكل على الله ، لقد ناله في مرقاه الضر ، فأكل
أظفاره التي يتسلق بها الصخر ، فكلم أعياء المرقى ابتغى مرتقى أسير ، فما زال يعالج
أمره ؛ حتى بلغه وهو خائف وجل من موطن لوزلت فيه قدمه لتفرقت أوصاله ، فلما قطع
مبضوعته ، وقضى لبائته ، وحل بالقمة أطال المقام حرصاً على نيل بغيته .

وبعدئذ أمر على الفرع شفرته ، وأرسل فوقه غراب سكينه ، يصقل به ما قد شق
في الوصول إليه ، وإنك لتجد فوق فخذه براية غصنها ، ونفاية عودها تشبه شفا البهي
إذا التف بعضه على بعض .

فجردها قوساً صفراء لا يعيبها طول ، ولا يزرى بها قصر ، فهي معدة لحينها ، مؤدية
أعظم ما يرجى منها ؛ إذا ما تناولها قواسوها ، وأنبضوا وترها سمعت لها صوتاً حنوناً ،
ونثياً ورنيماً ، وهي لينة صلبة متى شد النازع فيها السهم عاد إلى مقبضها ، ثم ما يلبث أن
يتركه فيذهب بعيداً لقوة دفعها ، وصلابة عودها .

وأعددت كنانة محشوة بالسهم المصقولة من فروع أشجار غرائب في صلابتها ، قد
تأنق فيها صانعها ، وتمهل في صقلها صاقلها ، فاخترت ، ثم ركبت فيها النصال حمراً محددة
كأنها جمر الغضا في يوم ريح ، فتفرق في اليمين والشمال ، ثم تطاير في كل مكان .
فلما أتم صنعها ، وأولاهها جميع فهمه وحذقه كساهن ريشاً يمانياً سخاماً ولؤلؤاً ، لينا
مُعبراً . ذلك عتادى عند تأجج الحرب ، وترادف البأس ، واشتداد الخطب .

النقد :

بلغ أوس بن حجر في قصيدته تلك من وصف العتاد عند العرب ما لم يبلغه شاعر ، وجاء في تصويرها وتحديد آثارها بما لم يجي به كى محارب ، فهو قد استقصى هذه الأسلحة لم يغادر منها سلاحا ، فهي : أصم رديني ، وأملس حولي ، وأبيض هندي ، ومبضوعة من رأس فرع ، وحشو جفير من فروع غرائب .

وقد منح كل سلاح من هذه الأسلحة عنايته ، فوصفه أدق وصف ، وصوره أروع تصوير ، وشبهها بما يلائمها أجل تشبيه ، فكان فارس الحلبة في هذا الميدان ، وأنا معيد جميع أبياته لو أردت أن أعرض جميل صوره ، وبديع رسمه ، فأى صورة أروع من تصوير درعه وقد لمع قتيورها ، وتلألأت في أشعة الشمس مساميرها ، فبدت مهتزة مضطربة كأنها غدير تهزم ماءه نسائم رفاق ، أو كأنها قرون الشمس ساطعة مرتفعة فصادفها نبت ناجم ، فضوؤها يسطع فيه ، وأشعتها تتردد فوقه ، ما أجل هذا المنظر ! وما أزينه ! وما أقدر من رسمه وما أحسنه ! هل أقول لقد أوفيته حقه إذ عرضت صورته ؟ لا ، ولكنى أكاد أوفيه ذلك إذا عرضت الأبيات التي تشتمل على الصورة لترى فيها الأجزاء واضحة القسمات ، بادية المحاسن ، مقسمة الظلال ، متلائمة الأجواء ، وها هي ذى :

وأملس حوليا كنهى ، قراره أحس بقاع نفح ريح فأجفلا
كأن قرون الشمس عند ارتفاعها وقد صادفت طلعا من النجم أعزلا
تردد فيه ضوؤها وشعاعها فأحصن وأزين لامرى إن تسربلا

ومع أنه وهب لكل سلاح عنايته إلا أنه آثر القوس إشارا عظيما ، ولعله كان ذا تأثير في حياته أكثر من سائر عتاده ، فقد وصفها في ثمانية عشر بيتا ، ذكر فيها منبتها الذي نبتت فيه ، وبضعت منه ، وباضعها الذي عرف أصلها ، فأطاف بها ، وصاحبه الذي شجعه على قطعها . . . وهكذا ما يزال يرسم خطواته ؛ حتى يصل إلى صوتها عند نزعها فيقول :

إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها إذا أنبضوا عنها نثيا وأزملا
وإن شد فيها النزع أدبر سهمها إلى منتهى من عجزها ثم أقبل

ولست مبالغا إن قلت إن الشعراء السكاة أخذوا جل معانيهم من ذلك الشاعر الذي لم
يكن فارسا من الطراز الأول ، فقد كان يقع في الأسر كثيراً ، ويفر من ذلك الأسر ،
وكأنى به كان يحمس الفرسان والأبطال بوصف العتاد ، وتلك الطريقة إحدى طرق
النصر ، فلو لم يكن له من أسبابه إلا وصف عتاده لكان قد أدى واجب قبيلته عليه ،
فكيف وقد كان مشاركا فيه ؟

أوس بهذه الأبيات أقدر من وصف القوس ، ومنه اقتبس من وصفها بعده ، وعلى
رأسهم الشماخ بن ضرار .



[الجندفم]

٢ — وقال الشماخ بن ضرار * يصف قوساً :

تَخَيَّرَهَا الْقَوَاسُ مِنْ فَرْعِ ضَالَةٍ لَهَا شَدَبٌ مِنْ دُونِهَا وَحَزَائِرُ^(١)
نَمَتْ فِي مَكَانٍ كَنَهِهَا فَاسْتَوَتْ بِهِ وَمَا دُونَهَا مِنْ غَيْلِهَا مُتَلَاخِزُ^(٢)
فَمَا زَالَ يَنْحُو كُلَّ رَطْبٍ وَيَاسِي وَيَنْفُلُ حَتَّى نَالَهَا وَهُوَ بَارِزُ^(٣)
فَأَنَحَى عَلَيْهَا ذَاتَ حَدٍّ ، غَرَابُهَا عَدُوٌّ لَأَوْسَاطِ الْعِضَاءِ مُشَاوِرُ^(٤)
فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ فِي يَدَيْهِ رَأَى غِنَى أَحَاطَ بِهِ ، وَازْوَرَّ عَمَّنْ يُحَاوِرُ^(٥)
فَأَمْسَكَهَا عَامِنٍ يَطْلُبُ دَرَاهَا وَيَنْظُرُ مِنْهَا مَا الَّذِي هُوَ غَامِزُ؟^(٦)
أَقَامَ الثَّقَافُ وَالطَّرِيدَةُ مَقْنَهَا كَمَا أَخْرَجَتْ ضِفْنِ الشَّمُوسِ الْمَاهِزُ^(٧)
٦٨٢ : فَوَافَى بِهَا أَهْلَ الْوَأَسَمِ فَاَنْبَرَى لَهَا بَيْعٌ يُغْلَى بِهَا السَّوْمُ رَائِزُ^(٨)

* ترجمه الشاعر : هو الشماخ بن ضرار التغلبي من ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، وال شماخ لقبه واسمه معقل أدرك الإسلام ، وقال عنه الخطيب : إنه أشعر غطفان ، ذكروا عنه أنه أوصف الناس للحمير الوحشية وللقوس ، وأرجز الشعراء على البديهة . توفي سنة ١٨ هـ .

التفسير اللغوي : (١) الضالة : شجرة السدر البرية . الشدب : العيدان المشدبة المقطوعة . الحزائر : لم نجد هذا الجمع في القواميس ، وقد فسر في الجمهرة بأنها أصول الشجر العظام ، ولعلها الجزائر . وهي جمع جزء ، ومن شأن الصوف التفرق .

(٢) كنها : سترها . الغيل : الشجر الملتف . متلاخز : متضايق .

(٣) ينحو : يقصد . ينفل : يدخل تحت الشجر ليتخير أقواها جذرا . بارز : ظاهر .

(٤) فأنحى عليها : فاعتمد عليها . ذات حد : كناية عن موصوف هو الفأس أو السكين . غرابها : حدها . مشاور : محارب .

(٥) اطمأنت : سكنت يعني القوس . ازور : مال وصد . يحاوز : يخالط .

(٦) درأها : بسطها . الغامز : المكان المطمئن فيها ، يعني الشق .

(٧) الثقاف : خشبة تقوم بها الرماح . الطريدة : القصة التي يعرف بها اعتدالها . الشموس : الفرس الجوح . الماهز : جمع مهمز أو مهماز ، وهي حديدة في مؤخر خف الرائص .

(٨) فوافى بها : فجاها بها . انبرى : اعترض . بيع : مبتاع . السوم : البيع . رائز : مجرب .

- فقال له : بايع أخاك ولا يكن
لك اليوم عن ربح من البيع لاهز^(٩)
فظل يناجي نفسه وأمرها
أيا بني الذي يعطى بها أم يجاوز^(١٠)
فلما شراها فاضت العين غيرة^(١١)
وفي الصدر حزا من الوجد حامز^(١٢)
فذاق ، فأعطته من اللين جانبا
كفى ، ولها أن يفرق السهم حاجز^(١٣)
إذا أنبض الرامون فيها ترنمت^(١٤)
ترنم شكلى أوجعتها الجناز^(١٥)
هتوف إذا ما خالط الطي مهنها
وإن ريع منها أسلمته النواقر^(١٦)
كان عليها زعفرانا تميره
خوازن عطار يمان كواثر^(١٧)
٦٩٠ : إذا سقط الأنداء صينت وأشعرت^(١٨)
حبيرا ، ولم تدرج عليها المعاوز^(١٩)

(٩) بايع أخاك : به . لاهز : الجبل ويقصد لا يكن لك مانع أو صاد .

(١٠) يناجي نفسه : يسارها . يجاوز : يقبل متجاوزا . أميرها : قلبه .

(١١) شراها : باعها . حزاز : حزن يحز في قلبه . حامز : محض محرق .

(١٢) فذاق : فجرها . يفرق السهم : يضيع بإدباره .

(١٣) أنبض الرامون : حركوا الأوتار . ترنمت : تغنت . شكلى : فاقدة ولدها .

(١٤) هتوف : ذات صوت . ريع : أفزعه الرامي النواقر : قوائم الطي الموابية .

(١٥) الزعفران : صبغ أصفر . تميره : تحركه فتطلى به . خوازن : جمع خاذنة ،

وكواثر كذلك جمع كاذنة .

(١٦) الأنداء : جمع ندى . صينت : حفظت . أشعرت : ألبست الشعار . حبيرا : بردا

موشى . المعاوز : الأخلاق .

تحليل الأبيات :

تخير هذه القوس قوَّاس عليم بجيادها ، بصير بأعوادها ، فاتخذها من فرع ضالة قد شذبت زوائدها ، وقطعت أطرافها ، فطالت وزكت ، ونمت في مكان سترها عن العيون ، فاستوت دون أن تمتد إليها يد ، أو يمتص غذاءها جذر ، إذ تباعدت عنها الأشجار التي يمكن أن تسهم معها في الغذاء ، في حين أن غيرها قد التفت بعضه على بعض ، فغذاؤه ضئيل ، وشرابه قليل .

ما زال هذا القواس يحس الأشجار ، ويتحسس نبعها : رطبها ويابسها ، صلبها ولينها ، وكلها لا ترضيه حينما يتبين جذرها ويتعرف أسها ؛ حتى نالها وهو ظاهر ، فقصدها بفأسه المرفقة الحد ، العدوَّة لكل عضمة ، المحاربة لكل ضالة ، فلما سكنت في يديه توسم غنى ، قد نزل به ، فصد عن مخالطه .

وأمسكها عامين كاملين يقومها ويبسطها ، وينظر أثر الشق فيها ؛ حتى أقام الثقاف ميلها ، وسوت الطريدة مقنها ؛ مثل الثقاف والطريدة في صقلها وتقويمها كمثل المهامز تخرج ضمن القوس الشموس .

وأقبل القواس على الموسم مزهواً بها ، نفورا بثقافها ، فاعترضه رجل يحسن المساومة ، فأدرك ما فيها من حسن ، فبايعه إياها ، وأغلى له في ثمنها ، وأغراه الريح فهو يناجى نفسه ، ويؤامر قلبه ، أيأبى البيع أم يتجاوز عنها وقد ضمن الريح الكثير ؟

فباعها وعينه تفيض بالعبرات ، وقلبه يتقطع حسرات ، فاخترها شاريها ، فأعطته اللبان دون أن تضع سهمه ، فلما من صلابتها عن إغراقه حاجز ، فإذا حرك الرامون وترها ترنمت كترنم الثكلى التي أكل قلبها الحزن ، تصوت صوتاً حزينا عند ما يخرق سهمها الظبي ، كأنها تواسيه وتناجيه ، وإن أجفل منها وفزع فحاول البعد عن سهمها لم تطاوعه النواقر .

كأن هذه القوس قد خضبت بالزعفران ، تحركه فيصيبها طلاؤه الحزون عند عطار ،

ويلحقها خضابه المكنوز عند يمانى ، إذا سقط الندى صينت منه ، وألبست شعارا من الحبير الموشى ولم تغط بالخلق من الثياب .

النقر :

قصد الشماخ إلى وصف القوس قصدا ، فلم يشرك معها سواها في وصفه إياها كما فعل أوس بن حجر ، ولكنه مع هذا كان أقصر من سلفه نفسا ، وكانت معانيه أقل من معانى أوس بداعة وحسنا ، وذلك أنهما كليهما وصفا منبت قوسه ، فقال أوس :

ومبضوعة من رأس فرع شظية بطود تراه بالسحاب مجللا
على ظهر صفوان كأن متونه علان بدهن يزلق المتزلا
يطيف بها راع يجشم نفسه ليكلأ فيها طرفه متأملا

فقوسه من رأس فرع شظية بطود مجلل بالسحاب على ظهر صفوان ناعم أملس ، فالوصول إليها يجشم باغيها ، ويؤلم قاصدها ، وهى معان بالغة الروعة فى إعلاء شأن القوس ؛ أما الشماخ فقال :

تخيرها القواس من فرع ضالة لها شذب من دونها وحزائر
نمت فى مكان كنها فاستوت به وما دونها من غيلها متلاحز
فما زال ينحو كل رطب ويابس وينفل حتى نالها وهو بارز

فأين هذا من ذاك ؟ لقد كان عليه أن يستفيد من سلفه ، ولكنه قصر فحق عليه العتب ، وكلاهما وصف قطعها وتنقيفها ، فبالغ أوس فى وصف شقاء قواسها وعلى قدر المشقة يكون الأجر ، فكان فضله على خلفه أكثر ، فعاود أبيات كل منهما لتحكم بما نحكم به .

٣ — وقال راشد بن شهاب اليشكري * يصف سلاحه :

فَهَلَّا أَبَا الْخَنَسَاءِ لَا تَشْتُمُنِي فَتَقْرَعَ بَعْدَ الْيَوْمِ سِنِّكَ مِنْ نَدَمٍ (١)
وَلَا تُوعِدُنِي إِنِّي إِنْ تَلَّاقَيْتَنِي مَعِيَ مَشْرِفِي فِي مَضَارِبِهِ قَضَمٍ (٢)
وَنَبِيلُ قِرَانٍ كَالشُّيُورِ سَلَاجِمٍ وَفَرَعٌ هَتُوفٌ، لَا سَقِيٌّ وَلَا نَشَمٌ (٣)
وَمُطَرَّدُ الْكَعْبِينَ أَسْمَرُ عَاتِرٌ وَذَاتُ قَتِيرٍ فِي مَوَاصِلِهَا وَرَمٌ (٤)
مُضَاعَفَةٌ جَدَلَاءُ، أَوْ حُطْمِيَّةٌ تَغْشَى بَنَانَ الْمَرْءِ وَالْكَفَّ وَالْقَدَمَ (٥)
٦٩٧ : لعادية من السلاح استعرتها وكان بكم فقر إلى الغدر أو عدم (٦)

* ترجمه الشاعر : هو راشد بن شهاب بن عبدة بن عصم بن ربيعة اليشكري ، شاعر جاهلي مقل ، لم تقع له على ترجمة واسعة ، وقصيدته هذه يخاطب بها قيس بن مسعود بن قيس ابن خالد الشيباني .

التفسير اللغوي : (١) فهلا : فتريثا وانتظارا ، وفيها معنى الوعيد والتهديد . أبا الخنساء : يعنى قيس بن مسعود . تقرر سنك : كناية عن صفة هي الندم .
(٢) توعدنني : تتوعدنني وتهتددنني . المشرقي : السيف المنسوب إلى مشارف الشام . في مضاربه : في طيبته وحده . قضم : تكسر من كثرة ما أعملته .

(٣) القران : التشابه . السلاجم : الطوال ، الواحد سلجم : فرع هتوف : كناية عن القوس المصوتة . السقي : ما شرب الماء من الأنهار . النشم : الشجر الخوار الضعيف .

(٤) المطرد : كناية عن الرمح المصقول الذي اطرده كعبه ، وزال أثرها ، وقال الكعبيين لأن اطراد كعبين دليل اطراد الباقي : العاتر : الصلب . ذات قتير : كناية عن الدرع ، والقتير رءوس مسامير الدرع . مواصلها : ما يتصل بالخلق . الورم : الاستواء .

(٥) مضاعفة : منسوجة حلقتين . جدلاء : مجدولة محكمة الجدل . حطمية : منسوبة إلى حطمة بن محارب ، وكان صانع دروع ، أو حطمية لأنها تحطم السيوف . تغشى : تغطي ، كناية عن أنها سابعة .

(٦) العادية : المنسوبة إلى عاد ، كناية عن قدمها .

تحليل الأبيات :

توعد قيس بن مسعود الشيباني شهابا اليشكري ، فأنشأ القصيدة التي منها هذه الأبيات
ينذره حربته ، ويتوعد به بطشه ، ويصف له سلاحه ، ويستوهن روحه المعنوية ، فقال :

تريث يا أبا الخنساء ، فلا تشمتني ، ولا تلغ في عرضي ، فإنك إذا دأبت على شمتي ،
واستمرأت أكل عرضي لم تلبث أن تفرع من الندم سنك ، وحذار أن تهذي ، فإنك
حين تلقاني ستري فارسا يقهر الفرسان ، قد استكمل أهبطه ، وأتم عتاده وعدته .

إن مي سيفاً مشرفياً ثلثته كثرة الضراب ، ولكنه قاطع حاسم ، ونبلا يشبه بعضه بعضاً ؛
لأنه معد لقوس واحدة تنزعها كف واحدة ، وهي طويلة لتنفذ إلى الأكباد ، وتصل إلى
شغاف الفؤاد ، وقوسا ذات صوت حنون عند ما أنزع عنها سهمها ، صدقة النبع ، صلدة
الغرب ، لم يربطها أن سقيت من ماء الأنهار ، فنبعها لم يسق بغير ماء السماء ، فليس فيها
ضعف ولا خوار ، ورمحاً قد اطردت كعوبه ، واستوت عقده ، واسمر لونه ، لشدة صلابته .
ولدى درع يلمع قتيورها ، وتبرق مساميرها ، قد استوت مواصلها ، وتضاعف نسجها ، وأحكم
جدلها ، فهي من صناعة حطمة الذي وهب لها فنه ، ومنحها إحكامه ، فهي إذ يلبسها
الفارس تغطي جميع أطرافه ، فتضفي عليه السلامة .

هذه أسلحة استعرتها من الزمن عند ما رأيتم تفتقرون إلى الغدر ، وتحتاجون إلى العدم .

النقد :

مع أن الشاعر أوجز في وصف عتاده ، إلا أنه استطاع أن يصف كل قطعة منه وصفاً
دقيقاً ، فجاء قديراً في إيجازه ، قديراً في دقة أوصافه ، فأى وصف أدق وأبلغ من قوله
في وصف الدرع ؟

مضاعفة جدلاء أو حطمية تغشى بنان المرء والكف والقدم

لقد وصفها بالثخانة والإحكام ، ونسبها إلى صانعها ، وأنها سابغة لا تترك جزءاً من صاحبها
دون أن تغطيه ، وأو في البيت بمعنى الواو ، وهذا سائغ شائع .

ثم أى جمال في الوصف للرمح يبيد قوله : « ومطرد الكعبين أسمر عاتر » إنه وصفه
في هذا الشطر بثلاث صفات هي : جودة الثفاف ، والملاسة ، والصلابة .

٤ — وقال ثعلبة بن عمرو العبدى * يصف عتاده :

وَشَوْهَاءٌ لَمْ تُوشَمْ يَدَاهَا وَلَمْ تُذَلْ فَقَاطَتْ وَفِيهَا بِالْوَلِيدِ تَقَاضُفٌ^(١)
وَتُعْطِيكَ قَبْلَ السَّوْطِ مِلءٌ عِنَانِهَا وَإِحْضَارَ ظِيٍّ أَخْطَأَتْهُ الْمَجَادِفُ^(٢)
بَلَّتْ بِهَا يَوْمَ الصَّرَاخِ ، وَبَعْضُهُمْ يَحْبُ بِهُ فِي الْحَيِّ أَوْرُقٌ شَارِفٌ^(٣)
بَيْضَاءٌ مِثْلَ النَّهْيِ رِيحٌ ، وَمَدَّةٌ شَائِبٌ غَيْثٌ يَخْفِشُ الْأَكْمَ صَائِفٌ^(٤)
وَمُطَرَّدٌ يُرْضِيكَ عِنْدَ ذَوَاقِهِ وَيَمْضِي وَلَا يَنَادُ فِيمَا يُصَادِفُ^(٥)
وَصَفْرَاءٌ مِنْ نَبْعٍ ، سِلَاحٌ أُعِدَّهَا وَأَبْيَضُ قَصَالُ الضَّرِيْبَةِ جَائِفٌ^(٦)
٧٠٤ : عَتَادَ امْرِئٍ فِي الْحَرْبِ لَا وَاهِنُ الْقَوَى وَلَا هُوَ عَمَّا يَقْدُرُ اللَّهُ صَارِفٌ^(٧)

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته في ص ٢٤٥ .

التفسير اللغوي : (١) الشوواء : القبيحة والجميلة ، فالكامة تجمع في معناها بين الضدين ، والآخر هو المراد . لم تذَل : لم تهين . ققاطت : قأتى عليها القيط . الوليد : العبد . التقاضف : التدافع .

(٢) ملء عنانها : عدوا ملء عنانها . الإحضار : العدو . المجادف : ما يجدف به ويرمى . (٣) بللت بها : ملكتها وكانت في قبض . يوم الصراخ : يوم الاستنجد بي . يحب : يسير به خبياً ، والحب ضرب من العدو . والأورق : الرمادى ، والورق ألام الإبل . الشارف : الهرم .

(٤) البيضاء : كناية عن البدر . النهى : الغدير . ريح : أصابته ريح . الشائب : جمع شؤبوب دفعات المطر . يخفش : يقشر . الأكَم : جمع أكمة : صائف : فى الصيف .

(٥) مطرد : كناية عن الرمح لاطراد كعوبه بالتثقيف . ذواقه : اختباره . يناد : يعوج .

(٦) وصفراء : كناية عن القوس . النبع : شجر تتخذ منه القسى والسهام ، وهو ينبت فى أعلى الجبال . وأبيض : كناية عن السيف . قصال : قطاع . جائف : يبلغ الجوف .

(٧) عتاد امرئ : عدة رجل . واهن : ضعيف . يقدر : يقضى . صارف : منصرف .

تحليل الأبيات .

رب فرس حسناء ليس فيها ما يشينها ، فلم توشم يداها لداء أصابها فيهما ، ولم تضعف لمرض نزل بها ، وهى - إذ يحل بها القيظ - النشيطة المرحّة شأنها فى الشتاء تقذف بسأسسها ، وتتلعب بالوليد .

تهب لك كل قوتها ، وتعطيك ما يتسع له عنانها ، فتعدو بك عدو الظبي أخطأه الرامى ، ملكت عنانها يوم الاستنجد بى ، وبعض الأبطال تسير بهم النياق الورق خبياً ، وتسعى بهم الإبل الهرمة وثيداً .

ملك عنانها فى كامل عتادى ، فقد تسربت بدرع محكمة يلمع قتيورها ؛ كأنه النهى هبت عليه أرواح النسيم ، وأمدته دفعات المطر ، فأزالت عن الأكم الرمل والتراب ، وكانت تلك الشايب فى يوم صائف .

وفى يدى رمح قد اطردت كهابه ، فهو يرضيك عند ماتجربه فى الطعان ؛ إذ يمشى إلى رميته دون انحناء أو انحراف ، ومعى قوس من نبع نبت فوق الربا ، فهو صدق عند النزع ، صلب لدى الرمى ، وإلى كل هذا العتاد سيف صقيل يقصل الضريبة ، ويبلغ جوف المضروب . ذلك عتاد رجل ليس واهن القوة ، ولا ضعيف المنّة ، وهو إلى هذا مؤمن بقدر الله ، عالم أنه لا يصرفه صارف ، ولا يدفعه دافع .

النقر :

أوجز الشاعر فى وصفه إيجازاً بليغاً ، وإن كان وصف العتاد ركناً من أركان الفخر ، والفخر يستأهل الإطناب والاحتفال ، إذ الغرض منه بعث الرهبة فى نفوس الأعداء ، والإشادة بالغزة والمجد والكبرياء .

على أن الشاعر مع هذا الإيجاز قد أودع أبياته بعض الصور كاملاً رائعاً ، وذلك كقوله :
بيضاء مثل النهى ريح ... ، وكقوله : ومطر د يرضيك

وترضينا منه تلك النزعة الحكيمية التى ختم بها أبياته ، وإن لم ترض أنداده من رجال الحرب والميدان ، « ولا هو عما يقدر الله صارف » إذ أولئك يحسبون أن الآجال فى ظلمات سيوفهم ، وأن الحياة طى بلانهم وجهادهم ، وما بعدها دعوى لا يقيم لها فى غير الشعر ميزان !

نظرة فاحصة عن معاني الشعراء في وصف السلاح

يكاد الشعراء يتفقون في المعاني التي تناولوها في وصف عتادهم ، ولهم في ذلك عذر ، فعتادهم محدود ، وسلاحهم معدود ، لا يعدو السيف والرمح ، والقوس والدرع ، والسهم والنبل ، وحتى أصول هذا العتاد وأجزاؤه متشابهة بل متماثلة ، فهي لا تزيد على الحديد والشجر ، وصياقلها ومثقفوها معروفون منسوبون ، وإذن فلا عليهم أن يتفقوا ، وللمبدع منهم حينئذ الفضل كل الفضل .

ولعلني لم أتجاوز الحق حين حكمت لأوس بن حجر بالفضل ؛ لأنني حين حكمت له بهذا الحكم استعرضت كثيرا مما قاله الشعراء ممن لم أختر لهم ، لقصر نفسهم فحسب ، كما استعرضت ما اخترته وأثبتته للشماخ بن ضرار ، ولراشد بن شهاب اليشكري ، ولثعلبة ابن عمرو العبدى ، فما تجاوزته لقصر نفس الشاعر قول الجميع بن الطماح ، وكان من الفرسان يصف نفسه :

فِي كَفِّهِ لَدَنَةٌ مُثَقَّفَةٌ فِيهَا سِنَانٌ مُحَرَّبٌ لَحِمٌ

* * *

مُدَّرِعًا رِبْطَةً مُضَاعَفَةً كَالنَّهْيِ وَفِي سَرَارِهِ الرَّهْمُ

ولبشامة بن الغدير يحض قومه على الاستعداد للحرب :

وَحُشُّوا الحُرُوبَ إِذَا أُوقِدَتْ رِمَاحًا طَوَالًا وَخَيْلًا فُجُولًا
وَمِنْ نَسَجِ دَاوُدَ مَوْضُونَةٍ تَرَى لِلْقَوَاصِبِ فِيهَا صَلِيلًا

ولعبد قيس بن خفاف البرجي :

فَأَصْبَحْتُ أَعْدَدْتُ لِلنَّائِبَا تَعْرِضًا بَرِيئًا وَعَضْبًا صَقِيلًا
وَوَقَعَ لِسَانِي كَحَدِّ السَّنَانِ وَرُمَحًا طَوِيلَ الْقَنَاةِ عَسُولًا
وَسَابِقَةً مِنْ جِيَادِ الدَّارِ عَرَسَ لِسَانِي فِيهَا صَلِيلًا
٧١٢ : كَلَامُ الْغَدِيرِ زَقَّتْهُ الدَّبُورُ يَجْرُ الْمُدْجُجُ مِنْهَا فُضُولًا

ولربيعه بن مقروم المضرى :

وبالكف زوراء حرمية
وأنحف حشر ترى بالرصاصا
٧١٤ : من القضب تعقب عزفا نثيا
فمما يخالط منها عصيا

فنحن نرى أن المعانى التى تداولها من عرضنا بعض شعرهم هى المعانى التى تناولها من
لم نعرض لهم ، ولا فرق بينهم إلا فى اعتماد بعضهم على الصور الشعرية دون بعض ،
وفى هذا المجال يتفاضلون ، فأوس بن حجر يصف رحمه بقوله :

أصم ردينيا كأن كموبه نوى القسب عراصا مزجا منصلا
عليه كمصباح العزير يشبه لقصح ويحشوه الذبال المفتلا
ويصفه الجريح بن الطماح فلا يزيد على أن يقول :

فى كفه لدنة مثقفة فيها سنان محرب لحم
ويصف الشماخ بن ضرار صوت قوسه فيقول :

إذا أنبض الرامون فيها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز
فى حين يقول ربعة بن مقروم :

وبالكف زوراء حرمية من القضب تعقب عزفا نثيا
ويصف ثعلبة بن عمرو الدرع ، فيقول :

ببيضاء مثل النهى ريج ومده شائب غيث يحفش الأكم صائف
ولا يبلغ عبد القيس بن خفاف غايته إذ يقول :

وسابغة من جياذ الدرو ع تسمع للسيف فيها صليلا
كباء الفديرة زفته الدبور يجر المدجج منها فضولا
وهو يشبه إلى حد كبير قول بشامة بن الغدير ، وقول بشامة أكثر معنى :

وحشوا الحروب إذا أوقدت رماحا طوالا ، وخيلا فحولا
ومن نسج داود موضونة ترى للقواضب فيها صليلا

وبعد فلا أحسب إلا أن العرب لم تكن لهم بالآثار الإنسانية العناية العظيمة ، ودليلنا
على هذا قلة ما قالوه فى نعت عتادهم مع أنهم شعب حرب وجلاد ، ولعل تقديرهم لآثار
الخالق أصغر فى نظرهم آثار الخلق ، وصرفهم عنها إلى ممالك أحاسيسهم ، وأمر مشاعرهم .

نظرة شاملة في معاني الشعراء

في وصف الطبيعة الساكنة

موضوعات الطبيعة الساكنة أكثر كثيرا من موضوعات الطبيعة المتحركة ، وإن يكن الشعراء قد احتفلوا بالطبيعة المتحركة أكثر من احتفالهم بالطبيعة الساكنة ، وهم فيما صنعوا لم يكونوا بدعا من الناس ، ولكنهم نهجوا النهج الذي نهجه سواهم ، وكأني بهم قد احتفلوا أعظم احتفال بما يتصل بالطبيعة المتحركة ، فأكثرنا من وصف الأطلال ، وذكر الديار ؛ لأن الأحباب كانوا يقطنونها فحق عليهم أن يطيلوا الوقوف بها ، ويكثرنا من رسمها وتصويرها ، وقل أن تجد شاعرا جاهليا لم يبك دارا ولم يندب على طلل ، وهم - وإن يكونوا متقاربين في تناول المعاني - متباعدون في الدوافع إلى هذه المعاني ، فمنهم من يبكيها كما يبكي ابن خدام ، ومنهم من يبكيها عن وجد وحرقة ، وأسى ولهفة ، وأنت تشعر كامل الشعور بحال الرجلين حتى وإن تماثلت المعاني وتساوت الصور ، تشعر به من اصطفاء اللفظ ، وتخير الموقف ، فأين من قول امرئ القيس :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
قول ثعلبة بن عمرو العبدى ؟

لمن دمن كأنهن صحائف قفار خلا منها الكتيب فواحف ؟
فثعلبة يسأل عن أصحاب الدمن التي صارت كالصحائف ، قد خلا منها الكتيب فواحف ، ولو كان واجداً لشعر في طريقه إليها باللوعة ، ولهداه لها قلبه بالخفقان والحرقة ، وإذن فلا يمكن أن يكون تقارب المعاني ، بل تماثلها دليلا على تقارب الشعر أو تماثله ، بل لا بد أن يكون هناك عامل آخر هو الإحساس الباطني بأن هذا الشاعر يتدفق عن شعور ^عويجيء بعد هذا الغرض من وصف الطبيعة الساكنة وصف الليل وطوله ، وقد تناوله الكثير من الشعراء ، وأتوا فيه من المعاني بالغريب البديع ؛ حتى لقد صار له في النقد قواعد راسية ، وقد مر بك اختلاف النقد في المفاضلة بين أبيات امرئ القيس ، وأبيات

النايفة ، وهناك غيرها وغير من اخترنا لهم لا يقلون عنهم في الإجابة والإبداع ، وهذا
سويد بن أبي كاهل يجيد في وصف طوله ، فيقول :

فَأَيُّتُ اللَّيْلَ مَا أَرَقُّدُهُ وَبَعِيْنِي إِذَا نَجْمٌ طَلَعُ
وَإِذَا مَا قُلْتُ لَيْلٌ قَدْ مَضَى عَطَفَ الْأَوَّلُ مِنْهُ فَرَجَعُ
يَسْحَبُ اللَّيْلُ نُجُومًا ظُلُمًا فَتَوَالِيهَا بَطِيئَاتُ التَّبَعِ
وَيُزَجِّبُهَا عَلَى إِبْطَائِهَا مُغْرَبُ اللَّوْنِ إِذَا اللَّوْنُ انْقَشَعُ

وهذا المرقش الأصغر يتصور أن ليلته تكررت ، ويتخيل أنها تعددت ، فيقول :

وَلَيْلَةٌ بَتَّهَا مُسْمِرَةٌ قَدْ كَرَّرَتْهَا عَلَى عَيْنِي الْهُمُومُ
لَمْ أَغْتَمُضْ طَوْلَهَا حَتَّى انْقَضَتْ أَكَلُوْهَا بَعْدَ مَا نَامَ السَّلِيمُ

فوجده تركه يقظا في حين أن اللدبع قد أوى إلى فراشه ، فما أشد هذا الوجد ! ،
وما أروع ذلك الوصف !

ثم هم قد نظروا في السماء نظرة الرجاء ، فهي لهم معين الحياة وأصل البقاء ، فوصفوا
سحبها وبروقها ، ونعتوا شهبها ونجومها ، ولم ينسوا أن يذكروا رياحها : صباها ودبورها ،
كما وصفوا آثار الطبيعة من حر لافح ، وبرد قارس ، مما يدل على طول تأمل ، وإن لم
يطيلوا في آثار هذا التأمل ، وإذا كنا لم نذكر صورا لجميع ما قالوه في الظواهر السماوية
فلأن هذه الصور لا تعدو أن تكون لفتات عابرة ، أو أحيانا سائرة من مثل قول بشر
ابن أبي خازم يصف كواكب بنات نعش في بيت واحد بأنها تدور وتنعطف ، كما تدور
جماعة البقر الوحشي وتنعطف إذا أدركها ما يخيفها :

فَبِتُّ مُسَهَّدًا أَرِقًا كَأَنِّي تَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِ الْعُقَارِ
أَرَاقِبُ فِي السَّمَاءِ بَنَاتِ نَعَشٍ وَقَدْ دَارَتْ كَمَا عُطِفَ الصُّوَارُ

ومن مثل قول علقمة الفحل يصف الحر وأثر الجوزاء فيه :

٧٢٣ : وَقَدْ غَلَوْتُ قَتُودَ الرَّحْلِ يَسْفَعُنِي يَوْمٌ تَجِيءُ بِهِ الْجُوزَاءُ مَسْمُومٌ

حَامٍ كَأَنَّ أَوَارَ النَّارِ شَامِلَهُ دُونَ الثِّيَابِ، وَرَأْسُ الْمَرْءِ مَعْمُومٌ

ومن مثل قول المسيب بن علس يصف أثر البرد وقد ساقه في المدح :

وَإِذَا تَهَيَّجَ الرِّيحُ مِنْ صُرَادِيهَا ثَنَجًا يُنِيخُ النَّيْبَ بِالْجَمْعِ جَاعٍ

أَحَلَّتْ بَيْتَكَ بِالْجَمِيعِ ، وَبَعْضُهُمْ مُتَفَرِّقٌ لِيَحْتَلَّ بِالْأَوْزَاعِ

وقد كانوا في تأملهم مبالغين حتى عرفوا جميع صور السماء والكواكب عند ما تغضب

الطبيعة أو تتغير ظواهرها ، فانظر إلى الصورة التي صوروا بها الشمس عند الجذب والبرد ،

لقد صوروها بالورس خضب بالزعران ، وذلك في قول متمم بن نويرة مادحا :

لَعَمْرِي لَنَعَمَ الْمَرْءُ يَطْرُقُ ضَيْفُهُ إِذَا بَانَ مِنْ لَيْلِ النَّامِ هَزِيعُ

بَذُولٌ لِمَا فِي رَحْلِهِ غَيْرُ زُمَحٍ إِذَا أَبْرَزَ الْخُورَ الرِّوَانِ جُوعُ

إِذَا الشَّمْسُ أَضْحَتْ فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهَا مِنْ الْحِلِّ حُصٌّ قَدْ عَلَاهُ رُدُوعُ

وانظر إلى تلك الصورة الرائعة التي رسمها سبيع بن الخطيم التيمي للمطر يسقط

في غدير ، وقد ساق تلك المطرة ريح الجنوب التي تسير مبطئة مثقاله ، في حين تكف

الصبا سحابة ثقيلة :

وَمُسَيَّبٍ خَصِرٍ ثَوَى بِمِضْلَةٍ وَإِذَا تَحَرَّكَ الرِّيحُ يُزِيْفُ

حَلَّتْ بِهِ بَعْدَ الْهُدُوءِ نِطَاقُهَا مَسَعَ مُسَهَّلَةُ النَّتَاجِ زُخُوفُ

تَرَعُ الصَّبَا رِيْعَانَهُ وَدَنَتْ لَهُ دُلْحُ يَنْوُنَ عِظَامَهُنَّ ضَعِيفُ

٧٣٣ : أَتَنَفَّى الْحَصَى حَجَرَاتُهُ ، وَكَأَنَّهُ بِرِحَالٍ حَمِيرٍ بِالضَّحَى مَحْفُوفُ

وإذا جاوزنا السماء وأجرامها ، والرياح وأنواءها ، والسحب وأمطارها إلى الأرض

ألفيناهم وصفوا الصحراء فأطالوا وصفها ، ورسموها وما تشتمل عليه فأجادوا رسمها ، في أبيات

قليلة ولكنها جامعة ، وفي نظرات قصيرة وإن تكن ممعنة ، وألما في خلال تصويرهم

إياها بالسراب فأكثرنا من ذكره ، وأطالوا في وصفه ، وقد مر فيما عرضناه بعض رسمه ،

وهذه صور أخرى له ، قال المرقش الأكبر مصوراً الجبال يغطيها السراب حيناً ، ويبرزها حيناً ، فكانها تطفو وتغرق في خليج من الماء :

وَأَعْرَضَ أَعْلَامُهَا كَأَنَّ رُءُوسَهَا
رُءُوسُ جِبَالٍ فِي خَلِيجٍ تَغَامَسُ
إِذَا عِلْمُهَا خَلَفَتْهُ يَهْتَدَى بِهِ
بَدَا عِلْمُهَا فِي الْآلِ أَغْبَرُ طَامِسُ

وهي صورة رائعة لا يتصورها إلا من عبر الصحراء ، وتأمل جريان الآل فيها .
وقال بشر بن أبي خازم يفخر بقطعة فلاة تعزف فيها الجن ، وتحن بها رياح السهائم ،
ويصور الآكام متخذة من اللوامع دروعاً :

وَحَرَقَ تَعَزَفُ الْجِنَانُ فِيهِ
فِيَا فِيهِ تَحْنُ بِهَا السَّهَامُ
ذَعَرْتُ ظِبَاءَهَا مُتَغَوَّرَاتٍ
إِذَا ادَّرَعَتْ لَوَامِعُهَا الْإِكَامُ

وقال المثقب العبدى يفخر بقطعة البلاد إبان اشتداد الحر ، والتهاب الهجير ، وقد شبه السراب ببيض الثياب ، كما أنه في قلبه يشبهها في طيها :

أَجِدَّكَ مَا يُذِيرُكَ أَنْ رُبَّ بَلَدَةٍ
إِذَا الشَّمْسُ فِي الْأَيَّامِ طَالَ رُكُودُهَا
وَصَاحَتْ صَوَادِجُ النَّهَارِ وَأَعْرَضَتْ
لَوَامِعُ يَطْوِي رِيْطُهَا وَبَرُودُهَا
قَطَعْتُ بِفِتْلَاءِ الْيَدَيْنِ ذَرِيعَةً
يَغُولُ الْبِلَادَ سَوْمَهَا وَبَرِيدُهَا

أما الآثار الإنسانية فكانت عندهم جد قليلة ، فلم تكن لهم قصور عالية ، ولا حصون منيعة ، ولا قلاع حصينة ؛ كما لم يكن لهم أثاث ولا رياش يستولى على مشاعرهم ، ويستبد بعواطفهم ، فعذرهم واضح ، إذ كيف أصف شيئاً لا أجده ؟ وأنى لى أن أصور متاعاً لا أعرفه ؛ على أن منهم من دفعته معارفه إلى وصف أشياء رآها في غير محيطه ، من ذلك قول راشد بن شهاب الشكري يفخر :

بَنَيْتُ بِشَاجٍ مَجْدَلًا مِنْ حِجَارَةٍ
لَأَجْعَلَهُ عِزًّا لِي رَغْمَ مَنْ رَغِمَ
أَشْمَ طَوَّالًا يَدْحَضُ الطَّيْرَ دُونَهُ
لَهُ جَنْدَلٌ يَمَّا أَعَدَّتْ لَهُ إِرْمَ
وَيَأْوِي إِلَيْهِ الْمُسْتَجِيرُ مِنَ الرَّدَى
وَيَأْوِي إِلَيْهِ الْمُسْتَعِيزُ مِنَ الْعَدَمِ

والآيات التي تنسب إلى السموءل بن عاديا يفخر بقصره الأبلق عند ما لجأ إليه امرؤ القيس واستودعه أدرعه ، فضرب به المثل في الوفاء إذ أسلم ابنه للقتل دون أن يخون أمانته ، فيسلم أدرع من لجأ إليه :

وَفَيْتُ بِأَدْرُعِ الْكِندِيِّ إِنِّي إِذَا مَا دُمُّ أَقْوَامٌ وَفَيْتُ
وَأَوْصَى عَادِيًا يَوْمًا بَلَاءً تُهْدَمُ يَا سَمُوءَلُ مَا بَلَيْتُ
بَنِي لِي عَادِيًا حِصْنًا حَصِينًا وَمَاءَ كُلَّمَا شِئْتُ اسْتَقَيْتُ

ولكنهم وصفوا من الآثار الإنسانية الحجر ، وأكثروا من القول فيها ؛ لأنها كانت عندهم مظهراً لكثير من أخلاق الفتوة كالشجاعة والسخاء والإتلاف ، وقد دفعهم شغفهم بشرايها وولعهم بمعاقرتها إلى الاقتنان في المعاني ، والابتداع في الصور ، وقد مر بنا الكثير من تلك المعاني المقتنة المبتدعة ، وكلها يشهد بأنهم سامو الخيال ، ماهرو التصوير ، وما مر بنا ليس بأفضل ما قيل ، ولكنه من أفضله ، وإلا فأى حسن يفوق هذا الذي نسوقه للقرش الأصغر يصف ريق محبوبته ؟ وأن الحجر التي من صفاتها أنها صهباء كالمسك ريحا ، المصفاة بالناجود ، أو المكيلة بالأقداح التي بقيت في دنها عشرين عاما يطان عليها القرمذ ، وتبرز للريح لتبرد ، قد اشترت من قوم يهود لهم بعصرها خبرة ، وبيننا وبينهم شقة ؛ إلا أن جنبنا لها قرب منا سوقها ، فسعيننا إليها حتى حصلنا عليها ؟ وهاهي ذى الآيات :

وَمَا قَهْوَةُ صَهْبَاءُ كَالْمِسْكِ رِيحُهَا تُعَلَى عَلَى النَّاجُورِ طَوْرًا وَتُقَدَحُ
ثَوَتْ فِي سَبَاءِ الدَّنِّ عِشْرِينَ حِجَّةً يُطَانُ عَلَيْهَا قَرَمَدٌ وَتُرْوَحُ
سَبَاها رِجَالٌ مِنْ يَهُودَ تَبَاعَدُوا لَجِيْلَانِ يُدْنِيهَا مِنَ الشُّوقِ مُرْجُ
بَاطِيبَ مِنْ فِيهَا إِذَا حِثَّتْ طَارِقًا مِنَ اللَّيْلِ ، بَلْ فُوهَا أَلَدٌ وَأَنْصَحُ ٧٥٠

وهذا عبدة بن الطيب يقدو وقرن الشمس منفتق ، وكأنه مجل بسواد الليل ؛ إذ الديك يدعو أعضاء أسرته ، يقدو إلى التجار فأعداه شاب معجب بنفسه يجر من خلفه إزاره ، كأنه في حسنه صدر السيف ، له شمائل كريمة ، وأفانين في الخير ، هو رجل جد عند ما يجتد الأمر ويشتد ، ورجل لهو ومجون عند ما يحلو اللهو والمجون ، فاتكأنا هند

تاجرها على فراش مرقومة ، ونمارق منقوشة ، عليها زخارف وتهاويل ، فيها صور الدجاج والأسود ، بل فيها تماثيل لكل شيء ، في بيت يشبه الكعبة في شكله أو في قداسته ، شادها بان ماهر ، فزين أركانها وجعل مبانيها ، يضيئها ذبال مفتول ، لنا أصيص كأنه أصل الحوض هدمه تراحم الإبل عليه ، لدى ذلك الأصيص الزق مغلول مقيد ، والكوب أبيض ، في جيده إكليل من الزهر ، قد برد ذلك الكوب بالماء ، فبينه وبين الأصيص جرة ضخمة كأنها في شكلها وسط حمار وحشى قد ثقب جانبه ، والكوب مترع قد علاه الزبد ، وقد أعدت لنا قطعة عظيمة من لحم كبش ، مشكوكة في السفود ، يطوف بها علينا خادم عجلى ، تنطق بمنطقته ، وبين يدينا صحفة فيها الأبازير ، ثم شربت صباحا خمرا حمراء ، لها في شاربها رعدة ، وهى خمر لم يسبقنى إلى معاقرتها إنسان ، شربتها صرفا وإن بدت لرقتها ممزوجة ، وقد يعلنا مغنّ بشعر كأنه الأصباغ المذهبة للسقوف يتناقله الرواة ، ويحملونه في الآفاق ، ترفع حواشى ذلك الشعر المذهب قينة طويلة الجيد ، تؤنس جلسها ، كأن صوتها للشاربين ترتيل ومزامير ، تمر علينا غدوة تلهينا بغنائها ، فنهب لها البرود والسرايل ، وهذه هى الأبيات :

وَدُونُهُ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ تَجَلِيلُ	وَقَدْ غَدَوْتُ وَقَرْنُ الشَّمْسِ مُنْفَقُ
لَدَى الصَّبَاحِ ، وَهُمْ قَوْمٌ مَعَارِيلُ	إِذَا شَرَفَ الدَّيْكَ يُدْعُو بَعْضُ أَمْرِهِ
رِخْوُ الإِزَارِ كَصَدْرِ السَّيْفِ مَشْمُولُ	إِلَى التَّجَارِ فَأَعْدَانِي بِلَدِّهِ
مُحَالِطُ اللَّهِوِ وَاللَّذَاتِ ضَلِيلُ	خِرْقٌ يُجِدُّ إِذَا مَا الْأَمْرُ جَدَّ بِهِ
مِنْ جَيْدِ الرَّقْمِ أَرْوَاجُ تَهَاوِيلُ	حَتَّى اتَّكَأْنَا عَلَى فُرْشِ زَيْنِهَا
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُرَى فِيهَا تَمَائِيلُ	فِيهَا الدَّجَاجُ ، وَفِيهَا الْأَسَدُ مُخْدِرَةٌ
فِيهَا ذُبَالٌ يُصَيِّدُ اللَّيْلَ مَفْتُولُ	فِي كَعْبَةٍ شَادَهَا بَانَ وَزَيْنِهَا
وَطُءُ الْعِرَاكِ ، لَدَيْهِ الزَّقُّ مَغْلُولُ	لَنَا أَصِصٌ كَجِذَمِ الْحَوْضِ هَدْمُهُ
فَوْقَ السِّيَاعِ مِنَ الرِّيحَانِ إِكْلِيلُ	وَالْكُوبُ أَزْهَرُ مَعْصُوبٍ بِقَلْتِهِ

مُبَرَّدٌ بِمَزَاجِ الْمَاءِ بَيْنَهُمَا حُبٌّ كَجَوْزِ حِمَارِ الْوَحْشِ مَبْرُورُ
وَالْكُوبُ مَلَانٌ طَافٍ فَوْقَهُ زَبَدٌ وَطَائِقُ الْكَبْشِ فِي السَّقُودِ مَحْلُولُ
يَسْعَى بِهِ مُنْصَفٌ عَجَلَانٌ مُنْتَطِقٌ فَوْقَ الْخِوَانِ ، وَفِي الصَّاعِ التَّوَابِيلُ
ثُمَّ اصْطَبَحَتْ كَمِيَّتًا قَرَقَنًا أَنْفًا مِنْ طَيِّبِ الرَّاحِ ، وَاللَّذَاتُ تَعْمَلِيلُ
صَرَفًا مَزَاجًا ، وَأَخْيَانًا يُعَلِّلُنَا شِعْرٌ كَكُذِّهِبَةِ السَّمَانِ مَحْمُولُ
تُذَرِي حَوَاشِيَهُ جِيدَاءُ آنِسَةٍ فِي صَوْتِهَا لِسَاعِ الشَّرْبِ تَرْتِيلُ
٧٦٦ : تَغْدُو عَلَيْنَا تُلْهِمُنَا وَنُصَفِدُهَا تُلْقَى الْبُرُودُ عَلَيْهَا وَالسَّرَابِيلُ

أى مجلس شراب آتق من ذلك المجلس ؟ وأى مجلس أحفل بأسباب الأنس والمرح
من مجلس عبدة بن الطبيب ؟ شراب وطعام وغناء ، لقد عز عليه أن يقترح فيه ما يمكن أن
يزيده جمالا .

أما النوع الآخر من الآثار الإنسانية التى عنوا بها ، وشغفوا بوصفها فهى عتاد
القتال ، وأسلحة الحروب ، وقد أوفيناها حقها عرضا وبسطا ، ولا يزال حديثنا عنها جد
قريب وحسبنا ما قدمناه .



الفصل السابع

صور لمظاهر مؤتلفة من الطبيعتين المتحركة والساكنة

(١) وصف الطعائن

١ - قال المثقب العبدى * من قصيدة أولها :

أَفَاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكَ مَتَّعِيْنِي وَمَنْعُكَ مَا سَأَلْتُكَ أَنْ تَبِيْنِي ^(١)

لِيْنُ طُعْنُ تَطَالِعُ مِنْ ضُبَيْبٍ فَمَا خَرَجْتَ مِنَ الْوَادِي لَحِيْنِ؟ ^(٢)

مَرَزَنَ عَلَى شَرَافٍ فَذَاتِ رَجُلٍ وَنَكَبْنِ الذَّرَانِجِ بِالْيَمِيْنِ ^(٣)

وَهُنَّ كَذَاكَ حِيْنَ قَطَعْنَ فَلَجًا كَأَنَّ حُمُولَهُنَّ عَلَى سَفِيْنِ ^(٤)

يُسَبِّهْنَ السَّفِيْنَ ، وَهُنَّ بَخْتٌ عُرَاضَاتُ الْأَبَاهِرِ وَالشُّوْنِ ^(٥)

وَهُنَّ عَلَى الرَّجَازِ وَاكِنَاتٌ قَوَاتِلُ كُلِّ أَشْجَعٍ مُسْتَكِيْنِ ^(٦) ٧٧٢ :

* ترجمه الشاعر : اقرأ الترجمة في ص ٨٢ .

التفسير اللغوي : (١) متعيني : بالوصل . أن تبيني : أن تبعدي .

(٢) الطعن : جمع طعينة ، وهو الهودج فيه النساء . ضبيب : بالضاد أو الصاد موضع . لحين : بعد حين وإبطاء .

(٣) شراف ، وذات رجل ، والذرائج : أمكنة . نكبن : عدلن .

(٤) الفالج : الطريق أو الوادي . الحمول : جمع حمل الهودج كان فيها النساء أو لم يكن . السفين : جمع سفينة .

(٥) البخت : الجمال طوال الأعناق . عراضات : جمع عراضة ، والعراض المفرط في العرض كطوال . الأباهر : جمع أبهر عرق في الظهر . الشوون : جمع شأن ، وهي شعب قبائل الرأس التي تجري منها الدموع إلى العينين .

(٦) الرجاز جمع رجازة بكسر الراء مراكب النساء . واكنات : مطمئنتات . الأشجع : الطويل . مستكين : خاضع .

- كغزلانٍ خُذِلْنَ بذاتٍ ضالٍ تنُوشُ الدَّانِيَّاتِ مِنَ الْغُصُونِ (٧)
 ظَهَرْنَ بِكِلَّةٍ ، وَسَدَلْنَ رَقْمًا وَنَقَبْنَ الْوَصَاوِصَ لِلْعُيُونِ (٨)
 وَهَنَّ عَلَى الظَّلَامِ مُطَلَّبَاتٌ طَوِيلَاتُ الدَّوَائِبِ وَالْقُرُونِ (٩)
 أَرَيْنَ مُحَاسِنًا ، وَكُنَّ أُخْرَى مِنَ الْأَجْيَادِ وَالْبَشَرِ الْمُصُونِ (١٠)
 وَمِنْ ذَهَبٍ يَلُوحُ عَلَى تَرِيبٍ كَلَوْنِ الْعَاجِ لَيْسَ بِذِي غُصُونِ (١١)
 بِتَلْهِمَةٍ أَرِيشُ بِهَا سِهَامِي تَبْدُ الْمُرْشَقَاتِ مِنَ الْقَطِينِ (١٢)
 عَلَوْنَ رِبَاوَةً ، وَهَبَطْنَ غَيْبًا فَلَمْ يَرْجِعْنَ قَائِلَةً لِحِينِ (١٣)
 فَقُلْتُ لِبَعْضِهِنَّ ، وَشَدُّ رَحْلِي لِهَاجِرَةٍ نَصَبْتُ لَهَا جَبِينِي (١٤)
 ٧٨١ : لَعَلَّكَ إِنْ صَرِمْتَ الْحَبْلَ مِنِّي كَذَلِكَ أكونُ مُصْحَبَتِي قُرُونِي (١٥)

(٧) خذلن : تخلفن . ذات ضال : اسم مكان يكثر فيه شجر الضال . تنوش : تتناول الدانيات : القريبات .

(٨) الكلة : الستار الرقيق . سدلن : أرسلن . الرقم : ضرب مخطط من الوشي أو البرود . الوصاوص : البراقع الصغار ، واحدها وصوص .

(٩) الظلام : بكسر الظاء الظلم . مطلبات : مطلوبات . الدوائب : جمع ذؤابة ضفائر الشعر . القرون : خصل الشعر .

(١٠) كنن : سترن . الأجباد . جمع جيد الأعناق . البشر : ظاهر الجلد . المصون : المستورة .

(١١) التريب : جمع تريبة ، وهي عظام الصدر موضع القلادة . الغصون : ثني الجلد من الكبر .

(١٢) التلهية : التسلية . أريش بها سهامي : ألزق فيها الريش لتكون أفتك . تبد : بالبدال والزأى تسبق وتغلب . المرشقات : المستشرقات للنظر . القطين : الخدم والتابع والجيران .

(١٣) الرباوة : ما ارتفع من الأرض . الغيب : ما اطمأن منها . القائلة : القيولة وهي نصف النهار . لحين : لوقت قصير .

(١٤) لهاجرة : عند هاجرة النهار وهو منتصفه نصبت : رفعت . جبيني : أعلى وجهي .

(١٥) صرمت الحبل : قطعت الوصل . مصحبتى : تابعتي . قروني : نفسي .

تحليل الأبيات :

بدأ الشاعر قصيدته بمناجاة حبيبته ، فقال :

متعيني قبل الفراق بنظرة تكون لى أسعد الذكريات ، فتخف اللوعة ، ويهون الوجد ،
فإن لم تفعلى شعرت عندئذ بألم الفراق ، ووجد البين .

ثم انتقل بعد أبيات إلى وصف الظعن ، فسأله تسأول المثلث عن فيها ، فقال :
لمن هذه الظعن تظهر من ضبيب؟ فإنها لم تخرج من ذلك الوادى من حين ، لكانها كانت
تستريح من سفر غير قاصد ، ومرحلة ليست بالقصيرة ، وكيف لا ؟ وقد مررن بأمكنة كثر :
بشراف وذات رجل ، بعد أن انحرفن عن الذرائع إلى اليمين ، وهن إذ قطعن فلجا تشبه
هوادجهن السفائن ، تشبهها فى امتدادها ، وتمايلها فى سيرها ، واستواء ماتجربى فوقه ، ونفاسة
ماتحملة ، تشبهها مع أنها إبل طوال الأعناق ، عراض الأباهر ومجارى الدموع .

أولئك النسوة فى هوداجهن ساكنات مطمئنات ، يقتلن بسحر جماهن العشاق من
الشجعان ، ما أشبههن بغزلان تخلفن بأرض يكثر فيها الضال ، فهن يمددن أجيادهن يتلقفن
أوراق الأشجار ، ظهرون بوجوههن الوضاعة الواضحة من الأستار الرقيقة المرفوعة ،
وسدلن رقما مطرزا بالديباج ، موشى بالدمقس ، وثقبن البراقع الصغار بالعيون الناعسات ، وهن
مع ظلهن لنا ، ودلهن علينا ، مطلبات منا ، مرغوبات إلينا ، قد تعددت أسباب حبهن ، أذاها
أنهن طوال النوائب ، مرسلات الغدائر ، أبدين من محاسنهن ما يصح أن يظهر من عيون
نواعس ، وخدود نواعم ، وغدائر مرسله ، وسترن أخرى كالجياذ الناصعة ، والبشر المصون ،
والترائب حليت بقلائد الذهب التى تشبه العاج فى صفاء لونها ، وملاسة بشرتها ، فهن
شواب ناعمات .

أتلهى بفاطمة تلك حين أريش مهابى استعدادا للحرب ، فذكرها تبعث فى النجدة ،
فهى تفوق الفتيات الشاخصات ، وتنير بجماها الغوانى المرشقات من القطين والجارات .
علت تلك الظعائن ربا وهبطن وهذا دون أن يسترحن ، فهن يصلن صباحهن بأصيلهن

وإن شق ذلك عليهن ، فقلت لإحداهن ، وهى محبوبتى التى أتتبع خطاها بشد رحلى معها
فى الهاجرة ، يستقبل أوارها جيبى : أخشى إن قطعت وصلى ، وصرمت حبل ودى أن تقطع
نفسى وصلك ، وتصرم حبل وذك .

النقر :

بدأ وصف الظن بالاستفهام التحسرى ، فأحسن فى البدء ، وبرع فى الاستهلال ،
ولولا أنه أكثر من ذكر المواضع والأمكنة لكان قد بلغ الغاية ، كما بلغها فى تشبيهه البخت
بالسفن ، فهو تشبيه رائع جميل ، وبيته :

وهن على الرجائز واكنات قوائل كل أشجع مستكين

بيت فارع الحسن بتصويره وبتخيرلفظه ، وما أجمل أن يجمع بين الشجاعة والاستكانة ،
فهو شجاع عند ملاقة الأقران ، خاضع لدولة الحسن والجمال ، وليس أقل منه تصويراً ذلك
البيت الذى استمد لقبه منه ، وهو :

ظهري بكلة وسدلى رقيا وثقبن الوصاوص للعيون

فهو بيت فيه من التصوير الحسى والنفسى ما لا يمكن الغض منه ، هذا إلى ما فى الأسلوب
من جمال رائع يبدو فى تلك المقابلات التى لا تكلف فيها من مثل قوله :

أرين محاسنا وكنن أخرى من الأجياد والبشر المصون

وقوله :

علون رباوة وهبطن غيبا فلم يرجعن قائلة الحـين

وإذا كان هناك ما يمكن أن يؤخذ عليه فهو خشية القطيعة إن صرمت حبله ، فالعاشق
لا يملك زمام قلبه ، ولا يدفع جماح نفسه وكذلك مما يمكن أن يأخذه عليه نقدة الأساليب
تكرير القافية فى البيتين الثانى والثالث عشر ، وهم يقولون صادقين إن التكرار قد يكون
مبعثه نضوب معين القافية .

٢ — وقال زهير بن أبي سلمى * من معلقته يصف الطعائن كذلك :

تَبْصُرُ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ طَعَائِنٍ تَحْمَلْنَ بِالْعَلَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثُمٍ؟ (١)
عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ وَرَادِ حَوَاشِيهَا مُشَاكَةً الدَّمِ (٢)
وَفِيهِنَّ مَلْهَى لِلطَّيْفِ وَمَنْظَرٌ أُنِيقٌ لِعَيْنِ النَّاطِرِ الْمُتَوَسِّمِ (٣)
بِكُرْنٍ بُكُورًا، وَاسْتَحْرَنَ بِسُحْرَةٍ فَهِنَّ وَوَادِي الرَّسِّ كَالْيَدِ لِلْفَمِ (٤)
جَعَلْنَ الْقَنَانَ عَنْ يَمِينٍ وَحَزَنَةً وَكَمْ بِالْقَنَانِ مِنْ مُحِلٍّ وَمُحْرَمِ (٥)
ظَهَرْنَ مِنَ الشُّوبَانِ، نَمَّ جَزَعُهُ عَلَى كُلِّ قَيْنِي قَشِيبٌ مُقَامِ (٦)
وَوَرَّ كُنَّ فِي الشُّوبَانِ يَعْلَوْنَ مَتْنَهُ عَلِيهِنَّ ذَلِكَ النَّاعِمِ التَّنْعَمِ (٧)
كَأَنَّ فِتَاتَ الْعَهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحْطَمِ (٨)
فَلَمَّا وَرَدْنَ الْمَاءَ زُرْقًا جَاهُمُ وَضَعْنَ عَصَى الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ (٩)

* ترجمه الشاعر : أقرأها في ص ٨٨ .

التفسير اللغوي : (١) تبصر خليلي : تأمل يا صاحبي . طعائن : جمع طعينة ، وهي الإبل فوقها الهوداج فيها النساء . العلاء : بلد . جرثم : ماء من مياه بني أسد .
(٢) بأنمط : أنمط جمع نمط ، وهو ثوب من الصوف يطرح على الهودج . عتاق : كرام . الكلة ثوب رقيق يكون تحت الأنمط . وراد : تشبه لون الورد . حواشيها : نواحيها . مشاكهة : مشابهة . (٣) ملهى : لهو . اللطيف : الرقيق لا جفاء فيه . أنيق : معجب . المتوسم : المتفرس . (٤) استحرن : خرجن سحرة . وادي الرس : الرس ماء لبني أسد . (٥) القنان : جبل لبني أسد . الحزن : الموضع الغليظ : محل ومحرم : ذي عهد وغير ذي عهد ، أو عدو وغير عدو . (٦) الشوبان : واد . جزعنه : قطعنه . قيني : صفة لموصوف محذوف ؛ أى على كل غبيط قيني ، وهو المنسوب إلى بلقين ، وهم حي من اليمن تنسب إليهم الرحال ، وهو قتب طويل يكون تحت الهودج . قشيب : جديد . مقام : موضع . (٧) وركن : ملن . متنه : أعلاه ؛ والتمن ما ارتفع من الأرض وغلظ . عليهن : على الطعائن . دل الناعم : دلال الرقيق واختيال المرفه . (٨) فئات العهن : منتشر الصوف ما صبغ منه وما لم يصبغ ، منزل : مكان نزول . الفناء : شجر ثمره حب أحمر فيه نقطة سوداء . لم يحطم : لم يكسر . (٩) الجمام : ما اجتمع من الماء . وضعن عصي الحاضر : كناية عن الإقامة . المتخيم : المقيم للخيام .

تحليل الأبيات :

تأمل أيها الصديق هل ترى ظعائن سائرات ؟ قد تحملن من العليا محاذيات في مسيرهن ماء جرثم ، رفعن فوق الأمتعة الأنماط والكلل ذات اللون الوردى من نواحيها ، المشاكلة للدم في حواشيها ، في رؤية أولئك الظعائن ملهى الرجل الرقيق الذى لاجفاء فيه ، والمنظر الأتيق المعجب للسيد المتأمل الذى يعرف الجمال فيصفه ويطريه .

خرجن إلى رحيلهن بكرة ، وسرن سحرة ، فهن في مسيرهن بوادى الرس ، علمات بطرقه ، كما تعرف اليد الطريق إلى الفم ، لاتبجور عنه ولا تنحرف دونه .

جعلن جبل القنان وحزنه في مسيرهن عن يمينهن اتقاء لخطره ، فكم به من أقوام لهم ذمة وعهود ، وأقوام لازمة لهم ولا عهود ، خرجن من وادى السوبان ، ثم عرضن له مرة أخرى ، فقطعنه على كل غبيط منسوب إلى بلقين ، لا يزال قشيبا جديدا موسعا من جانبيه ، وملن في وادى السوبان عاليات ماغلظ منه وارتفع ، يبدو على الظعائن دلال المتنعم ، ورفاهية المترفة ، كأن حثات الصوف في كل مكان ينزلن به حب الفنا قبل أن يحطم ، فحين وردن الماء أزرق لتجمعه ، وضمن عصى المتخيم ، ونصبن أخبية المقيم .

النقر :

بدأ زهير أبياته على نحو مابداً به المثقب أبياته ، فكلاهما يستفهم في حسرة عن الظعائن ، وإن كان المثقب قد تجاهل أن هذه الظعائن هى التى فيها مالكة له تخفيفا من وجده ، وكلاهما رسم طريق سير هذه الظعائن ، وصور الوديان التى سرن فيها إلا أن زهيرا كان أقدر على رسم خط السير ، ولكنه قصر في الحديث عن جملهن ومجدهن ، وإن يكن كثير عزة حكم له بالتفوق في النسب ، إذ سئل أى بيت أنسب ؟ فأشدد :

فلما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم
أما نحن فلا نرى في هذا البيت ما يراه كثير ، وخير منه عندنا قول المثقب :
وهن على الرجائر واكنات قواتل كل أشجع مستكين
كغزلان خذلن بذات ضال تنوش الدانيات من الغصون

(ب) في وصف الفرسان وعتادهم عند الحرب

١ — قال ضمرة بن ضمرة * يصف نفسه في قتال عدوه :

وَمُسْعَلَةٌ كَالطَّيْرِ نَهْنَهَتْ وَرَدَهَا إِذَا مَا الْجَبَانَ يَدْعَى ، وَهُوَ عَانِدٌ ^(١)
 عَلَيْهَا الْكُمَةُ وَالْحَدِيدُ ، فَمَنْهُمْ مَصِيدٌ لِأَطْرَافِ الْعَوَالِي وَصَائِدٌ ^(٢)
 شَمَاطِيطٌ تَهْوِي لِلسَّوَامِ ، كَأَنَّهَا إِذَا هَبَّتْ غُوطًا كِلَابٌ طَوَارِدٌ ^(٣)
 وَقِرْنٍ تَرَكْتُ الطَّيْرَ تَحْجُلُ حَوْلَهُ عَلَيْهِ نَجِيعٌ مِنْ دَمِ الْجُوفِ جَاسِدٌ ^(٤)
 ٧٩٥ : حَسَاهُ السَّنَانُ ، ثُمَّ خَرَّ لِأَنْفِهِ كَمَا قَطَرَ الْكَعْبُ الْمَوْزَبُ نَاهِدٌ ^(٥)

* ترجمه الشاعر : هو ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطش بن نهشل التميمي ، كان لسانا فصيحاً ، كان اسمه (شقا) فدخل على النعمان بن المنذر فعاب دمايته ، فقال له : أبيت اللعن إن الرجال لا تكال بالقفران ، ولا توزن بميزان ، وإنما المرء بأصغريه ، بقلبه ولسانه ، إن صال صال بجنان ، وإن قال قال ببيان ، فقال له النعمان : أنت ضمرة بن ضمرة يريد أنه كأبيه ، فصار اسمه ضمرة . توفي حوالى سنة ٦٠٠ م .

التفسير اللغوي : (١) المشعلة : الكتيفة تشعل للحرب ، شبهها بالنار المشعلة . نهنت : كفت . وردها : الورد القطعة من الجيش . يدعى : ينتسب . عاند : منحرف .
 (٢) الكمة : جمع كمي الفرسان في أتم سلاحهم . العوالى : جمع عالية وهي أعلى الرماح .
 (٣) شماطيط : جمع شمطاط أو شمطوط ، أو الشمطيط الفرقة من الجيش . تهوى : تسقط .
 السوام : الإبل الراعية . الغوط : جمع غائط ، وهي الأرض الواسعة الممثلة ، ومنها غوطه دمشق ، وهي أجمل قطعة فيها . طوارد : قوائم .
 (٤) القرن : النظير في النجدة والفروسية . تحجل : تسير على رجل واحدة من الفرح . النجيع : الدم الشديد الحمرة .
 الجاسد : اللازق . (٥) حشاه السنان : دخل في أحشائه . خر : سقط . قطره : رماء على قطريه ، وهما جانباه . الكعب : عظم يلعب به . المؤرب من الكعب : الحاد الأطراف .
 الناهد : الصبي المرتفع .

تحليل الأبيات :

يصف ضمرة شجاعة قومه في قتال عدوهم ، فيقول : رب كتيبة كثيفة منتشرة انتشار الطير كفكفت جموعها ، ونهنت جحافلها ؛ حين يدعى الجبان الدعاوى ، وينسب إلى نفسه البأس والقوة ، وهو عاند عن الجمع ، منحرف عند ملاقاته الحشد ، خشية أن يصيبه الختف ، يتزعم هذه الكتيبة الكماة الأبطال يغطيهم الحديد ، ويتسربلون بالبيض والدروع ، ولكن حديدهم لم يغن عن أكثرهم شيئا ، وبيضهم ودروعهم لم تدفع عن جموعهم قضاء ، فمن هؤلاء المصيد والصائد ، والأسير والأسر .

فرق هذه الكتيبة تنقض على الغنائم انقضا الكلاب الطوارد ، وتهوى على الفئ هوى الطيور الجوارح ؛ لأنها لا تنبأى عدوها ، فقد ألجمته السنان ، وكسته الهزيمة العار .

تلك الكتيبة لا تثبت لى فى ضراب ، ولاتنى أن تنهزم أمامى عند تبادل الطعان .

ورب قرن جدلته وتركته نهش السباع ونهب الطيور ، فهى تحجل حوله تنناش لجه ، وتمتص عظمه ، فوق أجزاء جسمه الدم المتجمد ، وعلى أطرافه النجيع المتجسد ، فقد أوجأت شبة السيف فى أحشائه ، فسقط على وجهه ، كما يرمى الفتى الناهد الكعب المحدد ، فيلصق فيما يسقط عليه ، ويستقر فى أحشاء ما يرمى به .

النقد :

فى هذه الأبيات تصوير للحرب ، فكم من الناس يقول ويدعى ، حتى إذا دارت رحاها انحرف عنها ، وخاف ميدانها « إذا ما الجبان يدعى وهو عاند » فى هذه الحرب تتصاول الفرسان ، ففيها الصائد والمصيد ، والأسر والأسير ، « مصيد لأطراف العوالى وصائد » .

وفىها تصوير للجند وقد انتهت المعركة ، فهم ينصرفون إلى جمع الغنائم واقتسام الأسلاب ، حينئذ تقبل الطيور « عصائب طير تهتدى بعصائب » لتجد طعاما ميسرا موفورا .

وفىها وصف للقتلى يحزون على حرأنفهم ، وأمرءوسهم ، إذ سددت إليهم الأسمنة تسديد اللاعب بالكعب المؤرب ، وهى صور لامبالغة فيها ولا غلو .

٢ — وقال دريد بن الصمة * يصف حرباً قتل فيها أخوه عبد الله :

دَعَانِي أَخِي وَالْخَيْلُ بَيْنَهُ فَلَمَّا دَعَانِي لَمْ يَجِدْنِي بِمَقْعِدِ^(١)
 أَخِي أَرْضَعَتْنِي أُمُّهُ بِلَبَانِهَا بِشِدَّتِي صَفَاءً يَبْنِنَا لَمْ يُجِدِّ^(٢)
 تَنَادَوْا ، فَقَالُوا : أَرَدْتَ الْخَيْلُ فَارِسًا فَقُلْتُ : أَعْبَدَ اللَّهُ ذَلِكُمْ الرَّدِّيُّ؟^(٣)
 فَجِئْتُ إِلَيْهِ وَالرِّمَاحُ تَنْوِشُهُ كَوَقْعِ الصَّيَاصِي فِي النَّسِيَجِ الْمُمَدِّ^(٤)
 وَكُنْتُ كذَاتِ الْبُورِ رِيْعَتْ فَأَقْبَلْتُ إِلَى جِلْدٍ مِنْ مَسَكٍ سَقَبٌ مُقَدَّدٌ^(٥)
 فَمَارُحْتُ حَتَّى طَرَقْتَنِي رِمَاحُهُمْ وَغُودِرْتُ أَكْبُو فِي الْقِنَا الْمُتَقَصِّدِ^(٦)
 فَطَاعَنْتُ عَنْهُ الْخَيْلَ حَتَّى تَنَفَّسْتُ وَحَتَّى عَلَانِي هَالِكُ اللَّوْنِ أَسْوَدِي^(٧)
 ٨٠٣ : قِتَالِ امْرِئٍ آسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُحْلَدٍ^(٨)

* ترجمه الشاعر : هو دريد بن الصمة ، واسم الصمة معاوية الأصغر بن الحارث بن معاوية الأكبر شاعر فلي ، وفارس شجاع ، كان أطول الفرسان الشعراء غزوا ، وأبعدهم أثراً ، وأكثرتهم ظفراً ، وأيمنهم نقيبة ؛ أدرك الإسلام فلم يسلم ، وقتل يوم حنين ، وهو هنا يبكي أخاه عبد الله الذي قتل في حربه مع غطفان .

التفسير اللغوي : (١) أخى : يعنى عبد الله . الخيل : يقصد الفرسان . بمقعد : بمقعد . يتخلف عن القتال ، وفي رواية بمقعد . (٢) اللبان : اللبن . لم يجد : لم يحف لبانه ، وفيه كناية عن دوام الصفاء . (٣) تنادوا : نادى بعضهم بعضاً . أردت : أهلك . (٤) تنوشه : تتناوله . الصياصي : جمع صيصية ، وهى شوكة يمرها الحائك على الثوب حين ينسجه . الممدد : المطول الممتد . (٥) ذات البو : الناقة يذبح ولدها أو يموت ، فيحشى لها جلده فترأه . ريعت : فزعت . الجلد : ما جلد من المساوخ وألبس غيره لتشمة أم المساوخ فتذر عليه . المسك : الجلد لأنه بمسك ما وراءه من اللحم والعظم . السقب : ولد الناقة الصغيرة . المقدد : المشقق . (٦) طرقتنى : شقت جسدى وجلت فيه طرقاً . أكبو : أسقط . القنا : الرماح . المتقصد : الميت . (٧) تنفست : تفرقت . هالك اللون : يقصد الغبار الكثيف من وقع حوافر الخيول حوله . أسودى : يريد أسودى ، كما قيل فى الأحمر أحمرى ، وفى الدوار دوارى ثم خفت ياء النسب بخذف إحداها ، وهى الأولى ، وجعلت الثانية صلة . (٨) آسى : سوى ، محلد : خالد .

تحليل الأبيات :

هذه الأبيات من قصيدة في الرثاء من جياذ الشعر الجاهلي ، لافي الرثاء فحسب ، بل في جميع ماتناولته فنون الشعر .

وقد كان دريد بارعا في وصف القتال ، فبعد أن ذكر دعوة أخيه إياه ، وأنه كان سريع التلبية ، إذ لم يكن عند مادعاه إلى الموت بمقعد ، فهو أخوه رضيعا ثديين جمعا على صفاء ، لم ييبس لبنهما ، فلم يحفّ عطف أمهما ، وصف القتال فقال :

لقد تنادى الأعداء ، وتجاوبت الأصداء ، أرذت الفرسان فارس الميدان ، ومن يكون ذلك الفارس غير عبد الله ، فهو وحده الذي يستحق هذا اللقب ؟

أقبلت عليه والرماح تنتاشه من كل جانب ، والعوالى تتناوله من جميع أقطاره ، فتقع على جسمه الطاهر وقوع الشوكة يمرها على الثوب الناصج ، فهو لم يغلب عن ضعف ، وإنما غلبته الكثرة الكثيرة .

حينئذ كنت كالناقة يذبح سقبا فتراع وتفرع ، فتبعث فيها الروعة والفرع النظر إلى ذلك البوتشمه وتحسسه ، فأنا أنامله تأمل الأم المنكوبة في وليدها ، فما نزلت إلى الميدان حتى خرقت جسمي رماحهم ، وجعلته طرائق وخطوطا ، وتركت أكبوا في الرماح الطاعنة .

لقد طاعنت عن جثته الفرسان حتى تفرقت جموعها ، وحتى علا النقع رأسى ، فصرت منه جالك اللون ، أسود البشرة ، لقد قاتلت قتلة أخى قتال أخ صادق في أخوته ، فهو يسوى بينه وبين أخيه حتى في طلب البقاء ، ويجب لأخيه الحياة كما يجبها لنفسه ، قاتلت عنه قتال من يعلم أن كل حى إلى فناء ، « وأن المرء غير مخلد » .

النقر :

الأبيات تسيل بصورها العبرات ، فهو يصور تنادى الفرسان في غبطة بقتل أخيه ، وليس أبلغ في إظهار الغبطة من كلمة « تنادوا » ثم إن شعر الرأس ليقف من الهول عند ما يتصور تناوش الرماح لأخيه ، وهى « كوقع الصياصى في النسيج الممدد » ثم أى تصوير أجمع لذهاب العقل من التسوية بينه وبين الناقة ترأى بوها ؟ لقد بلغ دريد بقصيدته آية الوصف الحسى والعاطفى .

٣ — وقال عنترة * يصف كتيبة هزمها :

وكتيبة لبستها بكتيبة شهباء بأسلة يخاف رداها^(١)
 خرساء ظاهرة الأداة كأنها نارٌ يشبُّ وقودها بلظاها^(٢)
 فيها السكاة بنو السكاة كأنهم والخيول تعثر في الوغى بقناها^(٣)
 شهبٌ بأيدي القاسين إذا بدت بأ كفهم بهر الظلام سناها^(٤)
 صبرٌ أعدوا كلَّ أجردٍ ساجٍ ونجيبة ذبلت وجف حشاها^(٥)
 يعدون بالمستلثمين عوابسا قودا تشكى أينها وجاها^(٦)
 يحملن فتيانا مداعس بالقنا وقرا إذا ما الحرب خف لواها^(٧)
 من كلَّ أروع ماجد ذي صولة مرسٍ إذا لحقت خصى بكلاها^(٨)

٨١١ :

* ترجمه الشاعر : أقرأها في ص ١٢٢ .

التفسير اللغوي : (١) الكتيبة : الفرقة من الجيش . لبستها : خلطتها . شهباء : العظيمة الكثرة السلاح . رداها : هلاكها .

(٢) خرساء : لا صوت لها . الأداة : العتاد . يشب : يشعل . بلظاها : بلهبها .

(٣) السكاة : جمع كمي ، وهو الفارس المدجج بالسلاح . الوغى : الحرب . بقناها : برماحها .

(٤) شهب : وصف لموصوف محذوف هو أسته . بهر : كشف . سناها : نورها .

(٥) صبر : صابرون . أجرد : وصف للفرس خف شعره لسمنه . ساج : يعدو بأقدامه

الأربعة ، كما يعمل الساج بيديه ورجليه . نجيبة : ناقة كريمة . ذبلت : ضمرت . حشاها : ما انضمت عليه الضلوع .

(٦) يعدون : يبحرون . المستلثمين : اللابسي الأثمة ، وهي الدرع . عوابس : غضابا .

قودا : جمع أقود الذلول المتقاد . أينها : تعبا . وجاها : حفاها .

(٧) مداعس : جمع مدعس ، وهو الفارس الطعان . وقرا : جمع وقور الساكنون .

خف : اضطرب .

(٨) الأروع الماجد : الذكي الكريم النسب . مرس : ثابت . خصى : جمع خضية بالضم

والكسر . الكلى : جمع كلية وكلوة .

وَصَحَابَةُ شَمِّ الْأَنْوَفِ بَعَثَتْهُمْ
لَيْلًا وَقَدَمَالَ الْكَرَى بِطُلَاهَا^(٩)
وَسَرَيْتُ فِي وَعَثِ الظَّلَامِ أَقْوَدُهَا
حَتَّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ زَالَ ضَحَاهَا^(١٠)
وَلَقِيتُ فِي قُبُلِ الْمَجِيرِ كَتِيبَةً
فَطَعَنْتُ أَوَّلَ فَارِسٍ أُولَاهَا^(١١)
وَضَرَبْتُ قَرْنِي كَبِشَهَا فَتَجَدَّلَا
وَحَلْتُ مُهْرِي وَسَطَهَا فَمَضَاهَا^(١٢)
حَتَّى رَأَيْتُ الْخَيْلَ بَعْدَ سَوَادِهَا
مُحْمَرَّ الْجُلُودِ خُضْبَنٍ مِنْ جَرَّحَاهَا^(١٣)
يَعْتَرُونَ فِي نَقَعِ النَّجِيعِ جَوَافِلًا
وَيَطَّانَ مِنْ مُحَمَّى الْوَغَى صَرْنَاهَا^(١٤)
٨١٨ : فَرَجَعْتُ مُحْمُودًا بِرَأْسِ عَظِيمِهَا
وَتَرَكْتُهَا جُزْرًا لِمَنْ نَاوَاهَا^(١٥)

-
- (٩) شم الأنوف : مرتفعى الأنوف ، وهى كناية عن العلا والرفعة . الكرى : النوم .
الطلى : جمع طلبة وطلاة العنق ، أو أصلها .
- (١٠) وعث الظلام : اختلاط الظلام وشدة . زال : تحرك ، ومصدره زول . ضحاهها :
وقت ارتفاع الشمس .
- (١١) قبل المجير : فى أول اشتداد الحر . أولاهها : أولى طعناتى .
- (١٢) تجدلا : تكسرا . فضاها : قطعها .
- (١٤) نقع النجيع . النقيع : المستنقع والغبار ، والأول هو المراد . النجيع الدم الأسود
المتجمد . محمى الوغى : شدة الحرب . صرعاها . قتلها .
- (١٥) محموداً : مشكوراً ، جزراً : جمع جزور ، وهى الناقة تجزر . ناواها : مخفف
ناوأها عاذاها .

تحليل الأبيات :

رب فرقة كثيفة من الجند دهمتها بفرقة عظيمة العدد ، موفورة العتاد ، يخشى فتكها ، ويخاف رداها ، يسير أفرادها في سكون لامن خوف بل عن غضب ، فعتادها ظاهر ، وسلاحها لامع ، كأنه نار مشبوبة .

في هذه الفرقة فرسان ورثوا الفروسية عن آبائهم ، يشبهون - إذ تتعثر الخيل عند ماتحمى الوغى في الرماح المتساقطة ، والقنا المتهاوية - يشبهون في أيديهم سيوفهم ورماحهم شهباً بأيديهم أقباس من النار ، فيكشفون الظلام ، ويزيجون القتام ، كآلة أجلا ، أعدوا للجلاد الجرد السواح ، والنجب الذوا بل الأخلاف ، الجواف الأحشاء ، الضواصر البطون ، تعدو تلك الخيول عواسب غواصب ذللاً ، تشكو ما يلحقها من نصب ، وما يصيبها من أين وتعب .
فرسان قد استلأوا . إنهن يحملن فتياناً فرساناً يحسنون الطعن ، رزناً عند ما يخف عقل الحليم ، ويضيع رشد الوقور ؛ إذا خف لواء الحرب ، فحمل أثناء الرجوع بالفشل ، من كل ندب ماجد ، وأروع ذكى ، ذى جولة وصوله ، وحول وطول ، ثبت عند الزوال إذ تبلغ الخصى كلى الفرسان .

ورب صحب عزيزى النفوس ، شم الأنوف بعثت بهم ليلاً فى غارة بعد أن لعب الكرى بأعنة الفرسان ، فسريت فى شدة الظلام أقود تلك السرية ، فلم أنفك فى غارتى حتى تحركت أشعة الشمس ، ولقيت فى أول الهجير فرقة ضخمة ، فجعلت أولى طعناتى لأول فرسانها ، وضربت قائدها فخراً مجدلين ، ثم حملت مهرى على قلبها ففرقتها كل مفرق ، ومزقتها شر ممزق ، وما زلت كذلك حتى رأيت الخيول الدم قد صارت كمتا ، كأنما خضبت من دماء فرسانها ، وحتى رأيتها تتعثر فى مجتمعات من الدماء ومستنقعات من النجم ، فتذعر مما ترى ، وتجنفل مما تسير عليه ، فهى لم تر طرقة كتلك التى تتعثر فيها ، فهن إما سائرات فى مستنقعات ، وإما سائرات عند احتدام الحرب فوق رءوس الصرعى ، ثم عدت مظفراً منصوراً ، محموداً أحمل رأس عظيمها ، وتركت الكتيبة كالجزور ينهشها من عاها من الكواسر والجوارح .

النقر .

لعترة في شعره شخصية ، فإنك مستطيع أن تحكم دون تعثر في حكمك عندما تسمع
شعر عنترة أنه لعنترة دون سواه ، فهو يهول من قوة عدوه ليكون الغلب بعدئذ عظيماً قهاراً ،
وهو في هذه الأبيات يسير على نمطه الذي اختاره سمة له ، وقد صور لنا الموقعة تصويراً واقعياً

فكتيبته : شهباء بأسلة يخاف رداها

خرساء ظاهرة الأداة كأنها نار يشب وقودها بلظاها

والخيل :

يعدون بالمستلئمين عوابسا • قودا تشكى أينها ووجاها

ويصور الحرب أدق تصوير فيقول :

ولقيت في قبل الهجير كتيبة فطعنت أول فارس أولاها

وضربت قرني كبشها فتجدلا وحملت مهرى وسطها فضاها

حتى رأيت الخيل بعدسوادها حمر الجلود خضبن من جرحاها

أما الأسلوب فهو أسلوب عنترة القوي الواضح لولا غموض يعتور البيت الثاني من البيتين :

فيها الكماة بنو الكماة كأنهم والخيل تعثر في الوغى بقناها

شهب بأيدي القاسين إذا بدت بأ كفهم بهر الظلام سناها

فوجه الشبه لا يستقيم إذا كان المشبه الكماة والمشبه به الشهب ، وإنما يستقيم إذا كان المشبه
السلاح على أن الأبيات فيها قوة الكتيبة الشهباء .



٤ — وقال سلامة بن جندل * يصف نجدة قومه في حربهم من قصيدة أولها :

أودى الشبابُ حميداً ذو التعاجيب أودى وذلك شأؤ غير مطلوب^(١)

كنا إذا ما أتنا صارخ فرع^(٢) كان الصراخ له قرع الظنائب^(٣)

وشد كور على وجناء ناجية^(٤) وشد مرج على جرداء مر حوب^(٥)

والعاديات أسابي الدماء بها^(٦) كأن أعناقها أنصاب ترجيب^(٧)

من كل حث إذا ما ابتل ملبده^(٨) صافي الأديم ، أسيل الخد ، يعبوب^(٩)

ليس بأسفى ، ولا أقتى ، ولا سفل^(١٠) يعطى دواء قفى السكن مر بوب^(١١)

٨٢٥ : تظاهر التى فيه فهو محتفل^(١٢) يعطى أساهى من جرى وتقريب^(١٣)

* ترجمه الشاعر : هو سلامة بن جندل بن عمرو بن عبيد بن الحارث ، من شعراء تميم

الفحول ومن فرسانهم الأبطال ، ومن وصف الخيل البارعين ، وهذه القصيدة — فيما يقول الرواة — أجود شعره ، توفي حوالى سنة ٥٢٠ م

التفسير اللغوى : (١) أودى : ذهب . التعاجيب : الأعاجيب ، وهو جمع لا واحد له . الشأو : الغاية والسبق .

(٢) صارخ مستنجد . فرع : خائف . الصراخ : الإغاةة .

الظنائب : جمع ظنوب حرف عظم الساق ، والجملة كناية عن الاستعداد .

(٣) الكور : رحل الناقة بأداته . الوجناء : الناقة الغليظة الوجنتين . الناجية : السريعة .

الجرعاء : الفرس القصيرة الشعر . المرحوب : الفرس الطويلة . (٤) العاديات :

الخيال السريعات . الأسابي : الطرائق ، مفردا إسباءة . أنصاب : جمع نصب حجارة كانت

تنصب حول الكعبة . ترجيب . تعظيم . (٥) الحث : السريع . ملبده : موضع اللبد .

صافي الأديم : صافي الجلد . أسيل الخد : ناعم الخد . يعبوب : كثير الجرى .

(٦) الأسفى : الخفيف شعر الناصية . الأقتى : الذى فى أنفه احديداب . السفلى :

المضطرب الأعضاء . الدواء : يقصد اللبن . قفى السكن : الضيف الكريم عند السكن ،

وهم الساكنون . الثربوب . الذى يغذى فى البيوت ، ولا يترك يرود الطعام عند غير أهله .

(٧) تظاهر التى : تراكم الشحم بعضه على بعض . المحتفل : الكثير المجتمع . الأساهى :

الضروب والفنون لا واحد له . التقريب نوع من السير دون الجرى .

- يَرْقِي الدَّسِيعُ إِلَى هَادٍ لَهُ بِتَّعٍ فِي جَوْجُو كَمَا ذَاكَ الطَّيْبِ مَحْضُوبٍ (٩)
 فِي كُلِّ قَائِمَةٍ مِنْهُ إِذَا انْدَفَعَتْ شَوْبُوبُ شِدِّ كَفَرِغِ الدَّلُو أَثْعُوبُ (١٠)
 كَأَنَّهُ يَرْفُئُ نَامَ عَنْ غَنَمٍ مُسْتَنْفَرٌ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مَذْعُوبٍ (١١)
 يُحَاضِرُ الْجُونَ مُحْضَرًا جَعَا فِلْهَا وَيَسْبِقُ الْأَلْفَ عَفْوًا غَيْرَ مَضْرُوبٍ (١٢)
 مِمَّا يُقَدِّمُ فِي الْهَيْجَا إِذَا كُرِهَتْ عِنْدَ الطَّعَانِ وَيُنْجِي كُلَّ مَكْرُوبٍ (١٣)
 هَمَّتْ مَعْدٌ بَنَاءً هَمًّا فَفَنَّهُنَّهَا عَنَّا طِعَانٌ وَضَرْبٌ غَيْرُ تَذْرِيبٍ (١٤)
 بِالْمُشْرِفِ وَمَصْقُولٍ أَسْنَتْهَا صَمُّ الْعَوَامِلِ صَدَقَاتِ الْأَنْيَابِ (١٥)
 ٨٣٣ : سَوَى الثَّقَافِ قَنَاهَا فَهِيَ مُحْكَمَةٌ قَلِيلَةُ الزَّرِيعِ مِنْ سَنَى وَتَرْكِيْبٍ (١٦)

- (٩) الدسيع : مغرز العنق في الكاهل . الهادي : العنق أو مقدمه . البتع : الطويل .
 الجوجو : الصدر . المداك : الصلابة محضوب : مخرج بدماء العدو .
 (١٠) الأساوى : دفعات الجرى . فرغ الدلو : مخرج الماء منها . أثعوب : سائل منشعب .
 (١١) اليرفئ : راعى الغنم . مستنفر : مستثار . مذهب : هجم عليه ذئب .
 (١٢) يحاضرها : يطاولها الحضر ، وهو شدة الجرى . الجون : بالضم جمع جون بالفتح
 يقال للأبيض والأسود ، يريد بها الجر الوحشية . الحجاقل : جمع جحفة ، وهى للخيول والحمير
 بمنزلة الشفة بالانسان . عفوا : هادئا .
 (١٣) الهيجاء : الحرب . إذا كرهت : إذا خيفت . مكروب : نازل به وشدة .
 (١٤) همت : عزمت . ففنهها : فزجرها . تذيب : تحديد . وفى رواية غير تذيب
 وهى مبالغة من الذب .
 (١٥) المشرفى : السيف المنسوب إلى مشارف الشام . مصقول : محدد . العوامل :
 جمع عاملة أعلى الرماح ، كعوالم . صدقات : صلبات . الأنابيب : ما بين عقد الرماح .
 (١٦) سوى : عدل . الثقاف : مثقف الرماح ، وهى خشبة فيها ثقب تقوم بها الرماح .
 الزريع : الاعوجاج . تركيب : يعنى تركيب النصال .

- زُرْقًا أَسِنَّتَهَا ، حُمْرًا مُثَقَّةً أَطْرَافُهُنَّ مَقِيلٌ لِلْيَعَاسِبِ (١٧)
 تَجْمَعْنَ لَوْ أَسِنَّتَهَا فِتْيَانُ عَادِيَةٍ لَأَمْقَرَفِينَ وَلَيَسُوا بِالْجَعَايِبِ (١٨)
 ٨٣٦: كَأَنَّهَا بِأَكْفِ الْقَوْمِ إِذْ لَحِقُوا مَوَاتِحُ الْبُئْرِ أَوْ أَشْطَانُ مَطْلُوبِ (١٩)



-
- (١٧) زُرْقًا أَسِنَّتَهَا: لشدة صفائها . حُمْرًا: اشتداد الصفاء يبعث حمرة . مَقِيلٌ: مكان قضاء القيولة . الْيَعَاسِبِ: جمع يعسوب ملوك النحل .
 (١٨) عَادِيَةٍ: حرب . الْمَقْرَفِ: النى يكاد يكون هجيناً ، والهجين من أمه رقيقة .
 الْجَعَايِبِ: القصار الضعاف .
 (١٩) مَوَاتِحُ الْبُئْرِ: الجبال التي ينزح بها الماء من البئر . الْأَشْطَانُ: الجبال الطوال .
 مَطْلُوبٌ: بئر بعيدة القرار بين المدينة والشام .

تحليل الأبيات :

ذهب الشباب محمودة عواقبه ، كثيرة أعاجيبه ، ذهب وتلك غاية ما كنا نطلبها ،
وشأولم نكن نأمله .

يبكاء الشباب والتحسر على أيامه الزاهبات بدأ الشاعر قصيدته ، ثم انتقل إلى الفخر
بالكرم والنجدة والشجاعة ، فقال :

كنا - وما زلنا - إذا استنجد بنا مستنجد ، أو استصرخ يقومنا مستصرخ كان
الاستعداد للدفع عنه جواب استصراخه ، فنشد الأكوار على الوجناوات النجائب ،
والسروج على الجرد السراحيب ، تلك العاديات التي ترى فوق أعناقها طرائق الدم من
طعننا الأعداء ، فكان هذه الأعناق أنصاب نذبح فوقها الهدى لها ، من كل فرس جواد
سريع عند ما يبتل موضع اللبد منه ، صافي الجلد ، ناعم الخلد ، سريع الجرى ، وذلك
لحسن القيام عليه ، ولكرمه وعتقه ، ليس فيه ما يمكن أن يعاب به ، فليس خفيف شعر
الناصية ، وليس محدودب الأنف ، وليس مضطرب الأعضاء ، بل هو كامل الحسن ، بالغ
الجمال ، فنحن لذلك نكرمه غاية الإكرام ، فنسقيه مما نسق منه أكرم الضيوف ، ونغذيه
ما تغذى به أعز الأرباب ، فهو سمين مكتنز ، ضخم محتفل ، له أفانين في العدو والجرى ،
وأساهى في الحضر والتقريب ، يعتلى كاهله عنق يتع طويل ، فوق صدر ناعم أملس ، كأنه
لنعومته وملاسته وكميته مداك الطيب ، في كل قائمة من قوائمه الأربع عند ما يندفع عاديا
دفعات من الجرى ، كأنها في شدة وقعها انصباب الماء من الدلو .

كان ذلك الفرس راعي غنم نام عنها ، فعتت فيها الذئب ، فنهض من سباته فزعا
مضطربا يحاول بأسرع عدوه ، وأشد جريه إنقاذها من مخالب مفترسها ، وهو يبارى الجمر
الوحشية حضرها ، وقد اخضرت شفاهها ؛ لما هي فيه من رعى كثير ، ويسبق الألف من
الخليل دون أن يضرب بسوط ، أو يركل بقدم .

ذلك الفرس من الجياد التي تختار لاقتحام الهيجاء إذا خيف اقتحامها ؛ لاشتداد
الضرب والطعن فيها ، فينجى فارسه بكره وفره ، فيسبق مطلوبا ويدرك طالبا .

همت معداً بناهما ، وقصدت حر بنا قصدا ، فكفها عن الهم بنا ما تعرفه عنا من طعن

مسدد ، وذب عن حرماننا قوى شديد بالسيوف المشرفية ، وبالرماح المصقولة الأسنة ، الصم
العوامل ، الصلبة الأنابيب ، قد سوى الثقاف قناتها ، فهي محكمة ، عديمة الاعوجاج ،
شديدة التحديد ، صافية الحديد ، فأسنتها زرق يخالطها حمرة لشدة صفائها ، مقومة أتم
تقويم ، فأسنتها تقيل فيها رءوس قواد الجيش ويعاسيب الجند .

تصقل أسننها وتجلو أطرافها فتيان حرب ، كلهم نسيب كريم ، ليس فيهم هجين
ولا ضعيف ، كأن هذه الرماح بأ كف المحاربين إذ لحقوا أعداءهم الفارين حبال يمتح بها
ماء البئر ، أو أشطان بئر بعيدة الغور ، فهي لا بد مدركة رؤوس أولئك الفارين .

النقر .

الأصل في هذه الأبيات أنها للفخر ، ولكن الشاعر وصف فيها الاستعداد للقتال
وصفا بارعا في قوله :

وشد كور على وجناء ناجية وشد سرج على جرداء مرحوب
ثم ساريصف الخيل في حضرها وتقريبها ، وأجزاء جسمها ، وما تقدمه لفارسها من
جهد محمود في قتاله فأجاد الوصف ، ثم وصف الرماح فوفى في وصفه إياها ، وإن يكن كرر
بعض المعاني ، ولعل هذا التكرير مما يلائم الفخر الذي هو الأصل في قصيدته ، وذلك
من مثل قوله :

سوى الثقاف قناها ، فهي محكمة قليلة الزيف من سن وتركيب
زرقا أسننها حمرا مثقفة أطرافهن مقيل لليعاسيب
تجلو أسننها فتيان عادية لا مقرفين ، وليسوا بالجمعاييب
ويعجبنا ذلك المعنى في قوله : « أطرافهن مقيل لليعاسيب » فهو قد صور لنا الرءوس
تقيل في أطراف الرماح ، وهو معنى لم يسبق إليه فيما نعلم .

٥ - وقال بشر بن أبي خازم* يصف نجدة قومه من قصيدة أولها :

عَفْتُ من سُلَيْمَى رَامَةً فَكَيْثِيهَا وَشَطَّتْ بِهَا عَنْكَ النَّوَى وَشُعُوبُهَا (١)
وَكُنَّا إِذَا قُلْنَا : هَوَازُنُ : أَقْبَلَى إِلَى الرُّشْدِ لَمْ يَأْتِ السَّدَادُ خَطِيئُهَا (٢)
عَظَفْنَا لَهُم عَظْفَ الضَّرُوسِ مِنَ الْمَلَا بِشَهْبَاءَ لَا يَمْشِي الضَّرَاءُ رَقِيبُهَا (٣)
فَلَمَّا رَأَوْنَا بِالنَّسَارِ كَأَنَّنَا نَشَاصُ الثَّرِيَا هَيْجَتُهَا جَنُوبُهَا (٤)
فَكَانُوا كَذَاتِ الْقَدْرِ لَمْ تَدْرِ إِذْ غَلَتْ أَتَنَزَّلُهَا مَذْمُومَةً أَمْ تَذِيبُهَا ؟ (٥)
قَطَعْنَاهُمْ ، فَبِالْيَمَامَةِ فِرْقَةٌ وَأُخْرَى بِأَوَاطِسٍ تَهْرُ كَلِيمُهَا (٦)
نَقَلْنَاهُمْ نَقْلَ الْكَلَابِ جِرَاءَهَا عَلَى كُلِّ مَعْلُوبٍ يَثُورُ عَكُوبُهَا (٧)
٨٤٤ : لَحُونَاهُمْ لَحَوَ الْعِصَى ، فَأَصْبَحُوا عَلَى آلَةٍ يَشْكُو الْهَوَانُ حَرِيبُهَا (٨)

* ترجمته الشاعر : اقرأ ترجمته في ص ١١٦ .

التفسير النفوس : (١) عفت : درست . رامة : بلد . الكيثيب : الرمل . شطت :
نأت وبعدت . النوى : نية السفر . شعوبها : جمع شعب يقصد أهلها .
(٢) هوازن : قبيلة وهى منادى . الرشد : الحلم والسداد . السداد : الإصابة .
(٣) عطفنا لهم : ملنا عليهم . الضروس : صفة لموصوف محذوف هو الحرب ، وإنما
توصف بالضروس لأنها تضرس المقاتلين كما تعض الناقة السيئة الخلق حالها . الملا : الصحراء .
الشهباء : الكتيبة علاها الحديد فلع . الضراء : ما يورى الإنسان من الشجر . الرقيب : الناظر .
(٤) النسار : اسم مكان . نشاص الثريا : ما ارتفع من السحاب بنوئها ، وفيه كناية عن
الكثرة . جنوبها : ريح شديدة تهب من الجنوب . (٥) ذات القدر : صاحبة القدر
فيها السمن . مذمومة : أى من الضيف . تذيبها : تذيب سمنها .
(٦) قطعناهم : مزقناهم في حربنا إياهم . اليمامة وأوطاس : موضعان كانا ميدان قتال .
تهر : تصيح من خوف . كليها : كلاها (٧) نقلناهم : حملناهم على الانتقال من
بلدهم . الجراء : جمع جرو . معلوب : وصف لموصوف محذوف أى طريق معلوب ، وهو
المهد . عكوبها : غبارها ، والهاء تعود على الطريق ، وهو يذكر ويؤنث .
(٨) لحوناهم : أخذنا جميع عتادهم ، وهو من لحا الشجرة إذا قشر عودها . الآلة :
الحال . الهوان : الدل . حريبها : الحريب المسلوب المال .

لَدُنْ غُدُوَةٍ حَتَّى أَتَى اللَّيْلُ دُونَهُمْ وَأَدْرَكَ جَرَى الْمُبْقِيَاتِ لُغُوبُهَا^(٩)
 جَعَلْنَ قَشِيرًا غَايَةً يُهْتَدَى بِهَا كَمَا مَدَّ أَشْطَانُ الدَّلَاءِ قَلَمِيهَا^(١٠)
 إِذَا مَا لَحِقْنَا مِنْهُمْ بِكَتْمِيَّةٍ تُذَكِّرُ مِنْهَا ذَحْلَهَا وَذُنُوبُهَا^(١١)
 بَنِي عَامِرٍ : إِنَّا تَرَكْنَا نِسَاءَ كُمُ مِنَ الشَّلِّ وَالْإِيحَافِ تَدْمِي عَجُوبُهَا^(١٢)
 غَضَارِيطُنَا مُسْتَبِطِنُو الْبَيْضِ كَالدَّمِي مُضَرَّجَةٌ بِالزُّعْفَرَانِ جِيُوبُهَا^(١٣)
 تَبَيَّتْ النِّسَاءُ الْمُرْضِعَاتُ بَرَهْوَةَ تَفْرَعُ مِنْ خَوْفِ الْجَنَانِ قَلُوبُهَا^(١٤)
 ٨٥١: دَعُوا مُنْبِتَ السِّيفَيْنِ إِنَّهُمَا لَنَا إِذَا مُضَرُّ الْحَمَاءِ شُبَّتْ حُرُوبُهَا^(١٥)

- (٩) لدن : عند ، وهو ظرف يصلح للزمان والمكان ، وهو المكان أقرب وأخص .
 الغدوة : أول الصباح . المبقيات : الخيل تدخر بعض جريها . اللغوب : الإعياء .
 (١٠) قشيرا : يعنى قبيلة بنى قشير ، والقصود أن خيل بنى أسد جعلت همها بنى قشير .
 الأشطان : الحبال الطويلة . القلب : البئر . الدلاء : جمع دلو .
 (١١) الكتمية : الفرقة من الجيش . الذحل : الثأر .
 (١٢) بنى عامر : مآدى حذف حرف ندائه . الشل : الطرد . الإيحاف : السير الشديد تدمي : يسيل دمها . العجوب : جمع عجب بسكون الجيم ، وهو نهاية العصص .
 (١٣) غضاريطنا : خدمنا وأتباعنا مفردة غضريط . مستبطنون : داخلون فى بطونهم كناية عن أنهم فى أحضانهم . الدمى : جمع دمية التماثيل من الرخام أو الشمع أو غيرها .
 مضرجة : مخضبة . الزعفران : نبت أصفر طيب الرائحة .
 (١٤) برهوة : بأرض منخفضة أو مرتفعة . الجنان : القلب .
 (١٥) دعوا : اتركوا . السيفين : الشاطئين . مضر الحماء : لقبتم بالحماء لقبة من جلد أحمر وهبها نزار لمعر .

تحليل الأبيات :

درست لفراق سليمى بلدتها وإن تكن مازال عامرة ، وأوحشت كثنائها التى كانت
تُسجِر فيها ، وإن كانت ماتنفعك آنسة ، وبعدت بمحبوبتك عنك نية سفرها مع قبيلها .
بهذا المعنى الحزين بدأ الشاعر قصيدته ، ثم سار فيها متفجعا من الفراق ، موجعا من
النوى ؛ حتى انتقل إلى وصف ناقته ، ومنها نخر بنجدة قومه فقال :

٨٥٢ : أجبنا بنى سعد بن ضبة إذ دعوا والله مولى دعو — وة لا يجيبها
وكنا إذا قلنا : هوازن أقبل إلى الرشد لم يأت السداد خطيبها

ثم أخذ يصف عاقبة هوازن بعد أن حاد عن السداد خطيبها ، ومال عن الجادة حاديها ،
فقال : إننا ملنا عليهم ميل الحرب الشديدة تقبل عليهم من الصحارى بكتيبة كثيفة العدد ،
كثيرة العدد ، لا ينجبى رقيبها فى الأشجار ، ولكنه يبدو للعيان والأنظار ، فلما رأته هوازن
فى النصار كأننا السحاب الركام كثرة وهولا هيجهته الجنوب صاروا فى حيرة واضطراب ،
فمثلهم كمثلى المرأة تسلاً سمنًا ، وقد نزل بها ضيف ، فهى فى حيرة أتم سلاهُ ، فيسأم الضيف
ويظن بها البخل ، أم تنزله ولما ينضج فيذم طعامها ؟ فهى فى الحالين مذمومة ، وذلك حال
هوازن إن حاربوا هزموا ودموا ، وإن أعرضوا لحقهم العار .

مرزقناهم فرقا ، وقطعناهم قطعا ، وفرقة باليمامة ، وأخرى بأوطاس تهر كلابها هرير الخوف ،
وتنبج نباح الفرع ، وحملناهم على أن ينقلوا فى الأحياء كما تنقل الكلاب جراءها خشية
الاعتداء ، فذهبوا فى طرق مطروقة يشور الغبار فى وجوههم ، سلبناهم أموالهم كما يسلب العود
لحاءه ، فأصبحوا فى حال تشكو ذلها وهوانها شكوى الضعيف السليب .

حاربناهم من الغدوة إلى العشى ، فلم نترك فيهم رمقا ، ولم يدخروا فى الدفاع عن أنفسهم
جهداً ، فمثلهم كمثلى الفرس تبقى بعض جريها ، ثم تضطر فلا تدخر شيئا ، حتى يدركها الأثين
ويعصيبها السكلال .

جعلنا نحن - بنى أسد - بنى قشير غايتنا التي نبغيها ، وهدايتنا التي نهتدى بها ، فلم نحد عن حربهم يمنة ولا يسرة ، كما تمد حبال الدلاء نحو القلب ، فتي أدركنا منهم فرقة تذكرنا ما بيننا من ذحول وذنوب ، فاشتد القتال ، واحتدم الضراب .

بنى عامر : اذكروا لنا شجاعتنا ، فقد تركنا نساءكم تدمى عجبوهم ؛ إذ حملن على غير وطاء ، وأسرع بهن في السير حتى لا يقعن في الإسار ، واذكروا إذ تركتم بعض نسائكم ، فاستبطنها خدمن ، وهن في جملهن كالدمى المطيبة بالزعفران ، أما المرضعات منهن فانهن يستعصمن بالنجاد أو يستترن في الوهاد ، وهن في فزع تطير له القلوب .

فدعوا لنا شاطئ البحر فانهما ملكنا إذا مضى الحراء شبت حروبها .

النقد :

قال بشر هذه القصيدة يشيد بانتصار قومه بنى أسد وحلفائهم على بنى عامر ، فغضبت تميم لقتل بنى عامر ، فتنجموا وقاتلوا طيئنا وحلفاءها ، فهزمت تميم ، فقال بشر قصيدة أخرى منها :

٨٥٣ : غضبت تميم أن تقتل عامر يوم النصار فأعقبوا بالصـ

والقطعة قوية المعاني ، زاخرة بالصور ، ولا نأخذ عليه إلا إسرافه في دعاواه ، وطرحه الخلق العربي الكريم في معاملة السباء من الحرائر ، فما زعمه لا يقره الخلق العربي النبيل . ويعجبنا منه تشبيه تنقل أعدائه هروبا من قومه بنقل الكلاب جراءها ، كما يعجبنا ذلك التشبيه الذي جعلهم فيه مذمومين على أى حال .

فكانوا كذات القدر لم تدر إذ غلت أتزلها مذمومة أم تذيبها ؟

(>) وصف سوءات الحرب

١ — وقال زهير بن أبي سلمى * يصف سوءات الحرب من معلقته :

- وما الحربُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ وما هوَ عنها بالحديثِ المرْجَمُ (١)
مَتَى تَبْعُثُوهَا تَبْعُثُوهَا ذَمِيمَةً وتَضُرُّ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضُرُّمُ (٢)
فَتَعْرُكُكُمْ عَرَكُ الرَّحَى بِثِفَالِهَا وَتَلْقَحُ كِشَافَاتِمُ تَحْمِلُ فَتَنْتِجُ (٣)
فَتَنْتِجُ لَكُمْ غِلْمَانًا ، أَشْأَمَ كُلُّهُمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ، ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَنْفِطِمُ (٤)
٨٥٨ : فَتَغْلِلُ لَكُمْ مَا لَا تَغِلُّ لِأَهْلِهَا قُرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدِرْهَمِ (٥)

* ترجمته الشاعر : أقرأها في ص ٨٨ .

التفسير اللغوي : (١) يخاطب الشاعر بآياته هذه حي عبس وذبيان ، ويذكرهم بالأحداث الجسام التي نزلت بهم أثناء حروبهم . المرجم : المظنون من الرجم بمعنى الرمي بالرجام وهي الحجارة ، فالمعنى مجازي ، قال الزمخشري : رجمه قذفه وشتمه ، ورجم بالظن ، ورجم به رمى به . (٢) تضرى : تعود وتدرّب . فتضرم : فتشتعل .

(٣) تعرككم : تدلككم كناية عن الطعن . بثفالها : الثفال خرقه أو جلدة تبسط تحت الرحي ليسقط عليها الطحين ، والباء في بثفالها بمعنى مع . تلقح : تحمل . كشافا : متتابعاً . تنتج : تلد . فتنتج : فتجىء بتوأمين . (٤) الشؤم : ضد الجن ، ورجل مشؤوم ، ورجال مشائيم كرجل ميمون ورجال ميامين والأشأم أفعل تفضيل من الشؤم ، وجمعه الأشأم وأراد بأحمر عاد أحمر ثمود ، وهو عاقر الناقة ، واسمه قدار ، وقد تجوز ، إذ ثمود يقال لها عاد الأخيرة ، والدليل قوله تعالى : « وأنه أهلكت عادا الأولى » يعني قوم هود .

(٥) تغلل : تخرج الأرض الغلة . القفيز : مكيال . درهم : ميزان ، وخص العراق لشهرتها بالغلات .

تحليل الأبيات :

صور الشاعر ويلات الحرب ونكباتها في صور متعددة متجددة ، كل صورة منها كفيلة بدفع الناس عن ركوبها ، وحملهم على الابتعاد عن امتطاء أسبابها ، فقال :
ليست الحرب أيها المتحاربون شيئاً تجهلونهُ فأعزّ فكم به ، فقد خبرتموها وخبرتمكم ،
وذقتم ويلها ، وأذاقتم صابها ، وليس حديثي عنها بالحديث الذي يظن فيه الرمي بالغيب ،
أو الرجم بالظن ، وإنما هو حديث الحق المشاهد .

إنكم إن تثيروها تثيروها دمية ذميمة ، كريمة قبيحة ، فهي كالوحش المدرب على الفتك ، المغرى على النهش والقتل ، أو هي كالنار المشتعلة لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ،
أو هي كالرحى لا تفتأ تطحن كل ما يقع بين شقيها ، أو كالناقة الشواء الولود تلد أشأم مولود ،
أو هي أرض ذات غلة مرة المذاق ، لا تعقب الغنى وإنما تعقب الإملاق ، وتثمر رزايا تفوق في كثرتها ما ثمره أرض العراق ، مما يكال أو يوزن ، فبئس هي من عدو للحياة والأحياء .

النفرد :

هذه الأبيات في وصف الحرب من أروع ما قال زهير ، وليس لشاعر جاهلي أو غير جاهلي في وصف سوءاتها ما لزهير ، فقد جاء فيها بصور هي آية الروعة ورمز الإبداع ،
ولعل ذلك لأن زهيراً كان يقول عن إيمان ، ويتحدث عن عقيدة ويقين ، فبلغ ما بلغ من الإجادة والافتنان ، ذلك الذي لا يحتاج إلى الإيماء إليه ، والتدليل عليه ، ففي كل بيت صورة أو صورتان ، متكاملة الظلال والألوان كقوله :

فتعركم عرك الرحي بثقالها وتلقح كشافاً ثم تحمل فتتم

٢ — وقال امرؤ القيس * يصف الحرب وسوء عواقبها .

الحربُ أولُ ما تكونُ فتيةً تبدو بزيتها لكلِّ جهولِ
حتى إذا حميتُ وشبَّ ضرامُها عادتُ عجوزاً غيرَ ذاتِ خليلِ
شمطاءُ جزَّتْ شعرها وتنكرتُ مكروهةً للثمِّ والتَّقييلِ

تحليل الأبيات :

الحرب في أول أمرها شابة فتية، فيها حسن وطلاقة وفتنة ؛ لأنها توحى بالظفر والنصر وطيب الأحذوثة ؛ حتى إذا وقع الناس في لهيبها ، وحى وطيسها ، واشتعل ضرامها ظهرت على حقيقتها عجوزا نكراء لا تبقى على خليل ، ولا تحتفظ بخليل ، وكيف ذاك ؟ وهي تتخذ منهم غذاءها ، فدمأؤهم شرابها ، ولحومهم طعامها ، إنها تبدو شمطاء شوهاء ، قبيحة المنظر ، دمية المرأى ، قد جزت شعرها فزادها ذلك نكرا ، وتنكرت لمن كانت ترعهم أصدقاءها ، فعادت مكروهة للثم والتقييل .

النصر :

مارس امرؤ القيس الحرب أعواما ، فعرفها على حقيقتها ، فهي تغرى وتغوى ؛ تغرى بالنصر ، وتغوى بالظفر والغنيمة ، تبدو في زينة فاتنة ، وصورة ساحرة ، ولكنها ما تلبث أن تظهر على حقيقتها ؛ تنال من الغالب والمغلوب ، وتأخذ من الطالب والمطلوب ، فهي كالدهية العجوز توقع في الشباك بعد أن تنصب الأشرار .

والجميل في هذه الأبيات أن امرأ القيس استمد صورته من المرأة شابة وعجوزا ، والمرأة هي أول من أثار الشرور ، وحل الأوزار ، وما أشبه قول امرئ القيس بقول سيدنا سليمان عليه السلام : الشر حلأوله ، من آخره .

ترجمة الشاعر : انظر ترجمته في ص ١٠٩

التفسير اللغوي : (١) فتية : شابة . (٢) شب ضرامها : اشتعل لهيبها . خليل : صديق . (٣) شمطاء : اختلط بياض شعرها بأسوده . تنكرت : تغيرت .

خاتمة عن خصائص الوصف في العصر الجاهلي

الآن وقد عرضنا الوصف في العصر الجاهلي بجميع صورته عرضا مبسوطا ، سواء من ناحية فنونه ، أم من ناحية أخيلته وأفكاره ، أم من ناحية نظمه وتنسيقه نستطيع أن نحكم عليه بما يأتي :

١ — الوصف هو أقدم فنون الشعر على الإطلاق ، لا نستثنى منها فنا ؛ وذلك لأن العربي شديد الحساسية بالجمال ، قوى الشعور بالحسن ، فهو مدفوع إلى التعبير عن حسه بالوصف ، مضطر إلى تصوير شعوره بالشعر ، وليس من اللازم اللابز أن يكون الشعر مستقيما في أوزانه ، فهذا عبيد بن الأبرص ، وهو من أبرز شعراء ذلك العصر يبدو الاضطراب في شعره أحيانا .

٢ — يلتزمون الصدق في أوصافهم ، والحقيقة في أوضح صورهم ، وليس معنى هذا أن الوصف يتجافى مع الخيال ؛ فهو يعتمد على الخيال إلى حد بعيد ، إذ الصدق لا ينافي الخيال ؛ فعنزة حين يقول مثلا :

يَدْعُونَ عَنزَةَ ، وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بُئْرِ فِي لَبَانِ الْأَدْهَمِ
مَازَاتُ أَرْمِيهِمْ بَغْرَةً وَجْهَهُ وَلَبَانُهُ حَتَّى تَسْرُبَلَ بِالْدَمِ
فَازُورٌ مِنْ وَقَعِ الْقَنَا بَلْبَانِهِ وَشَكَا إِلَى بَعْبَرَةٍ وَتَحْمَحُمِ
٨٦٥ : لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا لِحَاوَرَةُ اشْتَكَى وَلَكِنْ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ مُكَلَّمِي

صادق كل الصدق في تصويره ، فإن الرماح تبدو مصوبة مستطيلة ؛ كأنها في استطالتها أشطان البئر ، والدم قد يتطاير فيغطي وجه الجواد ، فكأنه متخذ منه سربالا ، والفرس الجواد يشارك فارسه في حربه ، فليس بدعا أن يقول أرميهم بغرة وجهه ، وقد يتغير الفرس مما يلاقى ، ويشعر فارسه بازوراره وتغيره ، وقد يشكو بالحممة والعبرة فيثير في نفس فارسه الأسى والأسف لشكواه ، ولو استطاع الحاور والمجادلة لاشتكى وحاور وجادل .

كل هذا صدق خالص ، وهو مع ذلك خيال سامق .
إنهم صادقون في وصفهم ؛ لأن وصفهم لا تكلف فيه ، وإنما هو صادر عن عاطفة
وشعور ، وهذان هما مبعث الصدق ، يرى امرؤ القيس البرق يومض ويهتز بين الجبال
والوديان ، فيشبهه بحركة اليدين في سحب مستدير كأنه الإكليل ، أو هو في وميضه
ولعانه كمصاييح الراهب السخى على معبده ، فهو يهين سليله ويضاعف زيقه ، ويرفع
ذباله المقتل ، والبيتان هما :

أَصَاحَ : تَرَى بَرَقَ أَرِيكَ وَمِیْضُهُ كَلْعِ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلٍ
يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ أَهَانَ السَّلِيطَ بِالذُّبَالِ الْمُقْتَلِ

٣ — جميع شعراء هذا العصر لهم في الوصف الفكرة الواضحة ، والمعنى القوى الناصع ،
ولا يمنع ذلك أنهم يتفاضلون في وضوح فكرهم ، ويتميزون في قوة معانيهم ، ونصاعة
أخيلتهم ، إذ كيف لا نحكم بفضل عبيد بن الأبرص على الأعشى مثلاً ، وقد جاء في بيت
واحد بمعنى فصله الأعشى في بيتين ، فقال عبيد يصف المرأة بحرارة جسمها شتاء ،
وخصره صيفا :

تُدْفِي الصَّبْجِيعَ إِذَا يَشْتَمُو وَتَخْصِرُهُ فِي الصَّيْفِ حِينَ يَطِيبُ الْبَرْدُ لِلصَّاحِي
وقال الأعشى ، وقد يكون آخذاً المعنى من عبيد :

وتبردُ بردَ رداءِ العرو سِ رَقَرَقَتْ بِالصَّيْفِ فِيهِ الْعَبِيرَا
٨٧٠ : وتسخنُ ليلَةً لَا يَسْتَطِيعُ نُبَاحًا بِهَا الْكَلْبُ إِلَّا هَرِيرَا

وقد مر بنا بعض الصور الغامضة التي عاجلناها على نحو قد لا تحتمله ألفاظ البيت
كقول عنتره :

فِيهَا الْكِمَاةُ بَنُو الْكِمَاةِ كَأَنَّهُمْ وَالْخَيْلُ تَعَثُرُ فِي الْوَعَى بِقَنَاها
شَهْبٌ بِأَيْدِي الْقَابِسِينَ إِذَا بَدَتْ بِأَكْفَهُمْ بَهْرَ الظَّلَامِ سَنَاهَا

ولكن الغامض من صورهم قليل لا يعتد به .

٤ — على الرغم من أن صورهم بسيطة غير مركبة ، فإنها رائعة الحسن رائعة الجمال ، فإن التركيب قد يكون صادرا عن تكلف وتصنع ، وليس شئ يفسد الشعر كهذين ، وقد مر بنا من الصور الجميلة في بساطتها ، الرائعة في سهولة مأخذها ما فيه غنية عن الأمثلة .

٥ — بيئةهم معين وصفهم ، والعين الثرة لصورهم ، منها يستمدون تشبيهاهم ، ويمتحنون استعاراتهم ، وعليها يعتمدون في كناياتهم ، لا فرق في كل ذلك بين السيد الشريف ، والعبد الوضيع ، فكل مظاهر البيئة ملكهم جميعا ، وقد مر بك الكثير من المعاني المتشابهة التي اعتمدوا فيها على البيئة .

٦ — أكثر صورهم حسية ، إن لم نقل إنها جميعها حسية ، أخذوها مما يقع تحت سمعهم وبصرهم من أحداث الطبيعة ، وتقلبات الكون ، وتطورات الأيام ، ومن صور الإنسان والحيوان والجماد والنبات ، وهم شديدا التأمل لما يرون ، بعيدو التدبر لما يسمعون ، وأى تأمل وتدبر أكثر من قول عنتره يصف ذباب الروض ؟

وَحَلَا الذَّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ غَرِدَا كَفَعْلَ الشَّارِبِ الْمُرْتَمِّمِ
هَزِجًا يَحْكُ ذِرَاعُهُ بِذِرَاعِهِ قَدَحَ الْمَكْبَّ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْدَمِ

وأى تأمل وتدبر أكثر من قول امرئ القيس يصف عيون الوحش وهو ينظر إليه حذرا ؛ لأنه يدرك أنه يسعى لصيده ؟

٨٧١ : كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحُلُنَا الْجَزَعُ الَّذِي لَمْ يُثَقَّبْ

٧ — كان الوصف سجلا لكثير من عاداتهم وأخلاقهم وسياستهم ، وقد مر بنا الكثير من الصور الدالة على هذه العناصر الثلاثة ، فليس هناك ما يدعو إلى التكرار أو الإفاضة فيما هو في متناول أيدي الجميع .

٨ — يميلون في الوصف — بالذات — إلى الإطناب ، فقد يبدون ويعيدون ، وقد عللنا ذلك بأن المعنى أطربهم ، فأرادوا إيراده في أكثر من صورة واحدة ، وهم بذلك مخالفون لما كانوا يلتزمونه في غير الوصف من الإيجاز البليغ .

فمن الإطناب قول النابغة يصف سيف آل جفنة :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُمُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ السَّكَنَائِبِ
تُخَيِّرْنَ مِنْ أَرْزَامٍ يَوْمَ حَلِيمَةٍ إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جَرَّ بَيْنَ كُلِّ التَّجَارِبِ
تَقْدُّ السَّلَوقِ الْمَضَاعَفِ نَسْجُهُ وَتَوْقِدُ بِالضَّفَّاحِ نَارَ الْجَبَابِ

٩ — صورهم في وصف الطبيعة المتحركة والساكنة تجمع بين الحركة والسكون ،
والجلبة والهدوء ، وكأني بهم يلائمون بين الصور وأسبابها ، وبين الحقيقة وخيالها ، وقد
مرت بنا صور متنوعة ، ولكن ذلك لا يمنعنا أن نعرض صوراً أخرى فيها حركة
وجلبة ، وسكون وهدوء ، وملاءمة بين الصور ومصورتها ، ومناسبة بين الأوصاف
وموصوفاتها ، ألسنت تحس الصخب والضجيج ، والجلبة والاضطراب في قول الحارث
ابن حلزة الشكري ؟

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءَ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ
مِنْ مُنَادٍ ، وَمِنْ مُجِيبٍ ، وَمِنْ تَصْهَالِ خَيْلٍ خِلَالِ ذَاكَ رُغَاءُ

تسعر بهذا الصخب من المعنى ومن اللفظ ، ومن الأسلوب ، وهذه أبيات لعمر بن كلثوم
تحس فيها الصلابة والقوة لأن الموقف يقتضيهما :

بَأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرُوا بَنَ هِنْدٍ تَطِيعُ بَنَى الْوُشَاةِ وَتَزْدَرِينَا ؟
بَأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرُوا بَنَ هِنْدٍ نَسْكُونُ لِقَمَيْنِكُمْ فِيهَا قَطِينَا ؟
تَهْدِدُنَا وَتَوَعِدُنَا . رُؤَيْدًا !! مَتَى كُنَّا لِأَمِّكَ مُقْتَوِينَا ؟
فَإِنَّ قَنَاثَنَا يَا عَمْرُو أَعْيَتْ عَلَى الْأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا
إِذَا عَصَّ الثَّقَافُ بِهَا أَشْمَازَتْ وَوَلَّتْهُ عَشَوَزَةٌ زَبُونَا
٨٨٢ : عَشَوَزَةٌ إِذَا انْقَلَبَتْ أَرَنْتَ تَشْجُ قَمَا الْمُثَقِّفِ وَالْجَمِينَا

أليس خيالك سيصور لك ذلك الموقف وقد وقف عمرو متنكباً قوسه ، متقلداً أسيفه ،
مربد الوجه ، مختلج النفس ، يتخير الألفاظ تحييراً ، ويقذف بها عمرو بن هند كأنها قطع الصخر ؟
إن خيالك لابد سابع بك فريك هذا المنظر .

وانظر إلى الأعشى يصف كرم آل الحلق ، فمتخير أوسع الألفاظ معاني ، وأضخمها حروفاً ، فيقول :

نَفَى الذَّمَّ عَنْ آلِ الْمُحَلَّقِ جَفَنَةً كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَهَقُّ
يَرْوَحُ فُتًى صِدْقٍ وَيَعْدُو عَلَيْهِمْ بِمَلٍّ جِفَانٍ مِنْ سَدِيفٍ يُدْفِقُ
تَرَى الْقَوْمَ فِيهَا شَارِعِينَ وَدُونَهُمْ مِنَ الْقَوْمِ وَلِدَانٌ مِنَ النَّسْلِ دَرْدَقُ

فإذا ذكر الخمر رق وعذب ، وأسمعنا لفظاً كأنه مقببس من رقتها ، وعرض علينا صوراً توحى بمجلس أنس لجماعة من فتیان هذا العصر ، كقوله :

نَارَعْتُهُمْ قُصْبَ الرِّيحَانِ مُشَكِّكًا وَقَهْوَةً مَزَّةً رَاوَوْقَهَا خِضْلُ
لَا يَسْتَفِيقُونَ مِنْهَا وَهِيَ دَائِرَةٌ الْإِبْهَاتِ ، وَإِنْ عَلَّوْا وَإِنْ نَهَلُوا

وهذا عنتره الرجل الغليظ القلب ؛ يسيل رقة عند ما يناجى عبلة فيقول :

أَعْبَلَةٌ قَدْ زَادَ شَوْقِي وَمَا أَرَى الدَّهْرَ يَذْنِي إِلَى الْأَحَبَّةِ
وَكَمْ جَهْدٍ نَائِبَةٍ قَدْ لَقِيتُ لِأَجْلِكَ يَا بِنْتَ عَمِّي وَنَكْبَةٍ
٨٩٠ : فَلَوْ أَنَّ عَيْنَكَ يَوْمَ اللَّقَاءِ تَرَى مَوْفِي زِدْتِ لِي فِي الْمَحَبَّةِ

١٠ — لم يكونوا في أوصافهم للطبيعة الساكنة يطيلون ، وقد عللنا ذلك قبل ، وإذا كان منهم من أطال فإن إطالتهم في موضوعات خاصة كوصف الخمر ومجالسها في شعر الأعشى وأضرابه ، ووصف الحرب وأسلحتها في وصف الشعراء الفرسان ، ونحن إذا ضمنا هذه الخصائص إلى ماسقناه عن الطبيعة المتحركة والساكنة بدت لنا خصائص الوصف كاملة تامة . وبعد فأرجو أن أكون قد بلغت الغاية التي رُميت إليها من عرض صورة واضحة للوصف في العصر الجاهلي تتيح للدارس الحكم السليم على منزلة الشعر العربي وبخاصة الوصف بين آداب الأمم عامة .

وأرجو أن يهب لي الله القوة لإظهار بقية أجزاء هذا الكتاب لتمام بإظهارها حلقة لامعة

في سلسلة الأدب العربي .

وعلى الله قصد السبيل .

فهرس تراجم الشعراء حسب الحروف الأبجدية

الرقم	الاسم	الرقم	الاسم
١٩٨	ترجمة أبي ذؤيب الهذلي .	٣٢٦	ترجمة دريد بن الصمة .
٢٦٠	» أعشى قيس .	٣٠٥	» راشد بن شهاب البشكري .
٢٨٦	» الأسود بن يعفر .	٨٨	» زهير بن أبي سلمى .
٢٤١	» الحارث بن حلزة .	٣٣٢	» سلامة بن جندل .
٢٠٥	» الشنفرى .	١٢٨	» سلامة بن الحرشب .
٨٢	» المثقب العبدى .	١٥٩	» سويد بن أبي كاهل .
١٣٦	» المرقش الأصغر .	٣٢٤	» ضمرة بن ضمرة .
٢٠٩	» المرقش الأكبر .	٦١	» طرفة بن العبد .
٩٤	» المسيب بن علس .	١٨٩	» عبيد بن الأبرص .
١٥٤	» النابغة الذبياني .	٢٨٨	» عدى بن زيد .
١٠٩	» امرئ القيس .	٢١٤	» عروة بن الورد العبسى .
٢٩٢	» أوس بن حجر .	٩٨	» علقمة بن عبدة الفحل .
٧٤	» بشامة بن الغدير .	٢٦٩	» عمرو بن قيثة .
٢١٦	» بشر بن أبي خازم .	٢٨٢	» عمرو بن كلثوم .
٢٠٢	» تأبط شرا .	٢٤٣	» عميرة بن جعل .
٢٤٥	» ثعلبة بن عمرو العبدى .	١٢٢	» عنترة بن شداد العبسى .
٢٤٧	» حاتم الطائي .	١٣٣	» عوف بن عطية .
٢٦٤	» حنظلة الطائي .	١٤٦	» ليبد بن ربيعة .
		٢٥٢	» مهلهل بن ربيعة .

فهرس القوافي

صدر البيت	قافيته	بحره	صفحة	صدر البيت	قافيته	بحره	صفحة
ء :				الحاء :			
أجمعوا	ضوضاء	الخفيف	٣٤٧	أعبله	الأحبه	المقارب	٣٤٨
الألف :				دان	بالراح	البسيط	٤٩
ومهما	كالفتي	الطويل	٢٦٤	أمن	وتروحو	الطويل	١٣٦
الباء :				إني	لواح	البسيط	٢٦٢
وقفت	صالب	الطويل	٣	وما	وتقدمح	الطويل	٣١٥
فن	لاتجاوب	»	٣٨	تدف	للساحي	البسيط	٣٤٥
إذا	مراكبه	»	٣٩	الدال :			
وأركب	الرضا	البسيط	٤٠	ألا	وجد	الطويل	٦
وإني	مشربا	الطويل	٥٢	»	سعيد	»	١٨
أرب	الثعالب	»	٥٢	سرنا	الرشد	البسيط	٣٩
فان	طيب	»	٥٨	يشق	باليد	الطويل	٥٧
وكل	والإيا	الوافر	١٥١	لخولة	اليدي	»	٦١
كانها	الذيب	البسيط	١٨٤	هل	غد	السريع	٨٢
كانها	القلوب	مخلع البسيط	١٨٩	غشيت	معبد	الطويل	٨٨
كافيني	الكواكب	الطويل	٢٥٦	يادار	الأمدي	البسيط	٢٣٥، ١٥٤
أودى	مطلوب	البسيط	٣٣٢	أترجو	أسودا	الطويل	٢١١
عفت	وشعوبها	الطويل	٣٣٧	بانت	المواعيدا	البسيط	٢٢٢
ولا عيب	الكتائب	»	٣٤٧	فما	بالزبد	»	٢٧١
التاء :				كان	دد	الطويل	٢٧٣
وفيت	وفيت	الوافر	٣١٥	وأبيض	لأنفادها	المقارب	٢٧٨

صدر البيت	قافية	بحره	صفحة	صدر البيت	قافية	بحره	صفحة
ولقد	غواذى	الكامل	٢٨٦	الزأى :			
ومشعلة	عاند	الطويل	٣٢٤	تخيرها	وحزائز	الطويل	٣٠١
دعاني	بمقعد	»	٣٢٦	السين :			
				لعمرك	فقمس	الطويل	٥٢
الراء :				كأنى	موجس	»	١٦٤
لها	دبوراً	المتقارب	٦	ولما	يابس	»	٢٠٩
تمتع	عرار	الوافر	»	لمن	الفرس	السريع	٢٤١
عوى	أطير	الطويل	٨	ودوية	ناعس	الطويل	٢٦٧
ولقد	مطير	مجزوء الكامل	٩	وأعرض	تغامس	»	٣١٤
ماأرانا	مكروراً	الخفيف	٣٢	الضاد :			
أصاح	استعاراً	الوافر	٣٣	أرقت	أرض	الطويل	٣٧
إن	شعاراً	الكامل	٤٩	العين :			
رأين	النواضر	الطويل	٥٦	قفا	أن يودعا	»	٦
بدلته	الأشر	الرملي	٥٧	رأيت	ومصنوع	مجزوء الوافر	٢٠
ألا	مستعار	الوافر	١١٦	تمنح	ارتفع	الرملي	٤٦
أمن	قفاراً	المتقارب	١٣٣	وكلفتني	راتع	الطويل	٥٧
تبغاني	مصدراً	الطويل	٢١٤	أرحلت	بوادع	الكامل	٩٤
صل	خفر	الرجز	٢١٦	بسطت	اتسع	الرملي	١٥٩
أليتنا	فلاتحورى	الوافر	٢٥٢	فوردن	لايتلغ	الكامل	١٩٨
ديمة	وتدز	الرملي	٢٥٨	فبت	ناقع	الطويل	٢١٠
ليس	الصنبر	الخفيف	٢٦٩	وما	ومصرعا	»	٢١٧
فبت	العقار	الوافر	٣١٢	يالهف	تنخم	الكامل	٢١٨
وتبرد	العبيرا	المتقارب	٣٤٥				

صدر البيت	قافيته	بحره	صفحته	صدر البيت	قافيته	بحره	صفحته
لمن	فالشرع	الكامل	٢٣٩	هجرت	ثقيلا	المتقارب	٧٤
وفلاة	القرع	الرمل	٢٦٦	وقد	هيمكل	الطويل	١٠٩
فأيت	طلع	»	٣١٢	عجبت	كالمنصل	الكامل	١٢٢
وإذا	بالجمعاج	الكامل	٣١٣	صحا	وروا حله	الطويل	١٧٧
لعمري	هزيع	الطويل	٣١٣	أقيموا	لأميل	»	٢٠٥
الفاء :				قفا	فخومل	»	٢٢٧ ، ٣١١
تشتو	بالطائف	مجزوء الكامل	٢	وليل	لييتلى	»	٢٥٤
منعنا	ثقيف	الوافر	»	بل	شعل	البسيط	٢٦٠
لمن	فواحف	الطويل	٢٤٥	و بلدة	زجل	»	٢٦٥
وشوها	تقاذف	»	٣٠٧	ما	هطل	»	٢٧٧
ومسيب	يزيف	الكامل	٣١٣	صحا	موكلا	الطويل	٢٩٢
القاف :				وحشوا	فحولا	المتقارب	٣٠٩
بكر	تستقيق	الخفيف	٢٨٨	وقد	تجليل	البسيط	٣١٦
نفي	تفهق	الطويل	٣٤٨	فأصبحت	صقيلا	المتقارب	٣٠٩
الكاف :				الحرب	جهول	الكامل	٣٤٣
كأنها	الشبك	البسيط	١٩٤	أصاح	مكلل	الطويل	٣٤٥
اللام :				الميم :			
مهفهفة	كالسجنل	الطويل	٩	أنى	الأعمام	الكامل	١٨
غذوتك	وتنهل	»	٣٨	خلقنا	والماتم	الطويل	١٩
فقلت	المعلل	»	٤٤	لسان	والدم	»	٢٢
هصرت	الخالل	»	٤٥	أبصرت	السقم	الرجز	٢٧
وواد	المعلل	»	»	عوجا	خذا م	الكامل	٣٢
أكلت	الويل	الوافر	٥٨	هل	توهم	»	٣٣

صدر البيت	قافيته	بحره	صفحته	صدر البيت	قافيته	بحره	صفحته
أمن	فالمتثل	الطويل	٢٢٩، ٥٧	تبصر	جرثم	الطويل	٣٢٢
هل	مصروم	البسيط	١٦٩، ٩٨	وما الحرب	المرجم	»	٣٤١
تأوبه	الغريم	الوافر	١٢٨	يدعون	الأدم	الكامل	٣٤٤
أفتلك	قوائها	الكامل	١٤٦	النون :			
لو كان	الأعصم	السريع	٢١٨				
عفت	فرجامها	الكامل	٢٣١	ليسق	رياحينا	البسيط	٦
هل	الخيم	السريع	٢٣٧	سقياً	لينا	»	»
أتعرف	منمنا	الطويل	٢٤٧	ونركب	تؤاسينا	»	٤٠
أو	بمعلم	الكامل	٢٧٥	ظهن	للعيون	الوافر	٥٨
قد	خرطوم	البسيط	٢٨٤	وإذا	جباناً	الخفيف	١٥٢
فهلأ	ندم	الطويل	٣٠٥	ألا	بطان	الوافر	٢٠٢
في كفه	لحم	المنسرح	٣٠٩	ألا	ثمان	الطويل	٢٤٣
وليلة	الهموم	مجزوء البسيط	٣١٢	ألا	الأندرينا	الوافر	٢٨٢
وبالكف	نثما	المتقارب	٣١٠	أفاطم	تبني	»	٣١٨
وقد	مسموم	البسيط	٣١٢	الهاء :			
وخرق	السهام	الوافر	٣١٤	وكتيبة	رداها	الكامل	٣٢٨
بنيت	رغم	الطويل	٣١٤	الياء :			
				إذا	العصى	الوافر	٢١٧

فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الرقم	الموضوع
١	المقدمة .	٣٠	الشعر الجوراني واليني .
		٣٣	الشعر العربي المفقود .
		٣٥	الشعر الغنائي . انبعائه .
		٣٦	تقسيم الشعر الغنائي .
١	أقسامها التاريخية .		الفصل الرابع
٥	جو بلاد العرب وأثره في شعرهم .		الوصف : X
٧	تقسيم القبائل العربية على بلاد العرب .	٤٢	الوصف وتقسيمه .
٨	أثر البيئة في الشعر العربي .	٤٨	أثر البيئة العربية في أهلها .
		٥٢	أثر البيئة في الوصف .
		٥٤	الطبيعة في الشعر العربي .
		٥٦	نهجنا في التأليف .
		٥٧	قيمة الوصف في العصر الجاهلي .
			الفصل الخامس
		٥٩	الطبيعة المتحركة :
			(١) وصف الناقة :
		٦١	لطرفة . التحليل والنقد .
		٧٤	لبشامة بن الغدير . التحليل والنقد .
		٨٢	للمثقب العبدى . التحليل والنقد .
		٨٨	لزهير بن أبي سلمى . التحليل والنقد .
		٩٤	للمسيب بن علس . التحليل والنقد .
		٩٨	لعلقمة بن عبدة الفحل . التحليل والنقد .
		١٠٢	ه نظرة فاحصة عن المعاني في وصف الناقة .
			الفصل الأول
			بلاد العرب :
			أقسامها التاريخية .
			جو بلاد العرب وأثره في شعرهم .
			تقسيم القبائل العربية على بلاد العرب .
			أثر البيئة في الشعر العربي .
			الفصل الثانى
			مقائى أدبية :
١٠	شاعرية الأمم واختلاف مداها .		
١٣	الشعر بذرة النثر الجاهلى .		
١٥	سبق الشعر للنثر .		
١٦	حال النثر الأولى .		
»	فضل الشعر على النثر .		
١٧	فضل القرآن على الشعر .		
١٩	موازنة بين شعر ونثر .		
			الفصل الثالث
			تقسيم الشعر :
٢٣	أقسام الشعر الإفرنجى .		
٢٤	الشعر الغنائى وأقسامه .		
٢٦	لماذا لم يكن للعرب شعر قصصى ؟		
٢٩	الشعر القصصى والتشبيلى .		

(تابع) فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الرقم	الموضوع
	(ب) وصف الفرس :	١٨٩	لعبيد بن الأبرص يصف العقاب تصيد ثعلبا . التحليل والنقد .
١٠٩	لامرئ القيس . التحليل والنقد .	١٩٤	لزهير بن أبي سلمى يصف صقرا يطارد قطاة . التحليل والنقد .
١١٦	لبشر بن أبي خازم . التحليل والنقد .	١٩٨	لأبي ذؤيب الهذلي يصف صيد الحمر الوحشية . التحليل والنقد .
١٢٢	لعنتره العبسي . التحليل والنقد .	٢٠٢	لتأبط شرا يصف الغول وقد تقاتلا . التحليل والنقد .
١٢٨	لسامة بن الحرشب . التحليل والنقد .	٢٠٥	لشنفرى يصف الذئب . التحليل والنقد .
١٣٣	لعوف بن عطية . التحليل والنقد .	٢٠٩	لمرقش الأكبر يصف ذئبا أطمعه . التحليل والنقد .
١٣٦	لمرقش الأصغر . التحليل والنقد .	٢١٠	للنابغة يصف الحية . التحليل والنقد .
١٤٠	نظرة فاحصة عن المعاني في وصف الفرس .	٢١١	لعنتره يصف الثعبان . التحليل والنقد .
	(ج) وصف الأوابد :	٢١٤	لعروة بن الورد العبسي يصف الأسد . التحليل والنقد .
١٤٦	لليبد بن ربيعة في وصف البقرة الوحشية . التحليل والنقد .	٢١٦	للنابغة يصف الحية أيضا . التحليل والنقد .
١٥٤	للنابغة الذبياني في وصف الثور الوحشي . التحليل والنقد .	٢١٧	نظرة في شعر الطبيعة الحية عند العرب .
١٥٩	لسويد بن أبي كاهل يصف الثور الوحشي . التحليل والنقد .		الفصل السادس
١٦٤	لامرئ القيس يصف الحمار الوحشي . التحليل والنقد .	٢٢٤	الطبيعة الساكنة :
١٦٩	لعقمة بن عبدة الفحل يصف الظليم . التحليل والنقد .	٢٢٧	صور الطبيعة الساكنة .
١٧٤	نظرة فاحصة عن المعاني في وصف الأوابد . التحليل والنقد .		(١) وصف الأطلال .
	(د) صور متنوعة لمظاهر الطبيعة الحية .	٢٢٧	لامرئ القيس . التحليل والنقد .
١٧٧	لزهير بن أبي سلمى يصف معركة مع الحمر الوحشية . التحليل والنقد .	٢٢٩	لزهير بن أبي سلمى . التحليل والنقد .
١٨٤	لامرئ القيس يصف حربا بين عقاب وذئب . التحليل والنقد .	٢٣١	لليبد بن ربيعة العامري . التحليل والنقد .
		٢٣٥	للنابغة الذبياني . التحليل والنقد .
		٢٣٧	لمرقش الأكبر . التحليل والنقد .

(تابع) فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الرقم	الموضوع
٢٣٩	لبشامة بن الغدير . التحليل والنقد .	٢٨٤	لعلقمة الفحل . التحليل والنقد .
٢٤١	للحارث بن حنزة . التحليل والنقد .	٢٨٦	للأسود بن يعفر . التحليل والنقد .
٢٤٣	لعميرة بن جمل . التحليل والنقد .	٢٨٨	لعدي بن زيد . التحليل والنقد .
٢٤٥	لثعلبة بن عمرو والعبدى . التحليل والنقد .	٢٩٠	نظرة في وصف الحمر ومجالسها .
٢٤٧	لحاتم الطائي . التحليل والنقد .		(>) وصف الأسلحة :
٢٤٩	للمعاني المشتركة وغير المشتركة في وصف الأطلال	٢٩٢	لأوس بن حجر . التحليل والنقد .
	(ب) وصف الليل :	٣٠١	للشماخ بن ضرار : التحليل والنقد .
٢٥٢	لمهلل بن ربيعة . التحليل والنقد .	٣٠٥	لراشد اليشكري . التحليل والنقد .
٢٥٤	لامرئ القيس . التحليل والنقد .	٣٠٧	لثعلبة العبدى : التحليل والنقد .
٢٥٦	لنابغة الذبياني . التحليل والنقد .	٣٠٩	نظرة فاحصة عن معاني الشعراء في السلاح .
	(>) وصف السحاب والبرق والغيث :		نظرة شاملة في معاني الشعراء في وصف
٢٥٨	لامرئ القيس . التحليل والنقد .	٣١١	الطبيعة الساكنة .
٢٦٠	للأعشى . التحليل والنقد .		الفصل السابع
٢٦٢	لعبيد بن الأبرص . التحليل والنقد .		صور لمظاهر مؤتلفة من الطبعيتين :
٢٦٤	لحظلة الطائي في وصف القمر . التحليل والنقد .		المتحركة والساكنة .
	(د) وصف الصحراء والبرد والحر :		(١) وصف الظعائن .
٢٦٥	للأعشى . التحليل والنقد .	٣١٨	لثقب العبدى : التحليل والنقد .
٢٦٦	لسويد . التحليل والنقد .	٣٢٢	لزهير بن أبي سلمى . التحليل والنقد .
٢٦٧	لمرقس الأكبر . التحليل والنقد .		(ب) وصف الفرسان وعتادهم عند الحرب
٢٦٩	لعمر بن قتيبة . التحليل والنقد .	٣٢٤	لضمرة بن ضمرة . التحليل والنقد .
٢٧١	لنابغة الذبياني . التحليل والنقد .	٣٢٦	لدريد بن الصمة . التحليل والنقد .
	(١) وصف الآثار الإنسانية :	٣٢٨	لعنترة . التحليل والنقد .
٢٧٣	لطرقة في وصف السفينة . التحليل والنقد .	٣٣٢	لسلامة بن جندل . التحليل والنقد .
٢٧٥	لعنترة العبسي . وصف روضة التحليل والنقد .	٣٣٧	لبشر بن أبي خازم . التحليل والنقد .
٢٧٧	للأعشى . وصف روضة . التحليل والنقد .		(>) وصف سوءات الحرب .
	(ب) وصف الحمر وسقاتها :	٣٤١	لزهير بن أبي سلمى .
٢٧٨	للأعشى . التحليل والنقد .	٣٤٣	لامرئ القيس . التحليل والنقد .
٢٨٢	لعمر بن كلثوم . التحليل والنقد .	٣٤٤	خاتمة عن خصائص الوصف في العصر الجاهلي .

ندت أخطاء هيئة على القارى أن يتفضل بتصحيحها قبل القراءة

صفحة سطر	الخطأ	الاجواب	صفحة سطر	الخطأ	الصواب
٥ ١٢	أ كبر	أكثر	٢٠٨ ١	ممكننا	ممكن
٦ ٦	الحصا	الحصاد	٢١٧ ١٨	روائم	روائم
٦ ١٧	عهدم	عهدكم	٢٣١ ٦	إرازامها	إرازامها
٣٨ ١٥	مقامة	مُقامه	٢٤٠ ٢١	الدفع	الدمع
٨٨ ٧	ترده	ترده	٢٤٦ ١٧	ثعلبة ابن عمرو	ثعلبة بن عمرو
١٣١ ١٠	ذو	ذات	٢٤٩ ٢٠	بهم	بها
١٥٩ ٦	الشرع	الشرع	٢٥٨ ٥	برئته	برئته
١٧٠ ٣	حسكل	حسكل	٢٧٥ ٦	يحك	يحك
١٩٦ ٦	النقل	النفل	٢٧٩ ٤	شهادها	شهادها
٢٠٧ ٢٠	وانصرفنا	وانصرفن	٢٩١ ٢٠	فمعاني	فمعنى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ تَمَّ طَبْعُ

الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ

الْوَصْفِ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ

(العصر الجاهلي)

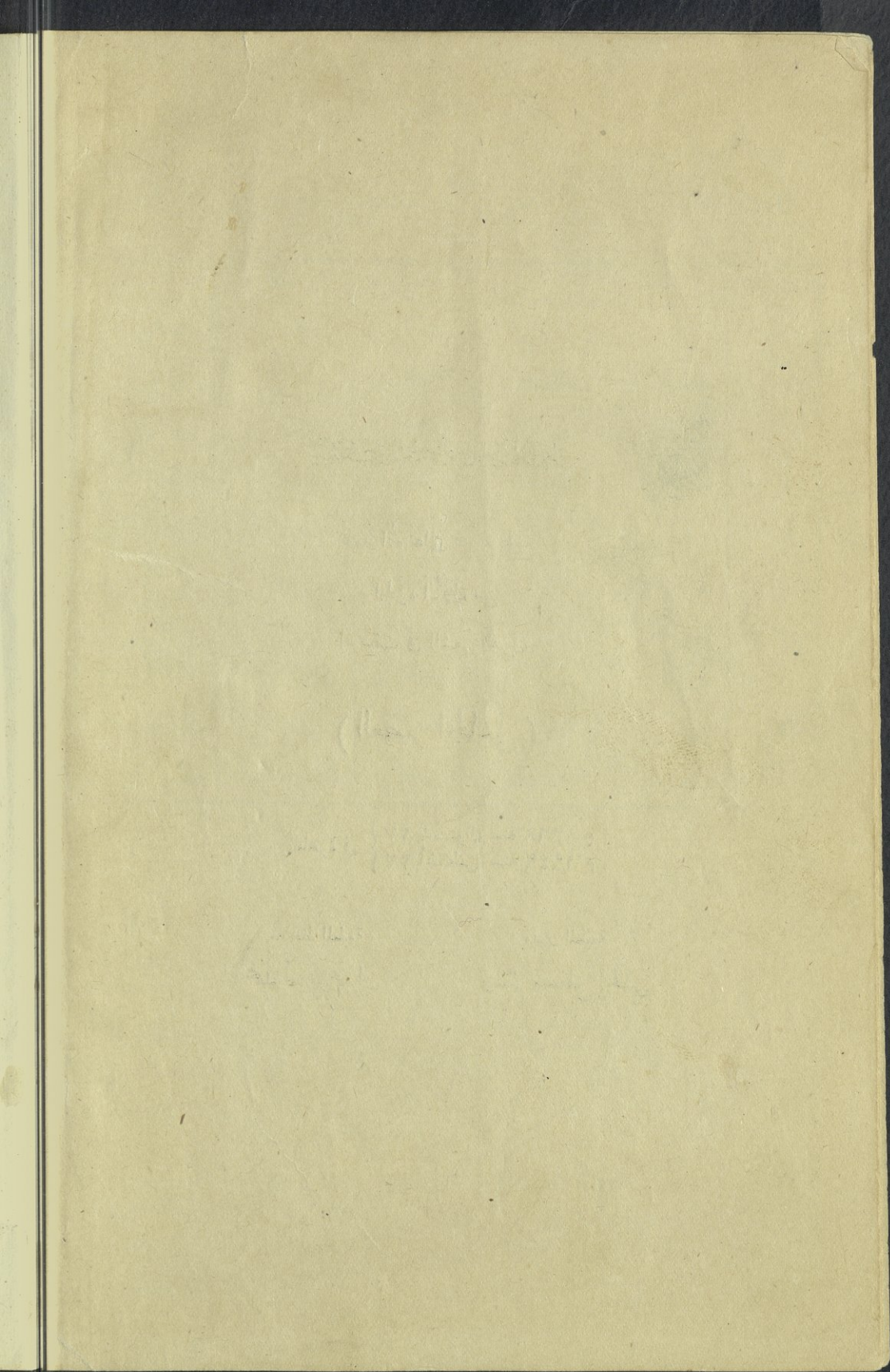
القاهرة في { ٢٧ شوال سنة ١٣٦٨ هـ
٢٢ أغسطس سنة ١٩٤٩ م }

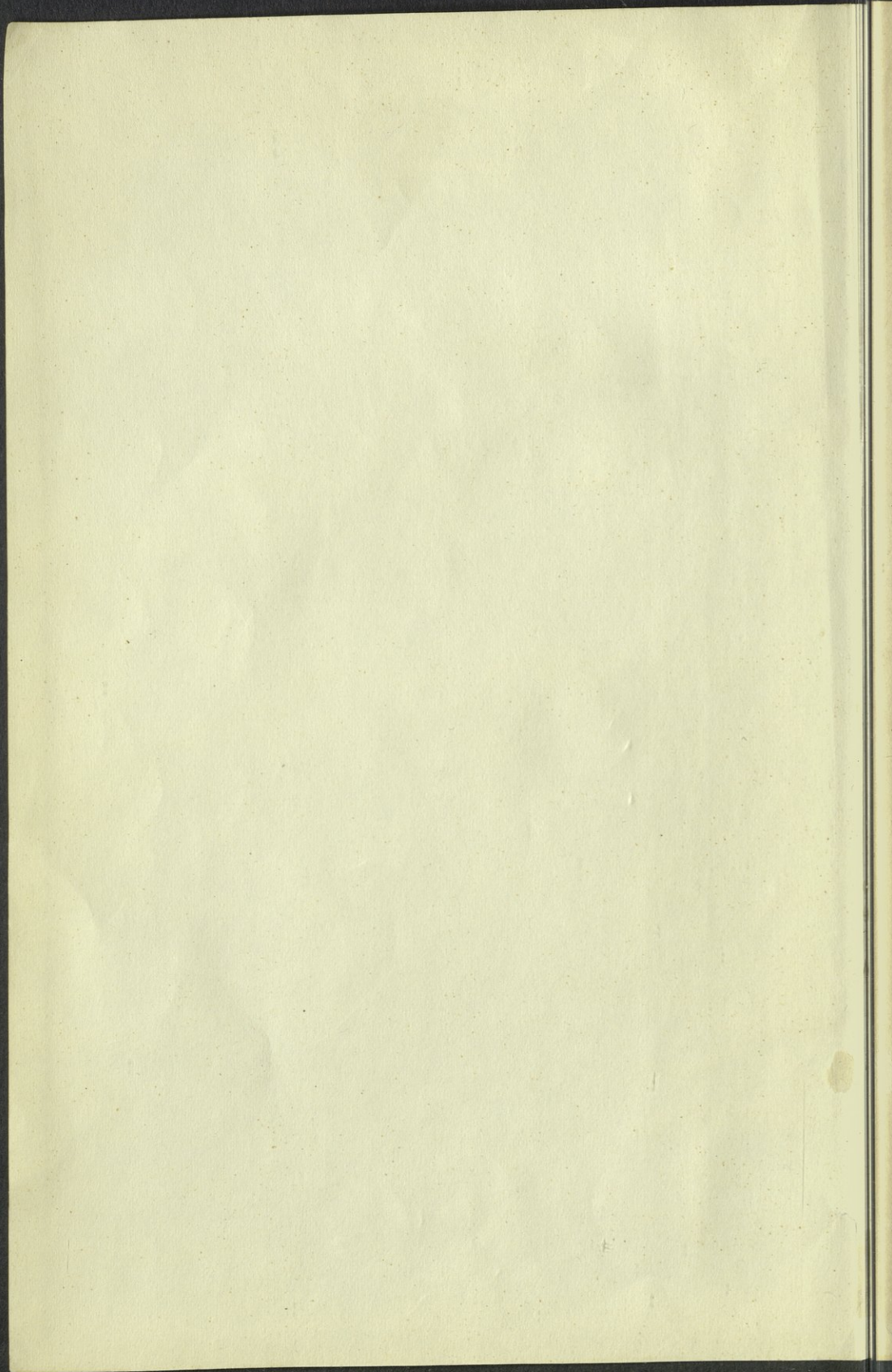
مدير المطبعة

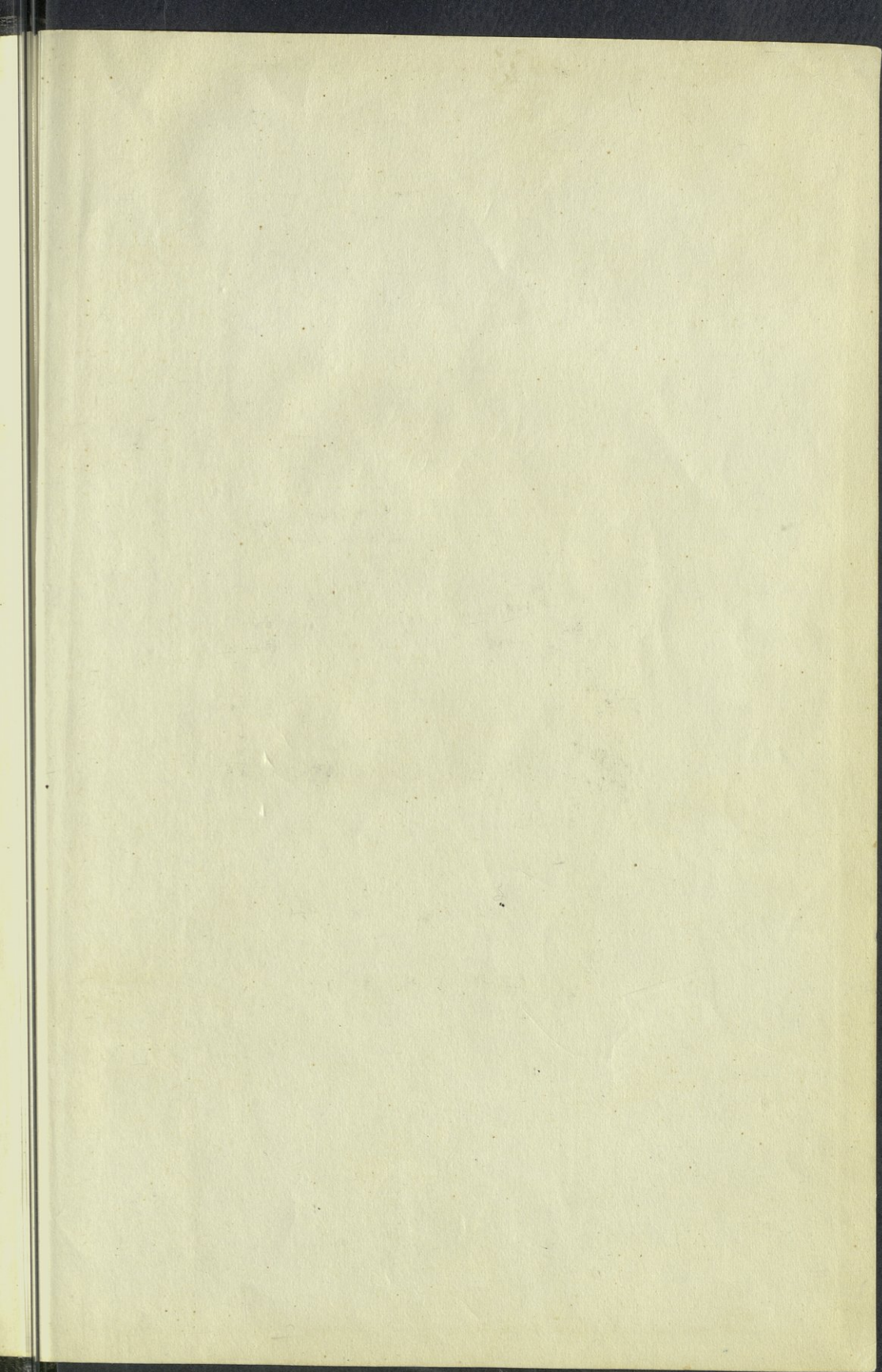
رستم مصطفى الحاي

ملاحظ المطبعة

محمد أمين عمران







808.1:K511wA:v.1:c.1

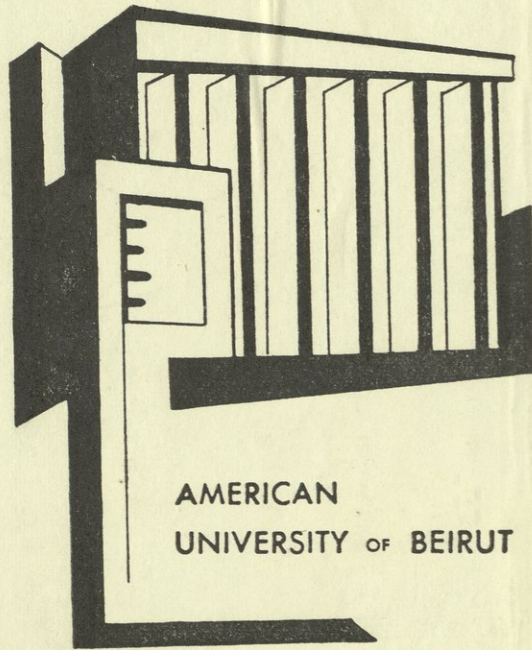
فناوى ، عبد العظيم على

الوصف فى الشعر العربى

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031167



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

